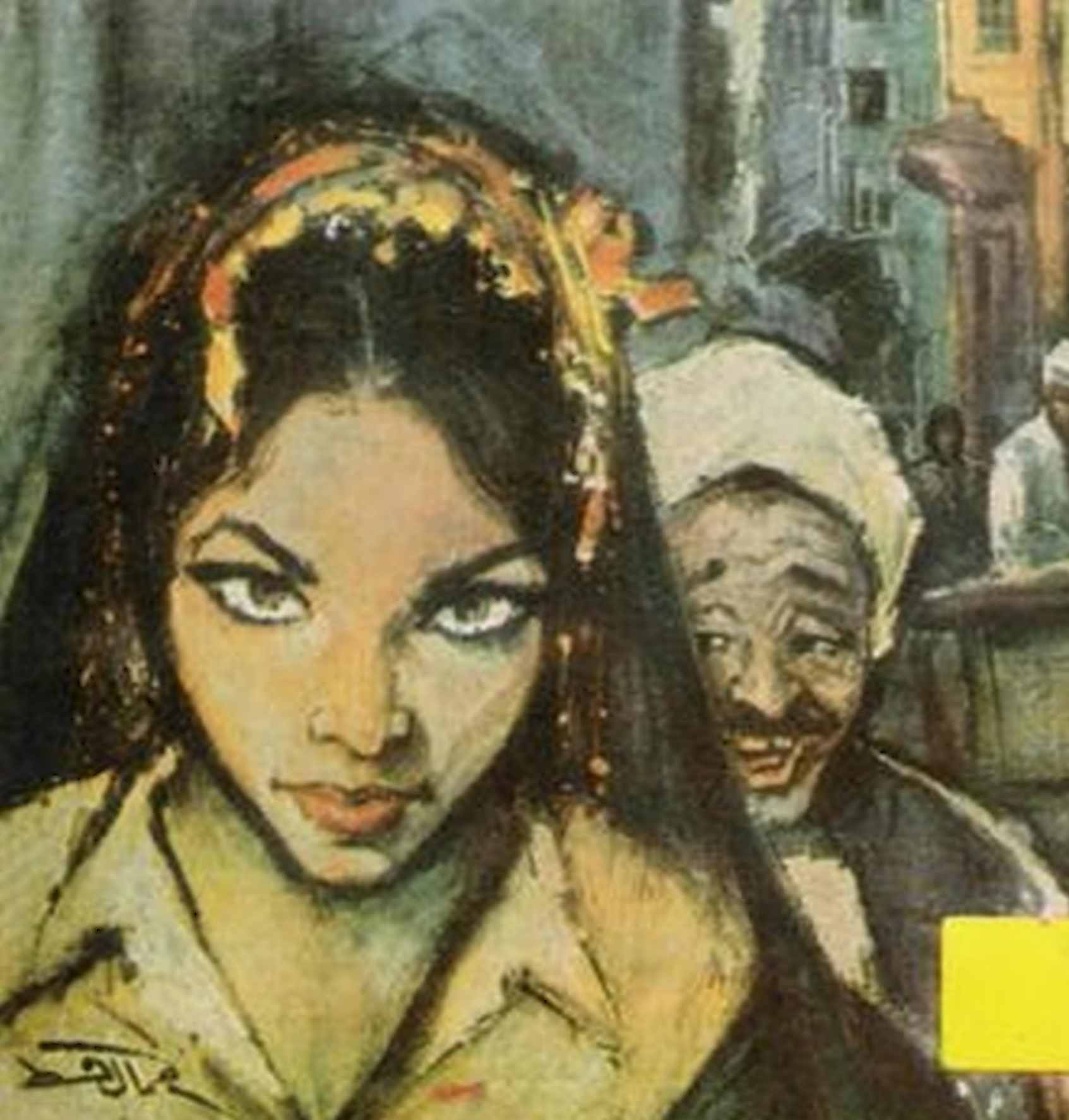


نجیب محفوظ

اولاد حارة



دار الآداب

م. م. م. م.

أولاد هارِتنا

بجيب محفوظ

أولاد حارتنا

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع حقوق الطبع
محفوظة لدار الآداب - بيروت

الطبعة السادسة

١٩٨٦

إفتاحية

هذه حكاية حارتنا ، أو حكايات حارتنا وهو الأصدق . لم أشهد من واقعها إلا طوره الأنجير الذي عاصرته ، ولكنني سجلتها جميعاً كما يرويها الرواة وما أكثرهم . جميع أبناء حارتنا يروون هذه الحكايات ، يرويها كلٌ كما يسمعها في قهوة حيه أو كما نقلت اليه خلال الأجيال ، ولا سند لي فيما كتبت الا هذه المصادر . وما أكثر المناسبات التي تدعو الى ترديد الحكايات . كلما ضاق أحد بحاله ، أو ناء بظلم أو سوء معاملة ، أشار الى البيت الكبير على رأس الحارة من ناصيتها المتصلة بالصحراء وقال في حسرة : « هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبه ، ونحن مستحقو اوقافه ، فلماذا نجوع وكيف نضام ؟ » ، ثم يأخذ في قص القصص والاستشهاد بسير أدهم وجبل ورفاعة وقاسم من أولاد حارتنا الأجداد . وجدنا هذا لغز من الالغاز . عمر فوق ما يطمع انسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره . واعتزل في بيته لكبره منذ عهد بعيد ، فلم يره منذ اعتزاله أحد . وقصة اعتزاله وكبره مما يحير العقول ، ولعل الخيال أو الاغراض قد اشتركت في انشائها . على أي حال كان يدعى الجبلأوي وباسمه سميت حارتنا . وهو صاحب أوقافها وكل قائم فوق أرضها والأحكار المحيطة بها في الخلاء . سمعت مرة رجلاً يتحدث عنه فيقول : « هو أصل حارتنا ، وحارتنا أصل مصر أم الدنيا ، عاش فيها

وحده وهي خلاء خراب ، ثم امتلكها بقوة ساعده ومزنته عند الوالي ،
كان رجلاً لا يجود الزمان بمثله ، وفتوة تهاب الوحوش ذكره ، وسمعت
آخر يقول عنه : « كان فتوة حقاً ، ولكنه لم يكن كالفنات الآخرين ،
فلم يفرض على أحد أتاوة ، ولم يستكبر في الارض ، وكان بالضعفاء
رحيماً » ، ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره
ومكانته ، وهكذا حال الدنيا . وكنت وما زلت أجد الحديث عنه
شائعاً لا يمل . وكم دفعني ذاك الى الطواف ببيته الكبير لعلي افوز بنظرة
منه ولكن دون جدوى . وكم وقفت امام بابه الضخم ارنو الى التمساح
المحنت المركب أعلاه ، وكم جلست في صحراء المقطم غير بعيد من
سوره الكبير فلا ارى الا رءوس اشجار التوت والجميز والنخيل تكتنف
البيت ، ونوافذ مغلقة لا تنم على أي اثر للحياة . أليس من المحزن أن
يكون لنسا جد مثل هذا الجدد دون أن نراه أو يرانا ؟ أليس من
الغريب ان يختفي هو في هذا البيت الكبير المخلق وأن نعيش نحن في
التراب ؟ وإذا تساءلت عما صار به وبنا الى هذا الحال سمعت من
فورك القصص ، وترددت على أذنك اسماء أدهم وجبل ورفاعة وقاسم ،
ولن تغفر بما يبيل الصدر أو يريح العقل . قلت إن أحداً لم يره منذ
اعتزاله . ولم يكن هذا بلدي بال عند أكثر الناس ، فلم يهتموا منذ بادىء
الأمر الا باوقافه وبشروطه العشرة التي كثر القيل والقال عنها ، ومن هنا
ولد النزاع في حارتنا منذ ولدت ، ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال
حتى اليوم ، والغد . ولذلك فليس أدعي الى السخرية المريرة من
الاشارة الى صلة القرى التي تجمع بين أبناء حارتنا . كنا وما زلنا
أسرة واحدة لم يدخلها غريب . وكل فرد في حارتنا يعرف سكانها
جميعاً نساء ورجالاً . ومع ذلك فلم تعرف حارة حدة الخصام كما
عرفناها ، ولا فرّق بين ابنائها النزاع كما فرّق بيننا ، ونظير كل ساع
الى الخبر نجد عشرة فتوات يلوحون بالنبايت ويدعون الى القتال . حتى

اعتاد الناس ان يشتروا السلامة بالاناثرة ، والأمن بالخضوع والمهانة ،
ولاحقته العقوبات الصارمة لأدنى هفوة في القول او في الفعل بل
للخاطرة تخطر فيشفي بها الوجه . وأعجب شيء ان الناس في الحارات
القريبة منا كالعطوف وكفر الزغاري والدراسة والحسنية يحسدوننا على
أوقاف حارتنا ورجالنا الأشداء ، فيقولون حارة منيعة وأوقاف تدر
الحيرات وفتوات لا يغلبون . كل هذا حق ، ولكنهم لا يعلمون اننا بتنا
من الفقر كالمسولين ، نعيش في القاذورات بين الذباب والقمل ، نفنع
بالفتات ، ونسعى باجساد شبه عارية ، وهؤلاء الفتوات يرونهم وهم
يتبخثون فوق صدورنا فيأخذهم الإعجاب ، ولكنهم ينسون أنهم انما
يتبخثون فوق صدورنا ، ولا عزاء لنا الا ان نتطلع إلى البيت الكبير
ونقول في حزن وحسرة ، « هنا يقيم الجبلوي ، صاحب الأوقاف ، هو
الجد ونحن الأحفاد » .

شهدت العهد الأخير من حياة حارتنا ، وعاصرت الأحداث التي
دفع بها الى الوجود « عرفة » ابن حارتنا البار . والى أحد اصحاب
عرفة يرجع الفضل في تسجيل حكايات حارتنا على يدي ، اذ قال لي
يوماً : « انك من القلة التي تعرف الكتابة ، فلماذا لا تكتب حكايات
حارتنا ؟ .. انها تروى بغير نظام ، وتخضع لأهواء الرواة وتخزباتهم ،
ومن المفيد ان تسجل بامانة في وحدة متكاملة ليحسن الانتفاع بها ،
وسوف أمدك بما لا تعلم من الاخبار والأسرار » . ونشطت الى تنفيذ
الفكرة ، اقتناعاً بوجاهتها من ناحية ، وحباً فيمن اقترحها من ناحية
أخرى . وكنت أول من اتخذ من الكتابة حرفة في حارتنا على رغم ما
جره ذلك علي من تحقير وسخرية . وكانت مهمتي ان اكتب العرائض
والشكاوي المظلومين وأصحاب الحاجات . وعلى كثرة المتظلمين الذين

يقصدونني فان عملي لم يستطع ان يرفعني من المستوى العام للمسؤولين
في حارتنا ، الى ما اطلعني عليه من أسرار الناس واحزانهم حتى ضيق
صدري وأشجن قلبي . ولكن مهلاً ، فاني لا اكتب عن نفسي ولا
عن متاعبي ، وما أهون متاعبي إذا قيس بمتاعب حارتنا . حارتنا
العجيبة ذات الأحداث العجيبة . كيف وجدت ؟ وماذا كان من
أمرها ؟ ومن هم أولاد حارتنا ؟

أدم

كان مكان حارتنا خلاء . فهو امتداد لصحراء المقطم الذي يربض في الأفق . ولم يكن بالخلاء من قائم الا البيت الكبير الذي شيده الجبلوي كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطريق . كان سوره الكبير العالي يتحلق مساحة واسعة ، نصفها الغربي حديقة ، والشرقي مسكن مكون من أدوار ثلاثة . ويوماً دعا الواقف ابنائه إلى مجلسه بالبهو التحتاني المتصل بسلامك الحديقة . وجاء الأبناء جميعاً ، ادريس وعباس ورضوان وجليل وأدهم ، في جلابيهم الحريرية ، فوقفوا بين يديه وهم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسة . وأمرهم بالجلوس فجلسوا على المقاعد من حوله ، وراح يتفحصهم هنيهة بعينه الناظرتين كأعين الصقر ، ثم قام متجهاً نحو باب السلامك . ووقف وسط الباب الكبير ينظر إلى الحديقة المترامية التي تزحمها أشجار التوت والجميز والنخيل ، وتعتش في جنباتها الحناء والياسمين ، وتتب فوق غصونها مزققة العصافير . ضجت الحديقة بالحياة والغناء على حين ساد الصمت بالبهو . وخيل إلى الاخوة ان فتوة الخلاء قد نسيهم ، وهو يسدو بطوله وعرضه خلقاً فوق الآدميين كأنما من كوكب هبط . وتبادلوا نظرات متسائلة . ان هذا شأنه إذا قرر أمراً ذا خطر ، وما يقلقهم إلا انه جبار في البيت كما هو جبار في الخلاء وانهم حياله لا شيء . التفت

الرجل نحوهم دون ان يبرح مكانه وقال بصوت خشن عميق تردد بقوة في أنحاء البهو الذي توارت جدرانها العالية وراء ستائر وطفانس :

— أرى من المستحسن أن يقوم غيري بإدارة الوقف ...

ونفحص وجوههم مرة أخرى ، ولكن لم تنم وجوههم على شيء . لم تكن ادارة الوقف مما يغري قوماً استحبوا الفراغ والدعة وعريضة الشباب ، وفضلاً عن هذا فادريس الأخ الأكبر هو المرشح الطبيعي للمنصب ، فلم يبد أحد منهم يتساءل عما هنالك . وقال ادريس لنفسه : « يا له من عبء ، هذه الافكار لا حصر لها ، وهؤلاء المستأجرون المناكيد ! »
اما الجبلاوي فاستطرد قائلاً :

— وقد وقع اختياري على أخيكم أدهم ليدبر الوقف تحت اشرافي .. عكست الوجوه وقع مفاجأة غير متوقعة ، فتبدلت النظرات في سرعة وانفعال ، إلا أدهم فقد غص بصره حياء وارتباكاً ، وولاهم الجبلاوي ظهره وهو يقول في عدم اكتراث :

— لهذا دعوتكم ..

تفجر الغضب في باطن ادريس ، فبدا كالثلج من شدة مقاومته ، ونظر اليه إخوته بخرج ، ودارى كل منهم — عدا أدهم طبعاً — غضبه لكرامته باحتجاجه الصامت على تخطي ادريس ، الذي كان تخطياً مضاعفاً لهم . اما ادريس فقال بصوت هاديء كأنما يخرج من جسم آخر :

— ولكن يا أبي ..

قاطعه الأب ببرود وهو يلتفت نحوهم :

— ولكن !؟

فغضوا الابصار حذراً من ان يقرأ ما في نفوسهم ، الا ادريس فقد قال باصرار :

— ولكنني الأخ الأكبر ..

فقال الجبلاوي مستاء :

أظن انني اعلم ذلك ، فأنا الذي انجبتك .
فقال ادريس وحرارة غضبه آخذة في الارتفاع :
- للأخ الأكبر حقوق لا تهضم الا لسبب ..
فحججه الرجل بنظرة طويلة كأنما يمنحه فرصة طيبة لتدبر أمره وقال :
- أؤكد لكم اني راعيت في اختياري مصلحة الجميع ..
تلقي ادريس اللطمة بصبر ينفد . انه يعلم كم يضيق أبوه بالمعارضة ،
وان عليه ان يتوقع لطات أشد اذا تمادى فيها ، ولكن الغضب لم يدع
له فرصة لتدبر العواقب ، فاندفع خطوات حتى كاد يلاصق أدهم ،
وانتفخ كالديك المزهو ليعلن للأبصار فوارق الحجم واللون والبهاء بينه
وبين أخيه ، وانطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الريق عند العطس
بغير ضابط :
- اني واشقائي ابناء هانم من خيرة النساء . أما هذا فابن جارية
سوداء . .
شحب وجه أدهم الأسمر دون ان تند عنه حركة ، على حين لوح
الجبلاوي بيده قائلاً بنبرات الوعيد :
- تأدب يا ادريس ..
ولكن ادريس كانت تعصف به عواصف الغضب المجنونة فهتف :
- وهو اصغرنا أيضاً ، فدلني على سبب برجحي به الا ان يكون
زماننا زمان الخدم والعبيد ..
- اقطع لسانك رحمة بنفسك يا جاهل ..
- ان قطع رأسي أحب إلي من اخوان ..
ورفع رضوان رأسه نحو أبيه وقال برقة باسمه :
- نحن جميعاً ايناًوك ، ومن حقنا ان نحزن اذا فقدنا رضاءك عنا ،
والأمر لك على أي حال . وغاية مرأنا ان نعرف السبب ..
وعند الجبلاوي عن ادريس أو رضوان : مروضاً غضبه لغاية في

نفسه ، فقال :

— أدهم على دراية بطباع المستأجرين ، ويعرف أكثرهم باسمائهم ،
ثم أنه على علم بالكتابة والحساب ..

وعجب ادريس من قول أبيه كما عجب اخوته . متى كانت معرفة
الأشباب ميزة يفضل من أجلها انسان ؟! . ودخول الكتاب ، أهو ميزة
أخرى ؟! . وهل كانت أم أدهم تدفع به الى الكتاب لولا يأسها من
فلاحه في دنيا الفتوة ؟! . وتساءل ادريس متهكماً :

— أتكفي هذه الأسباب لتبرير ما يراد بي من مذلة ؟
فأشار الجبلأوي نحوه بضجر وقال :

— هذه ارادتي ، وما عليك إلا السمع والطاعة ..
والفتى الرجل التفاتة حادة صوب أشقاء ادريس وهو يسأل :

— ما قولكم ؟
فلم يحتمل عباس نظرة أبيه ، وقال وهو واجم :

— سمعاً وطاعة ..
وسرعان ما قال جليل وهو يغض طرفه :

— أمرك يا أبي ..
وقال رضوان وهو يزدرد ريقه الجاف :

— على العين والراس ..
عند ذاك ضحك ادريس ضحكة غضب تقلصت الى اساربره حتى
قبحت وجهه وهتف :

— يا جناء ، ما توقعت منكم الا الهزيمة المزرية . وبالجن يتحكم
فيكم ابن الجارية السوداء ..

فصاح الجبلأوي مقطباً عن عينين تتطاير منها النذر :

— ادريس !
ولكن الغضب كان قد اقتلع جذور عقله فصاح بصوته ..

ما أهون الأبوة عليك ، خلقت فتوة جباراً فلم تعرف الا ان
مكون فتوة جباراً ، ونحن أبناءك تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين ..
اقرب الجبلاوي خطوتين في بطن كالتوبي ، وقال بصوت منخفض
وقد أُنذرت أسارىره المتقبضة بالشر :

— اقطع لسانك !

ولكن ادريس واصل صياحه قائلاً :

— لن ترعيني ، أنت تعلم أنني لا أرتعب ، وأنت اذا أردت أن
ترفع ابن الجارية عليّ فلن أسمعك لحن السمع والطاعة .

— ألا تدرك عاقبة التحدي يا ملعون ؟

— الملعون حقاً هو ابن الجارية ..

فعلت نبرات الرجل واخشوشنت وهو يقول :

— انها زوجتي يا عرييد ، فتأدّب وإلا سويت بك الأرض ..

وفزع الاخوة وأولهم أدهم لدرايتهم يبطش ابيهم الجبار، ولكن لإدريس
كان قد بلغ من الغضب درجة لم يعد يدرك معها خطراً كأنه مجنون
يهاجم ناراً مندلعة ، فصاح :

— انك تبغضني ، لم أكن أعلم هذا ، ولكنك تبغضني دون ريب ،
لعل الجارية هي التي بغضتنا اليك ، سيد الخلاء وصاحب الاوقاف والفتوة
الرهيب ، ولكن جارية استطاعت أن تعبت بك ، وغداً يتحدث عنك
الناس بكل عجيبة يا سيد الخلاء .

— قلت لك اقطع لسانك يا ملعون .

— لا تستيتي من أجل أدهم ، طوب الأرض يأبى ذلك ويلعنه ،
وقرارك الغريب سيجعلنا أجدوة الاحياء والحواري ..

فصاح الجبلاوي بصوت صك الاستماع في الحديقة والحريم :

— أغرب بعيداً عن وجهي ..

— هذا بيتي ، فيه أمي ، وهي سيدته دون منازع

— لن تُرى فيه بعد اليوم ، والى الأبد ..
واكفهر الوجه الكبير حتى حاكى لونه النيل في احتدام فيضانه ،
ونحرك صاحبه كالبنيان ، مكوراً قبضة من صوان . وأيقن الجميع أن
ادريس قد انتهى . ما هو الا مأساة جديدة من المآسي التي يشهدها
هذا البيت صامتاً . كم من سيده مصونة تحولت بكلمة الى متسولة نعيسة .
وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحاً يحمل على ظهره العاري
آثار سياط حملت اطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه . والرعاية
التي تحوط الجميع عند الرضا لا تشفع لأحد وان عزّ جانبه عند الغضب .
لهذا أيقن الجميع ان ادريس قد انتهى . حتى ادريس بكري الواقف
ومثله في القوة والجمال قد انتهى . وتقدم الجبلأوي خطوتين أخريين
وهو يقول :

— لا أنت ابني ولا أنا ابوك ، ولا هذا البيت بيتك ، ولا أمّ لك
فيه ولا اخ ولا تابع ، امامك الارض الواسعة فاذهب مصحوباً بغضبي
ولعنتي ، وستعلمك الايام حقيقة قدرك وأنت تهيم على وجهك محروماً
من عطفي ورعايتي !.

فضرب ادريس البساط الفارسي بقدمه وصاح :

— هذا بيتي ، ولن أغادره ..

فانقضّ عليه الأب قبل أن يتقيه ، وقبض على منكبه بقبضة كالمعصرة ،
ودفعه أمامه والآخر يتراجع مهقراً ، فعبّرا باب السلامك ، وهبطا السلم
وادريس يتعثر ، ثم اخترق به ممراً تكثفه شجيرات الورد والحناء مفروشاً
بالياسمين حتى البوابة الكبيرة فدفعه خارجاً وأغلق الباب . وصاح بصوت
سمعه كلّ من يقيم في البيت :

— الهلاك لمن يسمح له بالعودة أو يعينه عليها ..

ورفع رأسه صوب نوافذ الحرم المغلقة وصاح مرة أخرى :

— وطالقة ثلاثاً من تجترى على هذا ..

منذ ذلك اليوم الكتيب وأدهم يذهب كل صباح إلى إدارة الوقف في المنظرة الواقعة إلى يمين باب البيت الكبير . وعمل بهمة في تحصيل أجور الأحكار وتوزيع أنصبة المستحقين وتقديم الحساب إلى أبيه . وأبدى في معاملة المستأجرين لباقة وسياسة، فرضوا عنه على رغم ما عرف عنهم من مشاكسة وفظاظة . وكانت شروط الواقف سراً لا يدري به أحد سوى الأب ، فبعث اختيار أدهم للإدارة الخوف أن يكون هذا مقدمة لاثاره في الوصية . والحق أنه لم يبد من الأب قبل ذلك اليوم ما ينم عن التحيز في معاملته لأبنائه . وعاش الاخوة في وئام وانسجام بفضل مهابة الأب وعدالته . حتى لإدريس - على قوته وجهاله واسرافه أحياناً في اللهو - لم يسىء قبل ذلك اليوم إلى أحد من اخوته . كان شاباً كريماً حلو المعشر حائزاً الود والاعجاب . ولعل الأشقاء الأربعة كانوا يضمرون لأدهم شيئاً من الاحساس بالفارق بينهم وبينه ، ولكن أحداً منهم لم يعلن هذا ولا اشم منه في كلمة أو إشارة أو سلوك . ولعل أدهم كان أشد احساساً منهم بهذا الفارق ، ولعله قارن كثيراً بين لونهم المضيء ولونه الأسمر ، بين قوتهم ورقته ، بين سمو أهمهم ووضع أمه ، ولعله عانى من ذلك أسى مكتوماً وألماً دفيناً ، ولكن جو البيت المعبق بشذى الرياحين ، الخاضع لقوة الأب وحكمته ، لم يسمح لشعور سيء بالاستقرار في نفسه ، فنشأ صافي القلب والعقل .

وقال أدهم لأمه قبيل ذهابه إلى إدارة الوقف :

-- باركيني يا أمي ، فما هذا العمل الذي عهد به إليّ إلا امتحان شديد لي ولك ..

فقلت الأم بضراعة :

- ليكن التوفيق ظلك يا بني ، أنت ولد طيب والعقبى للطيبين ..

ومضى أدهم الى المنظرة ترمقه العيون من السلامك والحدينة ومن وراء النوافذ ، وجلس على مقعد ناظر الوقف وبدأ عمله . وكان عنه أخطر نشاط انساني يزاول في تلك البقعة الصحراوية ما بين المقطم شرقاً والقاهرة القديمة غرباً . واتخذ أدهم من الأمانة شعاراً ، وسجل كل ملهم في الدفتر لأول مرة في تاريخ الوقف . وكان يسلم اخوته رواتبهم في أدب ينسبهم مرارة الحق ثم يقصد أباه بحصيلة الأموال . وسأله أبوه يوماً :

— كيف تجد العمل يا أدهم ؟

فقال أدهم بخشوع :

— ما دمت قد عهد به اليّ فهو أعظم ما في حياتي .

فشاعت في الوجه العظيم البشاشة ، إذ أنه على جبروته كان يستخفّه طرب الثناء . وكان أدهم يحب مجلسه . وإذا جلس اليه اختلس منه نظرات الاعجاب والحب . وكَم كان يسعده أن يتابع أحاديثه وهو يروي — له ولأخوته — حكايات الزمان الأول ، ومغامرات الفتوة والشباب ، اذ هو ينطلق في تلك البقاع ملوحاً بنبوته المخيف غازياً كل موضع تطأه قدماه . وبعد طرد ادريس ظل عباس ورضوان وجليل على عادتهم من الاجتماع فوق سطح البيت ، يأكلون ويشربون ويقامرون . أما أدهم فلم يكن يطيب له الجلوس إلا في الحديقة . كان عاشقاً للحديقة منذ درج ، وكان عاشقاً للناي . ولازمته تلك العادة بعد اضطراره بشئون الوقف وإن لم تعد تستأثر بجل وقته . فكان اذا فرغ من عمله في الوقف افترش سجادة على حافة جدول ، واسند ظهره الى جذع نخلة او جميزة ، أو استلقى تحت عريشة الياسمين ، وراح يرنو الى العصافير وما اكثر العصافير ، او يتابع الياهم وما أحلى الياهم ، ثم ينفخ في الناي محاكياً الزقزقة والمهيل والتفريد وما أبدع المحاكاة ، أو يمد الطرف نحو السماء خلال الغصون وما أجمل السماء . ومرّ به اخوه رضوان وهو على تلك

الحال فرمقه بنظرة ساخرة وقال :

— ما أضيع الوقت الذي تنفقه في إدارة الوقف !

فقال أدهم باسمًا :

— لولا إشفائي من اغضاب أبي لشكوت ..

— فلنحمد نحن المولى على الفراغ !

فقال أدهم ببساطة :

— هنيئاً لكم ..

فسأله رضوان وهو يداري الامتعاض بالابتسام :

— أتود أن تعود مثلنا ؟

— خير ما تمضى الحياة في الحديقة والناي ..

فقال رضوان بمرارة :

— كان ادريس يود ان يعمل ..

فغض أدهم بصره وهو يقول :

— لم يكن عند ادريس وقت للعمل ، ولا اعتبارات اخرى غضب ،

اما السعادة الحقة ففي هذه الحديقة تجدها ..

ولما ذهب رضوان قال ادهم لنفسه : « الحديقة ، وسكانها المغردون ،
والماء ، والسماء ، ونفسي النشوى ، هذه هي الحياة الحقة . كأنني
أجدت في البحث عن شيء . ما هذا الشيء ؟ الناي أحياناً يكاد يجيب .
ولكن السؤال يظل بلا جواب . لو تكلمت هذه العصفورة بلغتي لشفت
قلبي باليقين . وللنجوم الزاهرة حديث كذلك . أما تحصيل الانجار فنشاز
بين الانعام . »

ووقف أدهم يوماً ينظر الى ظله الملقى على الممشى بين الورود ،
فاذا بظل جديد يمتد من ظله واشياً بقدوم شخص من المنعطف خلفه .
بدا للظل الجديد كأنما يخرج من موضع ضلوعه . والتفت وراءه فرأى فتاة
سمراء وهي تهتم بالتراجع عندما اكتشفت وجوده ، فأشار بالوقوف

فوقفت ، وتفحصها ملياً ، ثم سألتها بركة :

— من أنت ؟

فأجابت بصوت ملهم :

— أميمة ..

انه يذكر الاسم ، فهو لجارية ، قريبة لأمه ، وكما كانت أمه قبل ان يتزوج منها أبوه .

ومال الى محادثتها اكثر فسألها :

— ماذا جاء بك الى الحديقة ؟

فأجابت مسبله الجفنين :

— حسبته خالية ...

— لكن ذلك محرم عليك ..

فقلت بصوت لم يكده يسمع :

— أخطأت يا سيدي ..

وتراجعت حتى توارت وراء المنعطف ، ثم ترامى الى أذنيه وقع أقدامها المسرعة ، وإذا به يغمغم متأثراً « ما أملحك ! » . وشعر بأنه لم يكن قط أدخل في خلألق الحديقة منه في هذه اللحظة . وان الورد والياسمين والقرنفل والعصافير واليام ونفسه نغمة واحدة . وقال لنفسه : « أميمة مليحة ، حتى شفتاها الغليظتان مليحتان ، وجميع اخوتي متزوجون عدا ادريس المتكبر ، وما أشبه لونها بلوني ، وما أجمل منظر ظلها وهو مفروش في ظلي كأنه جزء من جسدي المضطرب بالرغبات ، ولن يسخر أبسي من اختياري وإلا فكيف جاز له أن يتزوج من أمي ؟ ! » .

٣

رجع أدهم الى ادارة الوقف بقلب مغمم بحال غامض كالعبير .

وحاول كثيراً ان يراجع حساب اليوم ، ولكنه لم ير في صفحة عقله
الا السمرء . ولم يكن عجباً ان يرى أميمة اليوم لأول مرة ، فالحریم
في هذا البيت كالأعضاء الباطنية يعرفها صاحبها على نحو ويعيش بفضلها
ولكنه لا يراها . واستسلم أدهم الى تيار افكاره الوردية حتى انتزع منه
على صوت مرعد قريب كأنما انفجر في المنظرة نفسها وهو يصيح :
« أنا هنا ، في الخلاء يا جبلاوي ، ألعن الكل ، اللعنة على رءوسكم
نساء ورجالا » ، واتحدى من لم تعجبه كلمتي ، سامعي يا جبلاوي ؟ ! » .
وهتف أدهم : « ادريس ! » وغادر المنظرة الى الحديقة فرأى أخاه
رضوان متجهاً نحوه في اضطراب ظاهر ، وبادره قائلاً :

— ادريس سكران ، رأيتك من النافذة مختلّ التوازن من السكر ،
أي فضائح تخفي الأقدار لأسرتنا ؟

فقال أدهم وهو يغضي الماء :

— قلبي يتقطع أسفاً يا اخي ..

— وما العمل ؟! ان كارثة تهددنا !

— الا ترى يا اخي انه يجب علينا ان نحدث ابانا في الأمر .. ؟

فقطب رضوان قائلاً :

— أبوك لا يراجع في أمر ، وحال ادريس هذه لا شك ضاعفت

من غضبه عليه ..

فغمغم أدهم في كتابة :

— ما كان أغنانا عن هذه الأحزان !

— نعم ، النساء يبكين في الحریم ، عباس وجليل معتكفان من

الكدر ، وأبونا وحده في حجرته لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه ..

فتساءل أدهم في قلق وهو يشعر بأن ملابسات الحديث تدفعه الى مأزق :

— الا ترى انه ينبغي ان نعمل شيئاً ؟

— يبدو ان كل واحد منا يود أن يلوذ بالسلامة ، ولا يهدد السلامة

مثل طلبها بأبي ثمن ، غير اني لن اجازف بمركزي ولو انطبقت السماء
على الأرض ، أما كرامة اسرتنا فتتمرغ الساعة في التراب في ثوب
ادريس ..

لماذا قصدتني اذن ؟! . بين يوم وليلة انقلب ادهم غراب بين ينعق .
وتنهّد قائلاً :

— اني برىء من كل هذا ، ولكن لن تطيب لي الحياة ان سكّت ..
فقال رضوان وهو يهمّ بالذهاب :

— لديك من الأسباب ما يوجب عليك العمل !..

ومضى راجعاً . ولبث ادهم وحده وأذناه ترددان هذه العبارة « لديك
من الأسباب .. » . نعم . انه المتهم دون ذنب جناه . كالقطة التي
تسقط على رأس لأن الريح أطاحت بها . وكلما أسف أحد على ادريس
لُعِن ادهم . واتجه ادهم نحو الباب ففتحه في رفق ومرق منه . رأى
ادريس غير بعيد يترنح دائراً حول نفسه ، يقلب عينين زائغتين ، وقد
تشعث رأسه وانحسر جيب جلبابه عن شعر صدره . ولما عثرت عيناه على
ادهم توثب للانقضاض كأنه قطعة لمحت فأراً ، ولكن أعجزه السكر فقال
نحو الارض وملأ قبضته تراباً ورمى به ادهم فأصاب صدره وانتثر على
عباءته . وناداه ادهم برقة :

— اخي ..

فزجر ادريس وهو يترنح :

— اخرس يا كلب يابن الكلب ، لا أنت أخي ولا ابوك ابني ،
ولأدكنّ هذا البيت فوق رموسكم ..

فقال ادهم متودداً :

— بل انت اكرم هذا البيت وأنبله ..

فقهقه ادريس من فيه دون قلبه وصاح :

— لماذا جئت يا ابن الجارية ؟ ، عد الى امك وأنزلها الى بدروم الخدم ..

- فقال ادهم دون ان تتغير مودته :
- لا تستسلم للغضب ، ولا توصل الابواب في وجه الساعين خبرك ..
- فلوَّح ادريس بيده ثائراً وصاح :
- ملعون البيت الذي لا يطمئن فيه الا الجبناء ، الذين يغسسون اللقمة في ذل الخنوع ، ويعبدون مذهم ، لن اعود الى بيت انت فيه رئيس ،
- فقل لأبيك انني اعيش في الخلاء الذي جاء منه ، وانني عدت قطاع طريق كما كان ، وعريداً اثماً معتوياً كما يكون ، وسيشربون اليّ في كل مكان اعيش فيه فساداً ويقولون : « ابن الجبلاوي » ، بذلك أمرعكم في التراب يا من تظنون انفسكم سادة وانتم لصوص ..
- وتوسل ادهم قائلاً :
- اخي أفني ، حاسب نفسك على كل كلمة توجب اللوم ، ليس الطريق مسدوداً في وجهك الا ان تسده بيديك ، وانني أعدك بأن يعود كل شيء طيب الى اصله ..
- فخطا ادريس نحوه بصعوبة كأن ربحاً ترجعه وقال :
- بأي قوة تعدني يا ابن الجارية ؟
- فقال وهو يرمقه بخذر :
- بقوة الأخوة !
- الأخوة ! قذفت بها في اول مرحاض صادفتني ..
- فقال ادهم متأثراً :
- ما سمعت منك من قبل الا الجميل ..
- طغيان ابيك أنطقني بالحق ..
- لا احب ان يراك الناس على هذه الحال .
- فأرسل ادريس ضحكة معربة وصاح :
- وسبروتني على اسوأ منها كل يوم ، العار والفضيحة والجريمة
- ستحلّ بكم على يدي ، طردني ابوك دون حياء فليتحمل العواقب ..

ورمى بنفسه نحو أدهم ففتحني هذا عن موقفه دون تردد، فكاد ادريس -
يهوى على الأرض لولا ان استند الى الجدار ، ولبت يلهث حائقاً .
وينظر في الأرض مفتشاً عن حجر، فراجع ادهم حفة الى الباب ودخل .
واغرورقت عيناه من الحزن . وكان صياح ادريس ما زال صاخباً
وحانت منه التفاتة نحو السلامك فلميح اباه خلال الباب وهو يعبر البهو ،
ففضى نحوه وهو لا يدري ، متغلباً على خوفه بحزنه . ونظر اليه الجبلاوي
بعينين لا تفصيحان عن شيء . وكان يقف بقامته المديدة ومنكيه
العريضين امام صورة محراب نقشت على جدار البهو خلفه . واحى
أدهم رأسه قائلاً

- السلام عليكم ..
- فتفحصه الجبلاوي بنظرة عميقة ثم قال بصوت نفذ الى اعماق قلبه :
- صرّح بما جئت من اجله ..
- فقال ادهم بصوت مهموس :
- أبي ، ان اخي ادريس ..
- فقاطعه الأب بصوت كضربة الفأس في الحجر :
- لا تذكر اسمه أمامي ..
- ثم وهو يمضي الى الداخل :
- اذهب إلى عملك !

٤

توالى مشرق الشمس ومغيبها على هذه البقعة الخلاء وادريس يتردى
في مهاوي الشقاوة . في كل يوم يسجل في كتابه حماقة جديدة . كان

يدور حول البيت ليقذفه بأقذع الشتائم . او يجلس على كئيب من الباب ، عارياً كما ولدته أمه كأنما يتشمس ، وهو يترجم بأفحش الأغاني . وكان يتجول في الأحياء القريبة في خيلاء الفتوات ، يتحدى كل عابر بظرات هجومية ، ويتمحش بكل من يعترض سبيله ، والناس يتحاشونه كاطمين ، وهم يتهمسون « ابن الجبلأوي ! » ولم يحمل لغذائه هماً ، فكان يمد يده بكل بساطة الى الطعام حيث وجدته ، في مطعم او على عربة ، فيأكل حتى يكتظ ثم يمضي دون شكر من ناحيته أو محاسبة من الآخرين . وإذا تأقت نفسه الى العريضة مال الى اول حانة تصادفه ، فتقدم اليه البوظة حتى يسكر ، ثم ينطلق لسانه كالنافورة بأسرار أسرته وأعاجيبها ، وتقاليدها السخيفة وجبنها المهين ، منوهاً بثورته على أبيه ، جبار هذه الأحياء جميعاً ، ثم يدخل في قافية ليغرق في الضحك ، ويغني إذا لزم الحال ويرقص ، وتتناهى مسرته إذا ختمت السهرة بمعركة ، ثم يذهب مشياً بالتحيات . وفي كل مكان اشتهر بهذه السيرة ، فتحاماه الناس ما استطاعوا ، ولكنهم سلموا بأمره كأنه مصيبة من مصائب الدهر . ونال الأسرة من ذلك ما نالها من الغم والكرب . وغلب الحزن أم ادريس فشلت واحتضرت . وجاء الجبلأوي ليودعها فأشارت نحوه بيدها السليمة محتجة وفاضة روحها في أسى وغضب ، ونجم الحزن على الأسرة كخيوط العنكبوت ، فتوقف سمر الاخوة فوق السطح ، وسكت ناي ادمم في الحديقة .

ويوماً تفجر الأب عن ثورة جديدة كانت ضحيتها تلك المرأة . اذ تعالى صوته الجهير وهو يلعن نرجس الخادمة ويطردها من البيت . وعلم في نفس اليوم أن أعراض الحمل ظهرت على المرأة ، فقررت حتى أقرت بأن إدريس اعتدى عليها قبل طرده . وغادرت نرجس البيت وهي تصوت وتلطم خديها . وهامت على وجهها سحابة النهار حتى عثر عليها ادريس فالحقها بركابه دون ترحيب ، ودون جفاء كذلك إذ

لم نكن نخلو من نفع عند الحاجة .
على أن كل مصيبة وإن جلت لا بد يوماً أن تُؤلف . لذلك أخذت
الحياة تعود إلى مجراها المألوف في البيت الكبير كما يعود السكان إلى
ديارهم عقب زلزال أغرهم على الفرار منها . عاد رضوان وعباس
وجليل إلى ندوة السطح ، كما عاد أدهم إلى سهرة الحديقة يناجي الناي
فيناجيه . ووجد أميمة تضيء نواطره وتدفيء مشاعره ، وصورة ظلها
المعانيق لظله ترسم بوضوح في مخيلته ، فقصد مجلس أمه في حجرتها
حيث كانت تطرز شالاً ، فأفضى إليها بذات نفسه ، إلى أن قال :

— إنها أميمة يا أمي ، قريبتك ..

فابتسمت أمه ابتسامة باهتة دلت على أن فرحة الخبر لم تستطع التغلب
على غناء مرضها وقالت :

— نعم يا أدهم ، أنها فتاة طيبة ، تصلح لك كما تصلح لها ،
ومتسعدك بمشينة المولى ..

ولما رأت توردهم في وجنتيه استدركت قائلة :

— لا ينبغي أن تدللها يا بني حتى لا تفسد حياتك ، وسأخاطب
أباك في الأمر لعلني أنعم برؤية ذريتك قبل أن يدركني الموت ..

وعندما دعاه الجلاوي إلى مقابله وجده يبتسم ابتسامة لطيفة حتى
قال لنفسه : « لا شيء يعادل شدة أبي إلا رحمته » . وقال الأب :

— ها أنت تطلب زوجة يا أدهم ، ما أسرع الزمن ، وهذا البيت
يحتقر المساكين ولكنك باختيار أميمة تكرم أمك ، لعلك تنجب ذرية
صالحة . لقد ضاع لإدريس ، وعباس وجليل عقبان ، ورضوان لم
يعش له ولد حتى اليوم ، وجميعهم لم يرثوا عني إلا كبريائي ، فاملاً
هذا البيت بذريتك ، وإلا ذهب عمري هباء .

وكانت زفة أدهم التي لم يشهد لها الحي نظيراً من قبل . وحتى
اليوم يجري ذكرها مجرى الأمثال في حارتنا . تدلت ليلتنا الكلوبات ،

من غصون الاشجار ومن فوق السور حتى بسدا البيت بحيرة من نور
وسط الخلاء المظلم . وأقيم سرادق فوق السطح للمغنين والمغنيات .
وامتدت مؤائد الطعام والشراب في البهو والحديقة والخلاء المتصل بمدخل
البيت الكبير . وبدأت زفة أدهم من أقصى الجمالية عقب منتصف الليل .
سار فيها كل من يحب الجبلاوي أو يخافه حتى انتظمت الجميع . وخطر
أدهم في جلباب حريري ولاسة مزركشة بين عباس وجليل ، أما رضوان
فسار في المقدمة ، وعلى اليمين وعلى اليسار حاملو الشموع والورود ،
وتقدم الموكب مجموعة ضخمة من المنشدين والراقصين ، وتعالى الغناء ،
وتبعته تأوهات المطربين وتحيات المعجبين بالجبلاوي وأدهم ، حتى استيقظ
الحي ودوت الزغاريد . وسار الموكب من الجمالية فالعطوف ثم كفر الزغاري
والمبيضة ، ينهال عليه الترحيب حتى من الفتوات ، وحطب من حطب ،
ورقص من رقص ، ووزعت الخانات البوطة مجاناً فسكر حتى الغلمان ،
وتهادت الجيوز من جميع الغرز في طريق الموكب هدية للمحتفلين فعبق
الجو بحسن كيف والهندي .

وفجأة لاح إدريس كمارد انشقت عنه الظلمة في آخر الطريق . لاح
عند المنعطف المفضي إلى الخلاء على ضوء الكلوبات التي تتقدم الموكب
فتوقف حاملو الكلوبات عن السير وانتشر التهامس باسم إدريس . ولمحته
أعين المنشدين فاعترض الخوف حناجرهم فكفّت عن الغناء ، وراه
الراقصون فجمدت أوساطهم . وسرعان ما سكنت المزامير وخرست
الطبول ، وغاضت الضحكات . وتساءل كثيرون عم يفعلون : فهم
إن استكانوا لم يأمنوا الأذى وإن ضربوا لم يضربوا إلا ابن الجبلاوي .
ولوح إدريس بنبوته وهو يصيح :

— لمن الزفة يا حثالة الجبناء ؟

فساد الصمت واشتأبت الأعناق نحو أدهم وإخوته ، وعاد إدريس
يتساءل :

- متى كنتم لابن الجارية أو لأبيه أصدقاء ؟
عند ذاك تقدم رضوان خطوات وهتف قائلاً ؛
— إخي ، من الحكمة ان تدع الزفة تمر ..
فصاح لإدريس مقطباً :
— أنت آخر من يتكلم يا رضوان ، أنت أخ خائن وابن " جبان " ،
وذليل يشتري رغد العيش بالكرامة والأخوة ..
فقال رضوان باشفاق :
— لا شأن للناس باختلافاتنا ..
فقهقه إدريس قائلاً :
— الناس يعلمون بخزيكم ، ولولا جبنهم العريق ما وجدت هذه الزفة
زامراً أو مشدأ ..
فقال رضوان بعزم ثابت :
— أبوك عهد إلينا بأخيك ، ولا بد أن نحفظه ..
فعاد إدريس يقهقه وهو يتساءل :
— أرايت انك تدافع عن نفسك لا عن ابن الجارية ؟
— أين رشادك يا أخي ؟ بالحكمة وحدها تعود الى بيتك .
— إنك كاذب ، وأنت تعلم أنك كاذب ..
فقال رضوان في حزن :
— لن ألومك فيما يخصني ، ولكن دع الزفة تمر بسلام ..
فكان جوابه ان انقضّ على الموكب كالثور الهائج . وأخذ نبوته
يرتفع ويهوى فتتحطم الكلوبات وتتصدع الطبول وتبعثر الورود ؛ وراح
الناس يولون مذعورين كالرمال أمام العاصفة . وتكاتف رضوان وعباس
وجليل أمام أدهم فتضاعف غضب إدريس :
— يا أنذال ، تدافعون عن تكرهون خوفاً على الطعام والشراب ..
وهجم عليهم ، فتلقتوا ضرباته بنبايتهم دون ان يردوا عليها وهم

يراجعون . وإذا به يرمي بنفسه فجأة بينهم فيشور سبيلا الى موقف
أدهم فعلا الصوات في التوافذ ، وهتف أدهم وهو يتحضر للدفاع
عن نفسه :

- ادريس ، لستُ عدواً لك فارجع الى عقلك .
ورفع ادريس نبوته . وهنا صاح صائح : « الجبلاوي » . وصاح
رضوان مخاطباً ادريس :
- أبوك قادم ..

فوثب ادريس الى جانب الطريق والتفت الى الراء فرأى الجبلاوي
قادماً وسط هالة من الخدم يحملون المشاعل . وعض ادريس على أسنانه
ثم هتف ساخراً :

- سأهلك عما قريب حفيداً من الزنا تقرّ به عينك .
واندفع نحو الجمالية والناس توسع له على الجانبين حتى ابتلعتة الظلمة .
وبلغ الأب موقف الأخوة وهو يتظاهر بهدوء تحت آلاف الأعين المحدة
فيه ، ثم قال بلهجة آمرة :
- ليعد بكل شيء إلى أصله ..

ورجع حملة الكلوبات الى مواقعهم ، ودقت الطبول ، وعزفت
المزامير ، ثم غنى المنشدون ، ورقص الراقصون ، واستأنفت الزفة
مسيرها ..

وسهر البيت الكبير حتى الصباح في طرب وشراب وغناء . وعندما
دخل أدهم حجراته المظلة على خلاء المقطم وجد أميمة واقفة الى جانب
المرأة والنقاب الأبيض ما يزال يغطي وجهها . كان مخموراً مسطولاً لا
تكاد تحمله قدماه ، فاقترب منها وهو يبذل جهداً شديداً ليألك
اعصابه . ورفع النقاب عن وجهها الذي طالعه في أحسن رواء ، وهوى
برأسه حتى لثم شفيتها المكترتين ، ثم قال بلسان مخمور :
- لتهن الموموم جميعاً ما دمت حسن الختام ..

واتجه نحو الفراش ، يستقيم خطوة ويترنح خطوة ، حتى استلقى على عرض السرير باللاسة والمركوب ، وكانت أميمة تنظر الى صورته المنعكسة على المرآة وهي تبسم في إشفاق وحنان ..

٥

وجد أدهم في أميمة سعادة لم يعرفها من قبل . ولبساطته أعلن عن سعادته بأقواله وأحواله حتى تندّر به إخوته . وعند ختام كل صلاة كان يبسط يديه هاتفاً : « الحمد لصاحب المن ، على رضى أبي الحمد له ، على حب زوجي الحمد له ، على المترلة التي أحظى بها دون من هم أجدر مني بها الحمد له ، على الحديقة الغناء والنساي الرفيق الحمد له » . وقالت كل امرأة من نساء البيت الكبير إن أميمة زوجة واعية ، فهي ترعى زوجها كأنه ابنها ، وتوادد حماها وتخدمها حتى أسرتها ، وتولي مسكنها العناية التامة كأنه قطعة من جسدها . أما أدهم فكان زوجاً مترع القلب بالمحبة وحسن المعاشرة . وكما شغلته إدارة الوقف عن جزء من ملامه البريئة في الحديقة من قبل ، فقد شغل الحب بقية يومه ، واستبد به حتى نسي نفسه . وتوالت ايام هائنة ، وامتدت فوق ما قدر رضوان وعباس وجليل الساخرون ، ولكنها ارتطمت في النهاية بذلك الهدوء الحكيم كما تنتهي مياه الشلال المتدفقة الراغية المزبدة في النهر الرصين . وعاد التساؤل يحتل مكانه في قلب أدهم ، ف شعر بأن الزمن لا يمر في غمضة عين ، وان النهار يعقبه الليل ، وان المناجاة اذا تواصلت الى غير نهاية فقدت كل معنى ، وان الحديقة ملهاة صادقة لا يجدر به أن يهجرها ، وان شيئاً من هذا لا يعني بحال ان قلبه تحول عن أميمة ، فما تزال في صميمه ، ولكن للحياة أطواراً لا يخبرها المرء الا يوماً بيوم.

وعاد الى مجلسه عند القناه ، وأجال بصره في الأزهار والعصافير ممتناً
ومعتذراً . وإذا بأميمة تلحق به مشرقة بالبهجة ، فجلست الى جانبه
وهي تقول :

— نظرت من النافذة لأرى ما أحرك ، لماذا لم تدعني معك ؟
فقال باسماء :

— خفت ان اتعبك ..

— تعبني ؟ .. طالما احببت هذه الحديقة ، اذكر اول لقاء لنا هنا ؟
واخذ يدها في يده ، واسند رأسه الى جذع النخلة مرسلًا طرفه الى
الغصون ، والى السماء خلال الغصون ، وعادت هي تؤكد له حبها
للحديقة ، وكلما امعن في الصمت أمعت في التوكيد ، اذ انها كانت
تكره الصمت بقدر ما تحب الحديقة ، وكان حديث حياتها اطيب حديث .
ولا بأس بالوقوف بعض الوقت عند أهم الاحداث في البيت الكبير ،
خاصة ما يتعلق بزوجات رضوان وعباس وجليل ، ثم تغير صوتها مائلا
نحو العتاب وهي تقول :

— أنت تغيب عني يا أدهم .. ؟

فابتسم إليها قائلاً :

— كيف وأنت ملء القلب !

— ولكنك لا تصغى إلي .. ؟

هذا حق . ومع انه لم يرحب بمقدمها فانه لم يضق به . ولو همت
بالرجوع لأمسك بها صادقاً . والحق انه يشعر بأنها جزء لا يتجزأ منه .
وقال كالمعتذر :

— اني أحب هذه الحديقة ، لم يكن في حياتي الماضية اطيب من
جلستها ، وتكاد أشجارها الباسقة ومياهها المفضضة وعصافيرها المزققة
تعرفني كما أعرفها ، وأود ان تقاسمني حبها ، أرأيت الى السماء كيف
تبدو خلال الغصون ؟

- فرفعت عينيها مقدار لحظة ثم نظرت اليه باسمه وقالت .
- انها جميلة حقاً ، وجديزة بأن تكون اطيب ما في حياتك
فآنس من قولها العتاب دون افصاح وبادرها قائلاً :
- بل كانت كذلك قبل ان اعرفك ..
- والآن ؟
- فضغط على يدها بخنوت قائلاً :
- لا يتم جمالها الا بك ..
- فقالته وهي تحب بصرها نحوه :
- من حسن الحظ انها لا تؤاخذك على انصرافك عنها الي ..
- فضحك أدهم وجذبها نحوه حتى التصق خدها بشفتيه ، ثم سأها :
- أليست هذه الأزهار اجدر بالتفاتنا من الكلام عن زوجات اخوتي ؟!
- فقالته أميمة باهتمام :
- الأزهار اجمل ولكن زوجات اخوتك لا يكففن عن الحديث عنك ،
ادارة الوقف ، دائماً ادارة الوقف ، وثقة أليك فيك ، يُبدثن ويُعدن
في هذا ..
- وقطب أدهم غائباً عن الحديقة ، وقال بجدة :
- لا شيء ينقصهن !
- الحق اني اخاف عليك العين ..
- فهتف ادهم غاضباً :
- لعنة الله على الوقف ، أرهقني وغير القلوب عليّ وسلبني راحة
البال ، فليذهب في داهية ..
- فوضعت أصبها على شفتيه وهي تقول :
- لا تكفر بالنعمة يا أدهم ، ان ادارة الوقف شأن خطير ، وقد
تجر وراءها نفعاً لا يخطر بالبال ..
- جرت حتى الآن المتاعب .. ، وحسبنا مأساة ادريس ..

فابتسمت ، لكن ابتسامتها لم تَمَّ عن بهجة وانما دارت بها اهتماماً
جدياً تجلّ في نظرة عينيها ، وقالت :

— انظر الى مستقبلنا كما تنظر الى الغصون والسماء والعصافير ..
وواظبت أميمة على مشاركته جلسته في الحديقة . ولم تكن تعرف
الصمت إلاّ في النادر . لكنه اعتادها ، كما اعتاد الاصغاء بنصف انتباه
او دون ذلك ، وعند الحاجة يتناول الناي لينفخ فيه ما شاء له الطرب .
واستطاع ان يقول في رضى تام ان كل شيء طيّب . حتى شفاوة
ادريس باتت شيئاً مألوفاً . لكن المرض اشتد على أمه . وعانت آلاماً
لم تعرفها من قبل تقطّع لها قلبه . وكانت تدعوه الى جانبها كثيراً فتسبح
عليه اكرم الدعاء . ومرة قالت له بتوسل حار : « أدع ربك دائماً ان
يقيل الشر ويهديك سواء السبيل » . ولم تدعه يذهب . وظلت تراوح
بين الأنين وبين مخاطبته وتذكيره بوصيتها حتى فاضت روحها بين يديه .
وبكاها أدهم ، ويكثها أميمة ، وجاء الجبلأوي فنظر في وجهها ملياً ثم
سجّأها باحترام وقد تجلّت في عينيه الحادثتين نظرة كثيفة مليئة بالشجن .

وما كاد ادهم يعود رويداً الى مألوف الحياة حتى ارتطم بتغير طارىء
على أميمة لم يعرف له علة . بدأ بانقطاعها عن مجلسه في الحديقة فلم
يسر بذلك كما كان يتوهم احياناً . وسألها عن سر انقطاعها فاعتلت
بأعذار شتى كالعمل او التعب . ولاحظ انها لم تعد تقبل عليه بالاندفاع
المعهود ، فاذا اقبل هو عليها لاقته دون عاطفة حقيقية ، كأنما نجامله ،
وأنما مجاملته عناء . وتساءل عما هنالك ! لقد مر بشيء شبيه بهذا ،
ولكن حبه صمد له وتغلب عليه . وكان بوسعه ان يقسو عليها ، وود
احياناً لو يفعل ذلك ولكن منعه انكسارها وشحوبها ومغالاتها في التأدب
معه . احياناً تبدو حزينة ، وأحياناً تبدو حائرة ، ومرة باغت في عينيها
نظرة نافرة حتى ركبته الغضب والجزع معاً . وقال لنفسه : « فلاأصبر
عليها قليلاً » ، إما ينصلح حالها او فلتذهب في الف داهية ! .

وجلس الى ابيه في مخدع الرجل ليعرض عليه حساب الشهر الختامي .
وتفحصه الأب دون ان يعنى بمتابعتة وسأله :

— مالك ؟

فرفع أدهم رأسه نحوه في دهش وقال :

— لا شيء يا ابي ..

فضيق الرجل عينيه وتتم :

— أخبرني عن اميمة ..

فالتذلت عيناه تحت نظرة ابيه النافذة وقال :

— بخير ، كل شيء طيب .

فقال الجبلأوي بضجر :

— صارحني بما عندك .

فصمت ادهم ملياً ، وهو يؤمن بأن اياه قادر على معرفة كل

شيء ، ثم قال معترفاً :

— تغيرت كثيراً ، وتبدو كالنافرة .

فتجلت في عيني الأب نظرة غريبة وقال :

— هل وقع بينكما خلاف ..

— ابدأ .

فقال الجبلأوي في ارتياح وهو يبتسم :

— يا جاهل ، ترفق بها ، لا تقرب منها حتى تدعوك ، سوف

تكون اباً عما قريب .

٦

جلس ادهم في ادارة الوقف يستقبل مستأجري الأحكار الجدد ، واحداً
بعد آخر ، وقد وقفوا طابوراً ، أوله امامه وآخره في نهاية المنظرة

الكبيرة . ولما جاء آخر المستأجرين سأله ادهم دون ان يرفع رأسه عن
دفتره في عجلة وضجر :

— إسمك يا معلم ؟

فجاءه صوت يقول :

— ادريس الجبلاري .

فرفع ادهم رأسه في فزع فرأى اخاه واقفاً امامه ، ثم وقف متوثباً
للدفاع عن نفسه وهو ينظر نحوه بخذر . لكن ادريس بدا في مظهر جديد
لا عهد لأحد به . بدا رث الحياة ، هادئاً ، متواضعاً ، حزين الطرف ،
مأمون الجانب ، كالثوب المنشي بعد نقعه في الماء . ومع ان هذا المنظر
استل من نفس ادهم كل حنق قديم الا انه لم يطمئن الى السلامة كل
الاطمئنان ، فقال في تحذير مشوب بالرجاء :

— ادريس !

فأحنى ادريس رأسه قائلاً في رقة عجيبة :

— لا تخف ، لست الا ضيفك في هذا البيت اذا وسعني كرم

اخلاقك .

أهذا الكلام اللطيف يصدر عن ادريس حقاً ! . هل أدبته الآلام ؟ .
الحق ان خشوعه مخزن كفجوره . وألا تعد استضافته له تحدياً للأب ؟ .
لكنه جاء دون دعوة منه . ووجد نفسه يشير إليه بالجلوس على مقعد
قريب من مقعده ، فجالسا معاً وهما يتبادلان النظر في غرابة حتى قال
ادريس :

— اندسست في جموع المستأجرين لأتمكن من الانفراد بك .

فتساءل ادهم في قلق :

— ألم يرك احد ؟

— لم يرني احد من البيت ، اطمئن الى هذا ، لم أجيء لأكثر
صفوك . لكني الحأ الى لطائف اخلاقك

فغض ادهم عينيه متأثراً وقد تصاعد الدم الى وجهه ، فقال ادريس .
— لعلك تعجب لما غيّرني ، لعلك تتساءل اين ذهب تكبره و صلفه ،
فاعلم انني قاسيت آلاماً لا يقدر عليها احد ، ورغم هذا كله فاني
لا اقف موقفني هذا من احد سواك اذ ان مثلي لا ينسى كبرياهه الا حيال
الخلق اللطيف .

فغمغم ادهم قائلاً :

— خفف الله عنك وعنا ، فكم نغص مصيرك حياتي وكدرها .
— كان ينبغي ان اعرف هذا من اول الأمر ، ولكن الغضب
جشني ، وفتكت الحمر بكرامتي : ثم اجهزت حياة التشرّد والبلطجة
على الرمن الأخير من انساني ، أعهدت مثل ذاك السلوك في اخيك
الأول ؟

— ابداً ، كنت خير أخ وأنبى انسان !

فقال ادريس بصوت المتوجع :

— حسرة على تلك الأيام ، لست اليوم الا شقياً ، أخط في الخلاء
جاراً ورائي امرأة حبي ، اشبع في كل مكان باللعنات ، واشترى رزقي
بالتكر والعدوان .

— انك تمزق قلبي يا اخي .

— معذرة يا ادهم ، لكن هذه هي طويّتك التي خبرتها منذ قديم ،
ألم اهلك صغيراً على يدي ، ألم اشهد صباك وبناعتك وألمس فيها نبلك
وسجاياك الحميدة ؟ لعن الله الغضب حينما احترق .

— لعنة ابدية يا اخي .

وثنهد ادريس وهو يقول وكأنما يخاطب نفسه :

— شدّ ما أسأت اليك ، ان ما حاق بي من شرّ وما سيحيق لحو
دون ما استحق من جزاء .

— خفف الله عنك ، اندري أنني لم اياس ابداً من عيوبك .

حتى في ابان غضب ابينا جازفت بمخاطبته في شأنك .
فابتسم ادريس عن استان علاها الاصفرار والقذارة وقال :
— هذا ما حدثني به نفسي ، قلت ان يكن ثمة رجاء في مراجعة
ابي فلن يتأتى عن سبيل سواك .
فلمعت عينا ادهم وهو يقول :
— اني المس الهداية في روحك الكريم ، الا ترى انه قد آن الآوان
لكي نخطب والدنا في الأمر ؟
فهز ادريس رأسه الأشعث في يأس وقال :
— اكبر منك اليوم يعرف اكثر منك بسنة ، وأنا اكبرك بعشر
سنوات لا بسنة واحدة ، فاعلم ان ابانا يغفر كل شيء الا ان يهينه
احد ، لن يعفو عني ابوك بعد ما كان ، ولا أمل لي في العودة الى
البيت الكبير .
لا شك فيما قاله ادريس ، وهذا ما زاده حرجاً وضيقاً ، وتتم
في كتابة :
— ماذا في وسعي ان افعل من اجلك ؟
فابتسم ادريس مرة اخرى قائلاً :
— لا تفكر في مساعدات مالية ، فاني واثق من امانتك كمدير للوقف ،
واعلم انك اذا مددت لي يد المعونة فسيكون من حر مالك وهو ما
لا اقبله ، انك اليوم زوج وغداً أب ، وأنا لم اجثك مدفوعاً بفقرتي ،
ولكني جثت لأعلن لك ندمي عما فرط مني في حقك ، ولاسترد مودتك ،
ثم ان لي رجاء .
فتطلع اليه ادهم باهتمام وتساءل :
— قل يا اخي ما رجاؤك ؟
فأدنى ادريس رأسه من اخيه كأنما يخشى ان تسمعه الجدران وقال :
— اريد ان اطمئن على مستقبلي بعد ان خسرت حاضري ، سأكون

اباً مثلك ، فما مصير ذريتي ؟

— ستجدني رهن اشارتك في كل ما استطيع ..

فربت ادريس كتف ادهم بامتنان وقال :

— أريد ان اعرف هل حرمني أبسي حقني في الميراث ؟

— كيف لي بمعرفة هذا ، ولكن ان سألتني عن رأيي ..

فقاطعه ادريس قللاً :

— اني لا أسأل عن رأيك ولكن عن رأي أبيك ..

— لأنه كما تعلم لا يصارح احداً بما يدور في رأسه ..

— ولكنه دون شك قد سجله في حجة الوقف ..

فhez أدهم رأسه دون ان ينبس ، فعاد ادريس يقول :

— كل شيء في الحجة ..

— لا علم لي بها ، وانت تعلم ان احداً في بيتنا لا يدري عنها شيئاً ،

وعلمي في الادارة يسير تحت اشراف أبسي الكامل ..

فحدجه ادريس بنظرة حزينة وقال :

— الحجة في مجلد ضخيم ، وقد لمحته مرة في صباي وسألت أبسي

عما فيه — وكنت وقتذاك قرة عينه — فقال لي إنه يضم كل شيء عنا ،

ولم نعد الى الحديث عنه ، ولم يسمح لي بذلك حين بسدا لي ان اسأل

عن بعض ما جاء فيه ، ولا أشك الآن في ان مصيري قد تقرر فيه ..

فقال ادهم وهو يشعر بأنه ينحصر في ركن ضيق :

— الله أعلم .

— انه في الخلوة المتصلة بمخدع ابيك ، ولا شك انك رأيت بابها

الصغير في نهاية الجدار الأسير . وهو باب مغلق دائماً ، لكن مفتاحه

مودع في صندوق فضي صغير في درج الخوامة القريب من الفراش ،

اما المجلد الضخم فعلى ترابيزة في الخلوة الضيقة ..

فرفع ادهم حاجبيه الخفيفين في انزعاج وتتم :

— ماذا تريد ؟

فقال ادريس متنهداً :

— إن كان ثمة راحة بال باقية لي في هذه الدنيا فهي رهن بمعرفتي ما سجلت في الحجة عني ..

فقال ادهم في ارتياح :

— أهون علي ان أسأله عما في الشروط العشرة صراحة !

— لن يجيب ، وسيغضب ، وربما اساء بك الظن ، او خن الدافع الحقيقي وراء سؤالك فثار سخطه ، وكم أكره أن تخسر ثقة ابيك جزاء احسانك الي ، وهو لا شك لا يريد ان يذيع شروطه العشرة ، ولو أراد ذلك لعرفناها جميعاً ، فلا سبيل مأموناً الى الحجة الا السبيل الذي وصفته لك ، وهو ميسور جداً عند الفجر حين يتجول ابوك في الحديقة ..

فامتنع وجه ادهم وهو يقول :

— ما افطع ما تدعوني اليه يا أخي ..

فدارى ادريس خيبته بابتسامة شاحبة وقال :

— ليس جريمة ان يطلع ابن غلى ما يخصه في حجة أبيه .

— لكنك تطلب إلي سرقة سر يحرص ابونا على صونه ..

فتنهذ ادريس بصوت مسموع وقال :

— قلت لنفسى عندما قررت اللجوء إليك : « ما اصعب ان اقنع

ادهم بعمل يعتبره مغالفاً لارادة الاب » ، ولكن داعبني أمل قوي

فقلت : « لعله يقدم اذا لمس مدى حاجتي الى معونته » ، وليس في

الامر جريمة ، وسيمر بسلام ، وستجد أنك انتشلت روحاً من الجحيم

دون ادنى خسارة ..

— ليحفظنا المولى من الأخطار ..

— آمين ، لكنني اتوسل اليك ان تقايني من العذاب ..

نهض ادهم في جزع واضطراب ، فنهض ادريس في أثره ، وابتسم
 ابتسامة دلت على تسليمه بالأس ، وقال :
 - أزعجتك حقاً يا ادهم ، من أمارات تعاسي انني لا ألقى شخصاً
 حتى تدركه المتاعب على وجه أو آخر ، بات ادريس لعنة ساخرة ..
 - كم يعذبني عجزى عن مساعدتك ، انه عذاب ما بعده عذاب ..
 فدنا منه حتى وضع يده على منكبيه في رقة ، ثم ثم جبينه في
 عطف ، وقال :
 - لا يسأل عن تعاسي إلا نفسي ، لماذا احملك فوق ما تطيق ؟
 دعني أتركك بسلام وليفعل الله ما يشاء ..
 قال ادريس ذلك ثم ذهب ..

٧

دبت الحيوية في وجه أميمة لأول مرة منذ عهد قصير ، فسألت ادهم
 باهتمام :
 - ألم يحدثك ابوك عن الحجة من قبل ؟
 كان ادهم متربهاً على الكنية ، ينظر من النافذة الى الخلاء الفارق
 في الظلمة ، فأجابها :
 - لم يحدث أخداً عنها قط ..
 - لكن انت ..
 - لست إلا احد ابنائه الكثيرين ..
 فابتسمت ابتسامة خفيفة وقالت :
 - لكنه اختارك انت لتدير الوقف ..
 فالتفت نحوها قائلاً بحدة :

- قلت إنه لم يحدث أحداً عنها قط ..
- فابتسمت مرة أخرى كأنما لتلطف حديثه ، ثم قالت بمكر :
- لا تشغل بالك ، ادريس لا يستحق ذلك ، إن أساءته لك لا تنسى أبداً ..
- فحول ادهم رأسه نحو النافذة ، وقال بحزن :
- ادريس الذي جاءني اليوم غير ادريس الذي اساء إلي ، إن منظره النادم الحزين لا يبرح مخيلتي ..
- فقالت بارتياح ظافر :
- هذا ما أدركته من حديثك ، وهو سر اهتمامي بالأمر ، ولكنك تبدو ضيق الصدر بخلاف عادتك ..
- كان ينظر إلى ظلام الليل الكثيف ، لكن رأسه المشغول لم يستجيب له ، فقال :
- لا فائدة ترجى من الاهتمام ..
- لكن أخاك النادم يسألك الرحمة ..
- العين بصيرة واليد قصيرة ..
- يجب ان تحسن علاقتك به ، وبأخوته ، والا وجدت نفسك يوماً وحيداً أمامهم ..
- انك تهتمين بنفسك لا بادريس ..
- فهزت رأسها كأنما تزيج عنه نقاب المكر وقالت :
- من حقى ان اهتم بنفسى ، ومعنى هذا ان اهتم بك وبما في بطني ..
- ماذا تريد المرأة ؟ وهذا الظلام ما أشد كثافته ، حتى المقطم العظيم قد ابتلعه . وأراح نفسه بالصمت . واذا بها تسأله :
- ألا تذكر انك دخلت الخلوة أبداً ؟
- فأجاب خارجاً من صمته القصير :

— أبدأ ، احببت في صباي ان ادخلها ففنعني أبي ، ولم تكن أمي
تسمح لي بالاقتراب منها ..

— لا شك انك كنت تمنى دخولها ..

ما حادتها في الأمر الا وهو ينتظر ان تدفعه عنه لا ان تجيز به
اليه . كان بحاجة الى من يؤكد له صواب موقفه من أخيه . كان
بحاجة ماسة الى ذلك ولكنسه كمن كان ينادي في الظلام خفيراً فيخرج
اليه قطاع طريق . وعادت أميمة تسأله :

— والخوان الذي به الصندوق الفضي هل تعرفه ؟

— بكل من دخل الحجرة يعرفه ، لماذا تسألين عنه ؟

توحزحت من مجلسها على الكنية مقربة منه وسألته باغراء :

— بربك ألا تود ان تتطلع على الحجة ؟

فأجاب بحدة :

— كلا ، لماذا أود ذلك ؟

— منذا يقاوم الرغبة في الاطلاع على المستقبل ؟

— تعين مستقبلك أنت ؟!

— مستقبلي ومستقبلك ، ومستقبل ادريس الذي حزنتم عليه رغم ما
سبق منه ضدك !

المرأة تعرب عما في نفسه . وهذا ما يثير حنقه . ومد رأسه نحو
النافذة كأنما يهرب منها وهو يقول :

— لا أود ما لا يود أبي ..

فرفعت حاجبيها المزعجين متسائلة :

— لماذا يخفي هذا الأمر ؟

— ذلك شأنه ، ما أكثر اسئلتك الليلة !

فقالت وكأنما تخاطب نفسها :

— المستقبل ! نعرف مستقبلنا ونقدم احساناً كبيراً الى ادريس
التعيس ، لن يكافئنا هذا كله الا قراءة ورقة دون ان يدري أحسد ،

واتحدى أي صديق أو عدو ان يثبت علينا سوء نية في عملنا هذا او
انه يمس من قريب او من بعيد والدك المحبوب !
وكان ادهم يراقب نجماً فاق الأنجم بضياءه اللامع فقال متجاهلاً
قولها :

- ما اجمل السماء ! لولا رطوبة الليل جلست في الحديقة أراقبها
من خلل الغصون ..
- لا شك انه ميمز البعض في شروطه ..

فهتف ادهم :
- ما ازهدني في امتياز لا يحجر وراءه الا المتاعب ..
فقالت متنهدة :

- لو كنت اعرف القراءة لذهبت بنفسي الى الصندوق الفضي ..
تمنى لو كان ذلك كذلك . وتضاعف حنقه عليها وعلى نفسه . بل
شعر بأنه قد وقع في المحذور فعلاً وأنه يفكر فيه كحدث مضى .
وتحول نحوها مقطباً فبدا وجهه على ضوء المصباح المرتعش بالنسيم المتسلل
من النافذة متجهماً ، ضعيفاً رغم تجهمه وقال :

- لعنت حين افضيت اليك بالخبر !
- لا أريد بك شراً ، ومحبي لوالدك مثل محبتك له ..
- دعيك من هذا الحديث المتعب ، في هذه الساعة تستحب الراحة .
- يبدو ان قلبي لن يرتاح قبل الاقدام على هذا العمل السهل ..
ففنخ قائلاً :

- اللهم ارجع اليها عقلها !
فرمقته بنظرة المتحضر ثم سأله :
- ألم تخالف أباك باستقبالك ادريس في النظرة ؟
فاتسعت عيناه دهشة وقال :
- وجدته أمامي فلم يسعني الا استقباله ..

— هل اخبرت والدك بنبا زيارته ؟

— ما اقلقك الليلة يا أميمة ..

فقلت بصوت الظافر :

— اذا جاز لك ان تخالفه فيما قد يضرك فكيف لا تخالفه فيما يفيدك

ويفيد أهلك ولا يضر أحداً .. ؟

بوسعه ان يقطع الحديث لو شاء . ولكن المنحدر كان شديد الانحدار .
والحق انه لم يتركها تسترسل في حديثها الا لان جزءاً من نفسه كان
بحاجة الى تأييدها . وتساءل فيما يشبه الغضب :

— ماذا تعنين ؟

— أعني ان تسهر حتى الفجر ، او حتى يخلو المكان لنا ..

فقال بامتعاض :

— ظننت الحمل قد افقدك عاطفتك وحدها ، ولكن ها هو يفقدك

عقلك ايضاً ..

— انت مقتنع بما أقول وحق من خلق الروح في بطني ، ولكنك

خائف ، والخوف لا يلبق بك ..

فاكفهر وجهه اكفراً منقطع الاسباب بالترخي الساري في داخله

وقال :

— سنذكر هذه الليلة اول زعل فرق بيننا ..

فقلت برقة عجيبة :

— أدهم ، دعنا نفكر جادين في الامر ..

— لن نجني خيراً ..

— هذا قولك ولكنك سترى ..

شعر بوهج النار وهو يقترب منها . قال لنفسه : « اذا احترقت فلن
تجدي دموعي في اخادعها » وحول رأسه الى النافذة فخيل اليه ان سكان
ذلك النجم اللامع سعداء لبعدهم عن هذا البيت . وتم بصوت ضعيف :

- لم يحب احد أباه كما احبه .
 - ما ابعدك عما يسيئه ..
 - أميمة ، ما أحوجك الى النوم !
 - أنت الذي طيرت النوم عن عيني ..
 - أملت ان اسمع عندك صوت العقل ..
 - ما اسمعتك غيره ..
 وساءل نفسه بصوت منخفض كالهمس :
 - ترى هل أندفع نحو الخراب ؟
 فربت يده الملقاة على مسند الكنية وقالت بعتاب :
 - مصبرنا واحد يا ناكرا الحب !
 فقال في استسلام دل على انه اتخذ قراره :
 - ولا هذا النجم يدري ما مصيري !
 فقالت بانطلاق :
 - ستقرأ مصبرك في الحجة ..
 ومدّ بصره نحو النجوم الساهرة ، وقطع السحاب المستضيئة بنورها
 الهادى ، وخيل اليه انها مطلعة على نجواه فغمغم : « يا لطف السماء » .
 ثم سمع أميمة وهي تقول في نبرات مداعبة :
 - أنت علمتني حب الحديقة ، دعني أرد إليك الجميل ..

٨

وعند الفجر غادر الأب حجرته قاصداً حديقة . كان ادهم بأقصى
 الردهة يتربع وأميمة خلفه ممسكة بكتفه في الظلام . تابعا وقع الأقدام

الثقل المتزن ولكنها لم يتبين اتجاهها في الظلام ، وكان من عادة الجبلأوي ان يسير في هذه الساعة دون حاجة الى ضوء او رفيق . وسكت الصوت فالتفت ادهم نحو زوجه هامساً :

— الا يحسن بنا ان نعود ؟

فدفعته وهي تهمس في أذنه :

— عليّ اللعنة ان كنت أضمر سوءاً لانسان .

فتقدم بخطوات حذرة ، في اضطراب أليم ، ويده قابضة على شمعة صغيرة في جيبه ، وجعل يتحسس الجدار حتى مست يده مصراع الباب . وهمست أميمة :

— سأبقى هنا لأرقب المكان ، اذهب مصحوباً بالعناية .

ومدت يدها فدفعت الباب حتى انفتح ثم تراجعت . ومضى ادهم نحو الحجرة بخطواته الحذرة فتلقى من داخلها رائحة مسكية شديدة النفاذ . ورد الباب وراءه ووقف يحملق في الظلام حتى تبين له خصائص النوافذ المظلة على الخلاء وهي تنضح بنور الفجر . شعر ادهم بأن الجريمة — ان كان ثمة جريمة — قد وقعت بدخوله الحجرة وان عليه ان يتم عمله . سار مع الجدار الأيسر ، مرتطلاً احياناً بالمقاعد ، ماراً في طريقه بباب الخلوة ، حتى بلغ نهايته ، ثم مال مع الجدار الأوسط ، وما لبث ان عثر على الخوان . جذب الدرج ، وتحسس ما بداخله حتى وجد الصندوق ، ثم شعر بحساجة الى الراحة ليأخذ نفسه . ورجع الى باب الخلوة ، ففتش عن ثقبه ، ثم وضع فيه المفتاح واداره ، وفتح الباب ، واذا به يتسلل الى الخلوة التي لم يدخلها احد قبله الا الأب . رد الباب ، فأخرج الشمعة ، ثم اشعلها ، فرأى مربعاً ذا سقف عال لا منفذ فيه الا الباب ، مفروش الارض بسجادة صغيرة ، وعند ضلعه الأيمن ترابيزة انيقة عليها المجلد الكبير الذي ثبت في الجدار بعلاقة من صلب . ازدرد ادهم ريقه الجاف بشيء من الألم كأن وعكة اصابت اللوزتين ، وعض

على اسنانه ، كأنما ليعصر الخوف الساري في اوصاله المرعش للشمعة في يده . واقترب من الترابيزة وهو يحلق في غلاف المجلد المزخرف بخطوط موهة بالذهب ، ثم مد يده ففتحه . وجد مشقة في تركيز ذهنه ونفض الاضطراب عنه . وبدأ يقرأ بالخط الفارسي « باسم الله .. » لكنه سمع الباب وهو يفتح بغنة . انجذب رأسه نحو الصوت بقوة ودون وعي كأن الباب شده اليه وهو يفتح . رأى الجبلادي على ضوء شمعة يسد الباب بحسمه الكبير ملقياً عليه نظرة باردة قاسية . حلق ادهم في عيني ابيه في صمت وجمود ، وتخلت عنه قوى الكلام والحركة والتفكير . وأمره الجبلادي قائلاً :

— اخرج .

لكن ادهم لم يستطع حراكاً . بقي في موقفه كالجماد الا ان الجماد لا يشعر بالقنوط . وهتف الأب :

— اخرج .

ابقظه الرعب من نجمده فتحرك ، وتخلى الأب عن الباب ، فغادر ادهم الخلوة والشمعة ما تزال تحترق في يده . ورأى أميمة واقفة وسط الحجرة صامتة ، والدمع ينحدر تباعاً من مقلتيها . وأشار له الأب ان يقف الى جانب زوجته ففعل ، ثم خاطبه بصرامة قائلاً :

— عليك ان تجيب على اسئلتي بالصدق .

فنطقت اساريره بالامثال . وسأله الرجل :

— من الذي اخبرك بالكتاب ؟

فقال ادهم دون تردد كوعاء تحطم فسال ما فيه :

— ادريس .

— متى ؟

— صباح أمس .

— كيف تم اللقاء بينكما ؟

- اندسّ بين المستأجرين الجدد وانتظر حتى انفرد بي .
- لماذا لم تطرده ؟
- عز عليّ طرده يا ابي .
- فقال الجبلاوي بحدة .
- لا تخاطبني بالابوة .
- فاستجمع ادهم قواه قائلاً :
- انك ابي رغم غضبك ورغم حماقتي .
- أهو الذي اغراك بفعلتك ؟
- وأجابت أميمة دون ان يوجه اليها السؤال :
- نعم يا سيدي .
- اخرسي يا حشرة .. (ثم موجهاً الخطاب الى ادهم) .. اجب !
- كان يائساً حزيناً نادماً وود لو يطمئن على مستقبل ذريته .
- وفعلت هذا من اجله !
- كلا .. اعتذرت له عن عجزتي .
- وماذا غيرك ؟
- فتنهد ادهم يائساً وتمتم .
- الشيطان !
- فسأله ساخراً :
- هل اخبرت زوجتك بما جرى بينك وبينه ؟
- هنا انتحبت اميمة فنهرها الجبلاوي ان تخرس ، وحث ادهم على
- الاجابة باشارة من اصبعه ، فقال :
- نعم .
- وماذا قالت لك ؟
- لاذ ادهم بالصمت كي يزدرد ريقه فصاح به :
- اجب يا وضعيع .

- وجدت بها رغبة في الاطلاع على الوصية وظنت ان ذلك لن يضر احداً .

فحدجته باحتقار شديد وقال :

- وهكذا انصعت الى خيانة من فضلك على من هم خير منك .

فقال ادهم بصوت كالأنين :

- لن يسمعني دفاع عن ذنبي ، لكن مغفرتك اكبر من الذنب

والدفاع .

- تتأمر عليّ مع ادريس الذي طردته اكراماً لك ؟

- لم اتأمر مع ادريس ، لقد اخطأت ، ولا نجاة لي الا بمغفرتك .

وهتفت أميمة بتوسل :

- سيدي ..

فقاطعتها قائلاً :

- اخبرني يا حشرة .

وجعل يردد عينيه بينهما عابساً ، ثم قال بصوت رهيب :

- اخرجا من البيت .

وهتف ادهم :

- ابي .

فقال الرجل بصوت غليظ :

- غادرا البيت قبل ان تلقيا خارجاً .

٩

فتح باب البيت الكبير ليشهد هذه المرة خروج ادهم وأميمة مطرودين .
خرج ادهم يحمل بقعة ملابس ، وتبعته أميمة حاملة بقعة ثانية وأطعمة خفيفة .

خرجوا ذليلاً حزينين باكين بلا أمل . وعندما سمعوا صوت الباب وهو يغلق خلفها ارتفع صوتاهما بالنحيب . وقالت أميمة وهي تنسج :

— الموت دون ما استحق من جزاء !

فقال ادهم بصوت متهدج :

— لأول مرة تصديق ، ولكن الموت دون ما أستحق كذلك !
وما كادا يتعدان قليلاً عن البيت حتى دوت ضحكة ساخرة مخمورة ،
فنظروا نحو مصدرها ، فرأيا ادريس امام كوخه الذي بناه من الصفائح
والانخشاب وقد جلست امرأته نرجس وهي تغزل صامته . كان ادريس
يضحك في سخرية وشماته حتى دخل ادهم وأميمة فوقاً يحملقان فيه .
وراح ادريس يرقص ويفرقع بأصابعه حتى ضجرت نرجس فأتت الى
الكوخ . تابعه ادهم بعينين محمرتين من البكاء والغضب . ادرك في لحظة
المكر الذي مكره فتكشف له عن حقيقة الحبشة المجرمة . وادرك ايضاً
مدى حقه وغبائه الذي يرقص له المجرم شماته وفرحاً . هذا هو ادريس
الذي استحال شراً مجسداً . وغلى دمه حتى فار فأغرق غمه . وقبض على
حفنة من تراب ورماء بها وهو يصيح بصوت مختنق بالغضب :

— يا قذر ، يا لعين ، ان العقرب بالقياس اليك حشرة مستأنسة !
فأجاب ادريس بمزيد من حركاته الراقصة ؛ هز رقبته يمنة ويسرة ،
ولعب حاجبيه وما زال يفرقع بأصابعه . وتضاعف غضب ادهم فصاح :
— الفساد والدناءة والوضاعة هذه هي صفات المخادعين الكاذبين .
فراح ادريس يهز وسطه بمثل الرشاقة التي هز بها رقبته ويرسم بنيه
ضحكة صامته قبيحة ، فصاح ادهم دون التفات الى أميمة التي حاولت
ان تدفعه الى المسير :

— حتى الدعارة تجربها يا أقذر من خلق !

فضى ادريس يهز عجيزته وهو يدور حول نفسه في بطاء ودلال
فأعنى الغضب ادهم فرمى بالقنطرة ارضاً ودفع أميمة التي هتت بالتعلق

به وجرى نحوه حتى قبض على عنقه وشد عليه بكل قوته . لم يبد على ادريس انه تأثر بالمنقض ولا بقبضته . وواصل الرقص وهو يتألق في تأوذه . وجن جنون ادهم فانها على ادريس ضرباً ولكن ادريس ازداد عبثاً وراح يغني بصوت كربه :

حطة يا بطة ويا دقن القطة

وتوقف بغته وهو يزجر ، ثم دفع ادهم في صدره دفعة قوية تفهقر على اثرها يترنخ ثم اختل توازنه فسقط على ظهره . وهرعت اليه أمية صارخة فساعدته على النهوض وأخذت تنفض الغبار عن ثوبه وتقول :
— مالك انت وهذا الوحش ؛ فلنبعد عنه ..!

وتناول البقجة صامتاً ، وحملت زوجه بقعجتها وابتعدا حتى طرف البيت الآخر ، وكان الاعياء قد نال منه فرمى بالبقجة وجلس عليها وهو يقول : « لنسرح قليلاً » . فجلست المرأة قبالة وقد رجعت تبكي . واذا بصوت ادريس يترامى اليها قوياً كالرعد ، صاحبه يقف ناظراً الى البيت الكبير نظرة التحدي ويصيح :

— طردتني اكراماً لأحقر من انجبت ، أرأيت كيف كان سلوكه نحوك ، ها انت ترميه بنفسك الى التراب ، عقاب بعقاب والبادي اظلم ، كي تعلم ان ادريس لا يقهر ، فلتبق وحدك مع ابنائك العقاء الجبناء ، لن يكون لك حفيد الا من يسعى في التراب ويتقلب في القاذورات ، غداً يسرحون بالبطاطة واللب ، غداً يتعرضون لصفعات الشتات في العطوف وكفر الزغاري ، غداً يمتزج دمك بأحقر الدماء ، وتقبح انت وحيداً في حجرتك تبدل وتغير في كتابك كيف شاء لك الغضب والفشل وتعاني وحدة الشيخوخة في الظلام ، حتى اذا جاء الأجل فلن نجد عيناً تبكيك .

ثم التفت صوب ادهم وواصل صاحبه الجنوني :
— وأنت ايها الضعيف كيف تلقى الحياة وحدك ؟! لا قوة فيك

تؤيدك ولا قويّ لديك تعتمد عليه ، وماذا تفيدك مبادئ القراءة والحساب في هذا الخلاء ؟! ها .. ها .. ها ..

ولم ترل أميمة تبكي حتى ضاق بها ادهم فقال في فتور :
- كفّي عن البكاء .

فقالت وهي تجفف عينها :

- سأبكي كثيراً ، انا الآئمة يا ادهم .

- لست دونك اثماً ، لو لم تلقي مني ضعيفاً نذلاً ما وقع الذي وقع .

- الذنب ذنبي وحدي .

فهتف بغيظ :

- انك تحملين على نفسك لتتقي حملتي عليك ..

فباخت حيتها في اتهام نفسها وأحنت رأسها ملياً ، ثم عادت تقول

بصوت ضعيف :

- لم أكن اقصور ان تبلغ قسوته هذا الحد !

- اني اعرفه ولا عذر لي .

فترددت قليلاً ثم قالت :

- كيف اعيش هنا وأنا حيلي ؟!

- في هذا الخلاء نعيش بعد البيت الكبير ، ليت للدموع جدوى ،

ولكن ليس اسامنا الا ان نقيم كوخاً لنا .

- اين ؟

فنظر فيما حوله ، ووقف نظره قليلاً صوب كوخ ادريس ، ثم

قال بقلق :

- لا يجوز ان نبتعد كثيراً عن البيت الكبير ولو اضطررنا الى البقاء

غير بعيد من كوخ ادريس ، والا هلكنا وحدنا في اطراف هذا الخلاء .

ففكرت اميمة قليلاً ثم قالت بوجه مال الى الاقتناع برأيه :

- نعم ، ولكي نبقى على مرمى بصره لعلّه يروّحنا .

فأواه ادهم قائلاً :

— الحسرة تقتلني ، ولولاك لتوهت ما بي كابوساً ، هل يجفوني
قلبه الى الأبد ؟ لن اتناول عليه كادريس ، هيهات ، لست كادريس
في شيء ، فهل القى نفس المعاملة ؟

فقال أميمة في حنق :

— لم تعرف هذه الأحياء أباً مثل أبيك .

فتساءل بعينين حادتين :

— متى يتوب لسانك !

فانفعلت قائلة :

— والله ما ارتكبت جريمة ولا أثماً ، خبّر من تشاء بما فعلت وبما
نلت جزاء ما فعلت واراهاك على انه سيضرب كفاً بكف ، والله ما
عرفت الابوة أباً كأبيك .

— ولا عرفت الدنيا رجلاً مثله ، هذا الجبل وهذه الصحراء وهذه
السماء تعرفه ، ومثله يُجنّ عند التحدي .

— بهذا الجبّروت لن يبقى في البيت احد من ابنائه .

— نحن اول الخارجين فنحن شر من فيه .

فقال بامتعاض :

— لست كذلك ، لسنا كذلك .

— الحكم الصحيح لن يكون الا عند الامتحان .

لاذ كلاهما بالصمت. لم يكن بالخلاء حي يُرى ، الا بعض العابرين
عن بعد عند سفح الجبل . وكانت الشمس ترسل اشعة حامية من سماء
صافية فتغمر الرمال المترامية حيث يلعب الحصا او قطع الزجاج المتناثرة .
ولم يكن من قائم الا الجبل في الأفق ، وصخرة كبيرة في الشرق كأنها
رأس جسم مطمور في الرمال ، وكوخ ادريس عند الطرف الشرقي
للبيت الكبير ينغرس في الأرض متحدياً بهيئته الزرية . كان الجو كله

ينذر بالشقاء والتعب والخوف . وتنهدت اميمة بصوت مسموع وقالت :
- سنتعب كثيراً حتى تتيسر لنا الحياة .
فرنا ادهم الى البيت الكبير وقال :
- وسنتعب اكثر حتى يفتح لنا هذا الباب مرة اخرى .

١٠

شرع ادهم وأميمة في اقامة كوخ لها عند الطرف الغربي للبيت الكبير .
كانا يجيشان بالاحجار من المقطم ، ويجمعان الصفائح من سفح الجبل ،
ويلتقطان الاخشاب من مشارف العطوف والجمالية وباب النصر . وتبين
لها ان بناء الكوخ سيستغرق وقتاً اطول مما قدرا ، وصادف ذلك نفاد
الزاد الذي حملته اميمة من البيت من جبن وبيض وعسل اسود ، فقرّر
ادهم ان يبدأ بالسعي في سبيل رزقه . ورأى ان يبيع بعض ثيابه الثمينة
ليشتري بئسها عربة يد لبيع البطاطة والملانة والخيار وغيرها على حسب
المواسم . وعندما اخذ في جمع ثيابه اجهشت اميمة في البكاء من شدة
التأثر ، ولكنه لم يستجب لعواطفها ، فقال وهو بين السخط والسخرية :
- لم تعد هذه الثياب تناسبني ، أليس من المضحك ان اسرح ببطاطة

وأنا متلفع بعباءة مزركشة من وبر الجمل ؟!

ثم شهدته الخلاء وهو يدفع عربته نحو الجمالية ، الجمالية التي لم تنس
بعد زفته ، وانقبض قلبه وانحبس صوته فكف عن النداء ، وكادت
تغرورق عيناه . واتجه نحو الاحياء البعيدة متهرباً . وكان يواظب على
المشي والنداء من الصباح الى المساء حتى كلت يداه وانجرد نعلاه وسرت
الاجوع في قدميه ومفاصله . وكل كان يشق عليه مساومات النسوان ،
او ان يضطره الاعياء الى افتراش الأرض لصق جدار ، او ان يقف

في ركن ليفك حصره . بدت الحياة غير حقيقية ، وأيام الحديقة وإدارة الوقف والمخدع المطل على المقطم كالأساطير . وجعل يقول لنفسه : « لا شيء حقيقي في هذه الدنيا ، هي البيت الكبير ، هي الكوخ الذي لم يتم ، هي الحديقة هي عربة البد ، هي الأمس واليوم والغد ، لعلني أحسنت صنعاً بالاقامة قبالة البيت حتى لا أفقد الماضي كما فقدت الحاضر والمستقبل ، وهل من عجب أن أخسر الذاكرة كما خسرت أبي وكما خسرت نفسي ؟ ! » . فاذا عاد أول الليل إلى أميمة فليس إلى الراحة يعود ، ولكن ليواصل العمل في بناء الكوخ . ومرة جلس في حارة الطوايط عند الظهر ليستريح فنفس . واستيقظ على حركة فرأى غلاماً يسرقون عربته فنهض مهتماً . وراه غلام فنبه أقرانه بصغير ودفع العربتين ليشغله بها عن مطاردتهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين كالجراد . وغضب أدهم غضباً شديداً حتى قذف فوه المهذب بسيل من أقذع الشتائم ، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذي لوث بالطين . وتضاعف غضبه دون أن يجده له متنفساً فراح يقول بتأثر وانفعال : « لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة ؟ لماذا كانت كبرياؤك أحب إليك من لحمك ودمك ؟ وكيف تنعم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا نداس بالأقدام كالحشرات ؟ والعفو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك الكبير أيها الجبار ! » . وقبض على يدي العربة وهم يدفعها بعيداً عن الحارة اللعينة ، وإذا بصوت يقول متهمكماً :

— بكم الخيار يا عم ؟

رأى أدریس واقفاً يبتسم ابتسامة ساخرة ، رافلاً في جلباب مقلم بألوان زاهية ، وعلى رأسه لاسة بيضاء . رآه باسمًا ساخراً لا تأثراً ولا هائجاً فصاقت لمنظره الدنيا في عينيه رغم ذلك . ودفع العربة ليذهب ، ولكن أدریس اعترض سبيله وهو يقول في دهشة :

— ألا يستحق زبون مثلي حسن المعاملة ؟

فارتفع رأس ادهم في عصبية وهو يقول :
— دعني وشأني .

فأمن ادريس في السخرية متسائلاً :

— ألم تجد خيراً من هذه اللهجة تخاطب بها اخاك الأكبر ؟
فقال ادهم بلهجة المتصبر :

— يا ادريس اما كفك ما فعلت بي ؟ لا اريد ان تعرفني او
ان اعرفك !

— كيف يتأتى هذا ونحن في حكم الجيران ؟

— ما اردت جوارك ولكني قصدت أن أبقى قريباً من البيت الذي ..
فقاطعه هازئاً :

— الذي طردت منه !

فسكت ادهم وقد تجلى الضيق في شحوب وجهه ، فاستطرد الآخر قائلاً :

— النفس تتعلق بالمكان الذي تطرد منه ، أليس كذلك ؟

فلم يخرج ادهم عن صمته ، فقال الآخر :

— انك تطمع في العودة الى البيت يا مكر ، انك ضعيف حقاً
ولكنك ملء بالمكر ، الا فاعلم بأني لن اسمح لك بالعودة وحدك ولو
انطبقت السماء على الأرض .

فتساءل ادهم ومنخراه يتحركان من الخلق :

— ألم يكفك ما فعلت بي ؟

— ألم يكفك انت ما فعلت بي ؟ من اجلك طردت وكنت
كوكب البيت المنير .

— بل طردت بسبب نفسك المتعجرفة .

فقهقه ادريس قائلاً :

— وطردت انت بسبب نفسك الضعيفة ، فلا مكان في البيت الكبير
للقوة ولا للضعف ! فانظر الى استبداد ابيك . انه لا يسمح باجتماع القوة

- والضعف في نفس الا نفسه هو ، انه القوي لحد الفتك بفلذات كبراء ،
الضعيف لحد الزوج من أم كأمك .
- فقطب ادهم غاضباً وقال بتهديج :
- دعني اذهب ، وتحرش اذا شئت بقوي مثلك .
- ابوك يتحرش بالاقوياء والضعفاء .
- فصمت ادهم وازداد وجهه عبوساً فقال ادريس هازئاً :
- لا تريد ان تتورط في تجريحه ! هذا مكر من مكر ، ودليل
على انك ما زلت تحلم بالعودة .
- ثم تناول خيارة وأخذ ينظر اليها باشمزاز ثم قال :
- كيف سولت لك نفسك ان تسرح بهذا الخيسار الملوث ! الم
تجد عملاً اشرف من هذا ؟
- اني راض عنه !
- بل اضطرتك الحاجة اليه ، على حين ينعم ابوك بالعيش الرغيد ،
فكّر قليلاً في الأمر ، اليس من الأكرم لك ان تنضم الي ؟ !
- فقال ادهم في ضجر :
- لم اخلق لحياتك !
- انظر الى جلبابي ! كان صاحبه يرفل فيه امس دون وجه حق !
- فلاح التساؤل في عيني ادهم وقال :
- وكيف حصلت عليه ؟
- كما يفعل الأقوياء !
- أسرق أم قتل ! . وقال بحزن :
- لا أصدق انك اخي ادريس !
- فقال وهو يقهقه :
- لا تعجب ما دمت تعلم انني ابن الجبلاوي !
- فهتف ادهم في نفاد صبر :

— هلا اوسعت لي الطريق ؟

— كما تشاء لك حماقتك !

وملاً جيبه بالخيار ، وألقى عليه نظرة ازدراء ، ثم ابصق على العربة ومضى .
ووقفت اميمة تستقبله وهو يقترب من الكوخ . كانت الظلمة تغشى
الحلاء ، وفي داخل الكوخ شمعة تحترق كأنها رmq في صدر مختضر ،
اما في السماء فالنجوم تزهر ، وعلى ضوئها يبدو البيت الكبير كشبح
عملاق . ادركت اميمة من صمته انه على حال يستحسن معها تجنبه .
قدمت اليه كوز ماء ليغسل اطرافه وجاءته بجلباب نظيف . وغسل وجهه
وقدميه وبذل جلبابه ثم جلس على الأرض ومدّ ساقيه . واقتربت منه
في حذر ، فجلست وهي تقول بلهجة الاسترضاء :

— ليتني أتحمّل عنك بعض تعبك .

وكأنها حكّت اجرب فصاح :

— اخرسي يا اصل الشر والتعاسة .

فتحزّحت بعيداً عنه حتى كادت تختفي ، ولكنه صاح :

— انك خير من يذكّرني بغفلي وحقاقتي ، ملعون اليوم الذي
رأيتك فيه .

فجاءه في الظلام انتعابها ولكنه ضاعف من غضبه فقال :

— سحقاً لدموعك ! ان هي الا عرق الخبث الذي يمتسلي
به جسدك .

فجاءه صوتها الباكي قائلاً :

— كل قول يهون بالقياس الى عذابني .

— لا تسمعيني صوتك ، وابعدي عن وجهي .

وكور ثوبه المخلوع ورماها به فتأوهت قائلة : « بطني ! » . وسرعان
ما برد غضبه ، وأشفق من العواقب . وأنست هي من صمته تراجعاً فقالت
بصوت المتوجع :

- سأذهب بعيداً كما تريد .
وقامت فمضت تبتعد حتى صاح بها :
- هل ترين الوقت مناسباً للدلال ؟
ثم تحفّز للقيام وهو بصيحه :
- ارجعي لا رجعت اليك الراحة .
وأحدت بصره في الظلام حتى رأى شبحها يعود فأسند ظهره الى جدار
الكوخ ورفع رأسه نحو السماء . وود لو يطمئن على بطنها ولكن ابت
كبرياؤه . اجل ذلك الى اجل قريب . ثم مهد له بقوله :
- أغسلي بعض الخيار للعشاء .

١١

مجلس لا يخلو من الراحة . لا نبت فيه ولا ماء ، ولا عصافير
تزقزق فوق الغصون ، لكن أرض الخلاء الجرداء المشاكسة تكتسي في
الليل حلة غامضة يخالها الحالم ما يشاء . وفوقه قبة السماء المرصعة بالنجوم
والمرأة داخل الكوخ ، والوحدة ناطقة ، والحزن كالجمر المدفون تحت
الرماد . وسور البيت العالي يعاند المشتاق ، وهذا الأب الجبار كيف
السيبل الى اسماعه أنيني . ومن الحكمة نسيان الماضي ، لكن ليس لنا من
زمن غيره ، لذلك كرهت ضعفي ولعنت نذاتي ورضيت الشقاء رفيقاً
وسألد له أبناء . والعصفورة التي لا تصدها قوة عن الحديقة أسعد من
أحلامي ، وعيناي احترقتا شوقاً الى المياه الجارية بين شجيرات الورد ،
وأين غير الحناء والياسمين أين ، أين خلو البال والنأي أين ، أيها
القاسي ، مضى نصف عام فتي يذوب ثلج قسوتك ؟!
وعن بعد ترامى صوت ادريس مغنياً بصوت كريحه : « عجائب والله

عجائب » . واذا به يوقد ناراً امام كوخه فاشتعلت كأنها شهاب هوى فانفجر في الأرض ، وكانت زوجه تذهب وتجيء يبطنها المتدلى لتقدم طعاماً او شرباً . ولطمته موجة سكر فصاح في السكون موجهاً الخطاب إلى البيت الكبير : « هذا أوان الملوخية والفراخ المحمرة ، اطفحوها سماً يا أهل البيت ! » ، ثم عاد الى الغناء .

وقال أدهم لنفسه متأسفاً : « كلما خلوت الى نفسي في الظلام جاء الشيطان فأشعل ناره وعربسده فأفسد علي خلوتي ! » . وظهرت أميمة عند باب الكوخ فعلم انها لم تتم على خلاف ظنه . وكانت من الحمل في أعياء ، ومن الجهد والفقر على حال لا تسر . وقالت برقة واشفاق :

— ألا تنام !؟

فقال في ضجر :

— دعيني للساعة الوحيدة التي تطيب فيها الحياة ..

— ستسعي بعربتك مع الصباح الباكر فما احوجك الى الراحة ..

— في وحدتي ارتد سيداً أو شبه سيد ، أنسأمل السماء واتذكر

الأيام الخالية .

فتنهدت بصوت مسموع وقالت :

— أود لو رأيت أباك ذاهباً من البيت أو راجعاً اليه ان أرمي بنفسي

تحت اقدامه وان استغفره .

فقال أدهم في جزع :

— قلت لك مراراً ان تقلعي عن هذه الأفكار ، فليس بهذه الوسيلة

يمكن ان نسترد عطفه .

فصمت ملياً ثم قالت همساً :

— لاني أفكر في مصير الشيء الذي في بطني .

— ولا شغل لي إلا هذا رغم اني لم أعد الا حيواناً قذراً .

فتمتت بحزن :

— والله انك خير الرجال جميعاً .
فضحك أدهم ساخراً وقال :
— لم أعد انساناً ، فالحَيوان وحده هو الذي لا يهتم الا الغذاء .
— لا تحزن ، كم من رجل بدأ مثلك ، ثم تيسر له العيش الرغيد
فلك الدكاكين والبيوت !

— أراهن على ان أوجاع الحبل قد بلغت رأسك !
فقالت باضرار :
— ستكون رجلاً ذا شأن ، وسينشأ ولدنا في أحضان النعيم ..
فضرب أدهم كفاً بكف وتساءل ساخراً :
— أأبلغ ذلك بالبوظة أم بالحشيش ؟
— بالعمل يا أدهم .
فقال في سخط :

— العمل من أجل القوت لعنة اللعنات ، كنت في الحديقة أعيش ،
لا عمل لي إلا ان انظر الى السماء أو انفخ في الناي ، أما اليوم فلست
إلا حيواناً ، ادفع العربة أمامي ليل نهار في سبيل شيء حقير نأكله مساء
ليأفظه جسمي صباحاً ، العمل من أجل القوت لعنة اللعنات ، الحياة
الحقة في البيت الكبير ، حيث لا عمل للقوت ، وحيث المرح والجمال
والغناء .

واذا بصوت ادريس يقول :
— نطقتم بالحق يا أدهم ، العمل لعنة ، وهو ذل لم نعتده ، ألم
أعرض عليك الانضمام إلي ؟ !
التفت أدهم نحو الصوت فرأى شيخ ادريس واقفاً على قرب منه
هكذا يتسلل في الظلام دون ان يشعر به فيتنصت الى الحديث ما شاء
له التنصت ، ويشترك فيه اذا حلا له ذلك . ووقف أدهم متفعللاً
وهو يقول :

— عد إلى كوخك .

فقال ادريس بلهجة جدية مفتعلة :

— اني مثلك اقول إن العمل لعنة لا تليق بكرامة الانسان .

— انك تدعوني الى البلطجة وهي أقدر من اللعنة .

— اذا كان العمل لعنة والبلطجة قذارة فكيف يعيش الانسان ؟

فلم يرتح الى محادثته فصمت ، وانتظر ادريس ان يتكلم فلم يتكلم ، فقال :

— لعلك تريد رزقاً بلا عمل ؟ ولكن ذلك سيكون حتماً على حساب الآخرين !

وثابر أدهم على صمته فعاد الآخر يقول :

— أم لعلك تريد رزقاً بلا عمل دون ان يضار .. أحد ؟!

وضحك ضحكة كريمة وقال :

— هذه ضرورة يا ابن الجارية !

وصاحت أميمة بغضب :

— عد الى كوخك واخز الشيطان .

ونادته امرأته بحدة ، فرجع من حيث أتى وهو يترنم : « عجائب والله عجائب » .

وتوسلت أميمة الى زوجها قائلة :

— تجنب الاشتباك معه بأي ثمن .

— اني اجده فجأة فوق رأسي دون ان ادري كيف جاء .

وساد صمت اتخذاً منه مسكناً لانفعالهما . وعادت أميمة تقول بركة :

— قلبي يحدثني بانني ساجعل من كوخنا بيتاً شبيهاً بالبيت الذي طردنا منه ، لن تنقصه الحديقة ولا البلابل ، وسيلقى وليدنا فيه كل راحة ومتعة .

فوقف أدهم وهو يبتسم ابتسامة لم ترها في الظلام ، وقال ساخراً

وهو ينفض التراب عن جلبابه :

— الخيار القشطة ! .. الخيار السكر !. والعرق يتصبب من جسدي والغلمان يتسلون بمعاكستي ، والأرض تأكل قدمي ، في سبيل ملاليم .. ودخل الكوخ فتبعته وهي تقول :

— لكن سيأتي يوم المرح والغناء .

— لو كنت تشقين ما وجدت وقتاً للحلام .

ورقد كل منها على خيشة محشوة بالقش ، وهي تقول :

— أليس الله بقادر على ان يجعل من كوئنا بيتاً كالبيت الذي طردنا منه .. ؟

فقال أدهم وهو يتثائب :

— أمني أن أعود إلى البيت الكبير .

ثم وهو يتثائب بدرجة أعلى :

— العمل لعنة !

فقال بصوت هامس :

— ربما ، ولكنها لعنة لا تزول الا بالعمل !

١٢

وذاذ ليلة استيقظ أدهم على تأوهات عميقة . ولبث وهو بين النوم واليقظة حتى تبين صوت أميمة وهي تتوجع هاتفة : « آه يا ظهري .. آه يا بطني » ، فجلس من فوره وهو يحملق صوبها ، ثم قال :

— هذا حالك هذه الأيام ثم ينجلي عن لا شيء ، أشعلي الشمعة .

فقال وهي تئن :

— اشعلها بنفسك ، هذه المرة جد .

فقام يتحسس موضع الشمعة بين أدوات الطهي حتى عثر عليها ، فأشعلها ، وثبتها على الطاوية ، فبذت أميمة على الضوء الحافت جالسة

متكة على ساعديها ، تئن ، وترفع رأسها لتنفس بصعوبة ظاهرة .
وقال الرجل بقلق :

— هذا ما تظننه كلما شعرت بوجع .

فقال بوجه متقلص :

— كلا ، أنا متأكدة ان هذه المرة جد .

وساعدها حتى اسند ظهرها الى جدار الكوخ ثم قال :

— هو شهرك على أي حال ، تجلدي حتى أذهب الى الجمالية
لأحضرك الداية .

— صحبتك السلامة . ما الوقت الآن ؟

مضى أدهم خارج الكوخ ، وجعل ينظر الى السماء ؛ ثم قال :

— الفجر قريب ، لن أغيب إلا مسير الطريق .

واندفع يسير على عجل نحو الجمالية . ثم عاد يشق الظلام وهو قابض
على يد الداية العجوز ليهديها السبيل . وعند اقترابه من الكوخ ترامي
إليه صراخ أميمة الذي مزق السكون ، فحقق قلبه وأوسع خطاه حتى
تشكت الداية . ودخلا الكوخ معاً ، فخلعت المرأة ملاءتها وهي تقول
لأميمة ضاحكة :

— جاء الفرج ، وما بعد الصبر إلا الراحة .

وسألها أدهم :

— كيف حالك ؟

فقال في صوت كالأنين :

— أكاد أموت من الألم ، جسمي يتفكك ، وعظامي تنكسر ، لا تذهب :

فألت الداية :

— بل ينتظر في الخارج بسلام .

وغادر أدهم الكوخ إلى العراء فلمح شبحاً واقفاً عن قرب ، عرفه
قبل ان يتبينه ، فانقبض صدره ، ولكن ادريس قال مصطنعاً لهجة الأدب :

جاءها الطلاق ؟ مسكينة ، مرت زوجي بهذه الحالة كما تسلم منذ
زمن قصير ، انه ألم كاذب لا يلبث ان يزول ، ثم تتلقى نصيبك من
عالم الغيب كما تلقيتُ هند ، انها طفلة ساحرة ولكنها لا تكف عن
التبول والبكاء ، تجلّد .

فقال أدهم على مضض وضيق :

— الأمر لصاحب الأمر .

فصدرت عن ادريس ضحكة خشنة وتساءل :

— جئت لها بداية الجمالية ؟

— نعم .

— امرأة قدرة ، طاعة ، جئتُ بها أيضاً فغالت في تقدير انعابها
فطردها ، وما تزال تدعو علي كلما رأني ماراً ببيتها .

فقال أدهم بعد تردد :

— ما ينبغي ان تعامل الناس هكذا .

— يا ابن الأكابر ، علمني أبوك ان أعامل الناس بالفظاظة والقسوة .

وارتفع صوت أميمة بصراخ كأنما هو صدى للتمزق الذي يقع في
جوفها ، فانطبقت شفثا أدهم على ما همّ بقوله ، واقترب من الكوخ
قلعاً ، وهتف بصوت رقيق :

— شدي حيلك .

فردد ادريس قوله بصوت مرتفع :

— شدي حيلك يا امرأة أخي .

فأشفق أدهم من سماع زوجه هذا الصوت ، لكنه دارى حنقه قائلاً :

— يحسن بنا ان نقف بعيداً عن الكوخ .

— تعال بنا الى كوخى أقدم لك الشاي ، وترّ هند وهي تغط

في النوم .

لكن أدهم ابتعد عن كوخه دون ان يتجه نحو كوخ الآخر ، وهو

- يلعنه في سره في غيظ مكتوم ، فتبعه ادريس وهو يقول :
- ستكون أباً قبل طلوع الصبح ، انه تغير خطير ، من فوائده ان
تشر بالرابطة التي يمزقها أبوك في يسر وبلادة .
- فنفس أدهم عن ضيقه بقوله :
- هذا الكلام يضايقي .
- ربما ، لكن لا هم لنا غيره .
- فسكت أدهم متردداً ، ثم قال بشيء من الاشفاق :
- ادريس ، لماذا تتبعني وأنت تعلم ألا مودة بيننا ؟!
- فقهقه ادريس عالياً وقال :
- يا لك من طفل قليل الحياء ، لقد أبقطني صراخ زوجك من
أحلى نومة فلم أسمع لنفسي بالغضب ، وعلى العكس جئت لأقدم لك
المعونة ان كنت في حاجة اليها ، وان أباك ليسمع الصراخ كما سمعته
ولكنه عاود النوم كمن لا قلب له .
- فقال أدهم في صبحر :
- حسبتا ما كتب لنا من مصير ، ألا نستطيع أن تتجاهلني كما
أتجاهلك ؟
- انك تكرهني يا أدهم لا لأنني كنت السبب في طردك ولكن
لأنني اذكرك بضعفك ، انك تكره في نفسك الآثمة ، أما أنا فلم
يعد لي من مبرر لكراهيتك ، بل أنت اليوم عزائي وتسليتي ، ولا
تنس أننا جيران ، وأول من سكن هذا الحلاء من الأحياء ، وسيدب
عليه أولادنا جنباً الى جنب .
- انك تتلذذ بتعديبي .
- فصمت ادريس ملياً حتى منى ادهم نفسه بالخلاص ، ولكنه عاد
يسأل بلهجة جدية :
- لماذا لا نتفق ؟

فقال أدهم وهو يتنهد :
- لأنني بباع على قد حالي وانت رجل هوايتك الضرب والاعتداء.
وعاد صراخ أيممة يعلو ويشند فرفع أدهم رأسه متوسلاً ، فأدرك
من توه ان كثافة الظلام قد خفت ، وان الفجر تسلك الجبل .
وهتف أدهم :

- ما ألعن الألم !

فقال ادريس ضاحكاً :

- ما أجمل الرقة ، خلقت لإدارة الوقف والنفخ في الناي .

- أسخر ما شئت ، إني متألم .

- لماذا ؟ حسبت امرأتك هي المثالة !

فصاح أدهم من فرط جزعه :

- دعني وشأني .

فتساءل الآخر في هدوء مغيظ :

- أتريد ان تصير أباً بلا ثمن ؟

فلزم ادهم الصمت وهو ينفخ فقال ادريس منعطفاً :

- أنت حكيم ، وقد جئت أعرض عليك عملاً تستعين به على
اسعاد المخلوقات القادمة ، ان هذا الذي نسمع مقدمات تشريفه الأول
وليس الأخير ، فان شهواتنا لا تقنع الا بأن تبني فوقنا تلاً من الذرية
الصاخبة ، ما رأيك ؟

- الضياء يلوح فاذهب لتستوفي نومك .

وتعالى الصراخ ، متتابعاً متواصلاً حتى ضاق ادهم بموقفه فرجع الى
الكوخ الذي شق عنه الظلام ، وبلغه وأيممة ترسل تنهدة عميقة مثل
ختام أغنية حزينة . اقترب من باب الكوخ وهو يتساءل :

- كيف الحال عندهم ؟

فجاءه صوت الداية وهو يقول : « انتظر » . تحفز قلبه للارتياح

عندما خيل اليه ان الصوت يوحى بالظفر . وما لبث ان لاحت المرأة
 في الباب وهي تقول :
 - رزقت بذكرين !
 - توأمين ؟
 - فليرزقك الله برزقهما .
 وصكت أذنيه ضحكة ادريس من وراء ظهره وسمعه يقول :
 - ادريس الآن أب لأثنى وعم لذكرين .
 ومضى نحو كوخه وهو يغني : « البخت والقسمة فين يا دي الزمان
 قلتي » . وعادت الداية تقول :
 - ترغب الأم في ان يسميا قدري وهام .
 فراح ادهم يغمغم وقد استخفه السرور :
 - قدري وهام ، قدري وهام .

١٣

قال قدري وهو يخفف وجهه بذيل جلبابه :
 - فلنجلس لتناول طعامنا .
 فقال هام وهو ينظر نحو الشمس المائلة للغروب :
 - نعم ، سرقنا الوقت .
 ثربعا على الرمال تحت سفح المقطم . وحل هام عقدة المنديل الأحمر
 المخطط فكشف عن خبز وطعمية وكراث ، وراحا يأكلان ، وينظران
 بين حين وآخر نحو اغنامهما ، التي هام بعضها على وجهه ، وقعد
 البعض ليجتر في راحة وسلام . لم يكن ثمة ما يميز بين الشقيين في
 الملامح والقسمات ، غير ان نظرة الصائد المتجلية في عيني قدري أضفت

على سحنته حدة مبرزته بطابع خاص . وعاد قدري يقول وهو يطحن الطعام المحتشد في فيه :

— لو كان هذا الخلاء لنا دون شريك لرعينا أغنامنا مرتاحي البال .
فقال همام باسمًا :

— ولكن هذا الخلاء مقصد الرعاة من العطوف وكفر الزغاري والحسينية ، ومن الممكن ان نصادقهم فنتقي شرهم .

فضحك قدري ضحكة هازئة انطلقت من فيه مع فتات من طعامه وقال :

— هذه الحوارية عندها جواب واحد لمن يشد صداقتها هو الصفعات .

لكن ..

— لا لكن يا ابن ابي ، اني اعرف طريقة واحدة ، وهي ان اجذب الرجل من جلبابه وأنطحه في جبينه فيقلب على وجهه او على قفاه .

— لذلك لا نكاد نحصي اعداءنا .

— ومن كلفك باحصائهم ؟!

وتابع همام جيداً أوغل في الابتعاد فراح يصفر له حتى توقف ودار عائداً في صمت الحكيم . وانتقى عوداً من الكراث ومسحه بأصابعه فدفعه في فيه متلذذاً ، ثم قال وهو يتمطق :

— ولذلك نوجدنا وحدنا ، ويمضي الوقت الطويل دون ان نتكلم .

— وما حاجتك الى الكلام وانت تغني طوال الوقت ؟!

فنظر همام اليه بثقة وقال :

— يخيل اليّ انك تضيق بهذه الوحدة احياناً .

— سأجد دائماً عللاً للضيق ، الوحدة او غيرها .

وساد صمت وضع فيه التمتطي . ولاحت عن بعد جماعة عائدة من الجبل نحو العطوف ، تسير على غناء منشد كالحادي والآخرون يرددون .
فقال همام :

— هذه الناحية من الخلاء امتداد لحينا ، ولو ذهبنا شمالاً او جنوباً

فأغلب الظن ان: نن نعود .

فضحك قدري ضحكة مجلجلة وقال :

— ستجد في الشمال وفي الجنوب اناساً يودون قتلي ولكنك لن تجد واحداً يجرؤ على منازلتي .

فقال همام وهو ينظر نحو الأغنام :

— لا يمكن انكار شجاعتك ، ولكن لا تنس أننا نعيش بفضل اسم جدنا وسمعة عمنا المخيفة رغم ما بيننا وبينه من خصام .

فعمد قدري ما بين حاجبيه احتجاجاً ، ولكنه لم يجهر بمعارضة .
وانجه بصره نحو البيت الكبير الذي لاح عن بعد في الغروب هيكلاً ضخماً مطموس المعالم ، وقال :

— هذا البيت ! لم اشهد له مثيلاً ، في خلاء يكتنفه من جميع النواحي ، وعلى مقربة من حوار وأزقة اشتهرت بالجبروت والمشاكسة ، صاحبه جبار بلا جدال ، هذا الجلد الذي لم ير احفاده وهم على بعد اذرع منه !

فانجه بصر همام ناحية البيت ، ثم قال :

— ان ابانا لا يذكره الا مصحوباً بالاجلال والاكبار .

— وعمنا لا يذكره الا مصحوباً بالعنات .

فقال همام باشفاق :

— هو جدنا على اي حال .

— وما جدوى ذلك يا غلام ؟ ان ابانا يكدح وراء عربته ، وأما تكد طوال النهار وشطراً من الليل ، ونحن نعاشر الأغنام حفاة شبه عراة ، اما هو فقابع وراء الأسوار ، بلا قلب ، متمتع بنعيم لا يخطر على بال .

فرغاً من الطعام . نفص همام المنديل ولفه ثم دسه في جيبه ، واستلقى على ظهره متوسداً ذراعيه ، مرسلًا نظريه الى السماء الصافية ، وهي

تظن هدوء المغيب . والهداي تولد في الآفاق . ونهض قدري فانتحي
جانبا ليول ، وقال :

— يقول ابونا انه كان يخرج كثيراً في الماضي فيمر بهم في ذمابه
وابابه ، اما اليوم فلا يراه احد ، وكأنما يخاف على نفسه .
قال همام بنبرات حاملة :

— كم تمنيت ان اراه .

— لا تحلم بأن ترى شيئاً خارقاً ، ستجده شيئاً بأيننا او بعننا ،
او بكليلهما معاً ، اني اعجب لوالدي كيف لا يذكره الا بالاجلال رغم
ما ناله على يديه .

— الظاهر انه كان شديد التعلق به ، او انه آمن بعدالة ما نزل به
من عقاب .

— او انه ما زال يطمع في عفوه !

— انك لا تفهم ابانا ، انه رجل ودود المعشر .

وعاد قدري الى مجلسه وهو يقول :

— انه لا يعجبني ، وأنت لا تعجبني ، أوكد لك ان جدنا شخص

شاذا لا يستحق الاحترام ، ولو كانت به ذرة من خير ما جفا لحمه هذا
الجفاء الغريب ، اني اراه كما يراه عمنا لعنة من لعنات الدهر .

فقال همام باسماء :

— لعل ارذل ما فيه هو ما تنباهي به انت ، اعني القوة والبطش .

فقال قدري بحدة :

— لقد نال هذه الأرض هبة بلا عناء ثم طغى واستكبر .

— لا تنكر ما اعترفت به منذ قليل ، ان الوالي نفسه لم يكن بوسعه

ان يعيش وحده في مثل هذا الحلاء .

— وهل تجد في الحكاية التي رويت لنا مسوغاً حقاً لغضبه على والدنا ؟

— انك تجد اهون منها سبباً كافياً للبطش بالناس !

ماوول قدري الكوز ومضى يشرب حتى روي ، ثم تجشأ وقال :
— ما ذنب الأحفاد ؟ انه لا يدري ما رعي الغنم ، سحقاً له !
أود لو اعرف وصيته ، وماذا أعدّ لنا !

فتنهذ همام وقال بصوت حالم :
— ثروة تربح من العناء ، كي يفرغ المرء لقلبه ، ويمضي العمر
في يسر وطرب .

— انك تردد قول ابينا ، نشقى في التراب والطين ونحلم بالنأي في
ظل حديقة غناء ، الحق اقول اني أعجب بعمي اكثر من ابي .

فجلس همام وهو يتشاءب ، ثم نهض يتمطى ، وقال :
— على اي حال صرنا شيئاً ، لنا مأوى يسعنا ، ورزق يحفظ علينا
الحياة ، واغنام نرعها ، نبيع لبنها ونسمنها لنبيعها ايضاً ، ومن شعرها
تغزل امنا الكساء .

— والنأي والحديقة ؟
فلم يجب ، واتجه نحو الأغنام بعد ان تناول عصاه الملقاة عند قدميه .
ووقف قدري ، وصاح موجهاً خطابه الى البيت الكبير في عبث :
— أسمعك بأن نرتك ام ستعاقبنا في موتك كما عاقبتنا في حياتك ؟
اجب يا جبلاوي .

وردد الصدى : « اجب يا جبلاوي ! »

١٤

ورأيا عن بعد شخصاً يتجه نحوهما لم تتضح معالمه . ومضى القادم
يقرب رويداً حتى تبيناه ، فانقضبت قامة قدري بحركة تلقائية وشعت
عيناه الجميلتان نور ابتهاج . ولحظ همام اخاه باسم ، ثم نظر الى الأغنام

في غير مبالاة وهمس بلهجة تنبيه :

— الظلام غير بعيد .

فهتف قدري باستهانة :

— فليأت الفجر اذا شاء .

ونخطا خطوات نحو الأمام ملوحاً بذراعيه في ترحاب للفناة . وأخذت تدنو من موقفها ، مجهدة من المشي ، لطول المسافة من ناحية ومقاومة الرمال لشبشبهها من ناحية أخرى ، متطلعة نحوها يبصر لأمع يعكس مع فتنة العينين الخضراوين جرأة . وبدت ملتفة بملاءتها اللف حتى الكتفين ، مطلقة الرأس والعنق عاريتين فعبث الهواء بضفيرتيها . وارتفع صوت قدري بسرور مسح عن وجهه امارات الحدة :

— أهلاً بهند .

فأجابت بصوت رقيق :

— أهلاً بك (ثم مخاطبة همام) مساء الخير يا ابن عمي .

فقال همام باسماء :

— مساء الخير يا بنت العم ، كيف حالك ؟

وتناول قدري يدها وسار بها نحو الصخرة الكبيرة القائمة على بعد أمتار من موقفها ، ودارا حول الصخرة حتى ضلعتها المواجه للجبل فصارا في منعزل عن الخلاء ومن فيه . وجذبها نحوه فأحاطها بذراعيه ، ثم قبل ثغرها قبله طويلة حتى تماسست ثناياهما وغابت الفتاة في لحظة استسلام مذهلة . واستطاعت ان تتخلص من ذراعيه ، وان تقف مضطربة الانفاس فتحكم لف ملاءتها ، وتلقى نظراته المهاجمة بنظرة باسماء . ولكن الابتسامة اختفت كأنما لحاطرة خطرت ، وتوقفت الشفتان في تبرم ، ثم قالت :

— جئت بعد معركة ، أف ، هذه الحياة لا تطاق .

فقطب قدري لادراكه ما تعني وقال بحدة :

- لا تبالي بشيء ، أننا أبناء الحق ، ابي الطبيب رجل غبي ، وأبوك
الشرس لا يقل عنه غباء ، انهما يودان ان يورثانا الكراهية ، فيا للغباء !
خبرني كيف تبسر لك المحيي ؟
فنضخت وقالت :

- مضى اليوم كالأيام السابقة في نقار متواصل بين أبي وأمي ،
وصفعا مرة او مرتين فصرخت ثلغته وصبت غضبها على قلة فحطمتها ،
ولكن غضبها اليوم وقف عند هذا الحد ، انها كثيراً ما تمسك بخناقها
متحذية لطاته ، وتدعو عليه اذا غلبت على أمرها ، أما اذا غلبته الحمر
فلا سلامة الا البعد عن وجهه . كثيراً ما أشعر برغبة في الهرب ،
وبكراهية شديدة لهذه الحياة ، ولكني أروّح عن نفسي بالبكاء حتى
تؤلمني عيناي . ما علينا ، انتظرت حتى ارتدى ثيابه وذهب ، فتناولت
الملاءة ولكن أمي تعرضت لي تحاول منعي كالعادة ، ولكنني تخلصت
منها ومضيت الى الخارج .

فتناول قدرتي يدها بين يديه وتساءل :

- ألا تخمن أين تذهبين ؟

- لا أظن ، لا يهمني ، انها على أي حال لا تجرؤ على إخبار أبي.

فضحك قدرتي ضحكة مقتضبة وسألها :

- ماذا تظنني يفعل لو عرف ؟

فرددت ضحكته في جيرة ولكنها قالت :

- اني لا أخشاه رغم شدته ، بل اقول لك اني أحبه ، وهو يحبني

في سداجة لا تنفق وحدة طبعه ، ولا يبالي أن يقول إنني أغلى شيء
في دنياه ، ولعل هذا هو أصل متاعبي .

جلس قدرتي على الأرض أسفل الصخرة ودعاها الى الجلوس بأن
ربت الموضع جانبه ، فجلست وهي تتخفف من حبكة الملاءة ، ومال
نحوها فلم يخلها ، ثم قال :

— يبدو ان غزو أبي أسير من غزو أبيك ، ومع ذلك فشدّ ما يبدو فظاً اذا جاء ذكر لأبيك ، أنه ينكر عليه صفات .
فضحكت قائلة وهي تذكر ما تردد عن ذكره :
— بني آدم !.. كذلك ينكر أبي عليه .
فحدجها بنظرة استنكار فقالت :
— أبوك ينكر علي أبي فظاظته ، وأبي ينكر على أبيك طيبته ،
والمهم أنهما لم يتفقا على شيء .
فندت عن رأس قدرتي -حرّة كذا ينطح الهواء وقال بشحد :
— لكننا سنفعل ما نشاء .
فقالت هند وهي تنظر نحوه بعطف واشفاق :
— أبي يستطيع ان يفعل ما يشاء كذلك !
— وأنا قادر على أشياء كثيرة ، ماذا يريد لك هذا العم السكير ؟
فضحكت على رغمها ، وقالت بلهجة تشي بالاحتجاج والمداعبة معاً :
— تكلم عن أبي بأدب .
وواصلت الكلام وهي تقرصه في أذنه :
— طالما ساءت نفسي عما يريد لي ، فخيّل إلي أحياناً أنه يكره أن يزوجني من أحد .

فحملق فيها منكرأ فعادت تقول :

— رأيت مرة يرمي بيت جدنا بنظرة غاضبة ويقول : « اذا كان قد رضي لأبنائه واحفاده بالهوان فهل يرضى به لحفيدته ؟ لا مكان لائق بهند الا هذا البيت المغلق » . ومرة قال لأمي إن فتوة كفر الزغاري يرغب في الزواج مني ففرحت أمي فصاح بها حائفاً : « يا وضبعة .. يا خبيسة ، من يكون فتوة كفر الزغاري هذا ؟ ان احقر خادم في البيت الكبير اشرف منه وانظف » فسألته امي في حسرة : « فن تراه الجدير بها ؟ » فصاح : « علم ذلك عند الطاغية المتواري خلف أسوار

بيته ، انها حفيدته ، وليس في الأرض من هو أهل لها ! أريد لها زوجاً مثلي أنا » فقالت امي على رغبتها : « أتريدها ان تكون تعيشة مثل أمها ! » فهجم عليها كالوحش وراح يركلها بشدة حتى جرت خارج الكوخ !

— هذا هو الجنون بعينه .

— انه يكره جدنا ، ويلعنه كلما ذكره ، لكنه في أعماقه يتبه ادلالا بأبوتنه .

فكور قدرتي قبضته وجعل يضرب بها فخذيه ويقول :

— لعلنا كنا نكون أسعد حالاً لو لم يكن ذلك الرجل جداً لنا ..
فقال بمرارة :
— لعلنا .

فجذبها الى صدره بشدة تناسب الحدة في قوله وضمها اليه بقوة ، واستبقاها هكذا بين يديه ريثما تمر فترة الانتقال بين الشواغل المتعبة وبين الهيام الموعود ، وقال :
— اعطيني فاك .

عند ذاك تراجع همام من موقفه عند الصخرة ، واتجه بخفية نحو الأغنام وهو يتشم في حياء وأسى . خيل إليه ان الهواء يشمل بأنفاس الحب ، وان الحب ينذر بالمآسي . لكنه قال لنفسه : « صفا وجهه ورق ، لا يرى على هذا الحال الا خلف الصخرة ، فن لنا بقوة هذا الحب السحرية لتزيل متاعبنا ؟ » . هنا والسماء تشحب في استسلام ، وانفاس المغرب تتردد في خمول ، والسحرة تزحف كنغمة وداع وانية ، وهناك تيس يشب على عترة . وعاد همام يحدث نفسه : « ستفرح أمي يوم تلد هذه العترة ؟ ولكن ميلاد انسان قد يجيء بالكوارث ، فوق رءوسنا لعنة من قبل ان نولد ، واعجب عداوة هي التي لا تجد هي لها من مبرر الا انها بين أخوين ، الى متى نعاني من هذه الكراهية ، لو نسي

الماضي لابتهاج الحاضر ، ولكننا سنحذر نتطلع الى هذا البيت الذي لا عزة
لنا الا به ولا تعاسة الا لسبب منه . . وعلفت عيناه بالتيس فابتسم .
ومضى يدور حول الغنم وهو يصفر ويلوح بعصاه . وحانت منه الثمالة
نحو الصخرة الكبيرة الصامتة فبدت في وقفها كأنها لا تبالي شيئاً
في الوجود .

١٥

استيقظت أميمة كعادتها عندما لم يسبق في السماء الا نجمة واحدة .
ونادت ادهم حتى استيقظ متأوهاً . ونهض الرجل فغادر غرفته مثقلاً
بالنعاس الى غرفة خارجية متصلة بها حيث ينام قدري وهمام فأيقظهما .
وبدا الكوخ في مطهره الجديد نامياً ممتداً كأنه بيت صغير ، وأحاط به
سورٌ ضم اليه فراغاً تخلفيا لايواء الاغنام . وانتشرت على السور أفرع اللبلاب
فلطفت من جفاء منظره ، ودلت على ان أميمة لم تياس بعد من تحقيق
حلمها القديم بان تهذب ما استطاعت كوئها على مثال البيت الكبير .
واجتمع الرجال في الفناء حول صفيحة مملوءة بالماء ، فغسلوا وجوههم ،
وارتدوا جلابيب العمل ، وحمل الهواء من داخل الكوخ رائحة احتراق
خشب ، وبكاء الاخوة الصغار . واخيراً جلسوا حول الطبلية امام مدخل
الكوخ يأكلون من حلة فول مدمس . وكان جو الخريف رطيباً مائلاً
للبرودة في هذه الساعة المبكرة ولكنه لاقى اجساماً قوية صمدت حيال
نزواته . وعن بعد بدا كوخ ادريس وقد كبر وامتد كذلك ، أما
البيت الكبير فقام في صمت منطويا على ذاته كأنما لا يربطه سبب بهذا
العالم الخارجي . وجاءت أميمة تحمل كوز لبن مخلوب لتوه فوضعت على
الطبلية وجلست . وعند ذلك سأها قدري بسخرية :

- لماذا لا تبيعين اللبن الى بيت جدنا الموقر ؟
فالتفت اليه أدهم برأسه الذي وخط المشيب فوديه وقال :
— كل وأنت ساكت ، السكوت غاية ما نرجو عندك من خير .
وقالت أميسة وهي تطحن ما في فيها :
— آن لنا ان نخلل الليمون والزيتون والقلقل الأخضر ، كنت يسا
قدري تبتهج في أيام التخليل وتشترك في حشو الليمون .
فقال قدري بمرارة :
— كنا نبتهج ونحن صغار حتى بلا سبب .
فسأله أدهم وهو يعيد الكوز الى موضعه :
— وماذا يشقيك اليوم يا أبو زيد الهلالي ؟
فضحك قدري ولم يجب . أما همام فقال :
— يوم السوق قريب ، ينبغي أن نفرز الأغنام .
فهزت الأم رأسها بالايجاب ، على حين وجه الأب خطابيه الى
قدري قائلاً :
— يا قدري لا تكن فظاً ، لا أقابل شخصاً يعرفك إلا شكاك إلي ،
أخشى ان تعيد سيرة عمك في هذه الحياة .
— أو سيرة جدي !
فانقذت عينها أدهم استياء وقال :
— لا تذكر جدك بسوء ، هل سمعني أفعل ذلك ؟ ثم انه لم
يسيء إليك .
فقال قدري باستنكار :
— أساء الينا ما دام أساء إليك .
— اسكت ، نقطنا بسكوتك .
— بسببه كتبت علينا هذه الحياة ، وهي أيضاً مصير بنت عمنا .
فقال أدهم في عبوس :

— مالنا وما لها ، أبوها علة الكارثة .

فهتف قدري :

— أعني أنه ما كان يصح ان تنشأ نساء من دمننا في الخلاء والعراء ،
ثم خبرني أي رجل ستزوج هذه الفتاة ؟
— ليكن الشيطان نفسه ، لا شأن لنا بها ، لا شك انها مفترسة
مثل أبيها .

ونظر نحو زوجه كأنما ينشد تأييداً فقالت أميمة :

— نعم ، مثل أبيها .

فبصق أدهم قائلاً :

— ملعونة هي وأبوها !

فتساءل همام :

— الا يفسد هذا الحديث علينا طعامنا ؟

فقالت أميمة برقة :

— لا تبالغ ، ان اسعد الاوقات وقت اجتماعنا .

هنا ترامى إليهم صوت إدريس كالهدير وهو يلعن ويسب ، فقال
أدهم بتقزز :

— بدأت صلاة الصبح !

وتناول آخر لقمة ونهض ، ثم اتجه نحو عربته وراح يدفعها امامه
وهو يقول : « تركتكم بعافية » فردوا عليه : « مع السلامة » . ومضى
الرجل مبتعداً صوب الجالية . وقام همام ففضى نحو الحظيرة من مشى
جانبي ، وما لبث ان تعالى ثغاء الأغنام ووقع اطفالها فلأت المشى
في طريقها الى الخارج . ونهض قدري كذلك فتناول عصاه ولوح لأمه
مودعاً ولحق بأخيه . وعندما اقتربا من كوخ ادريس تصدّى لهما فتساءل
ساخراً :

— بكم الرأس يا جلع ؟

فحدجته قدرتي بنظرة حب استطلاع على حين تجنب همam النظر اليه .
وعاد إدريس يتساءل في انكار :

— ألا يفضل احكما بالجواب يا ابني بياع الحيار ؟
فقال قدرتي بحدة :

— إذا اردت الشراء فاذهب الى السوق .

فتساءل إدريس مقهقهاً :

— وإذا قررت الاستيلاء على احداها ؟

وجاء صوت هند من الداخل وهي تقول :

— أبني ، لا نريد فضائح .

فأجابها مداعباً :

— اهتمي بشأنك أنت ، ودعيني لسلالة الجواري !

فقال همam :

— نحن لا نتعرض لك فلا تتعرض لنا .

— آه ، صوت أدهم ، كان ينبغي ان تكون بين الأغنام لا وراءها .

فقال همam محتدأً :

— أمرنا أبني بالانجيب على محرثك بنا .

فقهقه إدريس عالياً وقال :

— جزاه الله كل خير ، لولا امره هذا لكنت في الهالكين ! (ثم

بلهجة خشنة) .. انكما تعيشان عزيزين بفضل اسمي ، لعنة الله عليكم

جميعاً ، غورا من وجهي .

وواصل سيرهما وهما يلوحان من حين الى حين بعصويهما ، ولبت

همam ممتقع اللون من الانفعال فقال لقدري :

— هذا الرجل مقيت ، ما أقدره ، حتى في هذه الساعة المبكرة

ثفت انفاسه رائحة الخمر .

فقال قدرتي وهما يوغلان وراء الاغنام في الخلاء :

— انه يتكلم كثيراً ، ولكنه لم يجد لنا يداً بأذى .
فقال همام محتجاً :

— بل استولى أكثر من مرة على بعض اغنامنا .

— انه سكير ، وهو للأسف عننا ، لا مهرب من الاقرار بذلك .
وساد الصمت قليلاً وهما يتجهان نحو الصخرة الكبيرة ، وفي السماء
سحب متفرقة ، والشمس ترسل اشعتها فتغمر الرمال المترامية . وضاق
همام بكتمان ما يود قوله فقال :

— ستخطيء خطأ كبيراً إذا وصلت أسبابك بأسبابه .

فاشتعلت عيننا قدرتي بنظرة غاضبة وهتف :

— لا تحاول نصحي ، حسبي أبوك .

فقال همام وهو لم يفق بعد من إهانات ادريس :

— حياتنا موفورة المتاعب فلا تزدها .

فصاح قدرتي :

— فلتسحقكم المتاعب التي تخلفونها بأنفسكم ، أما انا فأفعل
ما أشاء .

وكانا قد بلغا الموضع الذي يسرحان عنده الأغنام فالتفت همام نحو
أخيه وتساءل :

— أتظن أنك ناجٍ من عواقب افعالك ؟

فقبض قدرتي على منكبيه بقبضته وصاح :

— ما أنت إلا حسود .

فدهش همام . دهمه قول أخيه الذي لم يتوقعه . ولكنه كان متعوداً
من ناحية أخرى على مفاجآته ومفرقاته . ورفع يده عن منكبيه وهو
يقول :

— اللهم احفظنا .

فشبك قدرتي يديه على صدره وهو يهز رأسه ساخراً فقال همام :

— خير ما أفعل ان اتركك لنفسك حتى تندم ، لن تقرّ بخطأ ،
ولن تقر به إلا بعد فوات الفرصة .
واولاه ظهره متجهاً نحو جانب الصخرة الظليل . ووقف قدرى
مكفهر الوجه تحت الأشعة الحامية .

١٦

جلست أسرة ادهم أمام الكوخ تتناول عشاءهما في ضوء النجوم
الخافت . وإذا يحدث يقع لم يشهد له الخلاء مثيلاً منذ طرد ادهم .
فتح باب البيت الكبير وخرج منه شبح حاملاً مصباحاً . وتطلعت الأعين
الى المصباح في دهشة انعقدت لها الألسنة ، وتابعتسه وهو يتحرك في
الظلام ككوكب أرضي ، وعندما توسط المسافة بين البيت والكوخ
تركزت الأبصار على الشبح لتبينه على ضوء المصباح المنعكس حتى همس
ادهم : « هذا عم كريم بواب البيت » . وتضاعفت الدهشة عندما أيقنوا
من انه يقصدهم فوقوا جميعاً ، بعضهم اللقمة في يده والبعض اللقمة في
فيه بلا حراك . وبلغ الرجل موقفهم فوق رافعا يده وهو يقول :
— مساء الخير يا سيدي ادهم .

ارتجف ادهم لدى سماعه الصوت الذي انقطع عنه منذ عشرين عاماً ،
فدعا من أعماق ذاكرته نبرات الأب العميقة وشذا الياسمين والحناء وحينئذ
وأشجاناً فمادت به الأرض . وقال وهو يقاوم دموعه :

- مساء الخير يا عم كريم .
- فقال الرجل بتأثر غير خاف :
- لعلك انت وأهلك بخير .
- الحمد لله يا عم كريم .

فقال الرجل برقة :

— أود أن أعرب لك عما بنفسي ولكني كلفت فقط بأن ابلغك بأن سيدي الكبير يدعو ابنك همام إلى مقابلته فوراً
وساد الصمت ، فتبادلوا النظرات ، ولفتهم الحيرة ، وإذا بصوت يتساءل :

— همام وحده ؟

والتفتوا ساخطين نحو ادريس الذي بدا عن كذب وهو يصغي ، غير ان عم كريم لم يجب ، ورفع يده تحية ورجع صوب البيت الكبير تاركاً الجميع في ظلام . وتغيظ ادريس منه فصاح به :

— اتركني بلا جواب يا ابن اللثيمة ؟
وأفاق قدري من ذهوله فتساءل غاضباً :

— لماذا همام وحده ؟

فردد ادريس تساؤله :

— نعم لماذا همام وحده ؟

فقال له ادهم ، ولعله وجد في مخاطبته متنفساً عن ازمته :

— عد الى كونك ودعنا في سلام .

— سلام ؟ اني اقف حيث اشاء .

وتطلع همام الى البيت الكبير صامتاً ، وقلبه يخفق بشدة خيل اليه

معها ان المقطم يردد صده . وقال له ابوه بتسليم :

— اذهب يا همام الى جدك مصحوباً بالسلامة .

فالتفت قدري الى ابيه يسأله بحدة وتحد :

— وأنا ؟ أأست ابنك مثله ؟

— لا تتكلم كما يتكلم ادريس يا قدري ، انك ابني مثله بلا أدنى

ريب ، ولا لوم عليّ فلست انا الداعي .

فقال ادريس محتجاً :

- ولكن بوسعك ان تمنع تمييز اخ عن اخيه .
- هذا شأن لا يعنيك (ثم مخاطباً همام) يجب ان تذهب . وسيأتي
ور قدرتي ، اني واثق من ذلك .
- فقال ادريس وهو يهمّ بالذهاب :
- انك أب ظالم مثل ابيك ، مسكين قدرتي ، لماذا يعاقب دون
ذنب ؟ لكن اللعنة تنزل اول ما تنزل في اسرتنا بالممتازين ، الا لعنة
الله على هذه الأسرة المجنونة !
- ومضى فابتلعه الظلمة . وعند ذاك هتف قدرتي :
- انك تظلمني يا ابي .
- لا تُعد أقواله ، تعال يا قدرتي ، واذهب يا همام .
- فقال همام بحرج :
- وددت لو كان معي اخي .
- سيلحق بك .
- فصاح قدرتي بحق :
- اي ظلم هذا ! لماذا آثره عليّ ؟ انه لم يعرفه كما لم يعرفني فلماذا
يختصه بالدعاء ؟
- فدفع ادهم همام قائلاً :
- اذهب .
- فسار همام . وهمست اميمة :
- تحفظك العناية .
- واحتضنت قدرتي باكية ولكنه تخلص من ذراعيها ومضى في اثر اخيه
فصاح به ادهم :
- عد يا قدرتي ولا تقامر بمستقبلك .
- فقال قدرتي بغضب :
- لن ترجعني قوة على الأرض .

وعلا صوت اميمة بالبكاء ، وبكى الصغار في الداخل . وأوسع
قدري خطاه حتى لحق بأخيه ، وعلى كثر منه في الظلام رأى شبح ادريس
يسير ممسكاً بيد هند . ولما بلغوا باب البيت دفع ادريس قدري الى
يسار همام وهند الى يمينه وتراجع خطوات وهو يصيح :

-- أفتح يا عم كريم ، جاء الأحفاد للقاء جدّهم .
وفتح الباب وظهر على عتبة عم كريم وبيده المصباح ، وقال بأدب :

— فليفضل سيدي همام بالدخول .

فهتف ادريس :

— وهذا اخوه قدري ، وهذه هند وهي صورة مكررة من امي التي

ماتت باكياً .

فقال عم كريم بأدب :

— أنت تعلم يا سيدي ادريس انه لا يدخل هذا البيت الا من

يؤذن له .

وأشار الى همام فدخل ، وتبعه قدري آخذاً بيد هند ولكن علا صوت

من الحديقة عرفه ادريس وهو يقول بصرامة :

— اذهبوا بعاركما ايها اللوثان .

تسمرت اقدامهما . وأغلق الباب . وانقض ادريس عليهما فقبض على

منكبيهما بقبضتيه وتساءل بصوت متهدج من الغضب :

— اي عار يعني ؟

وصرخت هند المأ ، على حين تحول قدري فجأة نحو ادريس

ورفع يديه عنه وعن هند ، فافلتت هند وولت هاربة في الظلام . وتراجع

ادريس بخفة الى الورا ثم وجه الى قدري لكمة فتحملها الشاب رغم

قوتها ووجه اليه لكمة اشد . واندفعا يتبادلان الضرب والركل بقسوة

ووحشية تحت سور البيت الكبير . وصاح ادريس :

— سأقتلك يا ابن العاهرة .

فصاح قدري :
 - سأقتلك قبل ان تقتلني .
 وتبادلا الضربات حتى سال الدم من فم قدري وأنفه . وجاء ادهم
 جرياً كالمجنون وصاح بأعلى صوته :
 - اترك ابني يا ادريس .
 فصاح ادريس بحقد :
 - سأقتله بجرمته .
 - لن ادعك تقتله ، ولن ادعك تعيش ان قتلتك .
 وجاءت أم هند مولولة وهي تصيح :
 - فرّت هند يا ادريس ، ادركها قبل ان تختفي .
 ورمى ادهم بنفسه بين ادريس وقدري ، وصاح بأخيه :
 - أفق ، انك تقاقل بلا سبب ، بتك طاهرة لم تمس لكنك اربعتها
 ففرت ، أدركها قبل ان تختفي .
 وجذب قدري اليه ، ورجع به مسرعاً وهو يقول :
 - أسرع .. تركت أملك في حالة اغماء .
 اما ادريس فانطلق في الظلام وهو يصرخ بأعلى صوته : « هند ..
 هند .. »

١٧

تبع همام عم كريم فاجتازا المشى تحت عريشة الياسين متجهين نحو
 السلامك . بدا الليل في الحديقة شيئاً جديداً ، لطيفاً رطباً مترعاً بنشوات
 الازهار والرياحين فانسكب بروعته في اعماق روحه . وامتلأ الشاب بشعور
 جلال وافئشان ، وحنين مودة عميقة للمكان ، وبأنه مقبل على أجل لحظات

عمره . وتراءت لعينيه انوار وراء شيش بعض النوافذ ، ونور قوي ينبعث من باب البهو فارساً على ارض الحديقة تحته شكلاً هندسياً ، فحفق قلبه وهو يتخيل الحياة خلف النوافذ وفي الأهاء ، كيف تكون ومن يحياها . وزاد قلبه خفقاناً حينما تمثلت لحاطره هذه الحقيقة العجيبة وهي انه مخلوق من سلالة هذا البيت ونطقة من هذه الحياة ، وانه جاء ليلقاها وجهاً لوجه في جلاباب أزرق بسيط وطاقيّة باهتة ، متعللاً أديم الأرض . ورقيا في سلم السلامك ، فللا الى جناح الشرفة الأيمن نحو باب صغير ، فتح على سلم فصعدا في صمت لا ينم عن حياة ، حتى بلغا ردهة طويلة مضاة بمصباح يتدلى من سقف مزركش ، واتجها نحو باب كبير مغلق يتوسط الردهة . وقال همام لنفسه في تأثر بالغ : « في موضع من هذه الردهة ، لعله هذا الموضع عند رأس السلم ، وقفت أُمّي منذ عشرين عاماً لتراقب الطريق ، أية ذكرى تعيسة ! » ونقر عم كريم على الباب الكبير مستأذناً للقادم ، ثم دفعه برقة وتنحى لهام جانباً وهو يشير له بالدخول . ودخل الشاب في أناة وأدب ورهة ، فلم يسمع صوت الباب وهو يغلق وراءه ، ولم يشعر الا شعوراً غامضاً بالنور المضى في السقف والأركان ، اما وعيه كله فقد انجذب نحو الصدارة حيث تربع الرجل على ديوان . لم يكن رأى جدّه من قبل ولكنه لم يشك في هوية الجالس أمامه ، فمن يكون هذا الهائل ان لم يكن جدّه الذي سمع عنه الأعاجيب ؟ واقترب من مجلسه وهو يتلقى من عينيّه الكبيرتين نظرة استلت من ذاكرته جميع ما فيها ، ولكنها بثت في قلبه في الوقت نفسه طمأنينة وسلاماً . وإنحى حتى كادت تمس جبهته طرف الديوان ، ومد يده ، فأعطاه الآخر يده ، فلثمها من الأعماق ، وقال بشجاعة غير متوقعة :

— مساء الخير يا جدّي .

فجاءه الجواب من صوت جهوري لم يخل من انغام رحمة :

— اهلاً بك يا بني ، اجلس .
واتجه الشاب نحو مقعد الى يمين الديوان وجلس على حافته فقال
الجيلاي :

— خذ راحتك في مجلسك .
فترشح همام الى الداخل وقلبه يرتوي من المسرة ، ونحركات شفاه
بشكر مهموس ثم ساد الصمت . ولبث ينظر في نقوش السجادة تحت
قدميه ، وهو يشعر بموقع النظرة المسددة نحوه كما يشعر بموقع الشمس
منا دون ان نراها . واذا بذمته يتجه فجأة نحو الخلوة القائمة الى يمينه ،
فلحظ بابها بخوف وكآبة ، واذا بالرجل يسأله :

— ماذا تعرف عن هذا الباب ؟
فارتجفت أوصاله ، وعجب كيف يرى كل شيء ، وقال بنخوع :
— اعرف انه فاتحة مأساتنا .

— وماذا ظننت بجدك لدى سماعك الحكاية ؟
وفتح فاه ليتكلم فبادره الرجل :
— أصدقني القول .

فأثرت به اللهجة الى حد ان قال فيما يشبه الصراحة :
— بدا لي تصرف والدي خطأ كبيراً ، كما بدا لي عقابها صارماً
شديداً .

فابتسم الجيلاي قائلاً :
— هذا هو شعورك على وجه التقريب ، اني امقت الكذب والخداع ،
ولذلك طردت من بيتي كل من لوث نفسه .

فاغرورقت عينا همام . فقال الجدي :
— بدا لي انك شاب نظيف ، ولذلك استدعيتك .
فقال همام بصوت رطبه الدموع :
— شكراً يا سيدي .

فقال الجدة مهدوء :

- رأيت ان اعطيك فرصة لم تتح لأحد ممن في الخارج ، وهي ان تعيش في هذا البيت ، وأن تتزوج به ، وأن تبدأ حياة جديدة فيه .
- فتتابعت دقائق قلب همام في نشوة من الافراح ، ولبث ينتظر انغاماً جديدة يستكمل بها هذا اللحن البديع كالسميع الذي ينتظر الجواب بعد ان طرب للقرار، ولكن الرجل لاذ بالصمت . وتردد همام قليلاً ثم قال :
- الشكر لك على نعمتك .
- انك تستحقها .

واختلج نظر الشاب بين جدته وبين السجادة ، ثم تساءل في اشفاق :

- وأسرني ؟

فقال الجبلاوي في عتاب :

- قلت ما اريد بوضوح .

فقال همام باستعطاف :

- انهم يستحقون رحمتك وعطفك .

فتساءل الجبلاوي بشيء من البرود :

- ألم تسمع ما قلت ؟

- بلى ، ولكنهم أمي وأبي وأخوتي ، ان ابي رجل .

- ألم تسمع ما قلت ؟

وشى الصوت بالصجر فغلب الصمت . واذا بالرجل يقول إيذاناً

بانتهاء الحديث :

- ارجع اليهم استأذن ، ثم عد .

وقام همام فلم يد جدته ومضى . وجد عم كريم ينتظر ، فتحرك الرجل وتبعه الشاب في سكون . ولما انتهيا الى السلامك ، رأى همام فتاة في منطقة الضوء بأول الحديقة ، وقد سارعت الى الاختفاء . غير انه لمح منها العارض والعنق وقامة ممشوقة . وعاد صوت الجدة يتردد في

أذنيه وهو يقول : « ان تعيش في هذا البيت وأن تتزوج به » . بفئة
كهذه الفتاة . وعيشة خبرها ابي . كيف هانت عليه المقامرة ؟ وكيف
وبأي قلب تحمّل الحياة بعد ذلك وراء عربة اليد ؟ . وهذه الفرصة
السعيدة كأنها حلم . حلم ابي منذ عشرين عاماً . لكني مثقل الرأس .

١٨

عاد همام الى الكوخ فوجد اسرته جالسة تترقب عودته . وأحاطوا به
مستطعين وسأله ادهم بلهفة :
— ماذا وراءك يا بني ؟
ولاحظ همام ان قدرتي معصوب العين فقرّب رأسه من وجهه ليتحقق
من الأمر فقال ادهم بأسى :
— نشبت معركة حامية بين اخيك وبين ذلك الرجل .
وأشار بيده نحو كوخ ادريس الذي بدا غارقاً في الظلمة والصمت
على حين قال قدرتي بغضب :
— كل ذلك بسبب التهمة الخبيثة الكاذبة التي قدفت بها من داخل البيت .
وأشار همام نحو كوخ ادريس وتساءل في قلق :
— ماذا يحدث هنالك ؟
فقال ادهم بحزن :
— الرجل وزوجه يبحثان عن ابنتهما الهاربة .
فصاح قدرتي :
— من المسئول عن ذلك الا الرجل الفظّ اللعين !
فتوسلت أميمة قائلة :
— أخضت من صوتك .

- فصاح قدري في حلق :
- ماذا تخافين ؟.. لا شيء الا الطمع في عودة لن تتحقق .. صدقيني
انك لن تغادري هذا الكوخ حتى المات .
فاحتد ادهم قائلاً :
- كفى هذيانا ، أنت مجنون وحق خالق الكون ، ألم تكن تريد
ان تلحق بالفنائة الهاربة ؟
— وسألحق بها .
— اسكت ، لقد ضقت بمحافاتك .
وقالت أميمة مجزع :
- لن تطيب لنا الحياة بجوار لإدريس بعد اليوم .
والتفت ادهم نحو همام وسأله :
- قلت ماذا وراءك ؟
فقال همام بصوت لا أثر للسرور فيه :
- دعاني جدي الى الاقامة في البيت الكبير .
وترقب ادهم بقية للحديث فلما لم ينبس الشاب تساءل في يأس :
- ونحن ، ماذا قال عنا ؟
فهز همام رأسه في حزن وهمس :
- لا شيء .
فضحك قدري ضحكة كلدغة عقرب وسأله في سخرية :
- وماذا جاء بك ؟
نعم ماذا جاء بي ، لا شيء إلا ان السعادة لم تخلق لينعم بها
أمثالي . وقال بحزن :
- لم أقصّر في تذكيره بكم .
فقال قدري بحلق :
- شكراً ، ولكن ماذا جعله يؤثر علينا ؟

- انت تعلم ألا شأن لي في ذلك .
 وقال ادهم وهو يتنهد :
 - لا شك انك يا همام خيرنا جميعاً .
 فهتف قدرتي بمرارة :
 - وانت يا أبي الذي لم تذكره الا بخير لا يستحقه !
 فقال ادهم :
 - انت لا تفهم شيئاً .
 - هذا الرجل اسوأ من ابنه ادريس .
 فتوسلت أميمة قائلة :
 - انك تقطع قلبي ، وتغلق أبواب الأمل في وجهك .
 فصاح قدرتي باستهانة :
 - لا أمل إلا في هذا الخلاء ، ادركوا هذا وأريحوا أنفسكم ،
 ليأسوا من هذا البيت اللعين ، انا لا أخاف هذا الخلاء ، حتى ادريس
 نفسه لا أخافه ، وبوسعي ان اكيل له من الضربات أضعاف ما يكيل
 لي ، أبصقوا على هذا البيت وأريحوا أنفسكم .
 وساءل ادهم نفسه : « أيمكن ان تمضي هذه الحياة على هذا النحو
 إلى الأبد ؟ ولماذا أيقظت يا أبي طموحنا إليك قبل ان ترتضي
 العفو لنا ؟ وأي شيء يمكن ان يلين قلبك اذا كان ذلك الزمن
 الطويل لم يلينه ؟ وما جدوى الأمل إذا كان ذلك العذاب كله لم يتركنا
 لراحة من نحب ؟ » . وقال الرجل بصوت كالغروب :
 - خبرني يا همام عما لديك .
 فقال همام في حياء :
 - قال لي اذهب فاستأذن ثم عُدْ .
 وشي الظلام بمحاولة فاشلة من أميمة لكم انتحابها ، وتساءل قدرتي
 في خبث :

- وماذا يؤخرك ؟
- فقال أدهم في حزم :
- اذهب يا همام مصحوباً بالسلامة والبركات .
- وقال قدري بلهجة جدية كاذبة :
- اذهب يا شهيم ولا تلق بالآ إلى أحد .
- فصاح ادهم :
- لا تهزأ بأخيك الطيب .
- فقال قدري ضاحكاً :
- انه شرنا جميعاً .
- فهتف همام بحدة :
- إذا قررت البقاء فلن يكون هذا إكراماً لك أنت .
- فقال ادهم بقوة :
- بل اذهب دون تردد .
- وقالت أميمة نخلال دموعها :
- نعم .. اذهب بالسلامة .
- فقال همام :
- كلا يا أمي ، لن أذهب .
- فتساءل ادهم :
- أجننت يا همام ؟
- كلا يا أبي ، الأمر يحتاج إلى تفكير ومشاورة .
- لا حاجة بك إلى ذلك ، ولا تحملني ذنباً جديداً .
- فقال همام بعزم وهو يشير نحو كوخ ادريس :
- يجيل إلي ان احداثاً ستقع .
- فقال قدري ساخراً :
- انك أضعف من أن تدفع شراً عن نفسك فضلاً عن الآخرين .

فقال همام بازدرء :
- خير ما أفعل ان اتجاهل ما تقول .
فعاد أدهم يقول برجاء :
- اذهب يا همام .
فاتجه همام نحو الكوخ وهو يقول :
- سأظل إلى جانبك .

١٩

لم يبق من الشمس إلا الشفق ، وانقطعت السابلة ، وانفرد بالحلأ
قدري وهمام والأغنام . مر النهار فلم يتبادلا طواله إلا ما تقتضيه ضرورة
الشركة في العمل . وغاب قدري شطراً كبيراً من النهار فخمن همام
انه يتشمم أخبار هند ، ولبث وحده في ظل الصخرة على كشب من
الأغنام . وفجأة ، وفي شيء من التحدي ، سأل قدري همام :
- خبرني عما انتويت من ذهابك الى جددك أو عدوك ؟
فقال همام بامتناع :
- هذا شأن يخصني وحدي .
فاحتدم الغيظ في قلب قدري ، ولاحت بواده في وجهه كطلائع
الظلام فوق المقطم ، وتساءل :
- لماذا بقيت ؟ .. ومتى تذهب ؟ .. متى تجدد الشجاعة لاعلان نيتك ؟
- بل بقيت لأتحمل نصيبي من العناء الذي خلقتة فضائحك .
فضحك قدري ضحكة كاسرة وقال :
- هكذا تقول لنداري حسدك !
فهز همام رأسه كالمتعجب وقال :

— إنك تستحق الرثاء لا الحسد .
فاقترب قدري منه واطرافه ترتجف من الخفق وقال بصوت غنون
بالغضب :

— ما ابغضك حين تتظاهر بالحكمة .
فحدثه همام بنظرة احتكار دون ان ينبس ، فعاد الآخر يقول :
— يجب ان تخجل الحياة لانتساب امثالك اليها .
فلم يغض همام من بصره تحت النظرات المتقدة التي تنصب نبيه
وقال بثبات :

— اعلم انني لا أخافك .
— هل وعدك البلطجي الأكبر بالخياة ؟
— ان الغضب يجعل منك شيئاً حقيراً تعافه النفس .
وفجأة لطمه قدري على وجهه . لم تدمه اللطمة فردّها بأشد منها
وهو يقول :
— لا تتماد في جنونك .

وانحنى قدري بسرعة فالتقط حجراً وقذف به اخاه بكل ما أوتي
من قوة . وبادر همام ليتفادى من الحجر ولكنه اصاب جبينه . بدت
عنه آهة وجعد في موقفه والغضب يشتعل في عينيه . واذا بالغضب يحفي
منها فجأة كأنه شعله ردمت بتراب كثيف . واذا بصراع قائم خل فيها
فبدت العينان وكأنهما تنظران الى الداخل . وترنح ثم اكتمأ على وجهه .
وتبدل قدري حالاً بعد حال ، فزايله الغضب ، وتركه حديداً بارداً
بعد انصهار ، وركبه الخوف . ترقب بلهفة ان ينهض المنكى ، او ان
يتحرك ولكنه لم يرحم لحيته . وانحنى فوقه ، ومد اليه يده يهزه في
رفق ولكنه لم يستجب . وسواه على ظهره ليخلص انفه وفاه من الرمال
فاستلقى الآخر محملي العينين ولا حراك به : وركع قدري الى جانبه ،
وراح يهزه ، ويدلك صدره وبسديه ، وينظر بفرخ الى الدم المندفق

بغزارة من جرحه . وناداه برجاء فلم يجب . وبدأ عتمته كثيفاً عميقاً
كأنه جزء لا يتجزأ من كيانه . كجموده الذي بدا غريباً عن الحي
والجماد معاً . لا احساس ولا انفعال ولا اهتمام بشيء . كأنما القى الى
الأرض من مكان مجهول فلم يمت اليها بسبب . عرف قدر الموت
بنظرته فراح يشد شعر رأسه في يأس . ونظر فيما حوله خائفاً ، ولكن
لم يكن هناك من شيء الا الاغنام والحشرات . وجميعاً انصرفت عنه دون
اكتراث . سينتشر الليل ويستحكم الظلام . وقام بعزم ، فجاء بعصاه ،
وانجه الى موضع بين الصخرة الكبيرة وبين الجبل ، وراح يحفر الأرض
ويرفع التراب بيديه ، ويواصل العمل بعناد ، وهو يتصب عرقاً وترتجف
منه الأوصال . وهرع نحو اخيه . هزه وناداه للمرة الاخيرة دون ان
يتوقع جواباً . وقبض على اسفل ساقه وجرة حتى أودعه الحفرة . وألقى
نظرة وهو يتنهد ، وتردد ملياً ، ثم اهل عليه التراب . ووقف يحفف
عرق وجهه بكم جلجابه . وكلما رأى بقعة دم في الرمال غطاها بالتراب .
وارتمى على الأرض من شدة الاعياء . وشعر بقوته تتخلى عنه ، وبرغبة
في البكاء ، ولكن الدموع استعصت عليه . وقال : « غلبني الموت » .
لم يدعه ولم يقصده ولكنه يجيء كما يحلو له . ولو انه انقلب تيساً لغاب
في الاغنام . او ذرة من رمال لا تختفى في الأرض . ما دمت لا استطيع
ان ارد الحياة فلا يجوز ان ادعي القوة ابداً . وهيهات ان تمحي تلك
النظرة من رأسي ابداً . ان الذي دفتته لم يكن من الاحياء ولا من الجماد ،
ولكنه من صنع يدي !

٢٠

عاد قدرتي الى الدار يسوق الأغنام ، ولم تكن عربة ادهم بموقفها .

- وجاءه صوت امه من الداخل وهي تتساءل :
- لماذا تأخرتما عن موعدكما ؟
- فدفع الاغنام الى الممشى المفضي الى حظيرتها وهو يقول :
- غلبني النوم ، ألم يحضر همام ؟
- رفعت أميمة صوتها ليعلو على اصوات الطفلين قائلة :
- كلا ، الم يكن معك ؟
- فازدرد ريقاً جافاً وقال :
- غادرتني منذ الظهر دون ان يخبرني اين هو ذاهب . فظننته رجع الى هنا .
- فتساءل ادهم وكان قد وصل ومضى يُدخل العربة الى الفناء :
- هل تشاجرتما ؟
- ابدأ .
- أظنك كنت السبب في ذهابه ، ولكن اين هو ؟
- خرجت أميمة الى الفناء ، على حين أغلق قدري باب الحظيرة وراح يغسل وجهه ويديه من ماء طشت تحت الزير . لا بد من مواجهة الموقف . الدنيا تغيرت ولكن اليأس قوة . وانضم الى والديه في الظلام وهو يجفف وجهه بطرف جلبابه . وتساءلت أميمة :
- أين ذهب همام ؟ لم يغب كهذه المرة من قبل . فوافقها ادهم قائلاً :
- بلى ، خبرنا كيف ولماذا ذهب .
- وارتعد قلب قدري لصورة خطرت برأسه ، لكنه قال :
- كنت جالساً في ظل الصخرة فلاحت مني التفاتة فرأيتُه يبتعد صوب حيّنا ، وهممت ان اناديه ولكني لم افعل .
- فقالت اميمة في حسرة :
- ليتك ناديتَه ولم تستسلم لرعلك .

ونظر ادهم حائراً في الظلام حوله ، فرأى ضوءاً خافتاً خلال كوة
في كوخ ادريس دلت على ان الحياة دبّت فيه من جديد ، ولكنه لم يابه
لذلك ، وثبّت بصره على البيت الكبير وتساءل :

— اتراه ذهب الى جده ؟

فقالت أميمة بانكار :

— لا يفعل ذلك دون اخبارنا .

فقال قدري بصوت شاحب :

— لعل الحياء منه !

فسدد ادهم نحوه نظرة ارتياح منقبض الصدر لخلو صوته من السخرية
والعدوان وقال :

— دفعناه الى الذهاب فأبى .

فقال قدري في اعياء :

— تخرج من القبول امامنا .

— ليس هذا من خلقه ، وأنت مالك كالمريض ؟!

فقال قدري بحدة :

— حملت عبء العمل وحدي .

فهتف ادهم في ضيق المستغيث :

— الحق اقول ان قلبي غير مطمئن .

فقالت أميمة بصوت مبحوح :

— سأذهب الى البيت الكبير لأسأل عنه .

فهز ادهم منكبيه في يأس وقال :

— لن يرد عليك احد ، ولكني اؤكد لك انه لم يذهب .

فنفخت أميمة في كرنب وقالت :

— رباه ، لم يضطرب هكذا قلبي من قبل ، لفعل شيئاً يا رجل !

فنهدهم ادهم بصوت مشجوع في الظلام وقال :

فلنفتش عنه كل في ناحية

فقال قدري :

— لعله في الطريق الينا .

فهتفت أميمة :

— لا ينبغي ان ننتظر .

ثم مستدركة في جزع وهي تنظر صوب كوخ ادريس :

— أليكون ادريس قد صادفه في طريقه ؟

فقال ادهم بامتعاض :

— غريم ادريس قدري لا همام .

— انه لا يتردد عن القضاء على اي منا ، اني ذاهبة اليه !

فحال ادهم بينها وبين الذهاب وهو يقول :

— لا تزيد امورنا تعقيداً ، أعدك اذا لم نعر عليه ان اذهب الى

ادريس ، وان اذهب الى البيت الكبير .

وحلج شبخ قدري بنظرة قلقة . ما باله واجماً ؟ أليس عنده اكثر

مما قال ؟ وأين انت يا همام ؟

واندفعت اميمة لتفادر الفناء فإل ادهم نحوها وأمسك بمنكبتها . واذا

بباب البيت الكبير يفتح ، فتطلعوا نحوه . وبعد قليل لاح شبخ عم

كريم وهو يقترب منهم فخرج اليه ادهم وهو يقول : « اهلاً بك

عم كريم » ، فحياه الرجل وقال :

— سيدي الكبير يسأل عما أخر همام ؟

فقالت اميمة بيأس :

— لا ندرى اين هو حتى ظنناه عندكم .

— سيدي يسأل عما أخره ..

فهتفت أميمة :

— أعوذ بالله من اوهام قلبي .

وذهب عم كريم . وأخذت اميمة تحرك رأسها في اضطراب ينذر بالانفجار ، فساقها ادهم امامه الى حجرتهما الداخلية حيث علا بكاء الصغيرين ، وصاح بوحشية :

— لا تغادري الحجرة ، سأعود به ، ولكن اياك ان تغادري الحجرة .
وعاد الى الفناء فعثر على قدري جالساً على الأرض فانحنى فوقه هامساً :

— خبرني ماذا تعرف عن اخيك ؟
فرفع رأسه نحوه بشدة ولكن شيئاً منعه من الكلام فعاد الرجل يسأله :
— خبرني يا قدري ماذا فعلت بأخيك ؟
فقال الشاب بصوت لا يكاد يسمع :
— لا شيء .

وارتد الرجل نحو الداخل ثم رجع بمصباح فاشعله ووضع على عربته فسقط نوره على وجه قدري فتفحصه الرجل برهبة وقال :
— وجهك ينذر بالشقاء .

وجاء صوت اميمة من الداخل مختلطاً باصوات الطفلين ليقول كلاماً لم يميزه احد فصاح ادهم :

— اسكني يا ولية ، موتي ان شئت ولكن في صمت !
وعاد الى تفحص ابنه . وبغثة ارتعدت اطرافه . وامسك بطرف كفه وقال في فزع :

— دم ، ما هذا ؟ دم اخيك ؟!

فحملني قدري في كم جلبابه ثم انكمش بحركة لاإرادية ، وحنى رأسه في يأس . اعترف قدري بحركته اليائسة فجذب ادهم حتى اقامه ، ثم دفعه الى الخارج . دفعه بقسوة لم يعهدها من قبل ، وغشى عينيه ظلام فوق الظلام المحيط .

دفعه نحو الخلاء قائلاً :

- سنميل نحو خلاء الدراسة كيلا نمر امام كوخ ادريس .
وأوغلا في الظلام ، وقدري يسير كالترنج تحت قبضة ابيه الناشبة في
منكبه . وتساءل ادهم وهو يجده في السير بصوت ادركه الهرم :
- خبرني هل ضربته ؟ بأي شيء ضربته ؟ وعلى اي حال تركته ؟
لم يجب قدري . كانت قبضة ابيه شديدة ولكنه لم يكن يشعر بها .
وكان ألمه شديداً ولكنه لم يفصح عنه . وود ان الشمس لا تطلع ابداً .
- ارحمني وتكلم ، ولكنك لم تعرف الرحمة ، وقد قضيت على نفسي
بالعذاب يوم انجبتك ، انا الذي تطاردني اللعنات منذ عشرين عاماً ،
وها أنا اطلب الرحمة ممن لا يعرفها .
فانفجر قدري باكياً حتى ارتجف منكبه في قبضة ادهم القاسية ،
وظل يرتجف حتى سرت عدواه الى ادهم ، لكنه قال :
- أهذا جوابك ؟ لماذا يا قدري لماذا ؟ كيف هان عليك ؟ اعترف
في الظلام قبل ان ترى نفسك في ضوء النهار .

فهتف قدري :

- لا طلع النهار !

- نحن اسرة الظلام ، لن يطلع علينا نهار ! . وكنت احسب الشر
مقيماً في كوخ ادريس ، فاذا به في دمننا نحن ، ان ادريس يقهقه
ويسكر ويعريد ، اما نحن فيقتل بعضنا البعض ، رباه .. هل قتلت اخاك ؟
- ابداً !

- فأين هو ؟

- ما قصدت قتله !

فصاح ادهم :

— لكنه قتل !

واجهش قدرى في البكاء واشتدت قبضة ابيه . اذن قتل همام ،
زهرة العمل وخبيب الجلد ، كأنه لم يكن ، لولا الالم المفترس ما
صدقت .

وبلغا الصخرة الكبيرة فسأله ادهم بصوت غليظ :

— أين تركته يا مجرم ؟

فسار قدرى نحو الموضع الذي حفره لأخيه ووقف عنده فيما بين
الصخرة والجبل . وتساءل ادهم :

— اين اخوك ؟ لا ارى شيئاً .

فقال قدرى بصوت لا يكاد يسمع :

— هنا دفنته .

فصرخ ادهم :

— دفنته ؟!

وأخرج من جيبه علبة ثقاب وأشعل عوداً تفحص الموضع على ضوءه
حتى رأى قطعة من الأرض قلقة المستوى كما رأى مسح الجثة الذي
انتهى عندها . تأوه ادهم من الألم . وراح يزيح التراب بيدين مرتعشتين .
وواصل عمله في جو رهيب حتى مست اصابعه رأس همام . وغرز يديه
الى ما تحت ابطيه وسحب الجثة في رفق . وجثا على ركبتيه الى جانبها
واضعاً يديه على رأسه ، مغمض العينين ، مثلاً للتعاسة والحياة . وزفر
من اعماقه ، ثم غنم :

— ان حياة اربعين عاماً من العمر تبدو سخفاً سقيماً امام جثتك
يا بني .

وقام بغتة ، ونظر نحو قدرى وهو يقف امام الجثة من الناحية
الأخرى ، فعانى لحظات كراهية عمياء ، وقال بصوت غليظ :

— سيعود همام الى الكوخ محمولاً على عنقك .

فجفل قدري مترجعاً ، ولكن الرجل سارع اليه دائراً حول الجثة ثم قبض على منكبه وهتف :

- احمل أخاك !

فقال قدري بصوت كالأنين :

- لا أستطيع .

- انك استطعت قتله .

- لا أستطيع يا ابي .

- لا تقل « ابي » ، قاتل اخيه لا أب له ، لا ام له ، لا أخ له .

- لا أستطيع .

فشد قبضته عليه وقال :

- على القاتل ان يحمل ضحيته .

حاول قدري ان يفلت من قبضة ادهم ولكن ادهم لم يمكنه ، وانهاك في عصبية على وجهه باللكمات فلم يتفاد من لكمة او يتأوه من ألم . وكف الرجل ، ثم قال :

- لا تضيع الوقت ، امك تنتظر .

وارتعد قدري لدى ذكر امه ، فقال برجاء :

- دعني اخفي .

فجذبه نحو الجثة وهو يقول :

- هلم نحمله معاً .

تحول ادهم الى الجثة ووضع يديه تحت ابطي همام ، وانحنى قدري واضعاً يديه تحت الساقين . رفعوا الجثة معاً ، وسارا في ببطء نحو خلاء الدراسة . اوغل ادهم في مشاعره الأليمة حتى فقد اي شعور بالألم او بسواه . ولبث قدري يعاني الماء من خفقان قلبه وارتجاف اطرافه . وامتلاً انفه برائحة ترابية نفاذة على حين سرى مس الجثة من يديه الى اعماقه . وكان الظلام غليظاً بينا نضح الأفق بأنوار الأحياء الساهرة . وشعر

قدري : لباس يكتم آخر انفاسه فتوقف قائلاً لأبيه :
- سأحمل الجثة وحدي .
ووضع ذراعاً تحت الظهر وأخرى تحت الفخذين ، وسار يتبعه ادهم .

٢٢

وعندما اقتربا من الكوخ جاءهما صوت اميمة متسائلاً في جزع :
- هل وجدتماه ؟
فصاح ادهم بصوت آمر :
- اسبقيني الى الداخل .
وسبق قدري الى الكوخ ليتأكد من اختفائها . ووقف قدري عند
مدخل الكوخ لا يريد ان يتحرك . وأشار له ابوه بالدخول فامتنع قائلاً
في صوت هامس :
- لا استطيع ان القاها .
فهمس الأب حائقاً :
- استطعت ما هو افظع .
فتشبث قدري بموقفه وهو يقول :
- كلا ، هذا افظع .
ودفعه ادهم امامه بحزم فاضطر الى التحرك حتى بلغ الحجرة الخارجية .
وانقض ادهم على اميمة بسرعة فكتم براحته الصرخة التي اوشكت على
الافلات من فيها ، وقال بقسوة :
- لا تصرخي يا ولية ، لا ينبغي ان تلفت الاسماع حتى نتدبر الأمر ،
فلنقاس المقدور صامتين ، ولنتحمل الألم صابرين ، الشر من بطنك ومن
صليي خرج ، واللعة حقت علينا جميعاً .

وسد فاهها بقوة . وحاولت التخلص من يده عبثاً . ارادت ان تعضها فلم تتمكن . اضطربت انفاسها وخارت قواها فسقطت مغشياً عليها . ولبت قدري واقفاً يحمل الجثة في صمت وخزي مركزاً بصره على المصباح ليتجنب النظر اليها . واتجه ادهم نحوه ، فساعدته على وضع الجثة على الفراش ، ثم سبجها برفق . ونظر قدري الى جثة اخيه المسجاة على الفراش الذي اقتسماه طوال العمر فشعر بأنه لم يعد له مكان في الدار . وحركت اميمة رأسها ، ثم فتحت عينيها فبادر ادهم اليها وهو يقول بحزم :
- اياك ان تصرخي ..

وارادت ان تنهض فساعدتها على النهوض وهو يحذرهما من احداث صوت . وهمت بالارتقاء على الفراش فحال الرجل دون ذلك ، فوقفت مغلوبة على امرها واندفعت تنفس عن كبرها بشد شعرها بقسوة فانزعجت منه خصلات بعد خصلات . ولم يبال الرجل بما تفعل ، وقال بغلظة :
- افعلي ما يريدك ولكن في صمت .

فقال بصوت مبجوح :

- ابني !.. ابني ..

فقال ادهم في ذهول :

- هذه جثته ، لم يعد ابنك ولا ابني ، وهذا هو قاتله ، اقتليه ان شئت .

ولطمت اميمة خديها وقالت لقدري بوحشية :

- ان احط الوحوش تتبرأ من فعلتك !

فحنى قدري رأسه في صمت على حين قال ادهم بوحشية :

- هل تذهب هذه الروح هدرأ ؟ لا ينبغي ان نحيا ، هذه هي العدالة .

فنهفت اميمة :

- كان امس املاً مشرقاً ، قلنا له اذهب فأبى ، لئنه ذهب ،

لو لم يكن كريماً بطلاً رحيماً لذهب ، أ يكون جزاء هذا القتل ؟! كيف
هان عليك يا صخري القلب ! لست ابني ولست أمك !
لم ينبس قدرتي لكنه قال لنفسه : « قتلته مرة وهو يقتلني مرة كل
ثانية ، لست حياً ، من قال اني حي ؟! » . وسأله ادهم بفضاطة :
- ماذا افعل بك ؟

فقال قدرتي بهدوء :

- قلت انه لا ينبغي ان احيا .

فهتفت اميمة :

- كيف سولت لك نفسك قتله ؟!

فقال قدرتي في يأس :

- لا جدوى من النواح ، اني مستعد للعقاب ، والقتل اهون مما اعاني .

فقال ادهم بحنق :

- لكنك جعلت حياتنا ايضاً افزع من الموت .

وهبت اميمة هائفة وهي تلطم خديها :

- لن احب هذه الحياة ، ادفنوني مع ابني ، لماذا لا تدعني اصوت ؟

فقال ادهم بمرارة وسخرية :

- ليس شفقة على حنجرتك ولكني اخشى أن يسمعنا الشيطان .

فقال قدرتي باستهانة :

- فليسمع كيف شاء ، لم اعد اكرث للحياة .

واذا بصوت ادريس يعلو قريباً من مدخل الكوخ :

- اخي ادهم ! تعال يا مسكين !

فسرت الرعدة فيهم جميعاً ، غير ان ادهم صاح به :

- عد الى كوئلك ، واحذر ان تستفزني .

فقال ادريس بصوت قوي :

- شر اهون من شر ، مصيبتكم نجتكم من غضبي ، ولكن للدع

هذا الحديث ، كلانا مصاب ، انت فقدت العزيز الغالي ، وأنا ضاعت ابنتي الوحيدة ، كان الابناء عزاءنا في منغانا ولكنهم ذهبوا ، تعال يا مسكين نبادل العزاء .

اذن ذاع السر ! كيف ذاع ؟! ولأول مرة يخاف قلب اميمة على قدري . وقال ادهم :

— لا تهمني شماتتك ، من يذق ألمي تهن عليه الشمانة !

فجاء صوت ادريس مستكراً :

— شماتة ! الا قدري اني بكيت عندما رأيتك تسحب الجثة من الحفرة التي حضرها قدري ؟!

فصاح ادهم بغضب :

— تجسّس حقير !

— لم ابك على القتل وحده ولكن على القاتل ايضاً ! وقلت لنفسي يا لك من مسكين يا ادهم ، فقدت شابين في ليلة واحدة ! وصوت اميمة دون اكتراث لأحد ، واندفع قدري خارج الكوخ بغتة . وجرى ادهم وراءه . وصرخت اميمة :

— لا اريد ان افقد الاثنين !

اراد قدري ان يثب على ادريس ولكن ادهم دفعه بعيداً عنه ثم وقف امام الرجل متحدياً وهو يقول :

— احذر ان تتعرض لنا !

فقال ادريس بهدوء :

— انت احق يا ادهم ، لا تفرق بين الصديق وبين العدو ، تريد ان تعارك اخاك دفاعاً عن قاتل ابنتك :

— اذهب غني .

فقال ادريس ضاحكاً :

— كما نشاء ، تقبّل عزائي والسلام عليكم .

غاب أدريس في الظلام . وتحول ادهم نحو قدري فوجد اميمة واقفة
تسأل عنه ، فجزع الرجل وراح ينظر في الظلام ويصيح بأعلى صوته :

— قدري .. قدري .. اين انت ؟!

وجاء صوت أدريس وهو يصيح بقوة :

— قدري .. قدري .. اين انت ؟!

٢٣

دُفن همام في مقبرة تابعة للوقف بباب النصر . سار في جنازته قوم
كثيرون من معارف ادهم ، اكثرهم باعة من زملائه ، وأقلهم زبائن
من أسرهم رقة اخلاقه وحسن معاملته . وفرض ادريس نفسه على الجنازة
فاشترك في تشييعها ، بل وقف يتقبل الغزاء بصفته عم الفقيد . وسكت
ادهم كارهاً ، فسار في الجنازة كثيرون من الفتوات والبلطجية والبرجية
واللصوص وقطاع الطرق . وعند الدفن وقف ادريس فوق القبر يشجع
ادهم بكلمات الغزاء والآخِر صابر مثابر لا يجيب ودموعه تستبق على
خديه . وروحت اميمة عن كريها بالطم والصوات والتمرغ في التراب .
وعندما تفرق المشيعون ، التفت ادهم الى ادريس وقال بحنق :

— الا يوجد حد لقسوتك ؟!

فنظاهر ادريس بالدهشة وتساءل :

— عم تتحدث يا اخي المسكين ؟

فقال ادهم بحدة :

— لم اتصورك على هذا القدر من القسوة رغم سوء ظني بك ، الموت

نهاية كل حي ، فما وجه الشامة فيه ؟!

فقال ادريس وهو يضرب كفاً على كف :

— الحزن اخرجك عن ادبك ، لكني مسامحك .
— متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة ؟
— لترحمنا السماء ، الست اخي ؟! هذه رابطة ليس في الامكان
فصمها .

— ادريس !. كفاك ما فعلت بي .
— الحزن قبيح ، ولكن كلانا مصاب ، انت فقدت همام وقدرى
وأنا فقدت هند ، اصبح للجبلالوي العظيم حفيدة عاهرة وحفيد قاتل ،
وعلى اي حال قانت خير حالا مني اذ لك ذرية تعوضك عما فات .
فتساءل ادهم في حسرة :
— اما زلت تحسدني ؟
فقال ادريس متعجباً :
— ادريس يحسد ادهم !
فعلا صوت ادهم وهو يهدير :
— اذا لم يكن جزاؤك من جنس عملك فعلى الدنيا العفاء .
— العفاء ، العفاء .

ومرت ايام كثيبة مفعمة بالاشجان . وقهر الحزن اميمة فسادت صحتها
واعترضها الضمور . وفي اعوام قلائل بلغ ادهم من الهرم ما لا يُبلغ
في عمر مديد . وبات الزوجان يعانيان الهزال والمرض . ويوماً اشتدت
عليها وطأة المرض فركنا الى الرقاد ، اميمة مع طفلها في الغرفة
الداخلية ، وادهم في الغرفة الخارجية ، غرفة قدرى وهام . ومضى النهار
وجاء الليل فلم يشعلا مصباحاً ، وقنع ادهم بضوء القمر المنبعث من
الفناء . وراح يغفو قليلاً ويستيقظ قليلاً في حال بين الوعي والذهول .
وجاء صوت ادريس من خارج الكوخ وهو يسأله متهمكاً :

— الست في حاجة الى خدمة ؟
فانقبض صدره ولم يجبه . وكان يكره الساعة التي يغادر فيها الآخر

كوخه ليذهب الى سهرته الليلية . وجاءه الصوت مرة اخرى وهو يقول :
- اشهدوا يا ناس على برّي وعقوقه .
وذهب وهو يغني :

كنا ثلاثة طلعا الجبل نصطاد
واحد قتله الهوى والثاني خدوه الاحباب

امتألت عيننا ادهم بالدموع . هذا الشر الذي لا يصد عن اللهو .
يقاتل ويقتل ويحظى بكل احترام . يقسو ويستبد هازئاً بالعواقب وله
ضحكة تجلجل فتملاً الآفاق . له لذة في العبث بالضعفاء ويسمر في
المآتم ويغني فوق شواهد القبور . الموت يدنو مني وهو ما زال يضحك
ساخراً . القتل في التراب والقاتل ضائع وفي كوخني بكاء على الاثنين .
ضحكة الطفولة في الحديقة استحالت مع الايام عبوسة غارقة في الدمع .
وفي الداخل بقية جسدي يتوجع . لماذا هذا العناء كله وأين صفو
الاحلام أين ؟

وخيل الى ادهم انه يسمع وقع اقدام . اقدام بطيئة وثقيلة استثارت
ذكريات غامضة كرائحة زكية مؤثرة تستعصي على الادراك والتحديد .
حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح ، ثم رآه يمتلئ بشيء
كجسم هائل . حلق في دهش ، وأحدّ بصره في أمل يكتنفه يأس ،
ونبت عنه آهة عميقة ، وغغم متسائلاً :

- أبي ١٩

وخيل اليه انه يسمع الصوت القديم وهو يقول :
- مساء الخير يا ادهم .

فاغرورقت عيناه ، وهم بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم
يجدها منذ اكثر من عشرين عاماً . وقال بصوت متهلج :
- دعني اصدق .

فقال :

— أنت تبكي وأنت الذي انخطأت .

فقال ادهم بصوت يشرق بالدمع :

— الخطأ كثير والعقاب كثير ولكن حتى الحشرات المؤذية لا تيأس من العثور على ظل .

— هكذا تعلمني الحكمة !

— عفواً عفواً ، الحزن ارهقني ، والمرض ركبني ، حتى اغنامي مهددة بالهلاك .

— جميل ان تخاف على أغنامك .

تساءل ادهم في رجاء :

— هل عفوت عني ؟

أجاب بعد صمت :

— نعم .

فهتف ادهم بجسم مرتعش :

— الشكر لله ، منذ قليل كنت اقرع قاع هاوية اليأس بيدي .

— فعثرت علي فيها !

— نعم كالصحو بعد الكابوس .

— لذلك فأنت ولد طيب .

فتأوه ادهم قائلاً :

— أنجبت قائلاً وقتيلاً .

-- الميت لا يعود فإذا تطلب ؟

فتنهدهم ادهم قائلاً :

— كنت أهفو للغناء في الحديقة ولكن لن يطيب لي اليوم شيء .

فقال :

— سيكون الوقف لذريتك .

- الشكر لله .

فقال :

- لا تجهّد نفسك واركن الى النوم .

* * *

وفي تواريخ متقاربة ودع الحياة أدهم فأمية ثم لإدريس . وكبر
الأطفال . وعاد قدري بعد غيبة طويلة ومعه هند ومعها أطفال . نشأوا
جنباً الى جنب وخالطوا غيرهم فازدادوا بهم عدداً . وإنتشر العمران
بفضل أموال الوقف فارتسمت في صفحة الوجود حارتنا . ومن هؤلاء
وأولئك جاء أبناء حارتنا .

جبل

أقيمت بيوت الوقف في خطين متقابلين يصنعان حارتنا . ويبدأ الخيطان من خط يقع أمام البيت الكبير ، ويمتدان طولاً في اتجاه الجبلية . أما البيت الكبير فقد ترك خالياً من جميع الجهات على رأس الحارة من ناحية الصحراء . وحارتنا ، حارة الجبلوي ، أطول حارة في المنطقة . أكثر بيوتها ربوع كما في حي آل حمدان ، وتكثر الأكواخ من منتصفها حتى الجبلية . ولن تتم الصورة الا بذكر بيت ناظر الوقف على رأس الصف الأيمن من المساكن ، وبيت الفتوة على رأس الصف الأيسر قبالة . كان البيت الكبير قد أغلق أبوابه على صاحبه وخدمه المقربين . ومات أبناء الجبلوي مبكرين فلم يبق من سلالة الذين أقاموا وماتوا في البيت الكبير إلا الأفندي ناظر الوقف في ذلك الوقت . أما أهل الحارة عامة فمنهم البائع الجوال ، ومنهم صاحب الدكان أو القهوة ، وكثيرون يتسولون ، وثمة تجارة مشتركة يعمل فيها كل قادر هي تجارة المخدرات وبخاصة الحشيش والأفيون والمدافع . وكان طابع حارتنا - كحالها اليوم - الزحام والضجيج . الاطفال الحفاة اشباه العرايا يلعبون في كل ركن ، ويملاؤون الجو بصراخهم والأرض بقاذوراتهم . وتكتظ مداخل البيوت بالنساء ، هذه تخرط الملوخية ، وتلك تقشر البصل ، وثالثة توقد النار ، يتبادلن الأحاديث والنكات ، وعند الضرورة الشتائم والسباب . والغناء والبكاء لا ينقطعان ، ودقة الزار تستأثر باهتمام خاص . وعربيات

اليد في نشاط متواصل . ومعارك باللسان أو بالأيدي تنشب هنا وهناك . وقطط تموء وكلاب تهر وربما تشاجر النوعان حول أكوام الزبالة . والفئران تنطلق في الأفنية وعلى الجدران ، وليس بالنادر ان يتجمع قوم لقتل ثعبان أو عقرب . أما الذباب فلا يضاهيه في الكثرة إلا القمل ، فهو يشارك الآكلين في الأطباق والشاربين في الأكواز ، يلهو في الأعين . يغني في الأفواه كأنه صديق الجميع .

وما أن يجد شاب في نفسه جرأة أو في عضلاته قوة حتى يندفع إلى التحرش بالآمنين ، والاعتداء على المسالين فيفرض نفسه فتوة على حي من أحياء الحارة ، يأخذ الاتاوات من العاملين ، ويعيش ولا عمل له إلا الفتوة . هكذا وجد فتوات الأحياء مثل قدره والليثي وأبو سريع وبركات وحمودة . وكان زقلط أحد هؤلاء الفتوات ، فخاض معارك كثيرة مع فتوة بعد فتوة حتى هزم الجميع وصار فتوة الحارة كلها . وفرض الاتاوات على الفتوات جميعاً . ورأى الأفندي ناظر الوقف انه بحاجة الى مثل هذا الرجل لينفذ أوامره أو يدفع عنه ما قد يتهدهده من شر فقربه ورتب له راتباً عظيماً من ريع الوقف ، فأقام زقلط في بيته المقابل لبيت الناظر واستحكم سلطانه . وعند ذلك ندر وقوع المعارك بين الفتوات ، اذ ان الفتوة الأكبر لا يرتاح الى هذا النوع من المعارك الذي قد ينتهي بتكبير فتوة وبالتالي بتهديد مركزه هو ، لذلك لم يجد الفتوات متنفساً لقوة شرهم الحبيسة إلا في الاهسالي المساكين المسالين . كيف انبهي الأمر بحارتنا الى هذه الحال ؟

لقد وعد الجبلاوي أدهم بأن يكون الوقف لخير ذريته . وشيدت الربوع ووزعت الخيرات وحظي الناس بفترة من العمر السعيد . ولما أغلق الأب بابه واعتزل الدنيا احتلّى الناظر مثاله الطيب حيناً ، ثم لعب الطمع بقلبه فترع إلى الاستئثار بالريع . بدأ بالمغالطة في الحساب والتفتير في الأرزاق ثم قبض بسده قبضاً مطمئناً إلى حماية فتوة السسارة الذي

اشتراه . ولم يجد الناس بداً من ممارسة أحقر الاعمال . وتكاثف عددهم فزاد فقرهم وغرقوا في البؤس والقذارة . وعمد الأقوياء الى الارهاب والضعفاء الى التسول ، والجميع الى المخدرات . كان الواحد يكذب ويكدر نظير لقات يشاركه فيها فتوة ، لا بالشكر ، ولكن بالصفع والسب واللعن . الفتوة وحده يعيش في مجبوحة ورفاهية ، وفوق هذا الفتوة الاكبر ، والناظر فوق الجميع ، أما الاهالي فتحت الأقدام . واذا عجز مسكين عن أداء الاتاة انتقم منه فتوة حيه شر الانتقام ، واذا شكأ أمره الى الفتوة الاكبر ضربه الفتوة الاكبر وأسلمه الى فتوة حيه ليعيد تأديبه ، فاذا سولت له نفسه أن يشكو الى الناظر ضربه الناظر والفتوة الاكبر وفتوات الاحياء جميعاً . وهذه الحال الكثيرة شهدتها بنفسي في أيامنا الاخيرة ، صورة صادقة مما يروي الرواة عن الازمان الماضية . أما شعراء المقاهي المنتشرة في حارتنا فلا يروون الا عهود البطولات متجنبين الجهر بما يخرج مراكز السادة ، ويتغنون بمزايا الناظر والفتوات ، يعدل لا تحظى به ورحمة لا نجد لها وشامة لا نلقاها وزهد لا نراه ونزاهة لا نسمع عنها . واني لأتساءل عما ابقى آباءنا - أو عما يبقينا نحن - بهذه الحارة اللعينة ؟ الجواب يسير . لن نلقى في الحوارى الاخباريات الا حياة اسوأ من الحياة التي نكابدها هنا ، هذا إذا لم يهلكنا فتواتها انتقاماً مما لاقوا على أيدي فتواتنا . والادهى الامر أننا محسودون ! يقول أهالي الحوارى حولنا يا لها من حارة سعيدة ! تحظى بوقف لا مثيل له ، وفتوات تقشعر عند ذكرهم الابدان . ونحن لا ننال من الوقف إلا الحشرات ، ومن قوة فتواتنا إلا الاهانات والاذى . على ذلك كله فنحن باقون ، وعلى الهم صابرون . نتطلع إلى مستقبل لا نسدرى منى يجمي ، ونشير الى البيت الكبير ونقول هنا أبونا العتيد ، ونومىء إلى الفتوات ونقول هؤلاء رجالنا ، والله الامر من قبل ومن بعد .

ونفذ صبر آل حمدان فاصطخبت في حيههم أمواج التمرد .
كان آل حمدان يقيمون في قبة الحارة فيما يلي بيتي الافندي وزقلط ،
حول البقعة التي بنى أدهم فيها كوخه . وكان رئيسهم حمدان صاحب
قهوة ، قهوة حمدان ، أجمل قهوة في الحارة كلها ، التي تتوسط حي
حمدان بين الربوع . جلس المعلم حمدان في الجهة اليمنى من مدخل القهوة ،
في عباءة رمادية ، وعلى الرأس لاسة مزركشة ، يتابع عبدون صبي
القهوة في نشاطه المتواصل ، ويتبادل مع بعض الزبائن الاجايدث .
وكانت القهوة ضيقة العرض ولكنها تمتد طولاً حتى أريكة الشاعر في
الصدر تحت صورة خيالية ملونة لادهم في رقاده الاخير وهو يتطلع الى
الجبلاوي الواقف بباب الكوخ . أشار حمدان إلى الشاعر فتناول الربابة
واستعد للانشاد . وبين انغام الأوتار بدأ بتحية الناظر حبيب الجبلاوي ،
وزقلط زين الرجال ، ثم روى فترة من حياة الجبلاوي قبيل مولد
أدهم . وندت عن احتساء القهوة والقرفة والشاي أصوات ، وانعقد
الدخان المتصاعد من الجوز حول الفانوس سحبا شفافة . وتركزت الأعين
في الشاعر ، واهتزت الرؤوس لجمال ذكرى أوحش موعظة . ومضى
وقت الخيال في شغف وانسجام حتى وافاه الختام ، وترامت على الشاعر
نحيات الاستحسان . عند ذاك تحركت في الأعماق موجة التمرد التي
اجتاحت آل حمدان ، فقال عتريس الأعمش من مجلسه وسط القهوة ،
معلقاً على ما سمع من قصة الجبلاوي :

— كان في الدنيا خير ، حتى أدهم لم يبع يوماً واحداً .
وإذا بتمرحنة العجوز تقف أمام الدكان وتنزل قفص البرتقال من

فوق رأسها ، ثم تقول موجهة الخطاب الى عتريس الأعمش :

— يسلم فك يا عتريس ، كلامك كالبرتقال السكري !

فنهزها المعلم حمدان قائلاً :

— اذهبي يا وليه وأريحننا من كلامك الفارغ .

لكن تمرحنة جلست على الأرض لصق مدخل القهوة وهي تقول :

— ما أحلى القعدة جنبك يا معلم حمدان (ثم وهي تشير الى قفص

البرتقال) يوم ونصف ليلة في المشي والنداء نظير ملاليم يا معلم ..

وهم المعلم بالرد عليها ولكنه رأى ضلمة مقبلاً مقطباً وقد تلوث

جبينه بالتراب فنظر اليه حتى وقف أمامه في مدخل القهوة وهتف بصوت

مرتفع :

— ربنا على المفترى ! قدره ... قدره هو. اكبر مفترى ، قلت

له امهلي الى الغد حتى يفتح الله عليّ فرماني على الأرض وبرك فوق

صدري حتى كتم أنفاسي .

فجاء صوت عم دعس من أقصى القهوة وهو يقول :

— تعال يا ضلمة اقعدي جنبني ، تعال الله يلعن أولاد الحرام ، نحن

أسياد هذه الحارة ولكننا نضرب فيها كالكلاب ، ضلمة لا يجد اتساوة

لقدره ، تمرحنة تسرح بالبرتقال وهي لا ترى أبعد من ذراع أمامها ،

وأنت يا حمدان أين شجاعتك يا ابن أدهم !؟

فانجبه ضلمة الى الداخل ، ونساءلت تمرحنة :

— أين شجاعتك يا ابن ادهم !؟

فهتف بها حمدان :

— غوري يا تمرحنة ، أنتِ فت سن الزواج من خمسين سنة فلم

تخبين مجالس الرجال ؟

فنساءلت المرأة :

— أين هم الرجال !؟

فقطب حمدان ولكن تمرحنة بادرت به كالمعتذرة :

— دعني اسمع الشاعر يا معلم .

فقال دعيس للشاعر بمראה :

— حدثها عن هوان آل حمدان في هذه الحارة .

فابتسم الشاعر قائلاً :

— حلمك يا عم دعيس ، حلمك يا سيد الناس .

فقال دعيس محتداً :

— من سيد الناس ؟ ان سيد الناس يضرب الناس ويظلم الناس ويقتال الناس ، أنت تعرف من هو سيد الناس !

فقال الشاعر بقلق :

— قد نجد بيننا فجأة قدره او غيره من الشياطين !

فقال دعيس بحدة :

— كلهم ذرية إدريس !

فقال الشاعر بصوت خافت :

— حلمك يا عم دعيس قبل ان تهدم القهوة فوق رؤوسنا .

فنهض دعيس من مجلسه وقطع القهوة في خطوات واسعة ثم جلس الى يمين حمدان على أريكة وهم بالكلام ، ولكن ضجة غلمان علت بفتة حتى غطت على صوته ، وانتشروا أمام القهوة كالجراد وهم يتبادلون السباب فصرخ فيهم دعيس :

— يا أولاد الشياطين أليس لكم جحور تؤيكم في الليل ؟

لكنهم لم يبالوا بصراخه فوثب كالمسدوخ وأنتفض عليهم ، فجروا في الحارة وهم يصيحون « هيه » ، وترامى أكثر من صوت نسائي من نوافذ الريع المواجه للقهوة ، « وحد الله يا عم دعيس » ، « خوفت الأولاد يا رجل » ، فلوح بيده ساخطاً وعساد الى مجلسه وهو يقول :

- الواحد حيران ، لا عند الأولاد راحة ولا عند الفتوات راحة
ولا عند الناظر راحة .

آمن كل على قوله . آل حمدان ضاع حقهم في الوقف ، آل حمدان
تمرغوا في تراب القذارة والبؤس . آل حمدان تسلط عليهم فتوة ليس
منهم بل من أخط الأحياء . قدره يسير بينهم مختالا يصفع من يشاء
ويأخذ الاتاوة ممن يشاء . لذلك نفسد صبر آل حمدان واصطخبت في
حيهم أمواج التمرد .

والتفت دعبس الى حمدان وقال :

- يا حمدان ، الجميع على رأي واحد ، نحن آل حمدان ، عددنا
كبير ، أصلنا معروف ، وحققنا في الوقف كحق الناظر نفسه .
فغمغم الشاعر :

- اللهم فوت الليلة على خير .

حمدان حبك العباءة حوله ورفع حاجبيه المثلثين الغزيرين وقال :
- قلنا في هذا وعدنا ، سيحدث أمر ، اني اشم الأحداث شماً .
وارتفع صوت علي فوانيس بالتحية وهو يدخل القهوة مشمر الجلباب
وطاقيته الترابية مائلة حتى حاجبيه ، وما لبث ان قال :
- الكل مستعدون ، ولو احتساج الأمر الى نقود سيعطون ، حتى
الشحاذون .

وانحشر بين دعبس وحمدان وهو يهتف بعبدون صبي القهوة :

- شاي من غير سكر .

فانتبه اليه الشاعر قائلاً :

- إحم !

فابتسم علي فوانيس ودس يده في صدره فأخرج كيساً ثم فتحه
واستخرج منه لفافة صغيرة رمى بها الى الشاعر . وربت فخذ حمدان
متسائلاً فقال هذا :

- أماننا المحكمة .
- فقلت تمرحنة :
- خير ما نفعل .
- فقال الشاعر وهو يخرج الشيء من اللقافة :
- فكروا في العواقب .
- فقال علي فوانيس بحدة :
- لا هوان أحط مما نحن فيه ، ولنا عدد وفير يجب حسابه ،
والأفندي لا يمكن ان يتجاهل أصلنا وقرابتنا اليه والى صاحب الوقف .
- فقال الشاعر وهو ينظر الى حمدان نظرة ذات معنى :
- لم تضق بنا الحلول .
- فقال حمدان كأنما يجيبه :
- عندي فكرة جريئة !
- تطلعت اليه الأبصار فقال :
- أن نلجأ الى الناظر !
- فقال عبدون وهو يقدم الشاي الى فوانيس :
- خطوة عزيزة وبعدها تحفر قبور .
- فضحكت تمرحنة قائلة :
- اسمعوا فالكم من عيالكم .
- لكن حمدان قال بتصميم :
- ينبغي ان نذهب ، ولنذهب جماعة .

على رأسهم حمدان ودعبس وعتريس الأعمش وضلمة وعلي فوانيس
ورضوان الشاعر . كان من رأى رضوان ان يذهب حمدان وحده نقياً
لشبهة العصيان واتقاء لعواقبه، ولكن حمدان قال له بصراحة : « ان قتلي
شيء يسير ولكن قتل آل حمدان لا يقدرُونَ عليه » . ولفت التجمهر
انظار اهل الحارة وبخاصة الجيران الأقربين ، فبرزت رؤوس النساء من
النوافذ ، وتطلعت أعين من تحت السلال والمقاطف ومن فوق عربات
البد ، وأقبل كثيرون كباراً وصغاراً وتساءلوا ماذا يريد آل حمدان ؟ .
وقبض حمدان على المطرقة النحاسية وطرق الباب ، ففتح بعد قليل عن
البواب بوجهه الكئيب ونسائم محملة بشذا الفل والياسمين . نظر البواب
الى المتجمهرين بانزعاج وتساءل :

— ماذا تريدون ؟

فقال حمدان بقوة استمدها ممن خلفه :

— نريد مقابلة حضرة الناظر .

— كلِّكم ؟

— ليس فينا من هو احق بالمقابلة من الآخرين .

— انتظروا حتى استأذن لکم .

وهمّ برد الباب لكن دعبس مرق الى الداخل وهو يقول :

— الانتظار في الداخل أكرم .

واندفع وراءه الآخرون كالسرب وراء الحمامة ، ودُفِعَ حمدان بينهم
رغم سخطه على اندفاع دعبس فانتقلت المظاهرة الى الممشى المفروش
بين السلامك والحديقة . وصاح البواب :

— يجب ان تخرجوا .

فقال حمدان :

— الضيف لا يطرد ، اذهب وخبر سيدك .

وتحركت شفتا الرجل باحتجاج غدير مسموع ، وشت به قسماته

المكفهرة ثم تحول مهزولاً نحو السلامك . وتبعته الأعين حتى اختفى وراء الستار المسدل على باب البهو ، وظلت أعين عالقة بالستار ، وجالت أعين في انحاء الحديقة ، حول الفسقية المحاطة بالنخيل ، وأعراش العنب لصق الجدران ، وفروع الياسمين المتسلقة الأسوار ، جالت بنظرات حائرة وحواس مغلقة باهمّ وما لبثت ان ردت الى الستار المسدل على باب البهو . وانزاح الستار فخرج الأفندي بنفسه متجههم الوجه ، وتقدم في خطوات حادة غاضبة حتى وقف عند رأس السلم . لم يبد من شخصه المتلفع بالعباءة الا وجهه الغاضب وشبهه الوبري وسبحة طويلة في يمينه . القى نظرة ازدراء على المظاهرة ثم استقرت عيناه على حمدان فقال هذا بأدب جم :

- صبحك الله بالسعادة يا حضرة الناظر .
- فاكتمى برد التحية بحركة من يده ، وتساءل :
- من هؤلاء ؟
- آل حمدان يا حضرة الناظر .
- من اذن لهم بالدخول في بيتي ؟
- فقال حمدان بدهاء :
- انه بيت ناظرهم ، فهو بيتهم ، وهم في حاه .
- فلم يلب وجه الأفندي وقال :
- تحاول الاعتذار عن سوء سلوككم !
- وضاق دعبس بتأدب حمدان فقال :
- نحن اسرة واحدة ، جميعنا ابناء ادهم وأميمة .
- فقال الأفندي بامتعاض :
- ذاك تاريخ مضى ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .
- فقال حمدان :
- نحن في كرب من الفقر وسوء المعاملة ، فاجتمع الرأي بيتنا على

اللاجوء اليك لتفرج كربنا .

وهنا قالت تمرحنة :

- وحياتك عيشتنا تقرف الصراصير .

فقال دعيس بصوت ارتفع درجات :

- اكثرتنا متسولون ، اطفالنا جياع ، وجوهنا متورمة من صفع

الفتوات ، أيليق ذلك بأبناء الجبلأوي ومستحقي وقفه ؟!

فتقبض يد الأفندي على المسبحة وهتف :

- اي وقف يا هذا ؟

حاول حمدان ان يمنع دعيس من الكلام ولكنه اندفع قائلاً كمن

لطشت الخمر رأسه :

- الوقف الكبير ، لا تغضب يا حضرة الناظر ، الوقف الكبير الذي

يملك حارتنا من أولها الى آخرها ، ويتبعه كل حكر في الخلاء المحيط ،

وقف الجبلأوي يا حضرة الناظر .

فاندلعت السنة الغضب من عيني الأفندي وصاح :

- هذا وقف ابي وجدي ما لكم به صلة ، انكم تتناقلون الحكايات

الخرافية وتصدقونها ، وما لديكم دليل او حجة .

فقال اكثر من صوت وضع بينها صوتا دعيس وتمرحنة :

- الجميع يعرفون ذلك ؟

- الجميع ؟ ما قيمة ذلك ؟ لو تناقلتم فيما بينكم ان بيتي هو بيت

فلان او علان منكم فهل يكفي هذا لاغتصاب بيتي يا هؤلاء ؟ حارة

حشاشين حقيقة ! خبروني متى اخذ احدكم ملياً من ريع الوقف ؟

فساد الصمت ملياً ثم قال حمدان :

- كان اباؤنا يأخذون .

- ألدكم دليل ؟

فعاد حمدان يقول :

- قالوا لنا ونحن نصدقهم .

- فهتف الأفندي :
- كذب في كذب ، وتفضلوا غير مطرودين .
- فقال دعيس بتصميم :
- أطلعنا على الشروط العشرة .
- فصاح الأفندي :
- لماذا اطلعكم عليها ؟ من انتم ؟ ما علاقتكم بها ؟
- نحن المستحقون .
- عند ذلك تعالى صوت هدى حرم الناظر من وراء الباب وهي تقول :
- دعهم وادخل ، لا تبسح صوتك بمناقشتهم .
- فقالت تمرحنة :
- كوني محضر خير يا ست هانم .
- فقالت هدى هانم بصوت متهدج من الغضب :
- قطع الطرق لا تكون بالنهار والشمس طالعة !
- فقالت تمرحنة بامتناع :
- الله يسامحك يا ست هانم ، الحق على جدنا الذي اغلق على نفسه الأبواب .
- فرفع دعيس رأسه وصاح بصوت كالرعد :
- يا جبلاوي ! تعال شف حالنا ، تركتنا تحت رحمة من لا رحمة لهم .
- دوتى الصوت قويا حتى خيل إلى البعض انه سيلغ الجدد في بيته .
- ولكن الأفندي صاح مرتعش النبرات من الخلق :
- اخرجوا ، اخرجوا دون تردد .
- وقال حمدان بضيق :
- هيا بنا .

وتحول عن موقفه ومضى نحو الباب . واخذوا يتبعونه صامتين . حتى
دعبس تبعه . لكنه رفع رأسه مرة أخرى وصاح بالقوة نفسها :
- يا جبلاوي !

٢٧

دخل الافندي البهو مصفر الوجه من الغضب فوجد زوجته واقفة
مقطبة ، فقالت :

- حركة غريبة لما ما بعدها ، ستكون حديث الحارة كلها : وإذا
تهاوننا في الأمر فقل علينا السلام .
فقال الافندي بتقزز :

- رعا عابناء رعا ع ويطمعون في الوقف ، منذ الذي يستطيع ان
يعرف اصله في حارة مثل خلية النحل ؟
- احسم الأمر ، ادع زقلط ودبر امرك ، زقلط يقاسمنا الربيع دون
ان يفعل شيئاً فدعه يحلل ما ينهب من أموالنا .
فحدجها الافندي بنظرة طويلة ثم تساءل :
- وجبل !؟

فقالت بطمأنينة وثقة :

- جبل ! انه ريبينا ، بل هو ابني ، لم يعرف من الدنيا الا بيتنا ،
آل حمدان فلا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولو كانوا يعدونه منهم لتشفعوا
به الينا ، اطمئن من ناحيته ، وسوف يعود من جوائه بين المستأجرين
فيحضر الاجتماع .

وجاء زقلط تلبية لدعوة الناظر . كان متوسط القامة : بديناً ، متين
البنان ، وبقسامته سماجة وغلظة ، ورقبته وذقنه ندوب . جلسوا متقاربين
وزقلط يقول :

— سمعت اخباراً لا تسر .

فقلت هدى بغيظ :

— ما اسرع ما تجري اخبار السوء .

وقال الأفندي وهو يلحظ زقلط بمكر :

— انها تمس هيئتنا كما تمس هيئتك .

فقال زقلط بصوت كالحوار :

— مضى زمن غير قصير دون ان نحرك نبوتاً او نسفك دماً .

فابتسمت هدى قائلة :

— يا لهم من مغرورين آل حمدان ، لم يظهر منهم فتوة واحد ،

ومع ذلك فأحقرهم يزعم انه سيد الحارة .

فقال زقلط باشمئزاز :

— باعة ومتسولون ، ولن يظهر فتوة من قوم خرعين !

فتساءل الأفندي :

— والعمل يا زقلط ؟

— سأدوسهم بقدمي كالصراصير .

سمع جبل قول زقلط وهو يدخل البهو . بدا مورد الوجه بعد جولته في الخلاء ، وجرت حيوية الشباب في جسمه انفارع القوي ، ووجهه ذي الملامح الصريحة وبخاصة انفه المستقيم وعينه الكبيرتين اللكيتين . حبا الموجودين بأدب وبدأ يتكلم عن الأحكار التي تم تأجيرها اليوم ولكن هدى هانم قاطعته قائلة :

— اجلس يا جبل ، نحن في انتظارك لأمر عظيم .

فجلس جبل وعيناه تعكسان نظرة تحرج لم تغب عن عيني الهانم فقلت :

— ارى انك تكدس ما نحن مهتمون له .

فقال بصوت هادئ :

- الجميع يتحدثون في الخارج .
- فنظرت الهائم صوب زوجها هاتفة :
- أسمعت ؟ .. الجميع يتوقعون منا الجواب .
- فقال زقلط وقسماته تزداد سماجة :
- شعلة تطفئها حفنة تراب ، بودي ان ابدأ العمل !
- فالتفت هدى الى جبل متسائلة :
- ألدبك ما تقوله يا جبل ؟
- فقال وهو يداري ضيقه بالنظر في الأرض :
- الأمر منكم واليكم يا سيدتي .
- يهمني ان اعرف رأبك !
- تفكر ملياً وهو يشعر بنظرات الأفندي الحادة ، ونظرات زقلط المتعصبة ثم قال :
- سيدتي ، اني ربيب نعمتك ، ولكني لا أدري ماذا أقول ،
- فلست الا أحد ابناء حمدان !
- قالت هدى بحده :
- لماذا تذكر حمدان ولا أب ولا أم ولا أقارب لك فيهم ؟
- ولدت عن الأفندي صوت ساخر مقتضب يشبه الضحك لكنه لم يتكلم .
- وبدا في وجهه جبل انه يعاني ألماً صادقاً ، لكنه أجاب :
- كان أبي وأمي منهم ، لا يمكن انكار ذلك .
- وقالت هدى :
- ما أخيب أُملي في ابني .
- معاذ الله ، ان المقطم لا يستطيع ان يزحزحني عن الوفاء لك ،
- لكن انكار الحقائق لا يغيرها .
- وقام الأفندي نافذ الصبر وقال مخاطب زقلط :
- لا تضيع وقتك في سماع هذه المعاتبات .

فقام زقلط باسمًا ، واذا بالهانم تقول له وهي ترمي جبل بلحظ خفي :
- لا تجاوز المعقول يا معلم زقلط ، نريد تأديبهم لا إبادتهم .
غادر زقلط البهو . وألقى الأفندي على جبل نظرة لوم وهو يتساءل
ساخرًا :

- اذن أنت من آل حمدان يا جبل ؟!
ولاذ جبل بالصمت حتى رحته هدى فقالت :
- قلبه معنا ولكن شق عليه ان يتنكر لأصله أمام زقلط .
فقال جبل بحزن واضح :
- انهم بؤساء يا سيدتي رغم أنهم اكرم أهل الحارة أصلاً .
فصاح الأفندي :
- حارة لا أصل لها .
فقال جبل جاداً :
- اننا أبناء أدهم ، وما زال جدنا حياً أطال الله بقاءه .
فتساءل الأفندي :
- منذنا يستطيع ان يثبت بنوته لأبيه ؟.. انه كلام لا بأس ان يقال
أحياناً ولكنه لا ينبغي ان يتخذ وسيلة لنهب أموال الغير .
وقالت هدى :
- نحن لا نريد بهم شراً على شرط ألا يطعموا في أموالنا .
وأراد الأفندي ان ينهي الحديث فقال لجبل :
- إذهب الى عمك ولا تفكر في سواه .

غادر جبل البهو فذهب الى ادارة الوقف في منظرة الحديقة . كان
عليه ان يسجل في الدفاتر عدداً من عقود الایجار وان يراجع الحساب
الختامي للشهر ولكن الحزن شتت عقله . ومن عجب ان آل حمدان لا
يحبونه ، وهو يعلم ذلك ويذكر كيف كان يقابل بالبرود في قهوة
حمدان في المرات القلائل التي غشيها . مع ذلك أحزنه ما يدبر لهم من

شر . احزنه اكثر مما اسخطه سلوكهم الجريء . وود ان يدفع عنهم الشر لولا اشفاقه من اغصاب البيت الذي آواه ورباه وتبناه . ماذا كان يكون لو لم يدركه عطف هدى هانم ؟ . منذ عشرين عاماً رأت الهانم طفلاً عارياً يستحم في حفرة مملوءة بمياه الأمطار . مضت تتسلى بمشاهدته فال قلبها الذي حرمه العقم من نعم الأمومة اليسه . ارسلت من حمله اليها وهو يبكي خائفاً . وتحمرت عنه فعلمت انه طفل يتيم ترعاه ببيعة دجاج . استدعت الهانم ببيعة الدجاج وطلبت اليها ان تنزل لها عن الطفل فرجبت بذلك كل الترحيب . هكذا نشأ جبل في بيت الناظر وفي رعاية حضرته ينعم بأسعد أمومة في الحارة جميعاً . وأدخل الكتاب فتعلم القراءة والكتابة ، ولما بلغ رشده ولاه الافندي ادارة الوقف . في كل بقعة فيها للوقف اهلاك يدعوته « حضرة الوكيل » . وتتابعه نظرات الاكابر والاعجاب ابناً حلّ . وكانت الحياة تبدو ودودة واعده بكل جميل حتى كان تمرد آل حمدان . وجد جبل انه ليس شخصاً واحداً كما توهم طوال عمره ولكنه شخصان . أحدهما يؤمن بالوفاء لأمه وآخرهما يتساءل في حيرة : وآل حمدان ؟

٢٨

انبعث الرباب نمحكي مصرع همام على يد قلدي . اتجهت الأعين نحو رضوان الشاعر في انتباه يشوبه القلق . ليست الليلة كبقية الليالي ، ليلة ختمت نهراً ثائراً ، وظل كثيرون من آل حمدان يتساءلون هل تمر بسلام ؟ وشمل الحارة ظلام ، حتى النجوم توارت وراء سحب الخريف فلم يبد من ضوء الا ما فضحت به النوافذ المغلقة او ما ارسلته مصابيح عربات اليد المتباعدة في أحياء الحارة . وضجت الأركان بغوغاء

الغلمان المتجمعين كالفراشات حول مصابيح العربات ، على حين افترشت
عمرحنة خيشة أمام أحد ربوع حمدان وراحت تدندن :
على باب حارتنا حسن القهوجي

وارتفع مواء قطط في نوبات متقطعة واشياً بمنافسات جنسية أو
منازعات تموينية . واحتد صوت الشاعر وهو يروي قائلاً : وصرخ
أدهم في وجه قدري « ماذا فعلت بأخيك ؟ » في تلك اللحظة ظهر
زقلط في دائرة الضوء التي يرسمها فانوس القهوة على الأرض . ظهر
فجأة كأنما انشق عنه الظلام . بدا عابساً متحدياً كارهاً مكروهاً يتفجر
الشر في عينيه وتشد قبضته على نبوته المرعب . وزحفت من محجريه نظرة
ثقيلة غيفة على القهوة والجالسين كأنها حشرة سامة ، فتحجر الكلام
في حلق الشاعر . وباخت نشوة ضلمة وعتريس ، وانقطع عن التهامس
دعس ويلي فوانيس ، وكف عن الحركة عبدون . أما حمدان فشدت
يده على خرطوم النارجيلة بعصية ، وساد صمت كالصوت :

وتتابعت حركات خاطفة . غادر القهوة سراعاً الزبائن الذين لا
يتسبون لآل حمدان . جاء فتوات الأحياء قدره والليثي وأبو سريع
وبركات وحمودة فصنعوا جداراً وراء زقلط . وسرى الخبر في الحارة
بسرعة كأنه بيت تهدم ففتحت النوافذ ، واقبل الصغار يجرون والكبار
بتنازع قلوبهم الإشفاق والشماتة . وكان حمدان أول من خرق الصمت
فقام في هيئة استقبالية وهو يقول :

— أهلاً بالمعلم زقلط فتوة حارتنا ، تفضلوا .

لكن زقلط تجاهله . كأنه لا يسمعه ولا يراه . وظل يطلق الطعنات
من عينيه القاسيتين . ثم تساءل بصوت غليظ :

— من فتوة هذا الحي ؟

فأجاب حمدان ولو ان السؤال لم يوجه إليه :

- فتوتنا قدره .
 النفث زقلط نحو قدره متسائلاً في سخرية :
 - انت حامي آل حمدان ؟
 فتقدم قدره خطوات بجسمه القصير المدمج ووجهه المتحرش بكل شيء وقال :
 - أنا حاميههم من الجميع إلاك يا معلم .
 فابتسم زقلط ابتسامة كالامتعاض وقال :
 - ألم تجد حياً غير حي النسوان لتكون فتوة عليه ؟
 ثم صاح بالقهوة :
 - يا نسوان ، يا أولاد الزواني ، ألا تعرفون بأن للحارة فتوة ؟
 فقال حمدان بوجه شاحب :
 - يا معلم زقلط ليس بيتنا وبينك الا الخير .
 فصاح به :
 - اخرس يا عجوز يا قارح ، الآن تتمسكن بعد ان تهجمت على أسيادك وأسياد أهللك .
 فقال حمدان بصوت المتألم :
 - لم يكن في الأمر تهجم ، لكنها شكوى سرنا بها الى حضرة الناظر .
 فصاح زقلط :
 - - أسمعتم ما يقول ابن الزانية ؟ حمدان يا نثن أنسيت ما كانت تفعله أمك ؟ والله لن يسير أحدكم آمناً في هذه الحارة حتى يقول بأعلى صوته : أنا مرة .
 ورفع بسرعة نبوته وهوى به بشدة على الطاولة فتطايرت الفناجيل والاكواب والصواني والملاعق وعلب البن والشاي والسكر والقرفة والزنجبيل والكنجات . وثب عبدون الى الوراء فارتطم بترابيزه وسقطا معاً . وبغثة

وجه زقلط لظمة الى وجه حمدان ففقد الرجل توازنه وسقط على جنبه فوق النارجيلة التي تعطمت . ورفع زقلط نبوته مرة اخرى وهو يصيح :
- لا ذنب بلا عقاب يا أولاد الزواني .

وتناول دعبس كرسياً ورمى به الفانوس الكبير فتحطم وساد الظلام قبل ان يهوي النبوت على المرأة الكبيرة وراء الطاولة . وصوت تمرحضة فرددت نساء حمدان الصوات في النوافذ والأبواب كأنما انقلبت الحسارة خنجرة كلب رمي بحجر . وجن جنون زقلط فاطلق ضرباته في كل ناحية فأصابت أناساً ومقاعد والجدار . وتلاطمت أمواج الصراخ والاستغاثات والتأوهات . وتطايرت الأشباح في كل ناحية . وارتطمت أشباح بأشباح . وصاح زقلط بصوت كالرعد :
- كل واحد يلزم بيته .

فبادر إلى تنفيذ الأمر كل شخص ، من آل حمدان او من غيرهم ، وتتابع وقع الاقدام المتراجعة . وجاء الليث بفانوس فظهر على ضوءه زقلط والفتوات من حوله ، في حارة خالية ، لا يسمع بها إلا صوات النسوان . وقال بركات متودداً :

- وفر نفسك يا معلم للشدائد ، وعلينا نحن تأديب الصراصير .
وقال ابو سريع :

- لو شئت جعلنا من آل حمدان تراباً تمشي عليه بحصانك .
وقال قدره فتوة حمدان :

- لو كلفني بتأديبهم لحققت لي امنية كبيرة وهي ان اخدمك يا معلم .

وعلا صوت تمرحضة من وراء باب الربع :

- ربنا على الظالم .

فصاح بها زقلط :

- يا تمرحضة أنحدي أي رجل من حمدان ان يعد الزاين بك !

فهضت تمرحنة وان دل آخر كلامها على ان يسداً وضعت على فيها
لتمنعها من الاستمرار :

— ربنا بيتنا وبينك ، حمدان اسياذ آل ...

ووجه زقلط الخطاب الى الفتوات بصوت اراد ان يسمعه آل
حمدان ، قال :

— لا يغادر رجل من حمدان داره الا ضرب .

فصاح قدره مهدداً :

— من ير نفسه رجلاً فليخرج .

وتساءل حمودة :

— والنسوان يا معلم ؟

فقال زقلط بحدة :

— زقلط يعامل الرجال لا النسوان .

وطلع النهار فلم يغادر الربوع رجل من آل حمدان . وجلس كل
فتوة عند باب قهوة حية يراقب الطريق . وجعل زقلط يمر بالحارة كل
بضع ساعات فيستبق الناس الى تحيته والتودد اليه والثناء عليه ، « والله
اسد بين الرجال يا فتوة حارتنا » ، « عقارم عليك يا زين الرجال
يا ملبس حمدان الطرح » ، والحمد لله الذي اذل حمدان المتعجرفين
بيدك القوية يا زقلط » . ولم يكن يعبر احداً ادنى اهتمام .

٢٩

هل برضيك هذا الظلم يا جبلاوي ١٩

تساءل جبل وهو يفتش الأرض اسفل الصخرة التي تقول الحكايات
ان عندها كان يحلو قدري الى هند ، وان عندها قتل همام . ونظر الى

الشفق بعين لم تعد ترى الا ما يكدر الصفو . لم يكن ممن يركنون الى
الخلوات لكثرة مشاغله لكنه شعر اخيراً برغبة قاهرة في الخلو بنفسه التي
زلزلها ما حاق بآل حمدان . لعل في الخلاء ان تسكت الأصوات التي
تعيثره والتي تعذبه . أصوات تهتف به من النوافذ وهو مار : « يا خائن
حمدان يا لئيم » ، وأصوات تهتف به من اعماق نفسه : « لن تطيب
الحياة على حساب الغير » . وآل حمدان اهله ، ففيهم ولدت أمه
وأبوه ، وفي مقابرهم دفنا . وهم مظلومون وما أقيح الظلم ، اغتصبت
أموالهم ولكن من الظالم ؟ انه ولي نعمته ، الرجل الذي انتشلته زوجته
من الطين فرفعته الى مصاف آل البيت الكبير . وجميع الأمور تجري
في الحارة على سنة الارهاب ، فليس عجباً ان يسجن سادتها في بيوتهم .
وحارتنا لم تعرف يوماً العدالة او السلام . هذا ما قضى به عليها منذ
طرد ادهم وأئمة من البيت الكبير ، الا تعلم بذلك يا جبلاوي ؟ ويبدو
ان الظلم سشتند كثافة ظلماته كلما طال بك السكوت فحتى متى تسكت
يا جبلاوي ؟ الرجال سجناء في البيوت والنساء يتعرضن في الحارة لكل
مخزية ، وأنا امضغ المهانة في صمت . ومن عجب ان اهل حارتنا
يضحكون ! علام يضحكون ؟ انهم يهتفون للمتصر اياً كان المتصر ،
ويهللون للقوي اياً كان القوي ، ويسجدون امام التبايت ، يدارون بذلك
كله الرعب الكامن في اعماقهم . غموس اللقمة في حارتنا الهوان . لا يدري
احد متى يجيء دوره ليهوي الثبوت على هامته . ورفع رأسه الى السماء
فوجدتها صامتة هادئة ناعسة ، يوشي اطرافها الغمام ، وتودعها آخر حداة .
وانقطع المارة وآن للحشرات ان تزحف . وفجأة سمع جبل صوتاً غليظاً
يصيح من قريب : « قف يا ابن الزانية » . استيقظ من افكاره فنهض
قائلاً وهو يحاول ان يتذكر أين سمع هذا الصوت ، ثم اتجه حول صخرة
هند الى الجنوب فرأى رجلاً يركض في رعب وآخر وراءه يطارده
ويوشك ان يلحق به . وأمعن النظر فعرف في الهارب دعبس وفي المطارد

قدره فترة حي حمدان ، وفي الحال ادرك حقيقة الموقف . ومضى
يراقب المطاردة التي تقترب منه بفؤاد قاق . وما لبث قدره ان ادرك
دعبس فقبض بيده على منكبه وتوقف الاثنان عن العدو وهما يلهتان من
الجهد . وصاح قدره بصوت متقطع من البهر :

— كيف تجرؤ على مغادرة جمحرك يا ابن الأفعى ؟ لن تعود سالماً .
فهتف دعبس وهو يحمي رأسه بذراعه :

— دعني يا قدره ، أنت فترة حيناً وعليك ان تدافع عنا .

فهزه قدره هزة اطارت اللاسة عن رأسه وصاح به :

— انت تعرف يا ابن اللثيمة اني ادافع عنكم ضد اي مخلوق الا زقلط .
وحانت من دعبس نظرة نحو موقف جبل فرآه وعرفه فتاداه قائلاً :

— اغثني يا جبل ، أغثني فأنت منا قبل ان تكون منهم .
فقال قدره بغلظة وتحد :

— لا مغيث لك مني يا ابن الدايحة .

ووجد جبل نفسه يتقدم منها حتى وقف عندهما وهو يقول بهدوء .

— ترفق بالرجل يا معلم قدره .

فحدجه قدره بنظرة باردة وهو يقول :

— اني اعرف ما ينبغي ان افعله .

— لعل امرأ ضرورياً دفعه الى مغادرة بيته .

— ما دفعه الا قضاؤه المحتوم .

وشد على منكبه حتى أن دعبس انيناً مسموعاً ، فقال جبل بحدة :

— ترفق به ، الا ترى انه اكبر منك سناً وأضعف بنية ؟

رفع قدره يده عن منكبه فصنعه على قفاه بقوة تقوس لها ظهره ،

ثم ضرب بركبته دبره فانكفاً على وجهه ، وسرعان ما برك فوقه وراح

يكيل له الضربات وهو يقول بصوت يزفر الغل والحنق :

— ألم تسمع ما قال زقلط ؟!

واشتعل الغضب في دماء جبل فصاح به :
— اللعنة عليك وعلى زقلط ، اتركه يا قليل الحياء !
فكف. قدره عن ضرب دعبس ورفع رأسه الى جبل وجهاً ذاهلاً
ثم قال :

— انت تقول هذا يا جبل ! ألم تشهد حضرة الناظر وهو يأمر زقلط
بتأديب حمدان ؟

فصاح جبل وغضبه آخذ في ازدياد :
— اتركه يا قليل الحياء .

فقال قدره بصوت يرتعش من الحق :
— لا تظن ان خدمتك في بيت الناظر تحميك مني اذا اردت محاسبتك !
فانقض عليه جبل كمن فقد وعيه وركله فالتقاء جانباً وصاح به :
— عد الى امك قبل ان تشكلك .

وثب قدره قائماً وهو يتناول نبوته من على الأرض ثم رفعه بخفة
ولكن جبل بادره بضربة في بطنه من يد قوية فترنح متألماً . وانتهز
جبل هذه الفرصة فخطف النبوت من يده ووقف وهو ينظر نحوه بحذر .
تراجع قدره خطوتين ، ثم انحنى بسرعة خاطفة فالتقط حجراً ولكنه قبل
ان يقذف به أصاب النبوت رأسه فصرخ ، ودار حول نفسه ، ثم
سقط على وجهه والدم يتفجر من جبينه بغزارة . كان الليل يهبط فنظر
جبل فيما حوله فلم يرَ احداً الا دعبس الذي وقف ينفض جلبابه ويتحسس
المواضع التي تؤله من جسده ، ثم اقترب من جبل وهو يقول ممثلاً :
— عوفيت من أخ كريم يا جبل .

فلم يجبه جبل ، وانحنى فوق قدره فعدله على ظهره ، ثم تتمم :
— أغمي عليه !

فانحنى دعبس فوقه كذلك ثم بصق على وجهه ، فجذبه جبل بعيداً
عنه ، وانحنى فوقه مرة اخرى ، وراح يهزه برفق ولكنه لم يبد أملاً

في الافاقة ، فتساءل :

— ما له ؟

فأنحني دعبس فوقه والصق أذنه بصدرة ، ثم قرب وجهه من وجهه ،
واشعل عوداً من الثقاب ، ثم وقف وهو يهمس :
— انه ميت .

فاقشعر بدن جبل وقال :

— كذبت !

— ميت ابن ميت وحياتك .

— يا خير اسود .

فقال دعبس مهوناً الأمر :

— كم ضرب وكم قتل فليذهب إلى الزبانية !

فقال جبل بصوت حزين وكأنه يخاطب نفسه :

— لكنني لم اضرب ولم اقتل .

— كنت تدافع عن نفسك .

— لكنني لم اقصد قتله ولا اردته .

فقال دعبس باهتمام :

— ان يدك لشديدة يا جبل ، لا خوف عليك منهم ، وبوسعك ان
تكون فتوة لو اردت .

فضرب جبل جبينه بيده وهتف :

— يا ويلى ، هل أنقلب قاتلاً من اول ضربة ؟

— انتبه الى نفسك وهلم ندفنه والا قامت القيامة .

— ستقوم القيامة دفنناه ام لم ندفنه .

— لست آسفاً ، عقبى للباقي ، عاونني على اخفاء هذا الحيوان .

وتناول دعبس النبوت وراح يحفر في الأرض غير بعيد من الموضع
الذي حفر فيه قدري من قبل . وما لبث جبل ان انضم اليه بقلب كتيب .

وتواصل العمل في صمت حتى قال دعبس ليخفف عن جبل ثقل مشاعره :
— لا تخزن فالقتل في حارتنا مثل أكل الدوم .

فقال جبل متنهداً :

— ما وددت ان اكون قاتلاً قط ، رياه ما كنت احسب ان غضبي

بهذه الفظاعة !

ولما فرغاً من الحفر وقف دعبس يحفف جبينه بكم جلبابه ويتمخط
ليطرد الرائحة الترابية التي تملأ خيشومه . قال بحقد :

— هذه الحفرة تسع ابن الزانية والفتوات الآخرين .

فقال جبل بضجر :

— احترم الميت فجميعنا اموات .

فقال دعبس بحدة :

— عندما يحترمونا احياء نحترمهم امواتاً .

ورفعوا الجثة فأودعوا الحفرة ، ووضع جبل النبوت الى جانبها ، ثم
اهالا عليها التراب .

ولما رفع جبل رأسه رأى الليل قد اخفى الدنيا وما عليها فتنهد من
الأعماق وهو يكبت نزوعاً نحو البكاء .

٣٠

أين قدره ؟

سأل زقلط نفسه كما سأل الفتوات الآخرين . لكن الفتوات كانوا
يتساءلون ايضاً عن صاحبهم الذي اختفى من الوجود كما اختفى رجال
حمدان من الحسارة . كان قدره يسكن في الحي التالي لحي حمدان .
وكان اعزب يسهر الليل في الخارج فلا يعود الى مسكنه الا مع الفجر

او بعد ذلك ، ولم يكن من النادر ان يغيب عن مسكنه ليلة او ليلتين ، ولكن لم يحدث ابداً ان غاب اسبوعاً كاملاً دون ان يعلم احد بمكانه وبخاصة في ايام الحصار هذه التي اوجبت عليه اعباء لا يستهان بها من اليقظة والمراقبة . وقامت الظنون حول حمدان فتقرر تفتيش بيوتهم . واقتحم الفتوات وعلى رأسهم زقلط ربوعهم ففتشوها تفتيشاً دقيقاً من البدروم الى السطح ، وحفرت الأفنية بالطول والعرض ، وتعرض رجال حمدان لاهانات شتى ، ولم يسلم احد منهم من لكمة او ركلة او بضعة ، ولكنهم لم يعثروا على شيء يريب . وتفرقوا في اطراف الخلاء يسألون فلم يلهم احد على امر ذي بال . وبات قدره الموضوع الذي تدور به الجوزة في غرزة زقلط تحت تكعيبة العنب بحديقة بيته . كان الظلام يغش الحديقة عدا نور حيي ينبعث من مصباح صغير قائم على الأرض على بعد شبرين من المجرمة ليستضيء به بركات وهو يقطع الحشيش ويبططه ، ويفتت الجمرات ، ويرص الحجر وينحشنه ليعد الجوزة . وكان نور المصباح الراقص في مجرى النسيم ينعكس على وجوه زقلط وحموده والليثي وأبو سريع الكالحة فيبدي عن أعين متراخية الجفون ، انعقدت في نظراتها الشاردة نوايا معتمة . وتعالى نقيق ضفادع كأنه استغاثات خرس في هدأة الليل . قال الليثي وهو يتناول الجوزة من بركات ويوجهها نحو زقلط :

— ابن ذهب الرجل ؟ كأن الأرض ببلعته .

شد زقلط نفساً عميقاً وهو ينقر الغسابة بسبابته ثم زفره دخاناً كثيفاً وقال :

— قدره بلعته الأرض وهو راقد في جوفها منذ اسبوع .

تطلعت اليه الأبصار باهتمام عدا بركات الذي بدا مساوياً بعمله ، فعاد زقلط يقول :

— لا يختفي فتوة لنير ما سبب ، وللموت رائحة اعرفها .

فتساءل أبو سريع بعد سعال تقوَّس له ظهره كأنه سنبلة في مهب
ريح عاتية :

- ومن قاتله يا معلم ؟
- عجيبة ! ومن يكون غير رجل من حمدان ؟
- لكنهم لا يغادرون بيوتهم وقد فتشناها .
- فضرب زقلط طرف الشلثة بقبضته وتساءل :
- ماذا يقول أهل الحارة الآخرون ؟
- فقال حمودة :
- يعتقد حيناً بأن لحمدان يداً في اختفاء قدره .
- افهموا يا مساطيل ! ما دام الناس يعتقدون ان قاتل قدره في
حمدان فالواجب علينا ان نعتبره كذلك !
- ولو كان القاتل من العطوف ؟
- ولو كان من كفر الزغاري ، نحن لا يهمننا عقاب القاتل بقدر
ما يهمننا ارباب الآخرين .
- فهتف أبو سريع باعجاب :
- الله اكبر .
- فقال الليثي وهو ينفض الحجر في الكوز ويعيد الجوزة الى بركات :
- الله برحمتكم يا آل حمدان .
- فدلت عن أفواههم ضحكات جافة اختلطت بنقيق الضفادع وتحركت
منهم الرؤوس حركات الوعيد على حين هبت نسمة بقوة طارئة أعقبتها
خشخشة في الأوراق الجافة . وصفق حمودة بيديه وهو يقول :
- لم تعد المسألة صراعاً بين حمدان والناظر ولكنها كرامة الضنات .
- فناد زقلط يضرب طرف الشلثة بقبضته ويقول :
- لم يقتل فتوة بيد حارته من قبل .
- وتصلبت ملاحه من الغضب حتى خاف شره ندماؤه فحذروا أن تند

عنهم كلمة او حركة تحول غضبه اليهم . وساد الصمت فلم يعد يسمع
إلا قرقرة الجوزة وسعلة أو نخنخة . وإذا بهركات يسأل :
- وإذا عاد قدره على غير ما نظن ؟
فقال زقلط بحق :
- أحلى شاربى يا ابن المسطولة .

كان بهركات اول من ضحك ثم عادوا الى الصمت . تخالفت للأعين
المذبحة ، والعصي تحطم الرؤوس ، والدماء تسيل حتى تصبغ الأرض ،
والصوات يعلو من التوافذ والاسطح ، وعشرات الرجال يصعدون حشيرة
الموت . اضطربت في النفوس رغبة نمرية في الاقتراس وتبادلوا نظرات
قاسية . لم يهمهم قدره لذاته ، بل لم يكن أحد منهم يحبه ، ولم يكن
أحد منهم يحب الآخر قط ، ولكن جمعهم رغبة واحدة في الارهاب
والذود عن الفتوة . وتساءل الليثي :
- وبعد ؟

فقال زقلط :

- ينبغي ان ارجع الى الناظر كالعهد بيننا .

٣١

قال زقلط :

- يا حضرة الناظر ، قتل آل حمدان فتوهم قدره .
وركز بصره في الناظر ولكنه كان يرى في الوقت نفسه هدى هانم
الى يمينه وجبل الى يمينها . وبدا ان الأفندي لم يفجأه الخبر إذ قال :
بلغتني أنباء عن اختفائه ولكن هل يشتم حقاً من العثور عليه ؟

قال زقلط وكان نور الضحى الذي يمتحى باب البهو يؤكد سماجة
ملاعبه :

— لن يُعثر عليه وأنا خير بهذه المكائد .
فقال هدى بعصية وهي تلاحظ وجه جبل الذي راح ينظر الى الجدار
المواجه له :

— لو صبح انه قتل لكان ذاك حدثاً خطيراً ..

فقال زقلط وهو يشد على أصابعه المتشابكة :

— ويقتضي عقاباً شاملاً أو قولوا علينا وعليكم السلام !

فلعبت أصابع الأفندي بحبات مسيحته وقال :

— انه يمثل هيتنا !

فقال زقلط بتركيز مقصود :

— ويمثل الوقف كله !

وخرج جبل من صمته قائلاً :

— لعلها جريمة مزعومة لم تقع .

واندلع الغضب في صدر زقلط لدى سماعه صوت جبل فقال :

— لا ينبغي ان نضيع الوقت في الكلام .

— هات دليلاً على مقتله .

فقال الأفندي بلهجة اصطنع لها القوة ليخفي ما وراءها من ارتياب :

— لا يخنفي أحد من ابناء حارتنا على هذا النحو الا إن كان قتل !

ولم تغلج زفرات الخريف الرطبية في تلطيف هذا الجو المشحون بالنوايا
الدموية فهتف زقلط :

— الجريمة تناديننا بصوت سوف تسمعه الحوارى المجاورة وما الكلام
إلا مضية الوقت .

لكن جبل قال باصرار :

— رجال حمدنا في بيوتهم مسجونون !

فضحك زقلط بصوته دون وجهه وقال ساخراً :

— فزوره حلوة !

ثم وهو يستريح في مجلسه ويتحداه بنظرة نافذة :

— لا يهلك إلا تبرئة أهلك !

ومع ان جبل بذل جهداً صادقاً لشكم غضبه إلا ان صوته اخمد وهو يقول :

— يهمني الحق ، انكم تعتدون لأوهى الأسباب ، وأحياناً بلا سبب ، وما همك الآن الا الحصول على إذن لاحداث مذبحة في قوم مسالمين .

وتبدى الخمد في عيني زقلط وهو يقول :

— أهلك مجرمون ، قتلوا قدره وهو يدافع عن الوقف !

فالتفت جبل نحو الأفندي وقال :

— يا سيدي الناظر لا تسمح لهذا الرجل باشباع شراسته الدموية .
فقال الأفندي :

— إذا ضاعت هيبتنا ضاعت حياتنا !

وتساءلت هدى وهي تنظر نحو جبل :

— أتريد ان ندفن أحياء في حارتنا ؟

فقال زقلط بحق :

— انك تنسى فضل أصحاب الفضل عليك وتذكر المجرمين .

وارتفعت موجة الغضب في صدر جبل حتى قلقلت جذور ارادته فقال بصوت شديد :

— ليسوا مجرمين وان غصت حارتنا بالمجرمين !

قبضت يد هدى بشدة على طرف شالها الأزرق ، وتحركت فتحسأ أنف الأفندي وقد عبرت وجهه صفرة ، فتشجع زقلط بهذه المظاهر وقال بحقد ساخر :

- لك عذر في دفاعك عن المجرمين ما دمت منهم !
- نهجك على المجرمين شيء لا يصدق وانت شيخ الاجرام في حارتنا .

قام زقلط قومة عنيفة وقد اريد وجهه ، وقال :
- لولا مكانتك عند آل هذا البيت لخرجتك من مجلسك على أجزاء !
فقال جبل بهدوء خفيف يشف عما تحته :
- أنت واهم يا زقلط !
وصاح الأفندي :

- أخرجون على هذا أمامي ؟
فقال زقلط بنحس :
- إني أناطحه دفاعاً عن هيبتك !
فأوشكت أصابع الأفندي ان تفك بالمسبحة ، وخاطب جبل بشدة قائلاً :

- لا اسمح لك بالدفاع عن حمدان .
- هذا الرجل يفترى الكذب عليهم لغاية سوء في نفسه .
- دع هذا لتقديرى أنا !
وساد الصمت هنيهة . ترامت من الحديقة زقزقة لاهية ، وتعالى في الحارة موجة تهليل صاخبة يتخللها سباب فاحش . وابتسم زقلط قائلاً :
- أياذن لي حضرة الناظر في تأديب الجناة ؟
أيقن جبل ان ساعة المنايا قد دنت فالتفت نحو الهانم وقال يائساً :
- سيدتي ، سأجد نفسي مضطراً الى الانضمام الى أهلي في سجنهم لألقى معهم مصيرهم .

فهمت هدى في عصبية ظاهرة :
- يا لخية رجائي !
فتأثر جبل حتى انحنى رأسه ، ودفعه شعور مرهف الى ان ينظر نحو

زقلط فرآه يتسم ابسامة شماتة كرهية فانطبقت شفتاه في حق ، ثم قال
في أسي :

- لا خيار لي ، ولن أنسى صنيعك معي ما حييت .
فحدجه الأفندي بنظرة قاسية وسأله :

- يجب ان أعرف إن كنت معنا أم علينا ؟
فقال جبل بحزن وهو يشعر بأنه في التزع الأخير من حياته الراهنة :
- ما أنا إلا ربيب نعمتك فلا يمكن ان أكون عليك ، ولكن من
العار أن اترك اهلي يبادون وأنا انعم بظلك .

وقالت هدى وهي تتلوى من انفعال الأزمة التي تهدد أمومتها :
- يا معلم زقلط فلنؤجل الحديث الى وقت آخر .
فقطب زقلط كأنما ركب على وجه حافر بغل ، ونقل عينيه بين
الأفندي وزوجه ثم تتمم :

- لا أدري ماذا يحدث غداً في الحارة !
فتجنب الأفندي النظر إلى هدى وتساءل :
- أجبني يا جبل أنت معنا أم علينا ؟
وتبادت موجة الغضب به حتى بلغت قمة رأسه فهتف دون ان ينتظر
الجواب :

- فاما ان تبقى معنا كواحد منا وأما ان تذهب إلى أهلك !
وثار جبل ، وخاصة وهو يلحظ أثر هذا القول في صفحة وجهه
زقلط فقال بعزم :

- يا سيدي انك تطردني واني ذاهب .
وهتفت هدى بصوت معذب :

- جبل !

وهتف زقلط ساخراً :

- امامكم الرجل كما ولدته أمه .

وضاق جبل بمجلسه ، فقام ، ثم سار بخطوات ثابتة نحو باب البهو .
ووقفت هدى ولكن ذراع الافندي حالت دون تحريكها . وسرعان ما
اختفى جبل . وفي الخارج هبت ريح تحركت بها الستائر واصطفقت
مصابيع نوافذ . وامتلاً جو البهو بتوتر وانقباض . وقال زقلط بهندوء :
- ينبغي ان نعمل .

ولكن هدى قالت باصرار وعصبية ينذران بالعناد :
- كلا ، حسبهم الآن الحصار ، وحذار ان يُمسَّ جبل بشراً
لم يغضب زقلط اذ انه لم يهضم بعد ما احرز من فوز ، ورفع الى الناظر
عيناً متسائلة .

فقال الافندي وهو يبدو كمن يتمصص ليمونة :
- سنعود الى الحديث مرة أخرى .

٣٢

ألقي جبل نظرة وداع على الحديقة والمنظرة فتذكر مأساة أدهم التي
ترونها الرباب كل مساء . واتجه نحو الباب فوقف له البواب وهو يتساءل :
- ماذا يدعوك الى الخروج ثانية يا سيدي ؟
فقال جبل بامتناع :
- اني ذاهب بلا عودة يا عم حسين !

ففغر الرجل فاه وجعل ينظر اليه ملياً في انزعاج ثم غمغم متسائلاً :
- بسبب آل حمدان ؟

فأخنى جبل رأسه صامتاً ، فعاد البواب يقول :
- من يصدق هذا ؟ كيف تسمح به الهانم ؟ يا رب السماوات !
وكيف تعيش يا بني ؟

فمبر جبل عتبة الباب مرسلًا بصره إلى الحارة المكتظة بالناس
والحيوان والقاذورات وهو يقول :
- كما يعيش أهل حارتنا .
- لم تخلق لهذا .

فابتسم جبل ابتسامة ذاهلة وقال :
- أنها الصدفة وحدها التي انتشلتني منه .
ومضى يبتعد عن البيت وصوت البواب يحذره في حسرة من التعرض
إلى غضب الفتوات .

وامتدت أمام عينيه الحارة بأتربتها ودوابها وقططها وغلماها وجحورها
فأدرك مدى الانقلاب الذي جرى على حياته ، ما ينتظره من متاعب ،
وما خسره من نعيم . لكن غضبه غطى على آلامه فبدأ وكأنه لا يبالي بالازهار
والعصافير والامومة الحائسة . ومر في سبيله بالفتوة حمودة فقال هذا
بسخرية ملساء :

- ليتك تعيرنا قوتك لنؤدب بها آل حمدان .
فلم يعره التفاتاً وقصد ربعاً كبيراً من ربوع حمدان وطرقه . وإذا
بحمودة يلحق به ويسأله في دهشة واستنكار :
- ماذا تريد ؟

فأجابه في هدوء :
- اني أعود إلى أهلي .
وارتسمت الدهشة في عيني حمودة الضيقتين وبدأ انه لا يصدق
ما سمع . ورأهما زقلط وهو يغادر بيت الناظر متجهاً نحو مسكنه فصاح
بحمودة :

- دعه يدخل ، وإذا خرج بعد ذلك ادفنه حياً .
فزايلت حمودة دهشته وابتسم ابتسامة بلهاء متشفية . ومضى جبل
بطرق الباب حتى فتحت نوافذ في الربع وفي الربوع الملاصقة ، واطلت

رؤوس كثيرة من بينها حمدان وعتريس وضلمة وعلي فوانيس وعبدون
ورضوان الشاعر وتمرحنة ، وتساءل ضلمة ساخراً :

— ماذا تريد يا ابن الأكابر ؟

وسأله حمدان :

— معنا أم علينا ؟

فصاح حمودة :

— طردوه فعاد الى أصله القذر !

فتساءل حمدان بلهفة :

— طردوك حقاً ؟

فقال جبل يهدوء :

— افتح الباب يا عم حمدان .

وزغردت تمرحنة ثم صاحت :

— كان أبوك رجلاً طيباً وأملك امرأة شريفة .

فضحك حمودة قائلاً :

— مباركة عليك شهادة الزانية .

فصاحت تمرحنة غاضبة :

— اسم الله على أمك ولياليتها الملاح عند حمام السلطان .

وأسرعت باغلاق النافذة فصك الحجر المنطلق من يد حمودة الضلفة
من الخارج محدثاً دويلاً هللاً له الصبية في الأركان . وفتح باب الربع
فدخل جبل مستقبلاً جواً رطباً وهواء غريب الرائحة . واستقبله أهله
بالعناق واختلطت الكلمات الطيبات . ولكن قطع الترحيب عاينهم جمعة
شجار آتية من اقصى الحوش فنظر جبل فرأى دعبس مشتبكاً في شد
وجذب مع رجل يدعى كعلها ، ففضى نحوهما ودفع نفسه بينهما وهو
يقول بحدة :

— تشاجران وهم يحسوننا في بيوتنا !

- فقال دعبس خلال انفاسه المضطربة :
- سرق البطاطة من حلة على نافذتي .
- وصاح كعبلها :
- هل رأيتني وأنا اسرق ؟ حرام عليك يا دعبس !
- فصاح جبل غاضباً :
- فلنرحم انفسنا كي يرحمنا من في السماء !
- لكن دعبس قال بأصرار :
- بطاطتي في بطنه وسأستخرجها بيدي .
- فقال كعبلها وهو يعيد طاقينه الى رأسه :
- والله ما ذقت البطاطة من اسبوع .
- انت اللص الوحيد في هذا الربع .
- فقال جبل :
- لا تنقض بلا دليل كما بفعل زقلط معكم .
- فصاح دعبس :
- لا بد من تأديب ابن الخطافة :
- فصرخ كعبلها :
- يا دعبس يا ابن بياعة الفجل !
- وثب دعبس على كعبلها فنطحه فترنح كعبلها وسال الدم من جبينه ، وراح يكيّل له الضربات غير مبال بزجر الواقفين حتى غضب جبل فانقض عليه وقبض على عنقه بشدة . وعبثاً حاول دعبس ان يتخلص من قبضة جبل فقال بصوت مبحوح :
- اتريد ان تقتلني كما قتلت قدره ؟
- فدفعه جبل بقوة فارتمى على الجدار وراح يحدق فيه بحنق وغيظ . وردد الرجال ابصارهم بين الرجلين ، وتساءلوا أجبل حقاً الذي قتل قدره ؟ وقبله ضلعة ، وصاح عتريس :
- « فلتحل بك البركة يا خير

آل حمدان « . وقال جبل لدعيس حانقاً :
 - لم اقله الا دفاعاً عنك !
 فقال دعيس بصوت منخفض :
 - لكنك استحليت القتل .
 فصاح ضلمة :
 - يا لك من جاحد يا دعيس ، اخجل من نفسك يا رجل .
 ثم وهو يجذب جبل من ذراعه :
 - ستزل ضعيفاً عليّ في شقّي .. تعال يا سيد حمدان !
 طاول جبل يد ضلمة لكنه شعر بأن الهاوية التي انفتحت اليوم تحت
 قدميه لا قرار لها .
 وهمس متسائلاً في اذنه وهما يسيران معاً :
 - الا يوجد سبيل الى الهرب ؟
 فقال ضلمة باستنكار :
 - اتخاف يا جبل ان يشي بك احد الى اعدائنا ؟
 - دعيس احمق .
 - نعم ولكنه ليس بالنذل !
 - اخاف ان تثبت عليكم التهمة بسببي !
 فقال ضلمة بثقة :
 - سأدلك على طريق الهرب اذا اردته ، ولكن اين تقصد ؟
 - الحلاء واسع لا يحيط به خاطر .

٣٣

لم يتيسر الفرار للجبل الا في الهزيع الأخير من الليل . جعل ينتقل

من سطح الى سطح في هدأة الليل ، وفي رعاية النوم المرفق بالأجفان حتى وجد نفسه في الجمالية . ومضى رغم الظلام الحالك نحو الدراسة ثم مال نحو الحلاء ، متجهاً نحو صخرة هند وقدري ، فلما بلغها على ضوء النجوم الخافت لم يعد بوسعه ان يغالب النوم ، من فرط ما نال منه الأعباء والسهر ، فاستلقى على الرمال ملتجئاً بعاءته وغط في النوم . وفتح عينيه مع اول شعاع يضيء أعلى الصخرة ، فقام من فوره كي يصل الى الجبل قبل ان يعبر الحلاء عابر . لكن بصره انجذب نحو البقعة التي دفن فيها قدره قبل ان يهم بالسير . ارتعدت فصائله وهو ينظر اليها حتى جف ريقه ثم فر بنفسه وهو في ضيق شديد . ما قتل الا مجزماً ، لكنه بدا كالمطارد وهو يبتعد عن قبره . وقال لنفسه : « لم نخلق لنقتل وان فاق عدد قتلانا الحصر » . وعجب لنفسه كيف انه لم يجد مكاناً ينام فيه الا المكان الذي دفن فيه قتيله ! وشعر برغبته في الابتعاد تنضاعف ، وان عليه ان يودع الى الأبد من يحب ومن يكره . على السواء ، أمه وحمدان والفتوات الى الأبد . وبلغ سفح المقطم ونفسه تفيض بالأسى والوحشة ، فسار معه نحو الجنوب حتى بلغ سوق المقطم وسط الضحى . وألقى نظرة طويلة الى الحلاء وراه وقال في شيء من الاطمئنان : « الآن بعد ما بيني وبينهم » . وراح يتفحص سوق المقطم أمامه ، ذلك الميدان الصغير الذي تصب فيه جملة حوارى من جميع نواحيه ، وتتصاعد من جنباته ضوضاء عالية تختلط فيها اصوات الآدميين بنهيق الحمبر . وكان ثمة ما يدل على مولد يقام ، لازدحام الميدان بالمارة والباعة والمجدوبين وال دراويش والمهرجين رغم ان حركة المولد الحقيقية لا تبدأ قبل الغروب ، ففلقت عيناه بين امواج البشر المتلاطمة . ورأى عند حافة الحلاء كوخاً من الصفائح صنعت حوله مقاعد خشبية فبدأ على حقارته اصلح مقهى في السوق وأحفله بالزبائن ، فاتجه نحو مقعد نخل وجلس بجسم اشتد حنينه الى الراحة . وأقبل نحوه صاحب الكوخ محتفلاً

بظهوره المتميز بين الجلوس بعباءة فاخرة وعمامة عالية ومركوب ثمين
 فطلب قدح شاي وراح يتسلى بمتابعة الناس . وما لبث ان جذب سمعه
 ضوضاء اشتدت حول كشك حنفية مياه عمومية ، رأى الناس يتراحمون
 أمامها ليمألوا أوعيتهم بالماء ، وكان التراحم كالقتال عنفاً وضحايا ، فارتفع
 الصخب وتهاوت اللعنات ، ثم نددت صرخات رفيعة حادة من الوسط عن
 فتاتين غرقنا في لجة الزحام وراحتا تراجعا لتنجوا بنفسيهما حتى خرجتا
 من المعترك بصفيحتين فارغتين . بدتا في جلبابين فاقعي الالوان ينسدلان
 على جسميهما من العنق حتى الكعبين ، فلم يظهر منهما الا وجهان يزهر
 فيها الشباب . مرت عيناه بأقصرهما دون توقف ، ثم ثبتتا على الأخرى
 ذات العينين السوداوين فلم تتحولا عنها . أقبلتا نحو مكان خال قريب
 من مجلسه فتبين في ملاحظهما شبيهاً أخوياً على تميز جاذبته بقسط اوفر من
 الحسن فقال جبل لنفسه متشياً : « ما ابدع هذه الملاحظة ، لم تقع عيني
 على مثلها في حارتنا » . وقفنا تسويان ما تشعث من شعريهما وتعيدان
 الحمار الى رأسيهما ، ثم وضعتا الصفيحتين مقابليتين وجلسنا عليهما ،
 والقصيرة تقول متشكية :

— كيف نملأ الصفيحة في هذا الزحام ؟

فقال جاذبته :

— المولد اجارك الله ! وأبونا الآن ينتظر غاضباً !

فدخل جبل في الحديث دون وعي منه متسائلاً :

— لماذا لم يحضر بنفسه ليمأل الصفيحتين ؟

فالتفتنا نحوه باحتجاج ، ولكن منظره المتميز لم يخل من اثر مسكن
 فاكتفت فتاته بأن قالت :

— ما شأنك انت ! هل شكونا اليك !؟

فسر جبل بخطابها وقال معذراً :

— اردت ان اقول ان الرجل اقدر على اقتحام زحام المولد !

— هذا عملنا ، وله عمل اثنى .

فتساءل مبتسماً :

— ماذا يعمل ابوك ؟

— هذا ليس من شأنك .

وقام جبل غير مبال بالأعين المحدقة حوله ، حتى وقف امامها وقال بأدب :

— سأملأ لكما الصفيحتين .

فقال جاذبته وهي تدير عنه وجهها :

— لسنا في حاجة اليك !

ولكن القصيرة قالت بجرأة :

— افعل ولك الشكر .

وقامت وهي تشد الأخرى لتقوم معها ، فتناول جبل الصفيحتين من مقبضيهما ، وسار بجسمه القوي ، يشق الزحام ، ويرتطم بالرجال ، ويلاقى الجهد ، حتى بلغ الخنفة التي يجلس وراءها الساق في كشكه الخشبي ، فتقدمه مليمين ، وملأ الصفيحتين وعاد بهما نحو موقف الفتاتين . وأزعجه ان يجد الفتاتين مشتبكتين مع بعض الشبان في معركة كلامية بسبب معاكستهم لها ، فوضع الصفيحتين على الأرض ، وتصدى للشبان مهدداً . وتحرش به احدهم ولكنه صرعه بضربة في صدره فتجمع الشبان للهجوم عليه وهم يسبونهم ، غير ان صوتاً غريباً صاح بهم :

— اذهبوا يا شين الرجال .

انجهت الابصار نحو رجل كهل ، قصير مدمج الجسم ، براق العينين ، يشد جلبابه على وسطه بحزام فهتفوا خجلين : « المعلم البلقيطي » وسرعان ما تفرقوا وهم يرمقون جبل بحق . ولاذت الفتاتان بالرجل والقصيرة تقول :

— اليوم عسير بسبب المولد وهؤلاء الاوغاد .

- فقال البلقيطي يبيها وهو يتفحص جبل :
- تذكرت المولد لتأخيركما فجئت ، جئت في الوقت المناسب .
- ثم خاطب جبل قائلاً :
- وأنت من اهل الشهامة وما اندرهم في ايامنا !
- فقال جبل في حياء :
- ما هي الا مساعدة نافهة لا تستحق شكراً .
- في أثناء ذلك حملت الفتاتان الصفيحتين وغادرتا المكان صامتتين .
- ود جبل بأن يملأ من المليحة عينيه ولكنه لم يجرؤ على نزعها من عيني البلقيطي الحادثين . خيل اليه ان هذا الرجل يستطيع ان يرى الأعماق فخشي ان يقرأ رغائبه ولكن المعلم قال :
- دفعت عنها الأشرار ، امالك يستحقون الحب ، وهؤلاء الشبان كيف تجرأوا على التحرش بابنتي البلقيطي ؟ انها البوطة ! الم تلاحظ انهم سكارى !
- فهز جبل رأسه نفيماً فقال الآخر :
- اني اشم كالجبن الأحمر ، ما علينا ، الا تعرفني ؟
- كلا يا معلم ، لم يحصل لي هذا الشرف .
- فقال بثقة :
- اذن فأنت لست من هذه الناحية .
- بلى .
- انا البلقيطي الحاوي .
- وأضاء وجه جبل بنور التذكر المباغت فقال :
- حصل لنا الشرف ، كثيرون يعرفونك في حارتنا .
- وما حارتكم ؟
- حارة الجبلابي .
- فرفع البلقيطي حاجبيه الخفيفين الابيضين وقال بصوت منغوم :

- انعم واكرم ، منلدا الذي يجهل الجبلأوي صاحب الوقف ؟ او
 فتونكم زقلط ! وهل جئت للمولد يا معلم ؟
 - جبل .
 ثم قال بمكر :
 - جئت ابحت عن مقام جديد .
 - هجرت حارتك ؟
 - نعم ..
 فاشتد تفحص البلقيطي له ثم قال :
 - ما دام يوجد فتوات فلا بد ان يوجد مهاجرون ! ولكن خبرني
 ا قتلت رجلاً أم امرأة ؟
 فانقبض قلب جبل وقال بثبات :
 - مزاحك ليس لطيفاً مثلك !
 فضحك البلقيطي عن قم خرب وقال :
 - لست من الرعاع الذين يعيث بهم الفتوات ، ولا انت من اهل
 السرقة ، فثلك لا مهاجر من حارته الا بسبب القتل !
 فقال جبل بحدة وضيق :
 - قلت لك ..
 فمقاطعه قائلاً :
 - يا سيدي انا لا يهمني ان تكون قائلاً خاصة بعد ان ثبتت لي
 شهامتك ، ما من رجل هنا الا وقد سرق او نهب او قتل ، ولكي تطمئن
 الى صدق قولي فاني ادعوك الى فنجان قهوة ونفسين في داري !
 فعاود الأمل جبل وقال :
 - حباً وشرفاً .
 سارا جنباً الى جنب يخترقان السوق نحو حارة قلة ، وعندما خلفا
 الزحام وراءهما سأله البلقيطي :

— اكنت تقصد احداً في حيننا ؟

— لا أعرف أحداً .

— ولا مأوى ؟

— ولا مأوى .

فقال البلقيطي في انبساط :

— كن ضيفي إذا شئت حتى تجد لنفسك مأوى .

فرقص قلب جبل فرحاً وقال :

— ما أنبلك يا معلم بلقيطي .

فقال الرجل ضاحكاً :

— لا تعجب لذلك ، في داري تقيم الثعابين والحيات فكيف تضيق

عن انسان ؟ هل أفزعك قلبي ؟ اني حاور واستعرف عنسدي كيف

تستأنس الثعابين !

عبرا الحارة فانتھيا الى خلاء لا يجد . ورأى جبل في مطلع الخلاء

داراً صغيرة بعيدة عن الحارة ، جدرانها احجار غير مطلية ، لكنها

تعتبر جديدة بالقياس الى بيوت حارة قلة المتداعية ، فاشار البلقيطي

اليها وقال بفخار :

— بيت البلقيطي الحاوي .

٣٤

ولما بلغا البيت قال البلقيطي :

— اخترت هذا المكان المتعزل لبيتي لان الناس لا يرون في الحاوي

الا ثعباناً كبيراً .

دخلا معاً الى دهليز غير قصير يقضي في نهايته الى حجرة مغلقة ،

على حين قامت على الجانبين حجرتان مغلفتان . وادف البلقيطي وهو
يشير الى الحجرة المواجهة للداخل :

- في هذه الحجرة توجد أدوات العمل ، الحلي منها والجماد ، لا
تخش شيئاً فبابها محكم الاغلاق ، أؤكد لك ان الثعابين أصلح للمعاشرة
من أناس كثيرين ، كالذين فررت منهم مثلاً ! .

ثم ضحك كاشفاً عن فيه الحرب وقال :
- الناس تخاف الثعابين ، حتى الفتوات تخافها ، أما انا فأدين لها
برزقي ، وبفضلها اقيت هذا البيت .

وأشار الى الحجرة اليمنى وهو يقول :

- هنا تنام ابنتاي ، ماتت أمها من زمن تاركة اباي لشيخوخة لا
تصلح للزواج من جديد (ثم أشار الى اليسرى) وهنا سننام معاً .
وترامى صوت الفتاة القصيرة من سلم جانبي يصعد الى السطح
وهي تنادي :

- شفيقة ، ساعديني في الغسل ولا تقفي هكذا كالخجر بلا عمل .
فصاح البلقيطي :

- يا سيدة ! صوتك سيوقظ الثعابين ، وأنت يا شفيقة لا تقفي
كالخجر !

اسمها شفيقة ! ما أبدع المليحة ! وزجرها غير الجارح . والشكر
الصامت في عينيها السوداوين . من يخبرها بأنه ما قبل هذه الضيافة
الخطيرة الا من اجل عينيها ؟

ودفع البلقيطي باب الحجرة اليسرى وأوسع لجبل حتى دخل ثم تبعه
ورد الباب . ومضى الرجل الى كنية تمتد بطول الحجرة الصغيرة في
جانبيها الأيمن ، متأبطاً ذراع جبل حتى جلسا معاً . وأحاط جبل بالحجرة
بنظرة واحدة ، فرأى فراشاً في الجانب الآخر مغطى ببطانية ترابيزة
اللون ، وفي أرض الحجرة فيما بين الفراش والكنية حصيرة مزركشة

توسطها صينية نحاس حال لونها من كثرة البقع ، ويرقد وسطها موقد
هرمي الرماد ، مركونة الى قائمة جوزة ، وعلى مسطح حافته سبخ
وكماشة وحفنة من معسل جاف . ولم يكن يرى من النافذة الوحيدة
المفتوحة إلا الخلاء والسماء الشاحبة وجدار شاهق راكن عن بعد من جدران
المقطم ، على حين ورد منها خلال الصمت المخيم زعيق راعية ونسائم
مشبعة بحرارة الشمس الساطعة . وكان البلقطي يتفحصه لحد المضايقة
ففكر في ان يشغله عن نفسه بالحديث ولكن السقف فوقها اهتز لوقع
أقدام تمشي فوق السطح فاهتز قلب جبل . تخيل أول ما تخيل قدميها
ففاض قلبه برغبة كريمة في ان تحمل السعادة بالبيت ولو انطلقت ثعابينه ،
وقال لنفسه : « قد يغتالي هذا الرجل ويدفني في الخلاء كما دفنت قدره
دون ان تدري فتاتي أني ضحيته هي » .

وأيضه صوت البلقطي وهو يسأله :

— هل لك عمل ؟

فاجابه وهو يتذكر آخر نقود يملكها في جيبه :

— سأجد عملاً ، أي عمل .

— لعلك في غير حاجة عاجلة الى عمل ؟

فداخله شيء من القلق لهذا السؤال وقال :

— بل يحسن بي ان أبحث عن عمل اليوم قبل الغد !

— لك جسم فتوات !

— لكني اكره العدوان !

فضحك البلقطي وتساءل :

— ماذا كنت تعمل في الحارة ؟

فتردد قليلاً ثم قال :

— كنت أعمل في ادارة الوقف .

— يا خبير اسود ، وكيف تهجر هذا النعيم ؟

- نحظي !
- هل طمعت عينك في احدي الهوائم ؟
- اتق الله يا شيخ .
- انك شديد الحذر ، لكنك ستأنس الي سريساً ونفسي لي بكل اسرارك .
- ان شاء الله .
- معك نقود ؟
- فعاوده القلق ولكنه لم يكشف عنه وقال براءة :
- عندي قليل منها لن يغني عن السعي .
- فقال الباقيطي وهو يرمش :
- أنت ذكي كالعفاريت ، الا تدري انك تصلح حاوياً ؟ لعننا نتعاون معاً ، لا تدهش لقولي ، فإني عجزوز في حاجة الى المعين .
- لم يأخذ قوله مأخذ الجد ولكنه كان مدفوعاً برغبة عميقة الى توثيق صلته به ، وهم بأن يتكلم ولكن الآخر بادره قائلاً :
- سنفكر في ذلك على مهل ، أما الآن ...
- ونهض الرجل ، ومال فوق الموقد فرفعه ، ومضى به خارجاً كأنما ليشعله .



وقبيل العصر خرج الرجلان معاً ، ففضى الباقيطي الى تجواله ، وقصد جبل السوق للفرجة والتسوق . وعاد مع المساء الى الخلاء فاهتدى الى البيت المنزل على بصيص نور ينبعث من نافذة . ولما بلغ البيت ترامت الى أذنيه اصوات محتدمة في نقاش فلم يملك ان يصغي . سمع سيدة تقول :

- ان صح ما تقول يا أبسي فان وراءه جريمة ونحن لا قبل لنا بفتوات الحارة .

فقال شقيقة :

- لا يبدو انه مجرم !

- فقال البلقيطي بسخرية واضحة :
- وهل عرفته لهذا الحد يا بنت الأفاعي ؟
- فقالت سيدة :
- لماذا يهرب من النعيم ؟
- فقالت شقيقة :
- ليس عجباً ان يهرب الانسان من حارة اشتهرت بكثرة فتواتها !
- فتساءلت سيدة بسخرية :
- من أين أتت هذه القدرة على معرفة الغيب ؟
- فقال البلقيطي متهدداً :
- معاشره الثعابين جعلتنى أنجب حيتين !
- أتستضيفه يا أبي وأنت لا تدري عنه شيئاً ؟
- عرفت عنه أشياء ، وسأعرف كل شيء ، لي عبنان يعتمد عليهما عند الحاجة ، ثم استضيفته متأثراً بشهامته ولن أرجع عن رأيي .
- ما كان يتردد عن الذهاب في غير هذا الطرف . ألم يهجر بيت النعيم بلا تردد ؟ ولكنه يدعن للقوة التي تشده الى هذا البيت . وطرب منه الفؤاد حتى سكر لسماع الصوت الذي دافع عنه . صوت الحنان الذي بدد وحشة الليل والخلاء وجعل الهلال السابح فوق الجبل يتسم كمن يزف بشرى في الظلام . ولبت ينتظر في الظلام ، ثم سعل ، واقبل الباب فطرقة . ففتح الباب عن وجه البلقيطي الذي انعكس عليه ضوء المصباح في يده . وذهب الرجلان الى حجرتهما ، فجلسا جيل بعد ان ترك فوق الصينية النحاس لفة جاء بها . ونظر البلقيطي الى اللفة متسائلاً فقال جبل :
- تمر وجبن وحلاوة طحينية وطعمية ساخنة .
- فابتسم البلقيطي ، وجعل يشير الى الجوزة تارة والى اللفة أخرى ويقول :

— خير الليل ما مضى بين هذا وذاك .

وربت كتفه متودداً وهو يتساءل :

— أليس كذلك يا ابن الواقف ؟

وانقبض قلبه على رغبه ، وتوالت على مخيلته صور الهام التي تبتسه
والحديقة الغناء بأعراش الياسمين والعصافير والمياه الجارية ، والطمأنينة
والسلام والأحلام الناعمة ، دنيا النعيم الزائلة ، حتى أوشكت الحياة ان
تفسد . واذا بموجة تدفع ذكرياته الغارقة في الأسى الى بر الأمان ، الى
هذه الصبية الودودة الطيبة ، الى القوة الساحرة التي تشده الى بيت فيه
وكر للثعابين ، فقال بحماس غير متوقع كنهج مصباح أثر هبة نسيم :
— ما أطيب الحياة في جوارك يا عم .

٣٥

لم يعطف عليه النوم إلا قبيل الفجر إذ عانى من الخوف كثيراً .
وزاره طيفها في هلوسة المخاوف كما تساقط أوراق الياسمين على حشائش
جافة تسمى بينها الحشرات . كابد الأوهام التي تلدها الظلام في البيت
الغريب . وقال لنفسه في الظلام : « ما أنت إلا غريب في بيت الثعابين ،
تطارذك جريمة ويهتز قلبك بالعشق » . ولو ترك وشأنه ما رغب في غير
السلام والدعة . وما خاف الثعابين قدر خوفه الغدر من ناحية ذلك الرجل
الذي يتعالى شخيره في فراشه ؛ فن أدراه أن شخيره صادق ؟ وما عاد
يطمئن الى صدق شيء . حتى دعس المدين له بحياته ستديع حماقته .
السرفيثور زقلط وتبكي أمه وتندلع النيران في الحارة التعيسة . والحب
الذي شده الى هذا البيت ، والى حجرة رفيقه مروض الثعابين ، من
أدراه انه سيعيش حتى يصرح بمكنونه . هكذا لم يعطف عليه النوم إلا

فبيل الفجر بعد ان عانى من الخوف كثيراً .
وفتح عينيه المثلثتين عندما نضحت النافذة المغلقة بنور الصباح . رأى
البليطي جالساً في فراشه متقوس الظهر ، يدلك بيديه المعروقتين ساقيه
تحت الغطاء . وابتسم في ارتياح رغم الدوخة الملعة برأسه لقلّة النوم .
لعن الأوهام التي تعشش في الرأس في الظلام وتبتدد في النور كالحفافيش .
أليست أوهاماً جديرة بسوء ظن قاتل ؟ أجل ، ان اسرتنا المجيدة تجري
في دماها الجريمة منذ القدم . وسمع البليطي يتنأب بصوت مرتفع
متماوج كالحية الراقصة فهاج صدره وراح يسعل طويلاً بشدة حتى خيل
إليه ان وجهه سيلفظ عينيه . ولما سكت السعال تأوه الرجل من الأعماق
فقال جبل :

— صباح الخير .

وجلس على الكنبه قالتت البليطي نحوه ووجهه ما زال محتقناً من
السعال وقال :

— صباح الخير يا معلم جبل ، يا من لم ينم من الليل إلا أقله .

— لعل وجهي متغير ؟

— بل أذكر تقلبك في الظلام والتفاتات رأسك نحوي كالحائف !

— يا لك من ثعبان ! ولكن كن ثعباناً غير سامّ وحق العينين
السوداوين .

— الحق اني أرقت لتغير مكان النوم .

فضحك البليطي قائلاً :

— أرقت لسبب واحد وهو انك كنت تخافني على نفسك ، قلت

سيقتلني ويسلبني نقودي ثم يدفني في الحلاء كما فعلت أنا بالرجل
الذي قتلته .

— أنت ..

— اسمع يا جبل : الخوف شديد الابداء ، والثعبان لا يلدغ إلا

عند الخوف !

فقال جبل في انهزام خفي :

— انك تقرأ ما ليس في الصدور .

— انك تعلم انني ما جاوزت الخلق يا موظف الوقف السابق !

وترامى صوت من الداخل ينادي بقوة : « يا سيدة تعالي » فشعشع روحه بانبساط غير متوقع . هذه الحماة الزجاجية في وكر الشعابن ، التي قضت له بالبراءة وجذبته الى شجرة الآمال المورقة . وقال البلقيطي وكأنه يعلق على نشاط شفيقة :

— النشاط يدب في بيتنا منذ الصباح الباكر ، فتنطلق هاتان البنتان الى الطريق لتعودا بالماء والمدمس لتطعما اباهما العجوز ثم ترسله بحراب الشعابن ليلتقط لنفسه ولها الرزق .

وحلت السكينة بقلبه ، وشعر بأنه عضو في هذه الأسرة ، وفاضت نفسه بالمودة ، فترع الى فتح صدره والتسليم الى مقاديره في عفوية لا تقاوم فقال :

— يا معلم ، بالحق سأقص عليك قصتي .

فابتسم البلقيطي وتشاغل بتدليك ساقيه فعاد جبل يقول :

— اني قاتل كما قلت ، ولكن لي قصة .

وقص عليه قصته . ولما فرغ قال الرجل :

— يا لهم من قوم ظالمين ، أما أنت فرجل شهم ولم يحب نظري فيك .

واعتدل في جلسته باعتزاز ثم قال :

— من حنك الآن ان ابادلك صراحة بصراحة ، فاعلم اني انتسب في الاصل الى حارة الجبلاوي .

— أنت !

— نعم ، وقررت منها في صدر الشباب ضيقاً بفتواتها !

فقال جبل والدهشة لم تزايله بعد :

- هم شقاء حارتنا .
- نعم ، لكننا لا ننسى حارتنا رغم فتواتها ، ولذلك أحببتك عندما عرفت أصلك .
- من أي حي كنت ؟
- من حي حمدان مثلك .
- يا للعجب !
- لا تعجب لشيء في هذه الدنيا ، لكنه تاريخ مضى من بعيد ، فلا أحد يعرفني الآن ولا تمرحنة نفسها التي تربطني بها صاة قريبي .
- اعرف هذه السيدة الشجاعة ، ولكن من كان غريمك من الفتوات ؟ زقلط ؟

- لم يكن في ذلك العهد الا فتوة حي حقيير .
- قلت هم شقاء حارتنا !
- أبصق على الماضي بكل ما فيه .
- ثم بلهجة فيها اغراء :

- اشغل نفسك منذ الساعة بمستقبلك ، وها أنذا اكرر لك القول بأنك تصلح حاوياً ماهراً ، ولنا مجال مريح في الجنوب من هنا بعيداً عن حارتنا ، وعلى اي حال ففتواتكم واتباعهم لا يظهرون في هذا الحي ؛ لم يكن بطبيعة الحال يدري شيئاً عن فن الحواة ولكنه رجب به باعتباره الوسيلة التي ستلصقه بهذه الأسرة فتساءل بنبرات فضحت رضاه :

- أتراني اصلح حقاً لذلك ؟

فوثب الرجل الى الأرض في سرعة بهلوانية ووقف امامه بجسمه القصير وقد كشف طوق جلبابه عن شعر كث ابيض وقال :

- أنت موافق ، لم يحب نظري في شيء قط .

ومد له يده فتصافحا ثم قال الرجل :

— اصارحك بأني احبك اكثر من اي ثعبان عندي .
فضحك جبل في نشوة طفل ، وشد على يد الرجل ليمنعه من الذهاب
حتى وقف متسائلاً ثم قال باندفاع لم تجد حيلة في منعه :
— يا معلم ، جبل يطلب القرب منك .

فابتسم عينا البلقيطي المحمرتين وتساءل :
— حقاً ؟

— نعم ورب السماوات .
فضحك البلقيطي ضحكة قصيرة وقال :
— كنت اتساءل متى يا ترى يفتحني في ذلك ! نعم يا جبل فلست
أحق ، ولكنك الرجل الذي اعهد اليه بابنتي مطمئناً ، ومن حسن الحظ
ان سيدة فتاة ممتازة كما كانت المرحومة امها !
واعترى ابتسامة الابتهاج في فم جبل ارتباك غير خاف كما يعترى
اطراف الزهرة البانعة الذبول ، وخاف ان يتبدد حلمه بعد ان صار في
قبضته وغغم :
— لكن ..
فتمهقه البلقيطي قائلاً :

— لكنك تطلب شقيقة ! اعلم هذا يا ابن والدي ، اخبرني به
عينك وحديث الصغيرة ومعاشرة الثعابين والحيات فلا تؤاخذني فهذه هي
طريقة الحياة فيها يعتقدون من اتفاقات .

تنهد جبل من صميم القلب ، وشعر ببرد الطمأنينة والسلام ، ووثبت
بصدره مشاعر فتوة وحماس وانطلاق ، حتى بيت النعيم لم يعد يبالي به ،
ولا الجاه المولى ، ولم يعد بخاف ما ينتظره من كد ومروطة ، فليسدل
على الماضي ستاراً لا ينضح بصموم ، وليبتلع النسيان كافة المتاعب والآلام
الماضية ، وليبتلع فيما يبتلع حنان القلب الى الأمومة الضائعة .

فأ الضحى زغردت سيّدة .
وسرى النبأ السعيد في الحوارى المجاورة .
ثم شهد سوق المقطم وحيّه زفة جبل .

٣٦

قال البلقيطى بلهجة انتقاد ساخرة :
- لا يحمل بالرجل ان يركن الى حياة الأرنب والديك ! وها أنت
لم تتعلم شيئاً واوشكت نقودك ان تفرغ !
كانا يجلسان على فروة امام باب الدار ، وكان جبل يمد ساقيه على
الرمال المشمسة تلوح في عينيه الغبطة والدعة فالتفت الى حبيه وقال باسمّاً :
- عاش ابونا ادهم ثم مات وهو يتمنى الحياة البريئة اللاهية في
الحديقة الغناء !

فضحك البلقيطى ضحكة مرتفعة ونادى بأعلى صوته :
- يا شفيقة ! ادركي زوجك قبل ان يقتله الكسل .
فظهرت شفيقة على عتبة الباب وهي تنقيّ عدساً في طبق على يدها ،
وقد لفّت رأسها بخمار ارجواني اكّد صفاء وجهها . تساءلت دون ان
ترفع عينها عن الطبق :

- ما له يا ابي ؟
- يتمنى شيئين : رضاك وحياة بلا عمل .
فضحكت متسائلة في انكار :
- وكيف يجمع بين ارضائي وقتلي جوعاً ؟
فقال جبل :
- هذا سر الحاوي !
فلكزه البلقيطى في جنبه قائلاً :

— لا تستهن بأشق المهين . كيف تخفي بيضة في جيب متفرج
وتستخرجها من جيب آخر في الصف الذي يقابله ؟ كيف تحول البلى
الى كتاكيت ؟ كيف ترقص الحية ؟
فقلت شفيقة التي بدت منورة بالسعادة :

— علمه يا ابي ، انه لم يعرف من الحياة الا الجلوس على مقعد
وثير في ادارة الوقف .

فقام البلقطي وهو يقول : « جاء وقت العمل » ثم دخل البيت .
وراح جبل يتأمل زوجه باعجاب ويقول :
— زوجة زقاظ دونك في الملاحه الف درجة لكنها تقطع النهار على
اريكة ناعمة ، والاصيل في الحديقة تستنشق عبير الفل وتلهو بالميساه
الجارية .

فقلت بسخرية ومرارة معاً :
— هذا حال المتخمين بارزاق الناس .
فهرش جانب رأسه متفكراً وقال :
— ولكن هنالك سبيل الى السعادة الشاملة .
— لا تحلم ، لم تكن حالماً عندما نهضت للأخذ بيدي في السوق ،
ولم تكن حالماً عندما طردت عني ذباب البشر ، ولذلك دخلت قلبي .
فاشتاق ان يقبلها . ولم يهون من قيمة كلامها اقتناعه بأنه يعرف
اكثر منها . وقال :

— اما انا فاحببتك دون ما سبب .
— في هذه الحواري من حولنا لا يحلم الا المجانين .
— ماذا تريد مني يا حلوة ؟
— ان تكون مثل ابي .
فتساءل معاتباً :

— وهذه الخلاوة تقطر منك ما شأنها ؟

فانفجرت شفتاها عن ابتسامة واسرعت أصابع يدها بين حبات العدس .
- عندما فورت من الحارة كنت اشقى الناس جميعاً ، ولكن لولا
ذلك ما تزوجتك !

فضحكت قائلة :

- نحن مدينان في سعادتنا لفتوات حارتك كما يدين ابي في رزقه
للحيات والثعابين .

فتنهذ جبل قائلاً :

- ومع ذلك فقد آمن خير من عرفته حارتنا من ابنائها بأنه يوجد
سبيل يكفل الرزق للناس وهم في الحداث يغنون .

- رجعتا ! ها هو ابي قادماً بجرابه ، قم رعاك الله .

وجاء البلقيطي بجرابه وقام جبل ومضى الاثنان في طريقهما المعهود .
وجعل البلقيطي يقول له :

- تعلم بعينيك كما تتعلم بعقلك ، انظر ماذا افعل ولا تسألني امام
احد من الناس ، واصبر حتى اوضح لك ما يغمض عليك فهمه .

ووجد جبل الحرفة شاقة حقاً ولكنه لم يستهن بها من اول الامر
ووطن نفسه على الخلق فيها مهما كلفه الجهد . والواقع انه لم يكن امامه
من مهنة اخرى الا ان يرضى بمهنة بائع جوال او الفتونة او اللصوصية
وقطع الطريق . لم تكن الحوارى في حيتة الجديد لتختلف عن حارته في
شيء عدا الوقف والقصص التي نشأت حوله . وقد رسبت في قرارة
نفسه حسرة متخلفة من احلام الماضي وذكريات المجد الغابر والآمال
التي يتعذب بسببها آل حمدان كما تعذب ادهم منذ قبل . وكان مصمماً
على النسيان بالقاء نفسه في خضم الحياة الجديدة وتقبلها وفتح الصدر لها ؛
والواذ بزوجه المحبة المحبوبة كلما خطر له خاطر حزن او هوان في
تجواله . وتفارق على احزانه وذكرياته وبرع في تعليمه حتى ادهش
البلقيطي نفسه . وكان يواصل التدريب في الحلاء ويعمل في النهار والليل ،

وتمضي الايام والاسابيع والاشهر فلا تمن له عزيمة ولا يدركه الكلال .
وقد عرف الخواري والأزقة . واستأنس الثعابين والحيات . ولعب امام
آلاف الصبية . وذاق حلاوة النجاح والربح . وتلقى بشرى الأبوة المقبلة .
واستلقى على ظهره يرعى النجوم حين الراحة . وسهر الليالي يتجاذب
مع البلقيطي الجسوزة ويقص القصص التي كانت تروىها الرباب بقهوة
حمدان . وتساءل من حين الى حين أين الجبلأوي . واذا اشفت شقيقة
من ان يفسد عليه الماضي حياته هتف بها : الى هؤلاء ينتسب الشيء الذي
في بطنك ، وآل حمدان آله ، والأفندي رأس الاغتصاب كما ان زقلط
رأس الارهاب ، فكيف تطيب الحياة وبها امثال اولئك ؟

• • •

ويوماً كان يعرض الأعيه في زينهم وسط حلقة محكمة من الصغار .
ولاحت منه التفاتة فرأى امامه دعيس وقد شق سبيله الى الصف الأمامي
وراح يحمق فيه بذهول . اضطرب جبل وتجنب النظر الى وجهه ولم يعد
بمستطاعه ان يواصل عمله فأناهها رغم احتجاج الصغار ورفع جرابه ومضى .
وما لبث ان لحق به دعيس وهو يصيح :

— جبل ! أهذا أنت يا جبل !

فتوقف عن السير ملتفتاً اليه وقال :

— نعم ، ماذا جاء بك يا دعيس ؟

ولم يفق دعيس من دهشته وجعل يقول :

— جبل حار ! متى تعلمت هذا وأين ؟

فقال جبل باستهانة :

— ليس هذا بأعجب ما يقع في هذه الدنيا .

وسار جبل والآخر يتبعه حتى بلغا سفح الجبل ثم جلسا في ظل نتوء ،
ولم يكن بالمكان الا اغنام ترعى وراعٍ جلس عارياً يفتلي جلبابه . وتفرس

دعبس في وجه صاحبه وقال :

— لماذا هربت يا جبل ؟ كيف ساء ظنك بي حتى توقعت ان اخونك ؟ والله ما اخون احداً من حمدان ولو يكن كعلها ! ولحساب من اخونك ؟ الأفندي أم زقلط ؟ فليحرقهم رب السماوات جميعاً ، كم سألو عنك كثيراً ، وكنت اسمعهم يسألون فأغرق في عرقى .
فسأله جبل باهتمام :

— خبرني كيف تعرض نفسك للانتقام بالتسلل من ربك ؟
فلوح دعبس بيده في استهانة قائلاً :

— رفع الحصار عنا من زمن ، لم يعد احد يسأل اليوم عن قدره او قاتله ، ويقال ان هدى هامم هي التي انقذتنا من الموت جوعاً ، ولكن قضى علينا بالذل الى الأبد ، لا مقهى لنا ولا كرامة ، نسعى في اعمالنا بعيداً عن حارتنا واذا عدنا توارينا وراء الجدران ، واذا عثر على احدنا فتوة عبث به صفعاً او بصقاً ، ان تراب حارتنا اليوم اكرم عليهم منا يا جبل ... ما اسعدك في غربتك .

فقال جبل بامتعاض :

— دع معادتي في شأنها وخبرني الم يصب احد بسوء ؟

فقال دعبس وهو يتناول طوبة ويضرب بها الأرض :

— قتلوا منا عشرة في عهد الحصار !

— يا رب السماوات !

— ذهبوا فداء لقدره الحقير ابن الحفيرة ، ولكنهم ليسوا من

اصحابنا !

فقال جبل بحق :

— الم يكونوا من آل حمدان يا دعبس ؟

فرمش دعبس حياء وتحركت شفتاه بعذر غير مسموع فعاد جبل يقول :

— والآخرون ينعمون بالصفع والبصق .

وشعر الرجل بأنه مسئول عن الارواح التي زهقت ، وعصر الالم
قلبه . ووجد ندماً دامياً على كل لحظة سلام مرت به منذ هجرته .
ودهمه دعبس بقوله :

— لعلك الوحيد السعيد اليوم من آل حمدان .

فهمت :

— لم اكف يوماً عن التفكير فيكم .

— لكنك بعيد عن الهم والغم .

فقال بحلوة :

— لم أفلت من الماضي قط .

— لا تبدد راحة بالك بلا امل ، لم يعد لنا أمل .

فردد جبل قوله الأخير ولكن في نبرات غامضة :

— لم يعد لنا أمل !

فرمقه دعبس باهتمام مستظلاً ولكنه لم ينبس اجترأاً للحزن المرسوم
على وجهه . ونظر الى الأرض فرأى خنفساء تدب بسرعة حتى اختفت
تحت كومة احجار . وكان الراعي ينفض جلبابه ليغطي جسده الذي الهبته
الشمس . وعاد جبل يقول :

— في الحق لم اكن سعيداً الا في الظاهر .

فقال بجملاً :

— انك تستحق السعادة عن جدارة .

— تزوجت واتخذت لنفسى عملاً جديداً كما ترى وما برح نداء خفي

يلح في افلاق منامي .

— فليباركك الله ، اين تقيم ؟

لم يجبه . وبدأ وكأنه يخاطب نفسه . ثم قال :

-- لا تطيب الحياة وبها امثال اولئك الأوغاد .

— صدقت ، ولكن كيف التخلص منهم ؟

ارتفع صوت الراعي وهو ينادي اغنامه ، ويسير نحوها متأبطاً عصاه الطويلة ، ثم ترامى عنه لحن غناء غير واضح . وتساءل دعبس :
 - كيف استطيع ان ألتاك ؟
 - سل عن بيت البلقيطي الحساوي عند سوق المقطم ولكن اكنم خبري الى حين .
 ونهض دعبس فشد على يده ومضى والأخر يتابعه بعينين محزونتين .

٣٧

أوشك الليل ان ينتصف . وكادت حارة الجبلابي تغرق في الظلمة لولا اضواء وانية تسال من ابواب المقاهي المواربة اتقاء للبرد . ولم يلح في سماء الشتاء نجم واحد وتوارى الغلمان في الحجرات ، وحتى الكلاب والقطط آوت الى الأفنية . ومن خلال الصمت الشامل انبعثت انغام الرباب الرتيبة تردد الحكايات ، أما حيّ حمدان فقد تلفّع بظلمة خرساء . وجاء شبحان من ناحية الخلاء ، فسارا تحت سور البيت الكبير ، ثم مرّا امام بيت الافندي ، قاصدين حيّ حمدان ، حتى وقفا امام الربع الأوسط وطرق احدهما الباب ، فرنّ الطرق في الصمت مثل قرع الطبول . وفتح الباب عن وجه حمدان نفسه الذي بدا شاحباً على ضوء سراج بيده :
 ورفع السراج ليتبين وجه الطارق ، وما عثم ان هتف في دهشة :
 - جبل !

وتنحى عن الباب فدخل جبل حاملاً بقعة كبيرة وجراباً ، وتبعته زوجه حاملة بقعة اخرى . وتعانق الرجلان . وألقى حمدان نظرة سريعة على المرأة فلمح بطنها ، وقال :
 - زوجتك ؟ أملاً بكيا ، اتبعاني على مهل

اخترقوا دهليزاً طويلاً مسقوفاً حتى بلغوا الحوش الواسع غير المسقوف ،
ثم مالوا الى السلم الضيق وركبوا فيه حتى مسكن حمدان . وادخلت
شفيقة الى الحريم ، ومضى حمدان بجبل الى حجرة واسعة متصلة بشرفة
مطلّة على حوش الربع . وما لبث خبر عودة جبل ان ذاع فأقبسل
كثيرون من رجال حمدان على رأسهم دعبس وعتريس وضلمة وفوانيس
ورضوان الشاعر وعبدون ، فصافحوا جبل بحرارة ، وجلسوا في الحجرة
على الشلت يتطعمون الى العائد باهتمام وحب استطلاع . وتناوبت الأسئلة
على جبل فقص عليهم طرفاً من حياته الأخيرة . وتبادلوا نظرات الأسى .
ورأى جبل ان ارواحهم المضعضة تنعكس على اجسادهم المهزولة وأن
الفناء يدب في الأوصال . وقصّوا عليه ما يلقون من هوان فقال دعبس
انه اخبره بكل شيء في لقاء اتفق لها منذ شهر ، وانه لذلك يعجب لما
جاء به ، وسأله ساخرآ :

— أجنث لتدعونا للهجرة الى مقامك الجديد ؟

فقال جبل بحدة :

— لا مقام لنا الا هنا !

وجذب الأسماع في صوته نبرة قوة حتى لاح الاستطلاع في عيني

حمدان وقال :

— لو كانوا ثعابين لما استعصى عليك ردعهم .

ودخلت تمرحنة بأقداح الشاي فخيّت جبل تحية حارة ، واثنت على

زوجها ، وتنبأت له بأنه سينجب ذكراً ولكنها قالت مستدركة :

— لم يعد من فارق بين رجالنا ونسائنا !

ونهرها حمدان وهي تغادر الحجرة ولكن اعين الرجال عكست

اقتناعاً ذليلاً بقولها ، وتكاثفت سحب الاحزان المخيمة على المجلس فلم

يذق احد للشاي طعماً . وتساءل رضوان الشاعر :

— لماذا عدت يا جبل وأنت لم تألف الاهانة ؟

فقال حمدان بصوت يئم عن الانتصار :
- قلت لكم مراراً ان الصبر على ما نلقى خير من التسكع بين
غرباء سيكرهونا .

فقال جبل بقوة :
- ليس الأمر كما ترى .
وهز حمدان رأسه دون ان ينبس فساد صمت حتى قال دعيس :
- يا جاعة فلنتركه ليستريح .
ولكنه اثار لهم بالبقاء وقال :
- ما جئت لأستريح ولكن لأحدثكم في شأن خطير ، اخطر مما
تتصورون .

وتطلعت اليه الأعين بدهشة وغمغم رضوان متمنياً الخير فيما سيسمع .
اما جبل فراح يقلب في الوجوه عينيه القويتين ، ثم قال :
- كان بوسعي ان امضي العمر كله في اسرتي الجديدة دون تفكير
في العودة الى حارتنا .

وصمت ملياً ، ثم عاد يقول :
- لكنه حدث منذ ايام معدودة ان شعرت برغبة في المشي وحدي
رغم البرد والظلام ، فخرجت الى الخلاء ، واذا بقدمي تقوداني الى
البقعة المشرفة على حارتنا ، ولم اكن دنوت منها منذ هروبي .
نجلى الاهتمام في الأعين فواصل الرجل حديثه قائلاً :

- مضيت في تجوالي في ظلام دامس ، فحتى النجوم توارت وراء
السحب ، وما ادري الا وأنا اوشك ان اصطدم بشبح هائل ، توهمته
اول الأمر أحد الفتوات ، ولكنه بدا لي شخصاً ليس كمثله احد في
حارتنا ولا في الناس جميعاً ، طويلاً عريضاً كأنه جبل ، فامتألت رهبة
وهمت بالتراجع واذا به يقول بصوت عجيب : « قف يا جبل » فتسمرت
في مكاني وسألته وجلدي ينضح بالخوف : « من ؟ من انت ؟ » .

وتوقف جبل عن الحديث فالت الرعوس الى الامام في اهتمام ،
وتساءل ضلمة :

— من حارتنا ؟

ولكن عتريس قال بسرعة معترضاً :

— قال انه ليس كمثله احد في حارتنا ولا في الناس جميعاً .

ولكن جبل قال :

— بل انه من حارتنا !

وتساءلوا عن هويته جميعاً فقال جبل :

— قال لي بصوته العجيب : « لا تخف ، انا جدك الجبلوي ! »

وارتفعت صيحات الدهشة من الجميع ورمقوه بنظرات الارتباب .

وقال حمدان :

— انك تهزر دون شك .

— بل اقول الحق دون زيادة ولا نقصان !

فسأله فوانيس :

— ألم تكن مسطولاً ؟

فصاح جبل بغضب :

— ان السطل لم يذهب بعقلي قط !

فقال عتريس :

— له لطسات لا تعرف عزيزاً وخصوصاً الأصناف الجيدة !

فتبدى الغضب في وجه جبل كالسحاب المظلم وصاح :

— سمعته باذني وهو يقول لي : « لا تخف ، انا جدك الجبلوي »

فقال حمدان برقة ليسكن غضبه :

— لكنه لم يغادر بيته من زمن ولم يره احد !

— لعله يخرج كل ليلة دون ان يدري احد .

فعاد حمدان يتساءل في حذر :

— لكن احداً غيرك لم يصادفه !

— صادفته انا !

— لا تغضب يا جبل فما قصدت التشكيك في صدقك ، ولكن الوهم خداع ، بالله خبرني اذا كان الرجل يستطيع الخروج من بيته فلماذا نزل عن النظارة لغيره ؟ ولماذا يتركهم يعثون محقوق ابنائه ؟ !
فقال جبل مقتطاً :

— هذا سره وهو به اعلم .

— ان ما قيل عن اعتزاله لكبره وعجزه اقرب الى المعقول .

فقال دعبس :

— اننا نخطئ بين الاقاويل ، دعونا نسمع القصة ان كان لها بقية .

فقال جبل :

— قلت له : « لم احلم ان اقابلك في هذه الحياة » فقال : « ها انت ذا تقابلني » وحددت بصري لأتبين وجهه المرتفع في الظلام فقال لي : « لن تستطيع رؤيتي ما دام الظلام » فقلت بذهول لرؤيته محاولة رؤيتي له : « لكنك تراني في الظلام » فقال : « اني ارى في الظلام منذ اعتدت التجوال فيه قبل ان توجد الحارة » فقلت باعجاب : « الحمد لرب السماوات على انك ما زلت تتمتع بصحتك » فقال : « انت يا جبل ممن يركن اليهم ، وآي ذلك انك هجرت النعيم غضباً لأسرتك المظلومة ، وما اسرتك الا أسرتي ، وهم لهم في وقفي حق يجب ان يأخذوه ، ولهم كرامة يجب ان تصان ، وحياة يجب ان تكون جميلة » فسألته في فورة حماس اضاءت الظلام : « وكيف السبيل الى ذلك ؟ » فقال : « بالقوة تهزمون البغي ، وتأخذون الحق ، وتحيون الحياة الطيبة » فهتفت من اعماق قلبي : « سنكون اقوياء » فقال : « وسيكون النجاح حليفك » .

وترك صوت جبل وراءه صمتاً كالحلم بدوا فيه جميعاً مسحورين .

كانوا يفكرون ويتبادلون النظرات ثم يتجهون بأعينهم الى حمدان حتى
خرج عن الصمت قائلاً :

— فلتتدبر هذه الحكاية بعقولنا وقلوبنا !

فقال دعيس بقوة :

— انها لا تبدو وهماً من اوهام السطل وكل ما تتضمنه حق .

فقال ضلمة بايمان :

— لن تكون وهماً الا اذا كانت حقوقنا وهماً !

فتساءل حمدان في شيء من التردد :

— ألم تسأله عما يمنعه من اجراء العدل بنفسه ؟ او عما جعله يعهد
بالنظارة الى قوم لا يحسنون القيام على حقوق الناس ؟

فقال جبل بامتعاض :

— لم أسأله ، ولم يكن بوسعي ان أسأله ، أنت لم تلقه في الخلاء
والظلمة ولم تستشعر الرهبة في حضرته ، ولو وقع لك ذلك ما فكرت
في مناقشته الحساب ولا داخلك الشك في امره .

فهز حمدان رأسه فيما يشبه التسليم وقال :

— هذا كلام خليق بالجبلاوي حقاً ولكن ما اخلقه بأن ينفذه بنفسه !

فصاح دعيس :

— انظروا حتى تموتوا في هوانكم !

فتنحنح رضوان الشاعر وقال وهو ينظر بحذر في الوجوه :

— كلامه جميل ولكن فكروا فيما يجزنا اليه .

فقال حمدان بجزن :

— ذهبنا مرة نستجدي بعض حقنا فكان ما كان .

واذا بعبدون الصغير يصيح :

— علام نخاف وليس هناك اسوأ مما نحن فيه ؟!

فقال حمدان كالمعتذر :

— لست اخاف على نفسي ولكني اخاف عليكم .

فقال جبل بازدرأ :

— سأذهب الى الناظر وحدي .

فقال دعبس وهو يترحزح مقرباً من مجلسه :

— ونحن معك ، لا تنسوا ان الجبلابي وعده بالنجاح !

فقال جبل :

— سأذهب وحدي عندما اقرر الذهاب ، ولكنني اريد ان اطمئن

الى انكم ستكونون ورائي وحدة متماسكة خليفة بمواجهة الشدة والصمود لها !

ووثب عبدون واقفاً في حماس وهتف :

— وراءك حتى الموت !

وانتقل حماس الغلام الى دعبس وعريس وضلمة وفوانيس . وتساءل

رضوان الشاعر بشيء من المكر ان كانت زوجة جبل تدري بما جاء

زوجها من اجله فقص جبل عليهم كيف انه افضى بسرّه الى البلقيطي ،

وكيف نصحه الرجل بتقدير العواقب ، وكيف أصر على العودة الى

حارته ، وكيف اختارت زوجته ان تسير معه الى النهاية .

وعند ذاك قال حمدان بصوت انبأ بأنه مع الآخرين :

— ومتى تذهب الى الناظر ؟

فأجاب جبل :

— عندما تنضج خطتي .

فقام حمدان وهو يقول :

— سأدبر لك مقاماً في مسكني ، انك اعز الأبناء ، وهذه ليلة لها

ما وراءها ، ولعل الرباب ترويهما غداً موصولة بقصة ادهم ، هلموا

نتعاهد على الخير والشر !

عند ذاك تصاعد صوت حمودة الفتوة ، العائد مع الفجر ، وهو

يغني بلسان خمور مترنح :

يا واد يا سكري تشرب تنجلي وتحش الحارة تنطوح ترمي
وعامللي فنجري وتمز بجنبري

فلم يؤخذوا بصوته الا لحظة ، ثم مدوا أيديهم للتعاقد في حماس ،
وفي رجاء .

٣٨

وعلمت الحارة بعودة جبل . رآته يسير بجرايه . ورأت زوجته وهي
تسعى الى الجمالية لابتياح حوائجها . وتحدثوا عن مهنته الجديدة التي لم
يسبقه اليها احد من ابناء الحارة . على انه كان يعرض لأغبييه السحرية
في الأحياء المجاورة دون حارته ، وتجنب استعمال الثعابين في أغبييه فلم
يفطن احد الى انه بها خبير . ومر ببيت الناظر مرات وكأنما لم يطرقه
في حياته وهو يكابد في أعماقه حنيناً أليماً الى أمه . ورآه الفتوات مثل
حمودة والليثى وبركات وابو سريع فلم يصفعوه كما يفعلون مع غيره
من آل حمدان ولكنهم عرّضوا به وهزئوا بجرايه . وصادفه مرة زقلط
فحدجه بنظرة قاسية ، ثم اعترض سبيله متسائلاً :

— أين كانت غيبتك ؟

فقال في حلم :

— في الأرض الواسعة ..

فقال الرجل متحرشاً :

— اني فتوتك ومن حقي ان أسألك عما أريد وعليك ان تجيب ...

— أجبتك بما عندي .

— وماذا عاد بك ؟

فقال في هدوء :

— ما يعود بالإنسان الى حارته !

فقال بصوت نهم عن وعيد :

— لو كنت في مكانك ما عدت !

وسار فجأة بقوة ، فكاد يرتطم به لولا ان تنحى جبل عن سبيله بسرعة ، كاظماً غيظه . واذا بصوت بواب بيت الناظر يناديه ، فالتفت جبل نحوه دهشاً ، ثم مشى اليه ، فالتقيا امام البيت وتصافحا بحرارة . وجعل الرجل يسأله عن احواله ، ثم اخبره بأن الهانم تود رؤيته . وكان جبل يتوقع هذه الدعوة منذ ظهوره في الحارة . كان قلبه يحده بآنية لا ريب فيها . ومن ناحيته لم يكن بوسعه ان يزور البيت للحال التي غادره عليها . وفضلاً عن ذلك فقد قرّر الا يطلب المقابلة حتى لا يثير الشكوك حولها قبل ان تقع ، سواء في نفس الناظر أم في نفوس الفتوات . ولكنه ما كاد يدخل البيت حتى جرى الخبر في الحارة جميعاً . والقي نظرة سريعة — عند مسيره الى السلامك — على الحديقة ، على اشجار الجميز والتوت العالية ، وشجيرات الأزهار والورود التي تغطي الأركان ، وقد اختنى العبير التقليدي تحت قبضة الشتاء ، وغشي الجو نور هادئ وديع كالأصيل كأنه يقطر من السحاب الأبيض المنتشر . وصعد السلم وهو يطرد عن قلبه بقوة اسراب الذكريات . ودخل البهو فرأى في صدره الهانم وزوجها جالسين ، منتظرين . نظر الى أمه فتلاقت نظراتهما ، وقامت المرأة لاستقباله في تأثر شديد ، فهوى على يديها بقلبيها ، ولثمت جبينه في حنان ، فاجتاحه في موقفه شعور بالحب والسعادة . والتفت رأسه الى الناظر فرآه جالساً في عباته يطالعها بعينين باردتين ، فمد له يده فقام نصف قومة ليصافحه وسرعان ما جلس . وجرت عيناه هدى على جبل في دهشة ممزوجة بانزعاج ، وهو يبدو

بجسمه الفارع في جلباب خشن مشمر وسطه بحزام غليظ ، وفي قدميه
مركوب شبه بال ، وعلى شعره الغزير طاقة عباء ، فتجلى في عينيها
الرثاء . وتحدثت عيناها - دون اللسان - فأبدت حزنها على مظهره وعلى
ما ارتضاه لنفسه من حياة ، وكأنما كانت تطالع أملاً باهراً تهاوى الى
حطام . وأشارت له بالجلوس فجلس على مقعد قريب منها ، وجلست
هي فيما يشبه الاعياء . وأدرك ما يدور في نفسها فحدثها بصوت قوي
عن حياته في سوق المقطم ، وعن مهنته ، وزواجه ، حدثها حديث
الراضي عن تلك الحياة رغم خشونتها ، والقانع بها . فامتعضت
بقوله وقالت :

— لتكن حياتك ما تكون ، ولكن كيف لم تجعل من بيتي اول بيت
تقصده لدى عودتك الى الحارة ؟

كاد يقول لها انه ليس لعودته الى الحارة من هدف الا بيتها ، ولكنه
اجل ذلك لأن اللحظة لم تكن مناسبة ، ولأنه لم يبق بعد من تأثير اللقيا .
وأجاب قائلاً :

— كان بيتك امنيتي ولكني لم اجد الشجاعة لاقتحامه بعد ما كان ..
واذا بالافندي يسأله بصوت بارد :

— ولماذا عدت ما دام العيش قد طاب لك في الخارج ؟
فندت عن الهائم نظرة عتاب نحو زوجها الذي تجاهلها ، أما جبل
فقال باسمًا :

— لعلتي عدت يا سيدي طامعاً في لقياك !

فقال هدى في عتاب :

— ولم تزرنا حتى دعوناك يا جاحد .

فقال جبل وهو يخفض رأسه :

— ثقي يا سيدتي بأنسي كلما ذكرت الظروف التي اضطررتني الى
مغادرة هذا البيت لعتتها من صميم قلبي .

فحدجه الافندي بنظرة مريبة وهمّ بسؤاله عما يعني ولكن هدى
سببته قائلة :

— علمت بلا شك بعفونا عن آل حبدان اكراماً لك .
وأدرك جبل انه آن لهذا الموقف العائلي الطيب ان ينتهي كما قدر له
من اول الأمر ، وانه آن للكفاح ان يبدأ فقال :
— الحق يا سيدتي انهم يعانون ذلاًّ ألّعن من الموت ، وقد قتل منهم
من قتل .

فقبض الافندي بشدة على مسبخته وهتف بحدة :
— انهم مجرمون ، وقد نالوا ما يستحقون .
فلوحت هدى بيدها في رجاء وقالت :
— فلتنس الماضي كله .

فقال الافندي باصرار :
— ما كان يجوز ان يضيع دم قدره هدراً .
فقال له جبل بشيات :
— المجرمون حقاً هم الفتوات .

فوقف الافندي في عصبية ووجه الخطاب الى زوجته قائلاً في لوم :
— أرأيت نتيجة اذعاني لك في دعوته الى بيتنا ؟
فقال جبل بصوت افصح نبراته عما وراءه من عزم :
— سيدي ، كان في نيّتي ان اجيء اليك على اي حال ، ولعل
الاعتراف بالجميل الذي أكتسه نحو البيت هو الذي جعلني انتظر حتى
أدعى اليه .

فرمقه الناظر بنظرة توجس وارتباب ثم سأله :
— ماذا تريد من مجيئك ؟

فوقف جبل مواجهاً الناظر في شجاعة ، وهو يدرك تماماً انه يفتتح
باباً ستهبّ منه العواصف جامحة ، ولكنه كان يستمد من مقابلة الحلاء

شجاعة لا تتزعزع . قال :

— جئت مطالباً بحقوق آل حمدان في الوقف وفي الحياة الآمنة !
اسود وجه الافندي من الغضب على حين فغرت الهائم لها من اليأس ،
وقال الرجل وهو يحذجه بنظرة محرقة :

— اتجرؤ حقاً على معاودة هذا الحديث ؟ أنسيت ان المصائب تتابعت
عليكم منذ جرؤ شيخكم المخرف على التقدم بهذه المطالب الخرافية ؟ !
أقسم على انك جننت ، ولست مطالباً بتضييع وقتي مع المجانين .
وقالت هدى بصوت باك :

— جبل ، كان في نيتي ان ادعوك انت وزوجك للاقامة معنا .
لكن جبل قال بصوت قوي :
— انما رددت على مسامعك رغبة من لا تُردُّ له رغبة وهو جدك
وجدنا الجبلاوي !

نظر الافندي الى جبل بامعان وتفكرس وذهول . نهضت هدى جزعة
وضعت كفها على منكب جبل وهي تتساءل :

— جبل ، ماذا دهاك ؟ !

فقال جبل باسمّاً :

— بخير يا سيدتي .

فقال الافندي في ذهول :

— بخير ! انت بخير ؟ ماذا حصل لعقلك ؟

فقال جبل بهدوء وسكينة :

— اسمع قصتي واحكم بنفسك .

وقصّ عليها ما سبق ان قصه على آل حمدان . ولما فرغ من قصته
قال الافندي وكان يتفكرس وجهه طوال الوقت بريبة :
— الواقف لم يغادر بيته قط منذ اعتزل ..
فقال جبل :

-- لكفي قابله في الخلاء .
 فسأله متعكساً :
 -- ولماذا لم يطلعني أنا على رغبته ؟
 فقال جبل :
 -- هذا سرّه وهو به أعلم .
 فضحك الافندي ضحكة حائقة وقال :
 -- إنك حاور بحق وجدارة ، ولكنك لا تقنع بالاعيب الحواة وانما
 تطمع في اللعب بالوقف كله !
 فقال جبل دون ان يزايله هذوؤه :
 -- علم الله اني ما جاوزت الحق ، فلنحتكم الى الجبل اوي نفسه ان
 استطعت ، او الى شروطه العشرة ..
 فانفجر غضب الافندي . اربد وجهه وارتعشت أطرافه وصاح :
 -- ايها اللص المحتال ! لن تنجو من مصيرك الأسود ولو اعتصمت
 بقمة الجبل ..
 وهتفت هدى :
 -- يا للشقاء ! ما كنت أتوقع ان تجيئي بهذه التعاسة كلها يا جبل .
 فتساءل جبل في عجب :
 -- احدث هذا كله لا لشيء الا لأنني طالبت بحق آلي المشروع ؟!
 فصرخ الافندي بأعلى صوته :
 -- اخرس يا محتال ، يا حشاش ، يا حارة حشاشين يا أولاد
 الكلب ، اخرج من بيتي ، وان عدت الى هذيانك قضيت على نفسك
 وعلى اهلك بالذبح كالنعايج .
 فقطب جبل غاضباً وصاح :
 -- احذر ان يحق بك غضب الجبل اوي .
 فهجم الافندي على جبل ولكمه في صدره العريض باقصى قوته

ولكن جبل تلقاها بثبات وصبر ، والتفت الى الهائم قائلاً :
— انما اكرمه اكراماً لك .
ثم ولى لهما ظهره وذهب .

٣٩

توقع آل حمدان شراً دائماً . وغالفت تمرحنة الاجماع فظنت انه ما دام جبل على رأس آل حمدان هذه المرة فلن تسمح الهائم بالقضاء عليه . لكن جبل نفسه لم يؤمن بظن تمرحنة واكد انه إذا هدّد الوقف طامع فلن يقام وزن لجبل ولا لأحد من الناس ولو كان اقربهم الى الافندي نفسه . وذكرهم جبل بوصية جدّهم بأن يكونوا أقوياء وأن يصمدوا للملمات . ومضى دعيس يقول ان جبل كان يرغل في النعيم ولانه بنبذه مختاراً اكراماً لهم فلا يصح ان يخذله أحد ، وإن التذرع بالقوة إذا لم ينفع فلن يدفع بهم الى أسوأ مما هم فيه بحال . والحق أن آل حمدان استشعروا الخوف وتوترت منهم الأعصاب ولكنهم وجدوا في اليأس قوة وعزيمة فكانوا يرددون المثل القائل « لطابق لاتنين عور » . رضوان الشاعر وحده راح يقول متحسراً : « لو شاء الواقف لأعلن كلمة العدل وقضى لنا بالحق ونجّانا من الهلاك المبين » . وقد غضب جبل لما بلغه قوله ، فقصده عابساً هائجاً ثم هزّه من منكبيه حتى كاد يقتلعه من مجلسه وصاح به : « أهذا هو حال الشعراء يا رضوان ؟ ! تروون حكايات الأبطال وتغنون على الرباب فإذا جد الجلد تقهقرتم الى الجحور واشعتم التردد والهزيمة ، الا لعنة الله على الجبناء » والتفت الى الجالسين قائلاً : « لم يكرم الجبلاوي حياً من أحياء هذه الحارة كما أكرمكم ، ولو لم يكن يعتبركم أسرته الخاصة مالاقاني ولا كلمتي ،

ولكنه نور السبيل ووعده بالتأييد ، ووالله لأكافحن ولو كنت وحدي » . لكن بدا أنه لم يكن وحده . أيده كل رجل ، وأيده كل امرأة ، وانتظروا جميعاً المحنة وكأنهم لا يباليون بالعواقب . واحتل جبل مكان الزعامة في حيه بطريقة عفوية أملتتها الأحداث دون قصد منه أو تدبير ، ودون ممانعة من حمدان الذي ارتاح الى تخليه عن موضع سيصير هدفاً لهجوم لن يعرف مداه . ولم يقع جبل في الربيع فخرج - مخالفاً نصيحة حمدان - ليتجول كمادته . كان يتوقع شراً عند كل خطوة ولكن أحداً من الفتوات لم يتعرض له بسوء ، فعجب لذلك غاية العجب ، ولم يجد له من تفسير الا ان يكون الافندي قد كتم أنباء المقاتلة على أمل ان يسكت هو أيضاً عن مطالبه فينتهي الأمر وكأنه ما كان . وأشفق من ان ينتهي الأمر وكأنه ما كان . ورأى وراء هذه السياسة وجه المهائم المحزون وأمومتها الصادقة . وخاف ان يثبت حنانها انه أقسى عليه من غلظة زوجها ففكر طويلاً فيما ينبغي ان يفعل لينفض الرماد عن الجمر . وجرت في الحارة أحداث غريبة . فذات يوم ترامت استغاثة امرأة من بدروم ، وتبين ان ثعباناً زحف بين قدميهما فخرجت تجري الى الطريق . وتطوع رجال للتفتيش عن الثعبان فدخلوا مسكنها بعصيتهم ، وفشوا عن الثعبان حتى عثروا عليه ، فأنهالوا عليه ضرباً حتى قتلوه ، وطرحوه على أرض الحارة فتلقفه الغلمان وراحوا يلعبون به مهلين . ولم يكن الحادث بالغريب في الحارة ولكن لم تكده تمضي ساعة حتى ارتفعت صرخة استغاثة ثانية من بيت في مطلع الحارة فيما يلي الجمالية . وما جثم الليل حتى تعالت ضجة في ربوع حمدان ، اذ رأى البعض ثعباناً ولكنه اختفى قبل ان يلحق به أحد ، وضاعت جهود القوم للعثور عليه ، وعند ذاك تطوع جبل نفسه لاستخراجه مستعيناً بالخبرة التي اكتسبها عند البلقيطي . وتحدث آل حمدان عن وقفة جبل عارياً في الحوش ، وعن لغته السرية التي خاطب بها الثعبان حتى جاءه طائعا . وكادت تُنسى تلك

الأحداث مع صباح اليوم التالي لولا ان تكرر وقوعها في بيوت أناس من ذوي الشأن . فقد ذاع وملاً الاسماع ان ثعباناً لدغ حمودة الفتوة وهو يقطع دهليز الربيع الذي يقيم فيه ، فصرخ الرجل على رغبه حتى أدركه أصحابه وأسعفوه . هنا انقلب الحادث أحدىة . وقال الناس في الثعابين وأعادوا . غير ان نشاط الثعابين العجيب لم يتوقف . فقد رأى بعض الصحاب في غرزة الفتوة بركات ثعباناً بين عمد السقف ، لاح نصف دقيقة ثم اختفى ، فهبوا مذعورين وتقوض المجلس . وغطت اخبار الثعابين على حكايات الشعراء في المقاهي . وبدا ان نشاطها قد جاوز حدود الأدب اذ ظهر ثعبان ضخم في بيت حضرة الناظر . ومع ان خدم البيت الكثيرين انتشروا في اركانه للتفتيش عن الثعبان المختفي الا انهم لم يقفوا له على أثر . وركب الخوف الناظر والهائم حتى فكرت جدياً في مغادرة البيت الى ان تطمئن الى خلوة من الثعابين . وبينما البيت مقلوب رأساً على عقب ترامى من بيت زقلط فتوة الحارة صراخ وضجة ، وذهب البواب ليستطلع الخبر ثم عاد ليخبر سيده بأن ثعباناً لدغ أحد أبناء زقلط ثم اختفى . وتملك الخوف النفوس . وتتابعت الاستغااثات من الثعابين من كل ربع فصممت الهائم على مغادرة الحارة . وقال عم حسين البواب إن جبل حاور وللحواة خبرة باصطياد الثعابين ، واكد انه استخرج ثعباناً من أحد ربوع حمدان . وامتقع لون الافندي ولم ينبس ، أما الهائم فأمرت البواب بأن يستدعي جبل . ونظر البواب الى سيده مستأذناً ، فغمغم الافندي بكلمات حانقة دون أن يبين . وخبرته الهائم بين دعوة جبل وبين مغادرة البيت فاذن للرجل بالذهاب وهو ينتفض حقاً وغضباً . وتجمع كثيرون فيما بين بيتي الناظر والفتوة ، وتوافد ذوو الشأن على بيت الناظر وفي مقدمتهم الفتوات : زقلط وحمودة وبركات والليثي وابو سريع . ولم يكن للمجتمعين من حديث الا الثعابين ، فقال ابو سريع :

— لا بد أن شيئاً في الجبل دفع بالثعابين الى بيوتنا .

فصاح زقلط وقد بدا وكأنه يقاتل نفسه لأنه لا يجد من يقاّله :
- طول عمرنا جيران للجبل وما حصل منه شيء .
كان زقلط ثائراً لما أصاب ابنه ، وكان حمودة ما يزال يعرج من
إصابة ساقه ، على حين تملك الخوف الجميع فقالوا إن بيوتهم لم تعد
صالحة للمبيت ، وإن السكان تجمهروا في الحارة .
وجاء جبل حاملاً جرابه ، فحيا الجميع ، ووقف أمام الناظر والهائم
في أدب وثقة .

ولم يستطع الناظر أن ينظر إليه ، أما الهائم فقالت له :
- قيل لنا يا جبل إنك تستطيع استخراج الثعابين من بيوتنا ؟
فقال جبل بهدوء :

- تعلمت ذلك فيما تعلمت يا صاحبة الفضل
- دعوتك لتطهر البيت من الثعابين .

فنظر جبل الى الافندي متسائلاً :

- هل يأذن لي حضرة الناظر ؟

فغمغم الناظر وهو يداري حنقه وقهره :
- نعم .

وهنا تقدم الليثي بإيحاء خفي من زقلط وسأله :
- وبيوتنا وبيوت الآخرين ؟

فقال جبل :

-- إن خبرتي تحت أمر الجميع .

وارتفعت أصوات بالشكر ، فأجال جبل عينيه الكبيرتين في الوجوه
ملياً ثم قال :

- ولعلي في غير حاجة الى تذكيركم بأن لكل شيء ثمنه كما تجري
المعاملات في حارتنا !

فتطلع اليه الفتوات في دهشة فقال :

- علام تدهشون ؟ انكم تحمون الأحياء نظير الاناثوات ، وحضرة
الناظر يدير الوقف نظير التصرف في ريعه !

والظاهر ان حرج الموقف لم يسمح للأعين بالافصاح عما في الصدور ،
غير ان زقلط سأله :

- ماذا تطلب نظير عملك ؟
فقال بهدوء :

- لن أطلب نقوداً ، ولكني أطلب كلمة شرف باحترام آل حمدان
في كرامتهم وحقهم في الوقف .

وساد الصمت فبدا ان الجو يتنفس بالحقد المكتوم . وتضاعف قلق
الهائم على حين أخفى الناظر عينيه في الأرض . وعاد جبل يقول :

- لا تظنوا انني اتحداكم بما يمليه عليكم الحق والعدل نحو اخوانكم
المغلوبين على أمرهم ، ان الخوف الذي أخرجكم من دياركم ما هو الا
جرعة مما يتجرع اخوانكم كل يوم من أيام حياتهم التعيسة .

التمعت في الأعين نظرات غضب سريعة كالبرق في السحاب ومرعان
ما اختفت تحت غيم الكظم . غير ان ابو سريع صاح :

- استطيع ان آتيكم بأحد الرفاعية ولو نبئت خارج بيوتنا يومين أو
ثلاثة أيام حتى يحضر من قريته .

فتساءلت الهائم :

- كيف لحارة باكملها أن تبئت خارج بيوتها يومين أو ثلاثة ؟
وكان الافندي يفكر بكل قواه مغالباً ما استطاع عواطف الغضب
والحقد التي تستعر في صدره ، واذا به يقول مخاطباً جبل :

- اني معطيك كلمة الشرف التي تطلب فابدأ عملك .

وذهل الفتوات غير ان الموقف لم يسمح لهم باعلان ما في نفوسهم ،
ورن على صدورهم همّ قاتل . أما جبل فأمر الجميع بالابتعاد الى اقصى
المدى فمخلاً له المكان والبيت . ونجرد من ثيابهم فانقلب كيوم التفتة ،

الهائم من الحفرة المترعة بمياه الأمطار . ومضى ينتقل من مكان الى مكان ،
ومن حجرة الى حجرة ، وهو يصفر صغيراً خافتاً تارة او يغمغم بكلام
غير مبين ، واقترب زقلط من الناظر وقال له :

— انه هو الذي بعث بالثعابين الى بيوتنا .

فاشار الناظر اليه بالسكوت وتمتم :

— دعه يخرج ثعابينه .

وأذعن لجبل ثعبان كان مختفياً في المنور ، وأخرج آخر من حجرة
ادارة الوقف ، فلف الثعابين على ذراعه ، وظهر بهما امام السلامك
حيث اودعها جرابه . وارتنى ملابسه ووقف ينتظر حتى جاء الجميع ،
فقال موجهاً خطابه لهم :

— هلموا الى بيوتكم لأطهرها .

والتفت نحو الهائم وقال بصوت خافت :

— لولا تعاسة أهلي ما اشترطت في خدمتك شرطاً قط .

واقترب من الناظر ورفع يده بحجة وقال بشجاعة :

— وعد الحر دين عليه .

ومضى خارجاً والجمع يسير وراءه صامتاً .

٤٠

وفق جبل في تطهير الحارة من الثعابين على مرأى من جميع أهلها .
وكان كلما أذعن له ثعبان تعالى الهتاف والزغاريد حتى باتت حديث الحارة
من البيت الكبير الى الجبلية . ولما فرغ من عمله ومضى الى ربه تجمع
حوله الغلمان والشبان وراحوا يتغنون مصنفين :

جبل يا نصير المساكين

جبل يا ماهر الثعابين

وتواصل الغناء والتصفيق حتى بعد ذهابه، غير انه كان نذالك رد فعل شديد في انفس الفتوات ، فما لبث ان خرج للمتظاهرين حمودة والليثي وابو سريع وبركات ، فانهاوا عليهم لعناً وسباً وضحاً وركلاً حتى تفرقوا لائذين بالبيوت ، فلم يبق في الطريق الا الكلاب والقطط والذباب . وتساءل الناس عن سر هذه الحملة ، كيف يجزي الفتوات صنيع جبل بالاعتداء على المتظاهرين من اجله ، وهل يحافظ الأفندي على وعده لجبل او تكون حملة الفتوات بداية لحملة انتقام عاتية ؟ ودارت هذه الأسئلة برأس جبل فدعا رجال حمدان الى الربع الذي يقيم فيه ليتدبروا الأمر معاً . وكان زقاط مجتمعا في ذات الوقت بالناظر وحرمه ، وكان يقول باصرار والحق يلتهمه :

— لن نبقى منهم على احد .

وبدا الارتياح في وجه الأفندي ، غير ان الهانم تساءلت :

— وكلمة الشرف التي اعطاها الناظر ؟

فعبس زقظ حتى انقلب وجهه اقبح من اي وجه آدمي وقال :

— الناس يخضعون للقوة لا للشرف .

فقالت بامتعاض :

— سيقولون فينا ويعيدون .

— فليقولوا ما حلا لهم ، متى سكتوا عنكم او عنا ؟ ان الغرز

تضج كل ليلة بالقفش والتنكيت علينا ، ولكن اذا خرجنا الى الطريق

وقفوا خاشعين ، وهم يخشعون خوفاً من الثبوت لا اعجاباً بالشرف .

وحدها الأفندي بنظرة ممتعة وقال :

— جبل هو الذي دبّر مؤامرة الثعابين ليملي علينا شروطه ، كل

احد يعرف ذلك . فنذا الذي يطالب باحترام كلمة أعطيت لمحتال

نصاب نخاتل ؟

وقال زقاط مخدراً ووجهه ما زال متشبهاً بقبحه :

— تذكرى يا هانم انه اذا نجح جبل في استخلاص حق آل حمدان
في الوقف فلن يهدأ بال احد في الحارة حتى ينال حقه ايضاً ، بذلك
يضيع الوقف ونضيع جميعاً .

وقبض الافندي على المسبحة في يده بشدة حتى طقطقت حباتها
وهتف بزقلط :

— لا تبق على احد منهم .

ودُعي الفتوات الى بيت زقلط ثم لحق بهم اعوانهم المقربون . وذاع
في الحارة ان امرأ خطيراً يدبر لآل حمدان ، فامتلات النوافذ بالنساء
وازدحم الطريق بالرجال . وكان جبل قد أعد خطته ، فاحتشد رجال
حمدان في حوش الربع الأوسط مدججين بالنبايت ومقاطف الطوب
على حين توزعت النساء في الحجرات وفوق السطح . وكان لكل احد
منهم عمله المرسوم ، غير ان اى خطأ في التنفيذ او انقلاب في التدبير لم
يكن يعني الا هلاكهم الى الأبد . لذلك اتخذوا اماكنهم حول جبل
وهم في غاية من التوتر والجزع . ولم تغب حالهم عن فطنة جبل فضى
بذكرهم بتأييد الواقف له ووعدده للاقوياء بالنجاح ، فوجد منهم قلوباً
مصدقة ، بعضها عن ايمان ، والبعض عن يأس . ومال الشاعر رضوان
على اذن المعلم حمدان وقال له :

— اخاف الا تنجح خطتنا ، والأوفى عندي ان نحكم اغلاق البوابة
ونضرب من السطح والنوافذ !

فهر حمدان منكبيه امتعاضاً وقال :

— اذن نقضي على انفسنا بالحصار حتى نهلك جوعاً !

وقصد حمدان جبل وسأله :

— أليس الأفضل ان نترك البوابة مفتوحة ؟

فقال جبل :

— دعها كما هي والا شكوا في الأمر .

وكأنت ريح باردة تهب بشدة باعثة عواء ، وركضت السحب في السماء كأنها مطاردة ، فساءلوا هل ينهل المطر ؟ وترامت ضجة المتجمهرين في الخارج حتى ابتلعت مواء القطط ونباح الكلاب . وهتفت تمرحنة محدرة : « جاء الشياطين ! » .

وحقاً غادر زقلط بيته وسط هالة من الفتوات ، يتبعهم الأعوان ، ومقابضهم على نبايتهم . ساروا على مهل حتى البيت الكبير ، ثم عرجوا نحو حيّ حمدان فقابلهم المتجمهرون بالتهليل والتهافت . وكان المهللون الهاتفون احزاباً . منهم قلة تبتهج للعراك وتسلى بمشاهدة الدم المسفوك . ومنهم من يحقد على آل حمدان لادلهم بمكانة لم يعترف لهم بها احد . واكثرهم حسانق على الفتونة والبغي فهو يبطن الكراهية ويظهر التأييد خوفاً ونفاقاً . ولم يُلْقَ زقلط الى احد منهم بالاً ، ومضى في مسيره حتى وقف امام ربيع حمدان ، وصاح :

— ان كان فيكم رجل فليخرج اليّ !

فجاءه صوت تمرحنة من وراء النافذة :

— اعطنا كلمة شرف جديدة حتى لا يقدر بالخارج غادر !

فغضب زقلط لتعريضها بكلمة الشرف وصاح :

— اليس عندكم من يجيب غير هذه الزانية ؟

فصاحت تمرحنة :

— الله يرحم امك يا زقلط !

وصرخ زقلط آمراً رجاله بالهجوم على البوابة . هجم على البوابة رجال ، ورمى آخرون النوافذ بالطلوب حتى لا يجرؤ احد على فتحها واستعمالها في الدفاع . وتكتل الهاجمون على البوابة وراحوا يدفعونها بمناكبهم بقوة وعزيمة . وواصلوا الدفع بشدة حتى اخذ الباب في الاهتزاز . واشتدت عزيمتهم حتى ارتج الباب وتخلخل . وتراجعوا متحفزين ثم اندفعوا نحوه بقوة وصكوه صكوة واحدة فانفتح على مصراعيه . وتراءى

من خلال الدهليز الطويل الممتد وراء باب الحوش وجبل ورجال حمدان وقد رفع الجميع نبايتهم . ولوح زقلط بيده في حركة فاضحة واطلق ضحكة هازئة ، ثم اندفع الى الدهليز ورجاله خلفه . وما كادوا يتوسطون الدهليز حتى مادت ارضه بهم بغتة وهوت بمن عليها الى قاع حفرة عميقة . وفي سرعة مذهلة فتحت نوافذ الدور على جانبي الدهليز وانصببت المياه من الاكواز والحلل والطشوت والقيرب ، وتقدم رجال حمدان دون تردد ورموا الحفرة بمقاطف الطوب ، ولأول مرة سمعت الحارة الصراخ يصدر عن فتواتها ، ورأت الدم يتفجر من رأس زقلط والنبايت تتخطف رعوس حمودة وبركات والليثي وابو سريع وهم يتخبطون في المياه المظينة . ورأى الاعوان ما حل بفتواتهم فلاذوا بالفرار ، وترك الفتوات لمصيرهم دون معين . واشتد انصباب الماء ، والاحجار ، وتهاوت النبايت بلا رحمة . وترامت الى الناس استغاثات نددت عن حناجر لم تألف طوال حياتها الا السب والقذف . وكان رضوان الشاعر يهتف بأعلى صوته :
- لا تبقوا منهم على احد .

واختلطت المياه المظينة بالدم ، وكان حمودة اول الهالكين ، وعلا صراخ الليثي وابو سريع ، وتشبثت يدا زقلط بجدار الحفرة يريد ان يشب وقد تجلى الحقد في عينيه ، وراح يغالب الاعياء والخور ، ويزفر انات كالحوار ، فانهالت عليه النبايت حتى تهاوى الى الوراء وتراخت يداه عن الجدار فسقط في الماء وفي كل راحة من راحتيه قبضة من طين ! وساد الصمت الحفرة . لم تندّ عنها حركة ولا صوت واصطبغ سطحها بالطين والدم . ووقف رجال حمدان ينظرون وهم يلهثون . وتراحم عند مدخل الدهليز المتجمهرون وهم يرددون في الحفرة نظرات ذهلة . وصاح رضوان الشاعر :

- هذه عاقبة الظالمين .

وجرى الخبر في الحارة كالنار . وقال المتجمهرون ان جبل قد أهلك

الفتوات كما أهلك الثعابين ! وهتف له الجميع بأصوات كالرعد .
ولفحهم الحماس فلم يبالوا بالريح الباردة . ونادوا به فتوة لحارة الجبلأوي .
وطالبوا بجث الفتوات ليمثلوا بها . وصفقت الأيدي وراح قوم يرقصون .
ولم ينـ جبل عن التفكير لحظة . وكان كل شيء مدبراً في رأسه .
فصاح بأهله :
- هلموا الساعة الى بيت الناظر .

٤١

في الدقائق التي سبقت خروج جبل وأهله من الزرع تفجرت الأنفـس
عن براكين حامية .
غادرت النسوة البيوت منضبات الى الرجال . وهاجم الجميع بيوت
الفتوات فاعتدت الأيدي والأرجل على أهاليهم حتى فروا بأرواحهم وهم
يتحسسون أفضيتهم وخذودهم مصعدين التأوهات سافحين الدموع . أما
البيوت فقد نهب كل ما فيها من أثاث وطعام ولباس وحطم كل قابل
للتحطيم من أخشابها وزجاجها حتى انقلبت خرابا يبابا . وانطلقت الجموع
الغاضبة نحو بيت الناظر فتكتلت أمام بوابته المغلقة وراحت تهتف وراء
مناد منها بأصوات كالرعود :

هاتوا الناظر ..

وان ما جاش ..

ثم يحنمون الهتاف بالتهليل الساخر المازيء . وانجه البعض الى البيت
الكبير منادين جدهم الجبلأوي أن يخرج من عزلته ليعالج ما فسد من
امورهم وامور حارثهم . وراح آخرون يدقون بوابة الناظر بأكفهم
ويدفعونها بمناكبهم محرضين المترددين المهييين على اقتحامها . وفي تلك

اللحظة المخرجة جاء جبل على رأس أهله نساء ورجالا ، يسرون في قوة وعزم بما أحرزوا من فوز مبین . واوسعت الجموع لهم ، وتعالى الهتاف والزغاريد حتى أشار جبل لهم بالسكوت فأخذت أصواتهم تخفت رويداً رويداً حتى ساد الصمت ، وعاد عواء الريح يصك الأذان مرة أخرى . ونظر جبل في الوجوه المتطلعة اليه وقال :

— يا أهل حارتنا ، أحييكم وأشكرکم .

فارتفعت الأصوات بالهتاف ثانية حتى رفع يده مطالباً بالسكوت ، ثم قال :

— لن يتم عملنا حتى تتفرقوا في هدوء .

فترامى اليه من حناجر شتى .

— نريد العدل يا سيد حارتنا .

فقال بصوت سمعه الجميع .

— اذهبوا في هدوء ولسوف تتحقق لإرادة الواقف .

وتعالى الهتاف للواقف ولابنه جبل . ووقف جبل بحث بنظراته الجموع على الذهاب . وكانوا يودون لو يبقون في أماكنهم ولكنهم لم يجدوا بداً امام نظراته من التفرق فأخذوا يذهبون واحداً في اثر واحد حتى خلا المكان منهم . عند ذاك مضى جبل الى باب الناظر وطرقه صائحاً :

— افتح يا عم حسين .

فجاءه صوت الرجل المرتعد وهو يقول :

— الناس .. الناس .

— لا أحد هنا غيرنا .

وفتح الباب فدخّل جبل ، ودخل وراءه أهله . واخترقوا الممر المعروش الى السلامك فرأوا الهائم واقفة امام باب البهو في استسلام ، على حين بدا الافندي على عتبة الباب ، خافض الرأس شاحب الوجه كأنه ملثم بكفن أبيض . وندّت عن الافواه لدى رؤيته دمدمة فقالت هنى

هائم متأوهة :
 - انسي بحال سيئة يا جبل .
 فأشار جبل نحو الافندي بازدياء وقال :
 - لو نجحت مكيدة هذا الرجل الفاقد الشرف لكنا الآن جميعنا
 جنباً ممزقة .
 فأجابت الهائم بتهدة مسموعة دون كلام : فحلج جبل الناظر بنظرة
 قاسية وقال :
 - ه أنت ترى نفسك ذليلاً بلا حول ولا قوة ، لا فتوة بحميك ،
 ولا شجاعة تؤيدك ، ولا مروءة تشفع لك ، ولو شئت أن اخلي بينك
 وبين أهل حارتنا لمزقوك إرباً ولداسوك بالاقدام .
 ارتعدت فرائص الرجل وبدا وكأنه تقوص وضؤل غير ان الهائم
 تقدمت من جبل خطوة وقالت برجاء :
 - لا أحب أن اسمع منك غير ما عهدت من طيب الكلام ، ونحن في
 حال عصبية تستحق من مروءتك الرحمة في المعاملة .
 فقطب جبل ليداري تأثره وقال :
 - لولا منزلتك عندي لجرت الأمور بغير ما جرت به .
 - لا اشك في ذلك يا جبل ، انك رجل لا يخيب عنده الرجاء .
 فقال جبل متأسفاً :
 - ما كان أيسر أن يقوم العدل دون إراقة نقطة من الدم ..
 فندت عن الافندي حركة غامضة فضحت تخاذله وازداد انكماشاً ،
 فقالت الهائم :
 - قد كان ما كان ، ولن تلقى منا الا آذاناً صاغية !
 وبدا ان الناظر يريد أن يخرج من صمته بأي . فمن فقال بصوت ضعيف :
 - ثمة فرصة لاصلاح ما سلف من أخطاء .
 أرهفت الآذان لسامع كلامه رغبة في الاطلاع على حال الجبار اذا

تخلى عنه جبروته وكانوا يرمقونه بتشفيّ قابل وانكار وحب استطلاع
 لا حد لها . وتشجع الافندي بتغلبه على الصمت فقال :
 - تستطيع اليوم أن تحتل مكانة زقلف عن جدارة .
 فتجهم وجه جبل وقال بازدراء :
 - ليست الفتونة مطلبي ، فابحث لحمايتك عن غيري ، وما أريد الا
 حقوق آل حمدان كاملة .
 - هي لكم دون نقصان ، ولك ادارة الوقف إن شئت .
 فقالت هدى برجاء :
 - كما كنت يا جبل من قبل .
 وهنا صاح دعيس من بين آل حمدان :
 - ولم لا يكون الوقف كله لنا ؟
 وسرت هممة في آل حمدان حتى اصفر وجه الناظر ، وزوجه حتى
 الموت ، غير ان جبل قال بقوة غاضبة :
 - أمرني الواقف باسترداد حقكم لا باغتصاب حقوق الآخرين .
 فساءل دعيس :
 - ومن أدراك أن الآخرين سيأخذون حقوقهم ؟
 فصاح به جبل :
 - لا شأن لي بذلك وانك لا تكره الظلم الا إن وقع عليك ا
 فقالت الهائم بتأثر :
 - نعم الرجل الأمين أنت يا جبل ا ولشد ما ارجو ان تعود
 الى بيتي .
 فقال جبل بتصميم :
 - سأقيم في ربوع حمدان .
 - انها لا تليق بمقامك .
 - عندما يجري الخير بين أيدينا سنرفعها الى مقام البيت الكبير .

وتلك رغبة جدنا الجبلأوي !
ورفع الناظر عينيه في شيء من التردد الى وجه جبل وقال :
- ان ما بدر اليوم من أهل الحارة يهدد أمتنا ؟
فقال جبل باحتقار :
- لا شأن لي بما بينك وبينهم .
وإذا بدعيس يقول :
- وإذا احترمت عهدنا فلن يجرؤ أحد منهم على تحديك !
فقال الناظر بحماس :
- سيسجل حثكم على رءوس الشهداء !
وهنا قالت هدى برجاء :
- ستتناول عشاءك معي الليلة ، هذه رغبة أم !
وفطن جبل الى ما ترمي اليه من اعلان المودة بينه وبين بيت الناظر ،
ولم يكن في وسعه ان ينبذ رغبتهما ، فقال :
- لك ما تشائين يا سيدتي .

٤٢

وابيضت الأيام التالية بأفراح آل حمدان أو آل جبل كما باتوا
يدعون . فتحت قهوتهم ابوابها وتربع رضوان الشاعر على الاركة يلعب
باوتار الرباب . وجرت البوطة انهاراً وانعقدت في سماء الحجرات سحب
الحشيش . ورقصت تمرحنة حتى انحل وسطها . ولم يبالوا بأن يكشفوا
عن قاتل قدره ، وصور لقاء الجبلأوي بجبل في هالات من نور الخيال .
وكانت تلك الأيام بالنسبة لجبل وشفيفة أطيب الأيام . وقد قال لها :
- ما اجمل ان ندعو البلقيطي للقامة معنا .

فقال وهي تعاني متاعب المخاض الوشيك .

— نعم كي يستقبل حفيده ببركته .

فقال الرجل مبتناً :

— أنت قدم السعد يا شفيقة ، وستجد سيده زوجاً كفؤاً من آل

حمدان .

— قل آل جبل كما يقولون فانك خير من عرف هذا الحي .

فقال باسمًا :

— بل أدهم خيرنا جميعاً ، كم تمنى حياة النعيم حيث لا عمل للانسان

الا الغناء ، وسوف يتحقق لنا حلمه الكبير .

وتراءى دعبس وهو سكران يرقص في جمع من آل جبل ، فلما رأى

جبل مقبلاً لوح بنبوته جذلاً وقال له :

— انك لا تبغي الفتوة ، سأكون أنا الفتوة .

فصاح به لسمع الجميع :

— لا فتوة في حمدان ، ولكن ينبغي ان يكونوا فتوات جميعاً على

من بطمع فيهم .

ومضى الرجل الى القهوة فتبعه الجميع وهم يترنحون من السكر .

وكان جبل سعيداً فقال لهم :

— انكم . أحب أهل الحارة الى جدكم ، فأنتم سادة الحارة دون منازع ،

ولذلك ينبغي أن يسود بينكم الحب والعدل والاحترام ، ولن ترتكب

جريمة في حيكم أبداً ..

وتراعى الطبل والغناء من بيوت حمدان ، وأشرقت انوار الافراح

في جيهم ، على حين غرقت الحارة في ظلمتها المألوفة ، وتجمع صغارها

عند مشارف حي حمدان يتفرجون من بعيد . وإذا برجال من أهل الحارة

يغدون على القهوة بوجوههم الكالحة . استقبلوا بالمجاملة ودعوا الى

الجلوس وقدم لهم الشاي . وحدث جبل انهم لم يجيئوا الخالص التهنئة .

وصدق حدسه اذ قال له زناتي وكان اكبرهم سنّاً :
- يا جبل ، اننا أبناء حارة واحدة ، وجدّ واحد ، وأنت اليوم
سيد الحارة ورجلها الأقوى ، وأن يسود العدل الاحياء جميعاً خير من
ان يسود حيّ حمدان وحده .

لم يتكلم جبل ، وبدا الفتور في وجه آل جبسل . ولكن الرجل
قال بعزم :

- بيدك أن تجري العدل في الحارة كلها .
لم يهتم جبل بأهل الحارة من أول الأمر ، ولم يكن يهتم بهم أحد
من آل . بل أنهم شعروا بالاستعلاء عليهم حتى في أيام محنتهم . وقال
جبل برقة :

- وصاني جدّي بأهلي .

- ولكنه جد الجميع يا جبل .

فقال حمدان :

- في هذا الكلام موضع للنظر .

وتفرس في الوجوه ليتابع أثر قوله فرأى انقباضها يشند فاستطرد :

- أما علاقتنا به فقد أكدها بنفسه في لقاء الخلاء !

وبدا زناتي لحظة وكأنه يود ان يقول : « في هذا الكلام موضع

للنظر » ولكن غلبه الانكسار فقال مسائلاً جبل :

- أيرضيك ما نحن فيه من فقر وذل ؟

فقال جبل دون حماس :

- كلا ولكن لا شأن لنا بذلك .

فتساءل الرجل في إصرار :

- وكيف لا يكون لكم شأن بذلك ؟

وسأل جبل نفسه بأي حق يكلمه ذلك الرجل على هذا النحو ؟

لكنه لم يغضب . وجد بنفسه جانباً يكاد ان يعطف على الرجل . غير

ان جانباً آخر منه استنكر ان يخوض متاعب جديدة من أجل الآخرين .
ومن هم هؤلاء الآخرون ؟ وجاء الجواب على لسان دعبس حين
صاح بالرجل :

— أنسيتم ما كنتم تعاملونا به يوم محنتنا ؟

فغض الرجل من بصره ملياً ثم قال :

— منذ الذي كان يستطيع ان يجهر برأي أو يعلن عاطفة في أيام
الفتوات ؟ وهل كان الفتوات يعفون عن أحد يعامل الناس بغير ما
يرتضون ؟

فزم دعبس شفتيه في استعلاء وانكار وقال :

— كنتم وما زلتم تحسدوننا على مكانتنا في الحارة ، ولعلكم سبقتم
الفتوات الى ذلك !

فأخى زناتي رأسه في قنوط وقال :

— سامحك الله يا دعبس !

فصاح دعبس دون رحمة :

— اشكروا رجلنا لأنه لم يقبل ان يوجه لكم يد الانتقام !

وتوزعت الأفكار المتضاربة جبل فلاذ بالصمت . أشفق من أن يمد
يد العون . ولم يرتح إلى الجهر بالرفض . ووجد الرجال أنفسهم حيال
ثأنيب قازع من دعبس ، ونظرات باردة تعكسها أعين الآخرين ،
وصمت لا أمل فيه عند جبل ، فنهضوا خائبين ، وذهبوا من حيث
أتوا . وصبر دعبس حتى اختفوا ثم حرك قبضة يمينه في بذاءة وهتف :
— إلى حيث القت يا أولاد الخنازير .

فصاح جبل :

— الشئمة ليست من شيم السادة !

كان يوماً مشهوداً يوم تسلم جبل حصّة آله من الوقف . واتخذ في حوش الربع - ربع النصر - مجلسه ودعا اليه آل حمدان . وأحصى ما في كل أسرة من أنفس ووزع الأموال بالتساوي فيما بينهم ، وحتى شخصه لم يخصه بامتياز . ولعل حمدان لم يرتح الى هذه العدالة كل الارتياح ولكنه عبر عن مشاعره بطريقة غير مباشرة فعاطب جبل قائلاً :

- ليس العدل ان تظلم نفسك يا جبل !

فقطب جبل قائلاً :

- أخذت نصيب اثنين ، أنا وشفقة .

- ولكنك رئيس هذا الحي .

فقال جبل بصوت سمعه الجميع :

- ما ينبغي لرئيس القوم ان يسرقهم .

وبدا دعبس وهو ينتظر المحاورّة في قلق ، ثم قال :

- جبل غير حمدان ، وحمدان غير دعبس ، ودعبس غير كعبلها !

فقال جبل معارضاً في غضب :

- تريد ان تجعل من الأسرة الواحدة سادة وخداماً !

ولكن دعبس تشبّث برأيه وقال :

- فينسا صاحب القهوة والبائع الجوال والمتشول فكيف نسوي بين هؤلاء ! وأنا كنت أول من خرج على الحصار حتى تعرضت لمطاردة

قدره ، وأول من لاقاك في غربتك ، وأول من تجمس لرأيك بعد ذلك

ذلك القوم مترددون !

؛ اشتد الغضب بجبل فصاح به :

- مادح نصه كذاب ، والله ان أمثالك يستحقون الظلم الذي حاق بهم .

وأراد دعبس مواصلة الجدل ولكنه تبين في عيني جبل غضباً من نار فراجع ، وغادر المجلس دون ان ينبس . وقصد عند المساء غرزة عتريس الأعمش ، وجلس في حلقة الجالسين يدخن مجترأ همومه . وأراد أن يتسلى فدعا كعبها الى المقامرة ، فلعبا السبعة ، ولم تكذ تمضي نصف ساعة حتى خسر نصيبه من ريع الوقف ! وضحك عتريس وهو يغير ماء الجوزة وقال :

- يا سوء بختك يا دعبس ! الفقر مكتوب عليك ولو رغم ارادة
الواقف !

فغمغم دعبس بحقد وقد طير الخسران السطّار من مخه :

- ليس بهذه السهولة تضييع الثروات !

فأخذ عتريس نفساً من الجيزة ليضبط كمية المياه بها ثم قال :

- لكنها ضاعت يا ابن والدي !

كان كعبها يسوّي الاوراق المالية بعناية ، ثم رفع يده بها ليدسها في صدره ، لكن دعبس منعه بيده وأشار بالأخرى اشارة خاصة ان
يرد النقود ! وقطب كعبها وقال :

- لم تعد نقودك ولا حق لك عليها !

فصاح دعبس :

- دع النقود يا ابن الزبالة !

ونظر عتريس نحوهما بقلق وقال :

- لا تتشاجرا في بيتي .

فصاح دعبس وهو يشد على يد كعبها :

- ان يسرقني ابن الزانية !

- أترك يدي يا دعبس ، أنا لم أسرقك .

- يعني ربحتها في تجارة ؟

- لماذا قامرت ؟

فلطمه بشدة وهو يقول :

- نقودي ، قبل ان اكسر عظامك .

ونتش كعبها يده فجأة فثار غضب دعبس لحد الجنون وضربه بسبابته في عينه اليمنى .

صرخ كعبها صرخة عالية ، وانتفض واقفاً ، ثم غطى عينيه بكفيه تاركاً الأوراق تنهال على حجر دعبس ، وترنح من الألم ، ثم سقط وراح يثلوى ويئن أنيناً موجعاً . والتفت حوله الجالسون ، على حين جمع دعبس النقود واعادها الى صدره . وإذا بعتريس يقرب منه قائلاً في هلع :

- صفيت عينه !

فارتاع دعبس ملياً ، ثم وقف فجأة وغادر المكان .

ووقف جبل في حوش النصر في جمع من رجال حمدان ، والغضب يتفجر من عينيه وشذقيه . وجلس كعبها القرفصاء وقد شد على عينه رباطاً محكمًا ، على حين وقف دعبس يتلقى ثورة جبل في صمت وخذلان . وأراد حمدان ان يهديء من ثورة جبل فقال بلين :

- سبرد دعبس النقود الى كعبها .

فصاح جبل بأعلى صوته :

- فليرد اليه بصره أولاً .

فبكى كعبها وقال الشاعر رضوان متأوهاً :

- ليت في الامكان رد البصر .

فقال جبل وقد اظلم وجهه كالسماء الراحدة البارقة :

- ولكن في الامكان ان تؤخذ عين بعين !

وحملق دعبس في وجهه جبل متوجساً ، واعطى النقود حمدان

وهو يقول :

- كانت فاقد التل من الغضب : وما قصدت ايذاءه .
- فتفرس جبل وجهه بحق طويلاً ، ثم قال بصوت رهيب :
- عين بعين والباديء أظلم .

تبودلت نظرات الحيرة . لم يُر جبل أغضب منه اليوم . وقد برهنت الاحداث على قوة غضبه . كغضبه يوم ركل بيت النعم . وكغضبه يوم قتل قدره . حقاً انه لشديد الغضب واذا غضب لم يردعه عن هدفه رادع . وهمّ حمدان بالكلام ولكنه بادره قائلاً :

- ان الواقف لم يؤثركم بحبه ليعتدي بعضكم على بعض ، فاما حياة تقوم على النظام وإما فوضى لن تبقي على أحد ، لذلك أصر على تصفية عينك يا دعبس .

وركب الرعب دعبس فصاح :

- لن تمسني يد ولو قاتلتكم جميعاً .

فانقض عليه جبل كالثور الهائج وضربه بجماح يده في وجهه ضربة هائلة سقط على أثرها دون حراك . واقامه وهو فاقد الوعي ، واحتضنه من الخلف شاداً ذراعيه حول جسمه ، والتفت نحو كعبها قائلاً بلهجة آمرة :

- قم فخذ حقتك .

وقام كعبها ولكنه وقف متردداً ، على حين تعالى الصراخ من مسكن دعبس . وحذج جبل كعبها بنظرة قاسية وصاح به :

- تقدم قبل ان ادفئك حياً .

وانجحه كعبها نحو دعبس ، وبسبابته ضرب عينه اليمنى حتى انفقت عينه على مرأى من الجميع . واشتد الصراخ من بيت دعبس ، وبكى

بعض اصدقاء دعبس مثل عتريس وعلي فوانيس ، فصاح بهم جبل :
- يا لكم من جبناء وأشرار ، والله ما كرهتم الفتونة الا لأنها
كانت عليكم ، وما ان يأنس احدكم في نفسه قوة حتى يبادر الى الظلم
والعدوان ، وما للشياطين المستترة في أعماقكم إلا الضرب بلا رحمة ولا
هوادة ، فاما النظام واما الهلاك .

وترك دعبس بين ايدي اصحابه وذهب . وكان لذلك الحادث في
النفوس أثر وأي أثر . كان جبل من قبل رئيساً محبوباً ، وكان يظنه
آله فتوة لا يريد ان يتخذ لنفسه اسم الفتونة أو شعارها ، فاصبح من
بعده مخوفاً مرهوباً . وتهامس أناس بقسوته وظلمه ولكن وجد هؤلاء
دائماً من يرد عليهم قولهم ويذكر بالوجه الآخر لقسوته ، وهو الرحمة
بالمعتدى عليهم ، والرغبة الصادقة في اقامة نظام يضمن العدل والنظام
والاخاء في آل حمدان . ووجد هذا الرأي الأخير كل يوم ما يسنده
في فعال الرجل وأقواله حتى آنس اليه من استوحش ، وآمن من
خاف ، ومال من جفا ، وحرص الجميع على النظام فلم يجاوز حدوده
حد . وسادت الاستقامة والأمان في أيامه ، قلبت بينهم رمزاً للعدالة
والنظام ، حتى غادر الدنيا دون ان يحيد عن مسلكه قيد أنملة .

✱ ✱ ✱

هذه قصة جبل .

كان أول من ثار على الظلم في حارتنا . وأول من حظي بلفظ
الواقف بعد اعتزاله . وقد بلغ من القوة درجة لم ينازعه فيها منازع .
ومع ذلك تعفف عن الفتونة والبلطجة والاثراء عن سبيل الاناوة وتجارة
المخدرات ، ولبث بين آل مثلاً للعدل والقوة والنظام . أجل لم يهتم

بالآخرين من ابناء حارتنا . ولعله كان يضمهم لهم احتقاراً وازدراء.
كسائر أهله . لكنه لم يعتد منهم على أحد ولا تعرض له بسوء ،
وضرب للجميع مثلاً جديراً بالاحتذاء .
ولولا ان آفة حارتنا النسيان ما انتكس بها مثال طيب .
لكن آفة حارتنا النسيان .

★ ★ ★

رفاعة

أوشك الفجر ان يطلع . وآوى إلى المضاجع كل حي في الحارة حتى
 الفتوات والكلاب والقطط . واستقر الظلام بالأركان كأنه لن يبرح
 أبداً . وفي رعاية الصمت الشامل فتح باب ربيع النصر بحي آل جبل في
 حذر شديد ، فتسلل منه شبهان ، سارا في سكون نحو البيت الكبير ،
 ثم تابعا سوره العالي الى الخلاء . نقلا خطواتهما في حذر ، وجعلا
 يتلفتان وراءهما من حين الى حين ليطمئنا الى ان أحداً لا يتبعهما ،
 وأوغلا في الخلاء مهتدين بنور النجوم المتناثرة ، حتى تبينا صخرة هند
 كقطعة من ظلام أشد كثافة مما حوله . كانا رجلا في اواسط العمر
 وامرأة شابة حبلى ، وكلاهما يحمل بقعة مكتظة . وعند الصخرة تنهدت
 المرأة وقالت باعياء :

— عم شافعي ، تعبت .

فتوقف الرجل عن المسير وهو يقول في غيظ :

— استريحى ، ربنا يتعب المتعب !

وضعت المرأة البقعة على الأرض وجلست عليها مفرجة ما بين
 فخليها لتريح بطنها المنداحة ، ووقف الرجل لحظة ينظر فيها حوله ،
 ثم جلس على بقعة أيضاً . وهبت عليها نسائم معبقة بأنفاس الفجر
 الرطبية ، لكن المرأة لم تغفل عما يشغلها فتساءلت :

— أين سألد يا ترى ؟

فقال شافعي ساخطاً :

— أي مكان يا عبدة خير من حارتنا اللعينة .

ورفع عينيه الى شبح الجبل الممتد من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب وقال :

— سنذهب الى سوق المقطم ، اليه قصد جبل أيام محنته ، وسأفتح دكان نجارة وأعمل كما كنت تعمل في الحارة ، لي يدان تدرّان الذهب ، ومعني نقود للبدء لا بأس بها .

فشدت المرأة خمارها حول رأسها ومنكبها وقالت بحزن :

— سنعيش في غربة كمن لا أهل له ، ونحن من آل جبل أسياذ الحارة !

فبصق الرجل متأففاً وقال محنتاً :

— أسياذ الحارة ! ما نحن إلا عبيد. أذلاء يا عبدة ، ذهب جبل وعهده الحلو ، وجاء زنفل أجحمه الله ، فتوتنا وهو علينا لانا ، يلثمهم أرزاقنا ويفتك بمن يشكو .

لم تنكر عبدة شيئاً من قوله . كأنها ما زالت تعيش في أيام المارة وليالي الأحزان ، لكنها حين ضمنت الابتعس عن مكاره الحارة حن قلبها الى ذكرياتها الطيبة فقالت متحسرة :

— لا توجد حارة كحارتنا لولا أشرارها ، أين تجد بيتاً كبيت جدنا ؟ او جيراناً كجيراننا ؟ أين تسمع حكايات أدهم وجبل وصخرة هند ؟ الا لعنة الله على الأشرار !

فقال الرجل بصوت مريـر :

— والنبايت تهوي لأنفه سبب ، وأصحاب الوجوه المستكبرة يختالون

بيننا كالقضاء والقدر !

وذكر زنفل اللعين وكيف أخذ بتلاييه ، وهزه بمنف حتى كاد

يقتلع ضلوعه ، ثم مرغه في التراب امام الخلق ، لا لشيء إلا لانسه
جعل مرة من الوقف حديثه ! وضرب الأرض بقدمه واستطرد قائلاً :
- المجرم الملعون خطف وليد سيدهم بباع لحمه الراس ، ثم لم
يسمع عن الوليد بعد ذلك أبداً ، لم تأخذه رحمة بطفل في شهره الأول ،
وتساءل ابن سألده ، ستلدين بين أناس لا يقتلون الاطفال .
فنهدت عبدة وقالت برقة كأنما لتخفف من مضمون حديثها :

- ليتك رضيت بما رضي به الآخرون !
فقطب غاضباً وراء قناع الظلمة وقال :
- ماذا جنيت يا عبدة ؟ لا شيء ، كنت اتساءل ابن جبل ،
وعهد جبل ، أين القوة العادلة ؟ ماذا أرجع آل جبل الى الفاقة والذل ؟
فحطم دكاني وضربني وكاد يفتك بي لولا الجيران ، ولو بقينا بيتنا
حتى تلدي لانقض على الوليد كما فعل بوليد سيدهم .
فهزت رأسها في حزن وقالت :

- آه لو صبرت يا معلم شافعي ! ألم تسمعهم يقولون إن الجبلاوي
لا بد ان يخرج يوماً من عزلته لينقذ أحفاده من الظلم والموان ؟
فنفخ المعلم شافعي طويلاً وقال يسخرية :

- هكذا يقولون ! ملأنا سمعتهم ملأ كنت غلاماً ، لكن الحقيقة ان
جدنا في البيت اعتزل ، وان ناظر وقفه بربع الوقف استأثر ، الا ما
يهب الفتوات نظير حمايته ، وزنفل فتوة آل جبل يتسلم نصيبهم ليدفنه
في بطنه ، كأن جبل لم يظهر في هذه الحارة ، وكأنه لم يأخذ عين
صديقه دعيس بعين المسكين كعبها .

وسكنت المرأة لتسبح في أمواج الظلام . سيطلع عليها الصباح بين
قوم غرماء . سيكون الغرباء جيرانها الجدد . وتستقبل أيديهم وليدها .
وينسج الوليد في أرض غريبة كغصن مقطوع من شجرة . وما كانت
الا قاذية في آل جبل . تحمل الطعام الى زوجها في الدكان وتجلس

في الليل وراء النافذة لتسمع رباب عم جواد الشاعر الضير . ما أحلى
الرباب وما أحلى قصة جبل . ليلة التقى الجبلأوي في الظلام فقال له
الا تخف . حياه بالعطف والتأييد حتى انتصر . وعاد الى حارته بحبور
الخاطر ، وما أحلى العودة بعد الاغتراب .

وكان شافعي يقلب وجهه في السماء ، في النجوم الساهرة ، ويرنو
الى طلائع الضياء فوق الجبل كسحابة بيضاء في افق سماء مكفهرة .
وقال محذراً :

- ينبغي ان نسير كي نبلغ السوق قبل الشروق .
- ما زلت في حاجة الى الراحة .
- الله يتعب المتعب .

ما اجمل الحياة لولا وجود زنفل . الحياة عامرة بالخيرات والهواء
النقي والسماء المرصعة بالنجوم والمشاعر الطيبة ولكن فيها ايضاً ناظر
الوقف ايهاب والفتوات بيومي وجابر وحنودة وخالد وبطيخة وزنفل .
وفي الامكان ان يصير كل ربع كالييت الكبير وان ينقلب الأنين الحاناً
ولكن المساكين يتمنون المحال كما تمناه ادهم من قبل . ومن هم المساكين ؟
نهم أقفية متورمة من الصفع وأدبار ملتبهة من الركل وأعين يرعاهسا
الذباب ورؤوس يعشش فيها القمل .

- لماذا نسينا الجبلأوي ؟

غمغت امرأة :

- الله يعلم بحاله .

فصاح الرجل في حسرة وغضب :

- يا جبلأوي !

فردد الصوت صوته . وقام وهو يقول :

- توكلني على الله .

قامت عبدة . تناول كفها في يده . وسارا نحو الجنوب ، نحو
سوق المقطم .

٤٥

قالت عبدة بفرح تألق في عينيها وثغرها :
— ها هي حارتنا ، وها نحن نعود اليها بعد غربة ، فالحمد لله
رب العالمين .

فابتسم عم شافعي وهو يخفف جبينه بكم عباءته وقال برزانة :
— حقاً ما ابهج العودة !
وكان رفاة يصغي الى والديه ، ووجهه الصافي الجميل يعكس دهشة
ممزوجة بالحزن . فقال كالمحتج :

— وهل ينسى سوق المقطم وجيرانه ١٩
ابتسمت الأم وهي تحبك طرف الملاعة حول شعرها الذي وخطه
المشيب . ادرك ان الفتى يحن الى مولده كما تحن هي الى مولدها ، وأنه
بما جبل عليه من رقة ومودة لا يستطيع ان يسلو الصداقات . وأجابته :
— الأشياء الطيبة لا تنسى ابداً ، ولكن هذه هي حارتك الأصلية ،
هنا أهلك ، سادة الحارة ، ستحبهم وسيحبونك ، ما اجمل حيّ جبل
بعد وفاة زنفل .

فهتف عم شافعي محذراً :
— لن يكون خنفس خيراً من زنفل .
— لكن خنفس لا يضمر لك عداوة .
— عداوات الفتوات تنشأ بسرعة نشوء الطين عقب المطر .
فقالت عبدة برجاء :

— لا تفكر هكذا يا معلم ، عدنا لنعيش في سلام ، ستفتح الدكان وسيجيء الرزق . ولا تنس انك عشت تحت سيطرة فتوة بسوق المقطم ، فني كل مكان فتوة يخضع له الناس .

واصلت الأسرة مسيرها نحو الحارة ، يتقدمها عم شافعي حاملاً جوالاً ، وتبعه عبدة ورفاعة حاملاً بقجة ضخمة . وبدأ رفاعة بقماته الطويلة وعوده النحيل ووجهه الوضاء في جذاب المنظر ينضح بالدواعي والرقه ، غريباً في الأرض الذي يسير فوقها . وتأملت عيناه ما حوله في شغف حتى انجذبتا الى البيت الكبير الذي يقف عند رأس الحارة منفرداً ، ورعوس الاشجار تهتز من فوق سوره . رنا اليه طويلاً ثم تساءل :

— بيت جدنا ؟

فقال عبدة بابتهاج :

— نعم ، رأييت ما حدثتك عنه ؟ فيه جدك ، صاحب هذه الأرض كلها وما عليها ، الخير خيره والفضل فضله ، ولولا عزله لملأ الحارة نوراً .

وأكمل عم شافعي ساخراً :

— وباسمه ينهب ناظر الوقف ايهاب حارتنا ، ويعتدي الفتوات علينا . تقدموا نحو الحارة محاذين للسور الجنوبي للبيت الكبير . لم ترتد عيننا رفاعة عن البيت المغلق . ثم تراءى لهم بيت ناظر الوقف ايهاب وبوابه المقعد اريكة عند بابه المفتوح . وفي مقابله قام بيت فتوة الحارة بيومي الذي وقفت امامه عربة كارو محملة بمقاطف الارز وسلال الفاكهة وقد مضى الخدم يحملونها للدخل تبعاً . وبدأت الحارة ملعباً للفيلان الخفاة ، على حين افترشت أسر الأرض او الحصر امام مداخل البيوت لينفخوا القول او يخرطوا الملوخية ، وتبدلت احاديث ونكات ، وزجر ونهر ، وتعالصت ضحكات وصرخات . مالت اسرة عم شافعي الى حثي جيبي

فصادفها في عرض الطريق شيخ ضريب ، يتلمس طريقه بعصاه على مهل ،
فأنزل عم شافعي الجوال من فوق ظهره ومضى نحوه منبسط الأسارير ،
حتى وقف امامه وهو يهتف :

— عم جواد الشاعر ، السلام عليكم !
توقف الشاعر وهو يرهف أذنيه في انتباه ، ثم هز رأسه في
حيرة قائلاً :

— وعليكم السلام ! صوت غير غريب علي !

— أنسيت صاحبك شافعي النجار ؟

فتهلل وجه الرجل وصاح :

— عم شافعي ورب السماوات .

وفتح ذراعيه فتعانق الرجلان بشوق وحنان حتى تطلعت اليهما انظار
التربين وحاكى عناقهما غلامان عابثان . وقال جواد وهو يشد على يد
صاحبه :

— هجرتنا عشرين عاماً او يزيد ؛ يا له من عمر ، وكيف زوجك ؟
فقالت عبدة :

— بخير يا عم جواد سألت عليك العافية ، وها هو ابننا رفاعه ،
قبّل يد عمك الشاعر .

واقرب رفاعه من الشاعر مبتهجاً فتناول يده فلثمها ، وربت الرجل
كتمه ، وتحسس رأسه في استطلاع ، وقسمات وجهه ، وقال :

— بديع بديع ، ها اشبهك بجدك !

فتوّر اللون وجه عبدة ، وضحك عم شافعي قائلاً :

— لو رأيت جسده النحيل ما قلت ذلك .

— حسبه ما أخذ ، ان الجبل اوي لا يتكرر ، ماذا يعمل الفتي ؟

— علمته التجارة ، لكنه ابن وحيد مدلل ، يمكث في دكاني قليلاً
ويهم على وجهه في الخلاء والجبل اكثر الوقت .

فقال الشاعر باسمًا :

— لا يستقر الرجل حتى يتزوج ، وأين كنت يا معلم شافعي ؟
— في سوق المقطم .

فضحك الرجل ضحكة عالية وقال :

— كما فعل جبل ، لكنه عاد حاوياً وتعود نجاراً كما ذهبت ، على
اي حال مات عدوك ولكن الخلف كالسلف .

فقال عبدة بسرعة :

— كلهم كذلك ، وما نطمع في شيء الا ان نعيش كما يعيش
المسلمون !

وعرف رجال شافعي فهرعوا اليه ، ودار العناق وارتفعت الأصوات ،
وعاد رفاة يتفحص ما حوله باهتمام وشغف ، وأنفاس قومه تتردد من
حوله ، فتخفف كثيراً من وحشة القلب التي غشيت مذ فارق سوق
المقطم . ومضت عيناه في التجول حتى وقفتا عند نافذة في الربع الأول ،
تطل منها فتاة راحت تميل في وجهه باهتمام ، فلما التقت عيناهما رفعت
ناظرهما الى الأفق . ولمح ذلك رجل من اصحاب والده فهمس قائلاً :
— عيشة بنت خنفس ، نظرة اليها تسبب مذبحاً !

فتورد وجه رفاة وقالت أمه :

— ليس هو من هؤلاء الشبان ولكنه يرى حارته لأول مرة .

ومن الربع الأول خرج في متانة الثور ، يرفل في جلباب فضفاض ،
وينطلق من فوق فيه شارب متحرش في وجه كثير الندوب والبقع
فتهاشم الناس « خنفس .. خنفس » . وأخذ جواد عم شافعي من
يده وانجه نحو الربع وهو يقول :

— سلام الله على فتوة آل جبل ، اليك أخانا المعلم شافعي النجار ،

عاد الى حارته بعد غربة عشرين عاماً !

ألقي خنفس نظرة حافرة على وجه شافعي ، متجاهلاً يده الممدودة

ملياً ، ثم مد له يده دون ان يلين وجهه ، ثم تتم في برود :
— أهلاً .

وتأمله رفاعه بامتعاض فهمست أمه في اذنه أن يذهب للسلام عليه :
وذهب رفاعه متضيقاً قد له يده ، وقال عم شافعي :
— ابني رفاعه .

ونظر خنفس الى رفاعه نظرة استنكار وازدراء ، اوّها الحاضرون
بأنها احتقار لرقبه غير المألوفة في الحرارة . وصافحه بعدم اكتراث ثم
التفت الى أبيه متسائلاً :

— ترى هل نسيت في غربتك سنة الحياة في حارتنا ؟

فأدرك شافعي ما يرمي اليه ، وقال مدارياً ضيقه :

— نحن في الخدمة دائماً يا معلم .

فتفرس في وجهه بريية وسأله :

— لماذا هاجرت من حارتك ؟

فصمت شافعي ريثما يجد جواباً مناسباً ، فقال خنفس :

— هرباً من زنفل ؟

فقال جواد الشاعر مبادراً :

— لم يكن ذلك خطأ لا يغتفر .

فقال خنفس لشافعي محذراً :

— لن تجد مني مهرباً عند الغضب .

فقالت عبدة برجاء :

— ستجدنا يا معلم من أطيب الناس .

ومضى شافعي وأسرته وسط الاصحاح الى دهليز ربع النصر ليتسلم
مسكناً خالياً دله عليه عم جواد . وتراءت في نافذة مطلة على الدهليز
ستاة حسناء ذات جبال وقح ، وقفتم تمشط شعرها أمام زجاج النافذة ،
فلما رأت القادمين تساءلت في دلال :

— من القادم كالعريس في الزفة ؟
فتفاحك كثيرون وقال رجل :
— جار لك جديد يا ياسمينه سيقم في الدهليز أمامك .
فهتفت ضاحكة :

— ربنا يزيد في الرجال !
ومرت عيناها بعبرة دون اكتراث ، لكنها وقفت على رفاة باهتمام
وإعجاب . ودهش رفاة لنظرها أكثر من دهشته لنظرة عيشة بنت
خنفس . وتبع والديه الى باب المسكن المقابل لمسكن ياسمينه على الجانب
الآخر للدھليز ، وصوت ياسمينه يغني :
آه من جماله يامّة .

٤٦

فتح عم شافعي دكان التجارة عند مدخل ربع النصر . ومع الصباح
خرجت عبدة تتسوق ، ومضى عم شافعي وابنه رفاة إلى الدكان .
وجلسا على عتبة الدكان ينتظران الرزق . وكان في حوزة الرجل مال
يكفيه شهراً أو يزيد فلم يطرقه القلق ، فراح ينظر الى الدهليز المسقوف
بالمساكن ، المفضي الى الحوش الكبير ويقول :

— هذا هو الدهليز المبارك الذي أغرق فيه جبل أعداءنا .
فتأمله رفاة بعينين حالمتين وثغر باسم ، فعاد الرجل يقول :
— وفي هذه البقعة أقام أدهم كوخه وحدثت الأحداث ، وفيها
بارك الجبلأوي ابنه وعفا عنه .

فازداد الثغر الجميل ابتساماً وأغرقت الدنان في الحلم . الذكريات
الجميلة كلها ولدت في هذا المكان . لولا الزمن ل بقيت آثار أقدام

الجبلاوي وأدهم ، ولررد الهواء أنفاسهم . ومن هذه الزوافذ انصبت المياه على الفتوات في الحفرة . من نافذة ياسمينة انصبت المياه على الأعداء . اليوم لا ينصب منها الا نظرات مرعبة . ويعبث الزمان بكل جليل . أما جبل فانتظر داخل الحوش بين رجال ضعفاء . لكنه انتصر .

— انتصر جبل يا أبي ولكن ما جدوى النصر ؟
فتنهذ الرجل قائلاً :

— تعاهدنا على ألا نفكر في ذلك ، أرايت نخففس ؟
وعلا صوت غنج منادياً :

— يا عم يا نجار .

فتبادل الأب وابنه نظرة إنكار ، ونهض الأب رافعاً رأسه فرأى ياسمينة تطل من النافذة ، وضفيراها الطويلتان تتدليان وتتأرجحان ،
فهتف :

— يا نعم

فقلت بصوت متهالك من العيث :

— ابعت صبيك ليأخذ تراييزه لإصلاحها .

عاد الرجل الى مجلسه وهو يقول لابنه : «توكل على الله» . ووجد رفاعة باب المسكن مفتوحاً في انتظاره فغمغم قائلاً : «احم» فأذنت له بالدخول فدخل . وجدها في جلاب بني ذي كلفة بيضاء حول الطوق وفوق نهضة النهدين . وحافية وعارية الساقين وجدها أيضاً . وليست صامتة ملياً كأنما لتمتحن أثر منظرها في نفسه ، فلما رأت صفاء عينيها لا يتغير أشارت الى تراييزة صغيرة قائمة على ثلاثة أرجل في ركن الصالة وقالت :
— الرجل الرابعة تحت الكنية ، ركبها وحياتك وادهن التراييزة من جديد .

فتال بصوت دي موقع عذب :

— في الخدمة يا ست .

- والشمع ؟
- سأسأل أبي .
- فشهقت متسائلة :
- وأنت ؟ الا تعرف الشمع ؟
- هو الذي يخطب فيه .
- فتفرست في وجهه بقوة وسألته :
- ومن يصلحها ؟
- أنا ، ولكن بأشرافه ومعاونته .
- فضحكت دون مبالاة وقالت :
- بطيخة أصغر فتواتنا دونك في السن لكنه يستطيع أن يدوخ زفة برمتها ، وأنت لا تستطيع ان تتركب رجل ترايبزة بمفردك ! ..
- فقال رفاعه بصوت من يروم انهاء الكلام :
- المهم انها ستعود اليك كأحسن ما يكون .
- وتناول الرجل الرابعة من تحت الكنبه ، وحمل الترايبزة على كتفه وانجه نحو الباب قائلاً :
- فتك بعافية .
- ولما وضعها أمام أبيه في الدكان قال الرجل بامتعاض وهو يتفحص الترايبزة :
- أقول الحق اني كنت أفضل ان يجيء أول رزق من ناحية أنظف .
- فقال رفاعه في سداجة :
- ليست قدرة بحال يا أبي ، لكنها وحيدة فيما يبدو .
- ليس أخطر من امرأة وحيدة !
- لعلها في حاجة الى هداية !
- فقال عم شافعي ساخراً :
- حرفتنا النجارة لا الهداية ، هات الغرا .

وعند المساء ذهب عم شافعي ورفاعة الى قهوة جبل . كان الشاعر جواد متربهاً على أريكته يحسو قهوته . وجلس شلضم صاحب القهوة عند المدخل ، على حين احتل خنفس مكان الصدارة وسط هالة من المعجبين . وقصد شافعي وابنه الفتوة ليؤديا اليه تحية الخضوع ثم اتخذوا مكاناً خالياً جنب شلضم . وما لبث أن تناول عم شافعي الجوزة ، وقدم لابنه قدح قرفة بالبندق . وبدأ جو القهوة ناعماً ، تنعقد في سمائه سحب الدخان ، وتنتشر في هوائه الساكن روائح المعسل والنعناع والقرنفل ، أما الوجوه ذات الشوارب المستنفرة فلاحت شاحبة ثقيلة الاجفان ، وتلاقى السعال والنحاحة بالضحكات الغليظة والنكات الفاجرة ، وترامى من بطن الحارة هتاف غلمان يترنمون :

ياولاد حارتنا توت توت
انتو نصاره ولا يهود
تاكلو ايه ناكل عجوة
تشربوا ايه نشرب قهوة

وكانت عند مدخل القهوة هرة تتربص ، فانقضت نحو اسفل اريكة ، وندت وسوسة ، ثم ظهرت راکضة نحو الحارة قابضة بأسنانها على فأرة . ورد رفاعة عن فيه قدح القرنفل متفرزاً ، ورفع عينيه فوقعتا على خنفس وهو يبصق . وصاح خنفس مخاطباً الشاعر جواد :

— متى تبدأ يا راس الدواهي ؟

فابتسم جواد وهو يهز رأسه ، ثم تناول الربابة ، وبعث من اوتارها انغام الافتتاح . وبدأ بتحية للناظر ايهاب ، فتحية ثانية ليومي فتوة الحارة ، والثالثة توجت خليفة جبل الفتوة خنفس ، ومضى يقول : « وجلس أدهم في ادارة الوقف يستقبل مستأجري الاحكار الجدد ، وكان ينظر في الدفتر حينما جاءه صوت الرجل الأخير يقول معلناً عن اسمه : — ادريس الجبلاوي .

فرفع أدهم رأسه في فزع فرأى أخاه واقفاً أمامه .. »

وواصل الشاعر الحكاية في جو من الانصات . وتابعه رفاة بشغف .
هذا هو الشاعر وهذه هي الحكايات . كم سمع أمه وهي تقول : « حارتنا
حارة الحكايات » . وحقاً كانت جذيرة بالحب هذه الحكايات . لعل فيها عزاء
عن ملاعب سوق المقطم وخلواته . وراحة لقلبه المحترق بهيام غامض .
غامض كهذا البيت الكبير المغلق . لا أثر فيه لحياة الا رعوس اشجار
الجميز والتوت والنخيل . وأي دليل على حياة الجبلأوي الا الاشجار
والحكايات ؟ وأي دليل على انه حفيده سوى الشبه الذي لمسه الشاعر
جواد بيديه ؟ وكان الليل يتقدم ، وعم شافعي يدخن جوزة ثالثة ،
واختفت من الحارة نداءات الباعة وهتافات الغلمان ، ولم يعد يبقى سوى
انغام الزباب ودقة دربكة آتية من بعيد . وصراخ امرأة ينهال عليها
زوجها ضرباً . أما أدهم فقد جره ادريس الى مصيره . الى الخلاء تتبعه
أميمة الباكية . كما خرجت أمي من الحارة وأنا في بطنها أضطرب .
اللعنة على الفتوات . وعلى القطط حين تلفظ الفثران انفاسها بين أسنانها .
وعلى كل نظرة ساخرة أو ضحكة باردة . وعلى من يستقبل أخاه العائد
بقوله لا مهرب مني عند الغضب . وعلى صانعي الرعب وخالقي النفاق .
أما أدهم فلم يبق له إلا الخلاء . وها هو الشاعر يغني أغنية من أغاني
ادريس المخمورة . ومال الى أذن أبيه وقال :

— أريد ان ازور المقاهي الأخرى .

فقال عم شافعي متعجباً :

— قهوتنا خير قهوة في الحارة .

— ماذا يقول الشعراء هنالك ؟

— الحكايات نفسها ولكنك تسمعها هنالك وكأنها غير الحكايات .

وترامى التهامس الى شلضم قال نحو رفاة قائلاً :

— ليس أكذب من أهل حارتنا ، والشعراء أكذب الكاذبين ، ستسمع
في القهوة التالية ان جبل قال إنه ابن الحارة ، والله ما قال الا انه

ابن حمدان .

فقال عم شافعي :

— الشاعر يريد ارضاء السامعين بأي ثمن .

فقال شلضم همساً :

— بل يريد ارضاء الفتوة !

وغادر الأب والابن القهوة عند منتصف الليل . وكانت الظلمة كثيفة

تكاد ان تتجسد . وهناك اصوات رجال كأنما تصدر عن لا شيء .

وسيجارة تتوهج في يد غير مرئية كأنها نجم تهاوى نحو الأرض .

وتساءل الأب :

— اعجبتك الحكاية ؟

— نعم ، ما اجمل الحكايات .

فضحك الأب قائلاً :

— عم جواد يحبك ، ماذا قال لك في الاستراحة ؟

— دعاني الى زيارته في بيته .

— ما اسرع أن تُحب ، ولكنك صبي بطيء التعلم .

فقال معتذراً :

— لديّ عمر كامل للنجارة ، ولكن يهمني الآن ان اזור المقاهي

جميعاً .

وتلمسا طريقهما الى الدهليز فترامت اليهما من بيت ياسمينه ضجة

مخمورة ، وصوت يغني :

يا بو الطاقة الشبيكة قل مين شغلها لك

شبكت قلبي الهسي ينشغل بالك

فهمس رفاعه في أذن أبيه :

— ليست وحيدة كما ظننت .

فتنهّد الأب قائلاً :

- ما اكثرت ما ضيعت من عمر في اللوات !
وراحا يرقيان في السلم على مهل وحذر ، واذا برفاة يقول :
- أبي ، سأزور عم جواد الشاعر .

٤٧

طرق رفاة باب جواد الشاعر بالربع الثالث بجي جبل . وكان يتصاعد
من الحوش سياب حاد تتبادل له نسوة ممن اجتمعن للغسل والطهي فأطل من
فوق درابزين الطريقة المستديرة المشرفة على فناء الربع . وكانت المعركة
الأساسية تدور بين امرأتين ، وقفت اولادهما وراء طشت غسيل تلوح بيدين
مغطاتين برغوة الصابون ، ووقفت الأخرى عند مدخل الدهليز مشيرة
عن ساعديها ترد السب بأفطع منه وترقص وسطها استهزاء . أما النساء
الأخريات فانقسمن الى فرقتين ، وتلاطمت الأصوات حتى تجاوبت جدران
الربع بالشتائم المقذعة والقذف العاهر . وسرعان ما جفل مما يرى ويسمع
فتحول عن موقفه الى باب الشاعر متفرزاً . حتى النساء ، حتى القطط ،
ودعك من الفتوات . في كل يد مخلب وفي كل لسان سم ، وفي القلوب
الخوف والضغائن . أما الهواء النقي ففى خلاء المقطم أو في البيت الكبير
حيث ينعم الواقف بالسلام وحسده ! وفتح الباب عن وجه الضرب
المستطلع فحياه فابتسمت أسارير الرجل ، وأوسع له وهو يقول :
- أهلاً بابن أخي .

وتلقى رفاة أول ما دخل شذى بخور نافذ كأنه أنفاس ملاك . ومضى
وراء الرجل الى حجرة صغيرة مربعة ، اصطفت باضلاعها الشلت ،
وانبسطت فوق أرضها حصيرة مزركشة ، وبدا جوها خلف خصاص
النوافذ المغلقة في سمرة الأصيل ، وقد زين سقفها حول النافوس المدلى

بصور العصافير والحمام . تربع الشاعر على شلثة فجلس رفاعة الى جانبه ،
وقال الرجل :
- كنا نعد القهوة .

ونادى زوجته فجاءت امرأة حاملة صينية القهوة فقال جواد :
- تعالي يا أم بخاطرها ، هذا رفاعة ابن عم شافعي .
فجلست المرأة الى جانب زوجها من الناحية الاخرى ، وراحت تصب
القهوة في الفناجيل وهي تقول :
- اهلاً بك يا ابني .

بدت في منتصف الحلقة السادسة ، مستقيمة العود ، قوية البنية ،
ثلثت النظر بعينين نافذتين ووشم فوق الذقن . وأشار جواد ناحية
الضيف وقال :

- انه سميع يا ام بخاطرها ، شغوف بالحكايات ، ويمثله يتحمس الشاعر
ويرضى ، أما الآخرون فسرعان ما يغلبهم نعاس المتزول والحشيش .
فقال المرأة بدعابة :
- حكاياتك جديدة عليه ، معادة عليهم .

فقال الشاعر بغيظ :

- هذا صوت عفريت من عفريتك .. (ثم موجهها الخطاب الى
رفاعة) .. الولية كودية زار ..

فتطلع رفاعة نحو المرأة باهتمام فالتقت عيناهما وهي تمد له يدها بفنجال
القهوة . كم كانت تجذبه دقة الزار في سوق المقطم . وكان قلبه يتابعها
راقصاً ، فيقف في الطريق رافعاً رأسه نحو النوافذ ، متطلعاً الى البحور
الساحب في الفضاء والرءوس المترنحة . وسأله الشاعر :

- ألم تعرف في غربتك شيئاً عن حارتنا ؟

- حدثني أبي عنها كما حدثني أمي . ولكن قلبي كان هناك ،
فلم اُكثر كثيراً للوقوف ومشاكله ، وعجبت من كثرة ضحاياه ، فلت

الى رأي أمي في ايثارها الحب والسلام .

فتساءل جواد وهو يهز رأسه في حزن :

- وكيف يتسنى للحب والسلام ان يعيشا بين الفقر ونباييت الفتوات !
فلم يحبه رفاة . لا لأنه لم يكن ثمة جواب . ولكن لأن عينيه رأنا
لأول مرة صورة غريبة فوق الجدار الأيمن للحجرة . صورة مرسومة
بالزيت على الجدار كالصور التي تزين جدران المقاهي . وتمثل رجلاً
هائلاً تبدو الى جانبه ربوع الحسارة ضئيلة كلعب الأطفال . فتساءل
الشاب :

- من صاحب هذه الصورة ؟

فأجابت أم بخاطرها :

- الجبلاوي .

- هل رآه أحد ؟

فقال جواد :

- كلا ، لم يره أحد من جيلنا ، حتى جبل لم يتبينه في ظلمة الخلاء ،
ولكن المبيض رسمه على مثال ما يرد من أوصافه في الحكايات .
فتساءل رفاة متنهداً :

- لماذا أغلق أبوابه في وجه أحفاده ؟

- يقولون الكبر ، من يدري كيف تمضي به الأيام ! والله لو فتح
أبوابه ما بقي أحد من أهل حارتنا في داره القذرة .
- ألا تستطيع أن ..

ولكن أم بخاطرها قاطعته قائلة :

- لا تشغل به نفسك ، فان اهل حارتنا اذا بدأوا بالكلام عن
الواقف جرهم الكلام الى الوقف ثم تقع المصائب اشكالاً وألواناً .
فهز رأسه في حيرة متسائلاً :

- وكيف لا تشغل النفس بمثل هذا الجذ العجيب ؟ !

- لنفعل مثله ، فانه لا يشغل بنا نفسه .
فرفع رفاعه بصره الى الصورة ثم قال :
— لكنه قابل جبل وكلمه .
— نعم ، ولما مات جبل جاء زنفل ثم خنفس ، وكأننا يا بدر لا
رحنا ولا جينا .
فضحك جواد وقال لامرأته :
— ان الحارة في حاجة الى من يخلصها من شياطينها كما تخلصين
المسوسين من عفاريتهم .
فابتسم رفاعه وقال :
— يا عمتي ان العفاريت حقاً هم اولئك الناس ، لو رأيت كيف
كانت مقابلة خنفس لأبي !
— لا شأن لي بأولئك ، عفاريتي الآخرون يذعنون لي كما كانت
تذعن الثعابين لجبل ، وعندى لهم جميع ما يحبون من بخور سوداني
وتعاويد حبشية واذان سلطانية .
فسألها رفاعه باهتمام :
— ومن أين أتت هذه القدرة على العفاريت ؟
فحدجته بنظرة حذرة وقالت :
— هي حرفتي كما ان النجارة حرفة أبيك ، جاءني من وهاب الفن !
فافرغ رفاعه ثمالة الفنجان في فيه وهمّ بالكلام ، غير ان صوت عم
شافعي تصاعد من الحارة صائحاً :
— يا رفاعه ، يا ولد يا كسول .
فقام رفاعه الى النافذة ففتحها وأطل منها حتى التقت عيناه بعيني
أبيه وهتف :
— أمهلني نصف ساعة يا أبي .
فرفع الرجل منكبيه فيما يشبه اليأس ورجع الى دكانه . وعندما أخذ

رفاعة يغلق النافذة رأى عيشة في موقفها بالنافذة كما رآها أول مرة ،
ترنو اليه باهتمام . خيل اليه انها ابتسمت . او ان عينها تكلمت . وتردد
لحظة ، لكنه اغلق النافذة وعاد الى مجلسه . وإذا بجواد يضحك قائلاً :
— أبوك يريد لك التجارة ، ولكن فيم ترغب أنت ؟

فتفكر رفاعة ملياً ثم قال :

— عليّ ان اكون نجاراً كأبي ، ولكنني أحب الحكايات ، وهذه
الأسرار حول العفاريت ، فحدثني عنها يا عمي .
فابتسمت المرأة وبدأت كأنها سمحت بأن تهيه « قليلاً » من علمها
فقالت :

— لكل انسان عفريت هو سيده ، ولكن ليس كل عفريت بشر
يجب ان يخرج .

— وكيف نميز بين هذا وذاك ؟

— عمداً يدل عليه ، انت مثلاً ولد طيب فاستحق سيدك الا الجميل ،
وليس هكذا عفاريت بيومي وخنفس وبطيخه !
فقال براءة :

— وعفريت باسمينة هل يجب ان يخرج ؟

فضحكت أم بخاطرها وقالت :

— جارتكم ؟ لكن رجال جبل يريدونها كما هي .

فقال باهتمام جدي :

— أريد ان اعرف هذه الأشياء فلا تبخلي علي .

فقال جواد :

— منذ الذي يبخل على الابن الطيب ؟

وقالت أم بخاطرها :

— جميل ان تلازمي كلما سمح الوقت ، ولكن على شرط الا يغضب

أبوك ، وسيتساءل الناس ما لهذا الولد الطيب والعفاريت ، ولكن اعلم
الا دام للناس الا العفاريت .
وكان رفاة يستمع وهو يرنو الى صورة الجبلاوي .

٤٨

النجارة مهنته ومستقبله ، لا مهرب منها فيما يبدو . إن تكن نفسه
لا ترتاح إليها فأني شيء ترتاح اليه نفسه ؟ انها أفضل من السعي
الكادح وراء عربات اليد ، أو من حمل المقاطف والسلال ، أما المهن
الأخرى كالبلطجة والفتونة فما أبغضها وأمقتها . أم بخاطرها أثارت خياله
كما لم يثره شيء من قبل اللهم الا صورة الواقف المرسومة على جدار
الحجرة في بيت جواد الشاعر . وحض أباه يوماً على رسم صورة مثلها
في بيتهم او في الدكان فقال له الرجل نحن أولى بنفقاتها ، وهي خيال
وما قيمة الخيال ؟ فما كان منه الا ان قال له بودي لو أراه !
فضحك الرجل ضحكة عالية وقال له معانبا اليس الأفضل ان ترى
عملك ! لن أعيش لك الى الأبد ، وعليك ان تنأهب ليوم تحمل فيه
وحلك اعباء أمك وزوجك وأطفالك . لكنه لم يكن يفكر في شيء كما
كان يفكر فيما تقول او تفعل أم بخاطرها . بدت له أحاديثها عن
العفاريت غاية في الأهمية . ولم تزايل وعيه حتى في الأوقات السعيدة التي
تردد فيها على مقاهي الحارة واحدة بعد أخرى . حتى الحكايات نفسها
لم ترسب في نفسه كما رسبت أحاديث أم بخاطرها . لكل انسان عفريت
هو سيده ، وكما يكون السيد يكون العبد .. هكذا تردد أم بخاطرها .
وكم من ليلة قضاه في حضرة الست ، يتابع دقات الزار ويشهد ترويض
العفاريت . ومن المرضى من يساق الى البيت في حال خمود وإعياء ،

ومنهم من يحمل مقيداً في الاغلال اتقاء لشره . ويحرق البخور المناسب
اذ لكل حال بخورها ، وتدق الدقة المطلوبة اذ لكل عفريت دقة يطلبها ،
ثم تحدث الأعاجيب . اذن عرفنا لكل عفريت دواءه ولكن ما دواء
ناظر الوقف وفتواته ؟! هؤلاء الاشرار يسخرون من الزار ولعله لم يخلق
الا لهم ! القتل هو الوسيلة الى الخلاص منهم اما العفريت فيستكين
بالبخور الزكي والنغمة الطيبة . كيف يؤخذ العفريت الشرير بالجميل
الطيب ؟! اما اجل ما نتعلمه من الزار والنفاريت ! وقال لام بخاطرهما
انه يرغب من اعماق قلبه في تلقي اسرار الزار ، فسألته أتعطع في المال
الكثير ؟ فاجابها بأنه في تطهير الحارة يرغب لا في المال الكثير . وضحكت
المرأة قائلة انه اول رجل يرغب في هذا العمل فماذا استهواه فيه ؟ فأكدت
قائلة ان احكم ما في عملك انك تهزمين الشر بالطيب الجميل . ولما مضت
تبسح له اسرارها طاب نفساً . وإعراباً عن مسرته كان يصعد الى سطح
الربيع في نشوة الفجر ليشهد يقظة النور ، ولكن يستأثر البيت الكبير
بلبه دون النجوم والسكون وصباح الديكة ، ويرنو الى البيت الزاقد بين
الاشجار طويلاً ، ثم يتساءل : ابن انت يا جدي ؟ لماذا لا تظهر ولو
لحظة ! لماذا لا تخرج ولا مرة ؟ لماذا لا تتكلم ولو كلمة ؟ الا تدري
ان كلمة منك تغير حارتنا من حال الى حال ؟ أم يرضيك ما يجري
بها ؟ وما اجمل الاشجار حول بيتك ! اني احبها لأنك تحبها ، وأنظر
اليها لألتقي نظراتك المطبوعة عليها . وكلما أفضى بخواطره الى ابيه سمع
عتاباً وقال له : « وعملك يا كسلان ! ان امثالك من الشبان يجوبون
الاحياء سعياً وراء الرزق او يهزون الحارة اذا رفقوا النبايت ! » وبوفاً
كانت الأسرة مجتمعة عقب الغداء اذا بعيدة تقول لزوجها باسمه :

— قل له يا معلم .

ادرك رفاة انه المقصود بالكلام فنظر الى ابيه مستظلاً لكن الرجل
خاطب زوجته قائلاً :

— حدثني انت بما عندك أولاً .

ف نظرت عبدة الى ابنها باعجاب وقالت :

— خبر سعيد يا رفاعه ، زارني ست زكية زوجة فتوتنا خنفس !
ورددت لها الزيارة بطبيعة الحال فاستقبلتني بحفاوة وقدمت اليّ ابنتها
عيشة ، بنت جميلة كالقمر ، ثم زارني مرة اخرى ومعها عيشة .
ولحظ عم شافعي ابنه بطرف خفي وهو يرفع فنجال القهوة الى فيه
ليرى اثر الحكاية في نفسه ، ثم هز رأسه هزة من قدر الصعوبة التي
تنتظره ، وقال بتفخيم :

— هذا شرف لم يحظ بمثله بيت في حيّ جبل ، تصور ان زوجة
خنفس وابنته يزوران بيتنا هذا !

رفع رفاعه عينيه الى أمه حائراً فقالت بحماس :

— ما افخم مسكنهم ، المقاعد الوثيرة ، السجاد الفاخر ، حتى
الستائر تنسدل فوق النوافذ والأبواب .
فقال رفاعه ممتعضاً :

— كل هذا الخير من أموال آل جبل المغتصبة !

فدارى عم شافعي ابتسامة وهو يقول :

— تعاهدنا على ألاّ نتكلم في هذا الموضوع .

وقالت عبدة باهتمام :

— فلنذكر فقط ان خنفس سيد آل جبل وان صداقة امله دعاء

مستجاب .

فقال رفاعه في ضجر :

— مباركة عليك هذه الصداقة !

فتبادلت الأم مع زوجها نظرة ذات معنى ، قالت على اثرها :

— ان مجيء عيشة مع أمها حدث له معنى !

فتساءل رفاعه وهو يشعر بانقباض :

- ما معناه يا أمي ؟
فضحك شافعي وهو يلوح بيده يائساً وقال مخاطباً عبدة .
— كان ينبغي ان نقص عليه كيف تم زواجنا !
فهتف رفاعه بضيق :
— كلا ! كلا يا ابي .
— ماذا تعني ؟ ومالك تبدو كاللعراء ؟
وقالت عبدة باغراء ورجاء :
— أنت الذي بيدك أن تدخلنا نظارة وقف آل جبل ، سيرحبون بك اذا تقدمت ، حتى خففس سيرحب بك ، اذ لولا ثقة المرأة في مكانتها عنده ما أقدمت على تلك الخطوة ، امامك جاء ستحسدك الحارة عليه من أولها الى آخرها .
وقال الأب ضاحكاً :
— من يدري فلعلنا نراك يوماً ناظراً لوقف جبل او ترى انت احد ابنائك فيه .
— أنت الذي تقول ذلك يا أبي ١٩ أنسيت لماذا هاجرت من الحارة منذ عشرين عاماً ؟
فرمش عم شافعي في شيء من الارتباك وقال :
— نحن نعيش اليوم كما يعيش غيرنا ، فلا يجوز أن نهمل انتهـاز فرصة نجيـء بنفسها إلينا .
وتتم رفاعه وكأنه يحدث نفسه :
— كيف أصهر الى عفريت وأنا لا هم لي اليوم الا مطاردة العفاريت !
فصاح شافعي محتداً :
— ما طمعت يوماً في أن أجعل منك اكثر من نجار ، ولكن الحظ يعرض عليك درجة مرموقة في حارتنا ، ولكنك تريد أن تكون كودية زار ، يا للعار ، أي عين أصابتك ؟

- قل انك ستزوجه ودعنا من الهزر :
- لن أتزوجها يا أبي .
- فقال شافعي دون مبالاة :
- سأزور خنفس لأطلب القرب منه .
- فهتف رفاعه بحرارة :
- لا تفعل يا أبي .
- فسأله أبوه في جزع :
- خبرني ما شأنك يا ولد ؟
- وتوسلت عبدة الى زوجها قائلة :
- لا تشتد عليه ، أنت أعلم بحاله .
- يا سوء ما أعلم ، حارتنا تعيرنا برقته .
- ترفق به حتى يفكر في الأمر .
- أقرانه آباء ، والأرض تهتز عند وقع أقدامهم .
- وحذجه بنظرة مغيفة ثم استطرد محتداً :
- لماذا يهرب الدم من وجهك ؟ انك من صلب رجال !
- وتنهذ رفاعه . الصدر منقبض لحد البكاء . وشائج الأبوة يمزقها الغضب . والبيت يقسو حيناً فيرتد سجيناً كثيراً . ومرادك ليس في هذا المكان ولا بين هؤلاء الناس . وقال بصوت مبسوح :
- لا تعذبني يا أبي .
- أنت الذي تعذبني ، كما عذبتني منذ ولدت .
- وأخنى رفاعه رأسه حتى اختفى وجهه عن والديه ، وأخفض الرجل من صوته وسكن ما استطاع غضبه ، ثم سأله :
- هل تخاف الزواج ؟ الا تحب ان تتزوج ؟ صارخني بما في نفسك ،
- أم اذهب الى أم بخاطرهما فلعلها تعرف عنك ما لا نعرف !
- فهتف بحدة :

- كلا ..
وقام فجأة فغادر الحجرة .

٤٩

ونزل عم شافعي ليفتح الدكان فلم يجد رفاة هناك كما توقع . لكنه لم يناد عليه وقال لنفسه : إنه من الحكمة أن يتظاهر بالبرود لغيابه . ومضى النهار يزحف رويداً وضوء الشمس ينحسر عن أرض الحارة والنشارة تتكاثف حول قدمي شافعي دون أن يظهر رفاة . وأتى المساء فأغلق الرجل الدكان وهو في غاية من الضيق والغضب . وقصد كعادته قهوة شلضم واتخذ مجلسه ، ولما رأى جواد الشاعر قادماً وحسده تولاه العجب وسأله :

- إذن أين رفاة ؟

فأجابه الرجل وهو يتلمس طريقه الى اريكته :

- لم أره منذ أمس .

فقال شافعي بقلق :

- لم أره منذ تركنا بعد الغداء .

رفع جواد حاجبيه الأشيبين ثم تساءل وهو يتربع على الأريكة ويضع الرباب الى جانبه .:

- هل وقع بينكما شيء ؟

ولم يجبه شافعي ، وقام فجأة فغادر القهوة . وتعجب شلضم لقلق شافعي وقال ساخراً :

- هذه طراوة لم تعرفها حارتنا منذ أقام ادريس كوخه في الخلاء ، كنت اتغيب في صغري عن الحارة أياماً فلا يسأل عني أحسد ، وعند

عودني يصيح بي أبي الله يرحمه : « ما الذي عاد بك يا ابن اللثيمة ؟
فعلق خنفس على كلامه من صدر القهوة قائلاً :
— أصله لم يكن على يقين من انك ابنه .

وضجت القهوة بالضحك ، وهنا كثيرون خنفس على جميل دعابته !
أما عم شافعي فضى الى بيته وسأل عبدة : هل عاد رفاة فاستحوذ
القلق على المرأة ؟ وقالت : انها كانت تظنه بالمكان كعادته . واشتد
قلقها حين أخبرها انه لم يذهب كذلك الى بيت جواد الشاعر ، وراحت
المرأة تتساءل في قلق :

— اذن اين ذهب ؟

وترامى اليها صوت ياسمينة وهي تزغق منادية على يباع تين فنظرت
عبدة الى شافعي نظرة مريبة فهز الرجل رأسه برماً واطلق ضحكة جافة
مقتضبة ساخرة ولكن المرأة قالت :

— فتاة مثلها تحل العُقَد !

وذهب الرجل الى بيت ياسمينة مدفوعاً باليأس وحده . طرق الباب
فتفتحت ياسمينة بنفسها ، ولما عرفت تراجع رأسها في دهش مقرون
بالظفر وقالت :

— أنت ! ياما تحت الساهي دواهي !

فخنس الرجل بصره امام شغافية قبضها وقال بانكسار :
— رفاة عندك ؟

فازدادت دهشة وقالت :

— رفاة ! لمه ؟

فعلا الرجل الارتباك ، فأشارت الى الداخل وهي تقول :
— ابحث عنه بنفسك .

لكن الرجل استدار ليذهب فسألته ساخرة :
هل أدركه البوارح اليوم ؟

وسمعتها تخاطب شخصاً في الداخل قائلة :

— في هذا الزمان الفتى يخشى عليه أكثر من الفتاة .

ووجد عم شافعي عبدة تنتظره في الدهليز ، فقالت له :

— سنذهب معاً الى سوق المقطم .

فصاح الرجل بغضب :

— الله يتعبه ، أهذا جزائي بعد يوم عمل شاق !

واستقلا عربة كارو الى سوق المقطم ، وسألا عنه عند جيرانها الاقربين ، وعند المعارف فلم يعثرا له على أثر . أجل كان يتغيب ساعات في العصارى او الاصائل في الخلوات او الجبل ، ولكن لا يتصور احد ان يلبث حتى هذه الساعة من الليل في الخلاء . وعادا الى الحارة كما ذهبا ولكن على حال من الجزع أشد . ولاكت الألسن اختفاه خاصة بعد ان مضت عليه أيام . صار دعاية في القهوة وبيت ياسمينه وفي حي جبل . تندّر الجميع بفزع والديه . ولعل أم بخاطرهما وعم جواد كانا الوحيدين اللذين شاركوا والديه في حزنهما . وقال عم جواد : « أين ذهب الفتى ؟ ليس هو من أولئك الشبان ، لو كان على شاكلتهم ما جزعنا ! » وصاح بطيخة مرة . وهو سكران : « جدع تابه يا أولاد الحلال ، كأنما ينادي على طفل تائه ، فضحكت الحارة وراح الغلمان يرددونها . ومرضت عبدة من الحزن . وعمل شافعي في دكانه بعقل شارد وعينين محمرتين من الأرق . أما زكية زوجة خنفس فقد انقطعت عن زيارة عبدة وتجاهلتها في الطريق . ويوماً كان شافعي مكباً على نشر قطعة من الخشب اذ صاحت به ياسمينه وهي عائدة من مشوار :

— عم شافعي .. انظر .

وجدها تشير الى نهاية الحارة عند الخلاء فغادر الدكان والمنشار في يده ليرى ما تشير اليه فرأى ابنه رفاة يتقدم نحو الربع في استحياء . وترك الرجل المنشار امام الدكان وهرع نحو ابنه وهو يتفحصه بدهشة ،

ثم قبض على عضديه هاتفاً :
 - رفاة ! أين كنت ؟ ألا تدري ما يعني غيابك لنا ؟ لأملك
 المسكينة التي تكاد ان تموت جزءاً ؟
 ولم ينبس الشاب ، ووضح للأب هزله فسأله :
 - هل كنت مريضاً ؟
 فأجاب في ارتباك :
 - كلا ، دعني أرى أمي .
 واقتربت يasmine منها وسألت الشاب في ارتباك :
 - ولكن أين كنت ؟
 فلم ينظر نحوها . وتجمع حوله الغلمان . فسار به ابوه الى البيت .
 وسرعان ما تبعها عم جواد وأم بخاطرهما . ولما رآته أمه وثبت من
 الفراش وضمته الى صدرها وهي تقول بصوت ضعيف :
 - سامحك الله .. كيف هانت عليك أملك ؟
 فتناول راحتها بين يديه وأجلسها على الفراش وجلس الى جانبها
 وهو يقول :
 - اني آسف ..
 فرفع ابوه وجهاً متجهماً نقيض الارتياح الساري في اعماقه كالغمامة
 السوداء المظلمة لوجه القمر وقال بعتاب :
 - ليس الا اننا قصدنا اسعادك !
 فتساءلت عبدة بعينين مغرورتين :
 - توهمت اننا نجبرك على الزواج !
 فقال بحزن :
 - اني متعب .
 فسأله اكثر من صوت :
 - أين كنت ؟

فتنهـد قائلاً :

— ضقت بحياتي فذهبت الى الخلاء ، شعرت برغبة في الوحدة والخلاء . ولم اكن أتركه الا لشراء الطعام .

فضرب الأب جبهته بيده وصاح :

— ما هكذا يفعل العقلاء !

واذا بأـم بخاطرها تقول في اشفاق :

— دعوه ، انـا خيرة بهذه الاحوال ، ولا يصح ان يُفرض عليـ مثلـه شيء يأباه .

فقالـت عبدة وهي تشد على يده :

— كانت سعادتـه أملنا ، ولكن ما قدر كان ، كم ضمرت يا بني !

وتساءل عم شافعي في غيظ :

— دلوني على شيء كهذا حصل من قبل في حارننا !

فقالـت أم بخاطرها في لوم :

— ليس حاله بالغريب عليـ يا عم شافعي ، صدقني ، انه شاب

نادر المثال !

فغمغم عم شافعي في حزن :

— صرنا احدثـة في الحارة .

فقالـت أم بخاطرها غاضبة :

— ليس في الحارة كلها فتى مثله .

فقال عم شافعي :

— هذا موضع الأسى .

فصاحت أم بخاطرها :

— وحد الله يا رجل ، أنت لا تدري ماذا تقول ولا تفهم ما يقال

أصبح للدكان منظر يوحى بالنشاط والنجاح . فعند طرف الطاولة وقف عم شافعي ينشر الخشب ، وعند طرفها الآخر قبض رفاة على القدوم وراح يدق المسامير ، أما أسفل الطاولة فبدأ اناء الغراء مغروساً في ركام النشارة حتى منتصفه . واستندت الى الجدران ضلفات نوافذ ومصاريع أبواب ، بتوسطها صف عمودي من الصناديق الجديدة بلون الخشب الباهت المصقول لا ينقصها إلا الدهان . وامتلاً الجو برائحة خشبية وأصوات النشر والدق والحك وقرقرة الجوز يدخنها أربعة زبائن جلسوا عند مدخل الدكان يتحدثون . وقال حجازي مخاطباً عم شافعي :
 - سأجرب مهارتك في هذه الكنية وان شاء الله سيكون العمل القادم جهاز البنت (ثم مخاطباً أصحابه) .. وأعود فأقول لكم إننا نعيش في أيام لو عاد إليها جبل الجئن .

فهبوا رءوسهم في أسى وهم يدخنون ، اما يروهم الترابي فسأل عم شافعي باسمًا :

- لماذا لا تريد ان تصنع لي تابوتاً ؟ أليس كل شيء بثمنه ؟

فكف عم شافعي يده عن المنشار لحظة وقال ضاحكاً :

- يفتح الله ، وجود التابوت في الدكان يهرب الزبائن .

فقال فرحات مؤمناً على قوله :

- صدقت ، قطع الموت وسيرته .

فعاد حجازي يقول :

- عيبكم أنكم تخافون الموت أكثر مما ينبغي : لذلك سيطر عليكم

خنفس ، وتسلطن بيومي ، وصادر إيهاب أرزاقكم .

— وأنت ألا تخاف الموت مثلنا ؟

فبصق ثم قال :

— العيب عينا جميعاً ، كان جبل قوياً ، وبالقوة والعنف استخلص لنا حقنا الذي اضاعه الجبن .

وإذا برقاعة يتوقف عن الدق فيخرج المسامير من فيه ويقول :

— اراد جبل استخلاص حقنا بالحسنى . ولم يعمد الى القوة الا دفاعاً عن نفسه .

فضحك حجازي استهزاء وقال متسائلاً :

— خبرني يا ابني هل تستطيع دق المسامير الا بالقوة ؟

فقال رفاة باهتمام جدي :

— ليس الانسان كالحشب يا معلم .

وحده أبوه بنظرة فعاد الى عمله . واستطرد حجازي قائلاً :

— الحق ان جبل كان فتوة من اشد الفتوات الذين عرفتهم حارتنا ،
وكم حث آل جبل على الفتوة .

فقال فرحات مصححاً :

— أراد منهم ان يكونوا فتوات على الحارة لا على آل جبل .

— وما هم اليوم الا فئران او أرانب .

وتساءل عم شافعي وهو يجفف أنفه بظهر يده :

— وأي الألوان تفضل يا عم حجازي ؟

— اختر لوناً لا يتوسخ بسرعة ، فهذا أضمن للنظافة .

وواصل حديثه للصحاب قال :

— ويوم فقأ دعبس عين كعلها فقأ جبل عينه ، فبالجبروت اقام العدل ..

وتنهذ رفاة بصوت مسموع وقال :

— لا يعوزنا الجبروت ، كل ساعة من نهار او ليل نرى اناساً
يضربون ويبحرون ويقتلون ، حتى النساء ينشبن الاظافر حتى تسيل

الدماء ، ولكن أين العدل ؟ الا ما اقيح هذا كله ١ .
ووجع الجميع لحظة ثم قال حنورة ، وكان يتكلم لأول مرة :
- هذا المعلم الصغير يحقر حارتنا ١ . انه رقيق اكثر من اللازم وأنت
السبب يا معلم شافعي .
- أنا ؟ !

- نعم ، انه شاب مدّلع .
والفتى حجازي نحو رفاة وقال ضاحكاً :
- خير من هذا ان نجد لنفسك عروساً !
ونعالى الضحك ، فقطب هم شافعي ، وتورد وجه رفاة ، وعاد
حجازي يقول مؤكداً :

- القوة .. القوة ، بغيرها لا يسود العدل !
فقال رفاة باصرار رغم نظرات ابيه اليه :
- الحق ان حارتنا في حاجة الى الرحمة .
فضحك برهوم الترابي قائلاً :
- أتريد أن تخرب بيتي ؟
وضجوا بالضحك . وأعقب ذلك نوبات سعال ، حتى قال حجازي .
وقد صارت عيناه في لون الغرا :
- قديماً ذهب جبل الى الافندي يسأله العدل والرحمة ، فارسل اليه
زقلط ورجاله ولولا النبايت - لا الرحمة - لهلك جبل وآله .
وهتف عم شافعي محذراً :
- يا هوه ! للحيطان آذان ، لو سمعوكم ما وجدتم من يسمي عليكم .
فقال حنورة :

- صدق الرجل ، ما انتم الا حشاشون لا خير فيكم ، ولو مر
امامكم الآن خنفس ، لسجدتم بين يديه .
ثم وهو يلتفت نحو رفاة :

لا تؤاخذنا يا بني ، فليس على الحشاش حرج ، ألم تجرب الحشيش يا رفاعه ؟

فقال عم شافعي ضاحكاً :

— لا يميل الى مجالسه ، وان زاد على نفسيين لهث او نام .

فقال فرحات :

— ما الطف هذا الشاب ، يظنه البعض كودية زار للملازمته لأم بخاطرها ويظنه آخرون شاعراً لتعلقه بالحكايات .

فقال حجازي ضاحكاً :

— ويكره مجالس الحشيش كما يكره الزواج !

ونادى برهوم صبي القهوة ليأخذ الجوز ، ثم قاموا مسلمين فانفض المجلس . وترك عم شافعي المنشار لينظر الى ابيه في عتاب ثم قال :

— لا تحشر نفسك في احاديث اولئك الناس .

وجاء غلبان ليلعبوا أمام الدكان فدار رفاعه حول الطاولة حتى وقف أمام أبيه ، ثم تناول يده وتراجع به الى ركن الدكان بعيداً عن الآذان . بسدا منفعلاً قلقاً لكن تطابقت شفتاه في تصميم . وشع من عينيه نور عجيب حتى تساءلت عينا الرجل واذا برفاعه يقول :

— لن أستطيع السكوت بعد اليوم .

فتضايق الأب . يا له من متعب هذا الابن العزيز . ينفق وقته الغالي في بيت أم بخاطرها . ويخلو الساعات الطوال الى نفسه عند صخرة هند . واذا مكث في الدكان ساعة أثار المشاكل بمناقشاته .

— هل تجد تعباً ؟

فقال بهدوء غريب حل محل القلق :

— لا يجوز ان أخفي عليك ما في نفسي .

— ماذا عندك ؟

فاقرب منه اكثر وقال :

- أمس عقب خروجي من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت
برغبة في الانطلاق فقصدت الحلاء ، مشيت في الظلام حتى تعبت ، ثم
اخترت مكاناً أسفل سور البيت الكبير المشرف على الحلاء فجلست مسنداً
ظهري الى السور .

فبدا الاهتمام في عيني الرجل ، وحثه بنظرة على متابعة الحديث فقال :
- سمعت صوتاً غريباً يتكلم ، كأنما كان يحدث نفسه في الظلام ،
فدهمني شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلاوي .
فحملني الرجل في وجه ابنه وتمم في ذهول :
- صوت الجبلاوي ؟ ما الذي حملك على هذا الظن ؟
فقال رفاعه بحرارة :

- ليس ظناً يا أبي ، سيجيئك الدليل ، وقد فت حبال سماعي
الصوت فاستدرت نحو البيت وتراجعت الى الوراء لأتمكن من رؤيته ولكني
لم أرَ إلا ظلاماً .
- الحمد لله !

- صبراً يا أبي ، سمعت الصوت وهو يقول : « أما جبل فقد قام
بمهمته وكان عند حسن الظن به ، ولكن الأمور ارتدت الى أقبح مما
كانت عليه » !

شعر شافعي بصدوره يخرق وتفصده جبينه عرقاً ، وقال بصوت متهدج :
- ما أكثر الذين جلسوا مجلسك تحت السور فلم يسمعوا شيئاً .
- لكني أنا سمعت يا أبي .

- لعله أخذ كان راقداً في الظلام !

فهز رأسه بعزم وقال :

- بل جاء الصوت من البيت !

- كيف عرفت هذا ؟

- هتفت قائلاً : « يا جدي ، جبل مات ، وخلفه آخرون ، فندّ

الينا يدك .

فقال شافعي باضطراب :

— الله أسأل ألا يكون أحد سمعك ..

فقال رفاعه بعينين مضببتين :

— جدي سمعني ، وجاءني صوته قائلاً : « ما أقبح ان يطالب شاب

جده العجوز بالعمل ، والابن الحبيب من يعمل .. » فسأته : « وما حيلتي

حيال اولئك الفتوات انا الضعيف ؟ » فأجابني : « الضعيف هو الغبي

الذي لا يعرف سر قوته وانا لا أحب الأغبياء » .

فتساءل عم شافعي في فزع :

— أظن ان هذا الكلام دار بينك وبين الجبلاوي ؟

— نعم ورب السماوات !

فند عن الرجل أنين ، وقال متوجعاً :

— يا للاوهام خلقة المصائب !

— صدقني يا أبسي ، ليس فيما أقول شك .

فقال الرجل متحسراً :

— لا تقطع أمني في أن نجد فيه شكاً .

فقال رفاعه بوجه يتأني نشوة كالنغمة الحلوة :

— وأعرف الآن ما يراد مني .

فضرب الرجل جبينه بغيظ وصاح متسائلاً :

— وهل أيضاً يراد منك شيء ؟

— نعم ، اني ضعيف ولكنني لست غيباً ، والابن الحبيب من يعمل !

فهتف شافعي وهو يشعر كأن المنشار ينشر صدره :

— سيكون عمك أسود ، وسوف تهلك وتجرنا معك الى الهلاك !

فقال رفاعه باسمياً :

— انهم لا يقتلون الا من يتطلع الى الوقف !

— وهل تتطلع الى شيء غير الوقف ؟

فقال رفاعه بصوت مليء بالثقة :

— كان أدهم ينشد الحياة الصافية الغناء ، كذلك جبل وهو لم يطالب بحقه في الوقف إلا سعيّاً وراء الحياة الصافية الغناء ، لكن غلب علينا الظن بأن هذه الحياة لن تتيسر لأحد الا اذا توزع الوقف على الجميع فنال كل حقه واستثمره حتى يغنيه عن الكد فتخلص له الحياة الصافية الغناء ، ولكن ما أتفه الوقف ان امكن بلوغ هذه الحياة بدونه ، وهو أمر ممكن لمن يشاء ، وبوسعنا ان نغني منذ الساعة !

فتنهّد عم شافعي في شيء من الارتياح ، وتساءل :

— هل قال لك جدك ذلك ؟

— قال إنه لا يحب الغناء ، وقال إن الغني هو الذي لا يعرف سر قوته ، واني آخر من يدعو الى قتال في سبيل الوقف ، الوقف لا شيء يا أبي ، وسعادة الحياة الغناء هي كل شيء ، ولا يحول بيننا وبين السعادة الا العفاريث الكامنة في أعماقنا ، ولم يكن عبثاً ان أشغف بطب العفاريث وان أحسنه ، لعلها لإرادة رب السماوات هي التي دفعتني اليه . ارتاح شافعي بعد عذاب ، ولكن بعد ان استنفد العذاب قواه ، فانحط على النشارة ، ماداً ساقيه ، مسنداً ظهره الى ضلفة نافذة منتظرة دورها في الاصلاح ، ثم سأل ابنه في شيء من السخرية :

— وكيف لم تبلغ الحياة الغناء وفينا أم بخاطرها من قبيل ان تولد

أنت ؟

فقال رفاعه بالصوت المليء بالثقة :

— لأنها تنتظر حتى يجيء اليها المرضى الموسرون ولا تذهب بنفسها

الى المساكن .

فنظر عم شافعي في اركان دكانه وقال بارتياح :

— انظر الى اقبال الرزق علينا فاذا يجيء لنا الغد من تحت رأسك ؟

فقال رفاعة بابتهاج :
- كل خير يا أبني ، ان شفاء المرضى لن يقلق إلا العفاريت .
وتوهج ضياء في الدكان منبعثاً من مرآة صوان قرب الباب ، عاكساً
شعاع الشمس المائلة .

٥١

وانتقل القلق ليلاً الى بيت عم شافعي . ومع ان الحديث تنهى الى
عبدة في اطار من الطمأنينة ، ومع أنها لم تعلم سوى ان رفاعة سمع صوت
جده وهو يتكلم وانه قرر بعد ذلك ان يزور المساكين ليطرد عنهم
العفاريت ، الا ان القلق اجتاح نفسها ولبت قلب وجوه العواقب .
كان رفاعة في الخارج . وكان في أقصى الحارة - بعيداً عن حي جبل -
عرس تراسى منه أصوات طبل وزمر وزغاريد . واراقت المرأة ان
تواجه الحقيقة فقالت بحزن :

- رفاعة لا يكذب .

فقال شافعي بامتعاض :

- ولكن قد نخدعه الأوهام : كلنا عرضة لذلك .

- وماذا ترى فيما سمع ؟

- كيف لي بأن أجزم !

- لا محال في الأمر ما دام جدنا حياً .

- الويل لنا لو عرف الخبر .

فقالت برجاء :

- فلنكنم الخبر ، ولنحمد الله على أنه ركز اهتمامه بالنفوس لا
بالوقف ، وما دام لا يؤذي أحداً فلن يؤذيه أحد .

فقال شافعي بفتور :

— ما اكثّر الذين يُؤذّون في حارتنا دون ان يؤذوا أحداً !
وانجذفت أنغام العرس وراء ضجة انفجرت في الدهليز . وأطلا من
النافذة فرأيا الدهليز مزدحماً بالرجال ، وتبيننا على ضوء مصباح في يد
احدهم وجوه حجازي وبرهوم وفرحات وحفورة وآخرين ، وكان كل
لسان يتكلم او يصرخ فاختلفت الأصوات وعمت الضوضاء . وعلا صوت
هاتفاً : « شرف آل جبل في الميزان ، ولن نسمح لأحد بتلويثه » .
وهمست عبدة في أذن زوجها وهي ترتعد .

— سر ابنتنا انكشف !

فترجع شافعي عن النافذة متأوهاً وهو يقول :

— لم يكذبني قلبي قط .

واندفع الرجل خارج بيته غير مبال بالخطر فتبعته زوجته على الأثر .
وشق الرجل في الزحام سبيلاً متسائلاً بصوت مرتفع :
— رفاعه ! .. أين انت يا رفاعه ؟

ولم يرَ الرجل ابنه في مجال ضوء المصباح ، ولم يسمع صوته ولكن
حجازي اقترب منه وسأله بصوت مرتفع ليُسمعه رغم الضوضاء :
— هل تاه ابنك مرة أخرى ؟

وصاح به فرحات :

— تعال اسمع ما يقال وانظر كيف يعبث العابثون بآل جبل على

آخر الزمان !

فهتفت عبدة جزعاً :

— وحدوا الله ، والمسامح كريم .

فتعالت اصوات الغضب، يهتف بعضها : « هذه المرأة مجنونة ! » ويهتف
آخرون : « انها لا تعرف معنى الشرف ! » وامتلأ قلب شافعي رعباً
وسأل حجازي مستعظفاً :

— أبن الولد ؟

فشق حجازي سبيله حتى الباب وصاح بأعلى صوته :

— يا رفاعة .. تعال يا ولد كلم عم شافعي .

فاختلط الأمر على عم شافعي الذي كان يظن ابنه مقبوضاً عليه في ركن الدهليز ، وإذا برفاعة يظهر في مجال الضوء فيجذب به أبوه من ذراعه ويتقهقر به الى موقف عبدة . وسرعان ما تراءى فانوس في يد شلضم يسير به بين يدي خنفس الذي تقبض وجهه حنقاً وتجهماً . وانجھت الانظار نحو الفتوة وساد الصمت . وتساءل خنفس بصوت غليظ :

— ماذا وراءكم ؟

فاجابه اكثر من صوت في آن :

— ياسمينة لوئتنا !

فقال خنفس :

— فليتكلم الشاهد منكم !

فتقدم زيتونة — سائق عربية كارو — حتى وقف امام خنفس وقال :

— منذ قليل رأيته خارجة من باب بيت بيومي الخلفي ، تبعته الى هنا ثم سألتها عما كانت تفعل في بيت الفتوة فتبين لي سكرها ، كانت رائحة الخمر تخرج من فيها فتملأ الدهليز ، افلنت مني واغابت على نفسها الباب ، والآن سلوا أنفسكم عما يمكن ان تفعله امرأة سكرانة في بيت فتوة .

استرخت اعصاب شافعي وعبدة من ناحية ، وتوترت أعصاب خنفس من ناحية أخرى . أدرك الرجل ان فتوته تتعرض لامتحان قاس . فلو تهاون في معاقبة ياسمينة سيفقد كرامته امام آل جبل ، ولو ترك الغاضبين ليعتدوا عليها فسيوقع بنفسه الى موقف التحدي امام بيومي فتوة الحارة كلها . ما العمل ؟ وكان رجال جبل يتوافدون من الربوع ، ويحتشدون في الحوش ، وفي الحارة امام ربع النصر فازداد مركز خنفس

حرجاً . وتتابعت الأصوات في غضب :

— اطردها من حي جبل .

— يجب ان تجلد قبل طردها .

— اقتلوا قتلاً .

وترامت صرخة ياسمينة التي كانت تنصت في الظلام وراء النافذة .

واحدت الأعين بخنفس لكن رفاعه سمع وهو يسأل أباه :

— أليس الأولى بهم يا أبي أن يصبوا غضبهم على بيومي المعتدي؟

وغضب كثيرون من بينهم زيتونة الذي أجابه قائلاً :

— هي التي ذهبت الى بيته بنفسها .

وصاح به آخر :

— وإذا لم يكن عندك كرامة فمن الخير ان تسكت .

وزجره أبوه بنظرة لكن رفاعه قال باصرار :

— لم يفعل بيومي الا مثلاً تفعلون .

فصرخ فيه زيتونة بجنون :

— هي من آل جبل فلنست للآخرين .

— هذا الولد سفيه وبلا كرامة .

فلكزه عم شافعي كي يسكت على حين صاح برهوم :

— الكلمة الآن للمعلم !

وغلى الغيظ في قلب خنفس حتى كاد ان يختنق . وصرخت ياسمينة

صرخات استغاثة . وانتشر الغضب فالتجهمت الانظار نحو بيت الفتاة وتوثب

فيها الهجوم . وتتابع صرخات ياسمينة حتى تقطع قلب رفاعه ولم يعد

في وسعه الاحتمال ، فأفلت من يد أبيه وشق طريقه الى بيت ياسمينة

وهتف برجاء :

— رحمة بضعفها وذعرها .

فصاح به زيتونة :

انت مرة !

وناداه شافعي بجمرة لكنه لم يباله وأجاب زيتونة :

— الله يسأحك (ثم للجميع) ارحموا افعلوا بي ما تشاءون ، ألا تحرك الاستغاثات قلوبكم ؟ !

فعاد زيتونة يصيح :

— لا تلتفتوا لهذا الرقيق (ثم مخاطباً خنفس) الكلمة كلمتك

يا معلم !

فتساءل رفاعة :

— هل يرضيكم ان اتزوج منها ؟

فاختلط صراخ الغضب بصيحات الاستهزاء ، وقال زيتونة :

— لا يهتنا الا ان تنال جزاءها .

فاستقتل رفاعة قائلاً :

— سيكون العقاب من شأني أنا .

— بل هو من شأن الجميع .

ووجد خنفس في اقتراح رفاعة منقذاً له من ورطته . لم يكن في قلبه مقتنعاً به ولكن لم يكن عنده خير منه . وغالى في تجمعه مداريساً ضعفه ، وقال :

— الولد ارتبط اماننا بزواجها فله ما يطلب .

زاغ بصر زيتونة وأعماه الغضب فصاح :

— ضيّع الجبن الشرف !

وإذا بقبضة خنفس تحطم أرنبه أنفه ، فتراجع مولولاً والدم يسيل من منخرية بغزارة . وأدرك الجميع ان خنفس سيغطي على موقفه الضعيف بارهاب من يخالفه . وقلب عينيه في الوجوه التي كشف ضوء الفانوس عن خوفها فلم تند من احد منهم حركة عطف على محطم الأنف . بل وبخ فرحات زيتونة قائلاً : « عيبك في لسانك » . وقال برهوم لخنفس

« لولاك ما اهتدينا الى حل ! » . وقال له حنورة : « زعلك بالدنيا يا معلم » . وأخذوا في التفرق فلم يبق في النهاية إلا خنفس وشلضم وشافعي وعبدة ورفاعة . ومضى عم شافعي الى خنفس ليحييه فدله يده ولكن الآخر استشاط غضباً وضرب يده بظاهر كفه فتأوه الرجل مقهقراً . وهرع اليه ابنه وزوجته على حين غادر خنفس الدهليز وهو يسب الرجال والنساء وآل جبل بل وجبل نفسه . ونسي عم شافعي في ألمه الورطة التي عثر فيها ابنه . ونقع الرجل يده في ماء ساخن وراحت عبدة تدلكها وهي تقول :

— ترى هل اوغرت زكية صدر زوجها علينا ؟!

فقال عم شافعي متوجعاً :

— نسي الجبان ان ابننا الأحق هو الذي انقذه من نبوت بيومي ..

٥٢

كان رفاعة معقن آمال والديه فشد ما خابت الآمال . بزواجه من ياسمينه سينتهي الشاب الى لا شيء ، أما الأسرة فصارت مضغة للأفواه ولما يتم الزواج . وبكت عبدة خفية حتى أضربها البكاء . ونجهم وجه شافعي اذ تبهيمته الدنيا . لكنها حيال الشاب انطويا على نفسيهما وتجنبا المغاضبة . ولعل ياسمينه هونت من الخطب بسلوكلها عقب المظاهرة اذ هرعت الى بيت عم شافعي وجثت امام الرجل وزوجه باكية وسكنت على قدميهما بعض ما فاض به قلبها من الامتنان ، ثم أعلنت في حرارة وجدّ توبتها . ولم يكن من الممكن العدول عن الزواج بعد أن ارتبط به الشاب جهاراً امام آل جبل : فسلم عم شافعي وزوجه بالأمر ووطننا النفس على تقبله . وتنازع قلبي الوالدين رغبتان ، واحدة تود ان ترعى

التقاليد في الاحتفال بعرس رفاعه وموكب زفته : والأخرى ترى
الاقتصار على حفل بيتي حتى لا يتعرض الموكب بسخرية آل جبل الذين
باتوا يعرضون بالزواج في كل ناد . وقالت عبدة في حسرة معربة عن
عواطفها المكبوتة :

— طالما منيت نفسي برؤية زفة رفاعه ، ابني الوحيد ، وهي تجوب
الأحياء !

فقال عم شافعي بامتعاض :

— لن يرضى بالاشتراك فيها أحد من آل جبل .

فقطبت عبدة قائلة :

— العودة الى سوق المقطم خير من البقاء بين اناس لا يحبوننا !

فقال رفاعه وهو يمد ساقيه تحت النافذة المفتوحة متشمساً :

— لن نغادر الحارة يا أمي .

فصاح شافعي بحدة :

— ليتنا لم نعد ! (ثم مخاطباً ابنه) .. الم تكن حزينا يوم عدنا ؟

فابتسم رفاعه قائلاً :

— اليوم غير الأمس ، اذا ذهبنا فنذا الذي يخلص آل جبل من

العفاريت ؟

فقال شافعي محتداً :

— فلتركبهم العفاريت الى الأبد !

ثم بعد تردد :

— انت نفسك ستجئ الى بيتنا بـ ..

وقاطعه رفاعه :

— لن اجيء الى بيتنا بأحد ، سأذهب انا الى المسكن الآخر .

فهتفت الأم :

— لا يعني أبوك ذلك !

- لكنني أعنيه يا أمي ، ليس البيت الجديد بالبعيد ، وفي وسعنا ان نتصافح كل صباح من النافذة !
ورغم أحزان عم شافعي قرر الاحتفال بيوم الزفاف ولو في أضيق الحدود . أقام الزينات بالدهليز وفوق بابي المسكنين ، وجاء بمغن وطباخ . ودعا جميع المعارف والأصدقاء ، ولكن لم يلب الدعوة الا عم جواد وأم بخاطرهما وعم حجازي واسرته وبعض الفقراء الذين حرصوا على الطعام . وكان رفاة أول فتي يتزوج بلا زفة . وانتقلت الاسرة عبر الدهليز الى بيت العروس . وغنى المطرب بفتور لقله المدعويين . وفي اثناء تناول الطعام اثنى جواد الشاعر على شهامة رفاة وخلقه وقال انه فتي زكي حكيم صافي السريرة ولكنه في حارة لا تقيم لغير البلطجة والنبايت وزناً . واذا بغلمان يقفون امام الربع ويغنون معاً :

يا رفاة يا وش القملة مين قلّك تعمل دي العمله

ويختمون بالتهليل والعريدة . ونظر رفاة في الأرض على حين اصفر وجه شافعي . وغضب عم حجازي وقال :
- الكلاب اولاد الكلاب !
ولكن عم جواد قال :

- ما اكثر القاذورات في حارتنا ولكن الطيب لا ينسى فيها ابداً ، كم من فتوة استكبر فيها ؟ لكنها لا تذكر بالجميل الا أدهم وجبل . ثم حث المطرب على الغناء ليغطي غناؤه على الأصوات المعريدة . ومضى الحفل في مغالبة للوجوم حتى انصرف الجميع . ولم يبق في البيت الا رفاة وباسميته . بدت الفتاة في ثوب العرس آية في الجمال ، والى جانبها جلس رفاة في جلباب حريري مهفّف ، وعلى الرأس لاسة مزركشة ، وفي القدمين مركوب فاقع الاصفرار . جلسا على كنبه ، يقابلها في الناحية الأخرى الفراش المورد . وقد لاحت في مرآة الصوان

صورة الطست والابريق تحت الفراش . والظاهر انها كانت تتوقع من جانبه هجوماً ، أو في الأقل تمهيداً للهجوم المنتظر ، ولكنه لبث يردد البصر بين الفانوس المدلى من السقف والحصيرة الملونة . ولما طال الانتظار ارادت ان تبدد كثافة الصمت المخيم فقالت برقة :

— لن أنسى فضلك ؛ اني مدينة لك بحياتي .

فنظر نحوها في مودة وقال بصوت من لا يود الرجوع الى هذا الحديث :

— كلنا مدينون بحياتنا لغيرنا .

ما أظنيه ! ليلة الحادث أبى أن يبيع لها يديه تقبلها . وهو الآن لا يود تذكيره بالجميل الذي صنع . ليس كمثل طبيسته الا صبره . لكن فيم يفكر يا ترى ؟ هل ساءه أن تدفعه طبيسته الى الزواج من مثلها ؟ — لست شريرة بالدرجة التي يظنها الناس ، أما هم فقد أحبوني واحترروني لشيء واحد .

فقال مواسياً :

— أعرف ذلك ، ما اكثر الأخطاء بحارتنا .

فقالت بحق :

— يفاخرون دائماً بأنهم من صلب أدهم ، وفي نفس الوقت يباهون بالكبائر ..

فقال في يقين :

— ما دام التخلص من العفاريث ميسوراً فما أقربنا من السعادة . ولم تدرك مرماه ولكنها استشعرت فجأة مدى السخرية التي تحيط بها في جلسها فقالت ضاحكة :

— ما أعجبه من حديث في ليلة الزفاف !

ورفعت رأسها في شيء من الكبرياء فبدا انها تنامت حال الامتنان ، وأزاحت عن منكبيها الوشاح ، ونظرت نحوه نظرة مفعمة بالدلال ، فقال برجاء :

- ستكونين أول من يسعد حارتنا .
 فقالت باسمينة :
 — حقاً ؟ ! عندي شراب !
 — شربت قليلاً مع العشاء ، وفيه الكفاية .
 فتفكرت قليلاً في حيرة ثم قالت :
 — عندي حشيش طيب !
 — جربته فوجدتني لا أطيقه .
 فقالت في ارتياح :
 — أبوك حشاش قارح ، رأيت مرة خارجاً من غرزة شلضم وهو لا
 يميز بين الليل والنهار !
 فابتسم دون أن ينبس ، فردت عنه طرفها في انكسار ، وتميزت
 غيظاً . وقامت فضت حتى الباب ثم استدارت عائدة حتى وقفت تحت
 الفانوس . وشف ثوبها الرقيق عن جسدها البارع . وجعلت تنظر في
 عينيه الهادئين حتى داخلها اليأس . وتساءلت :
 — لماذا أنقذتني ؟
 — لا أطيق ان يتعذب إنسان .
 فغلبها الغيظ ، وقالت في حدة :
 — من أجل هذا تزوجتني ، من أجل هذا وحده !
 فقال برجاء :
 — لا تعودني الى أيام الغضب !
 فعضت شفتها فيما يشبه الندم وقالت بصوت منخفض :
 — ظننتك احببتني .
 فقال في صدق وبساطة :
 — اني أحبك يا باسمينة .
 فلاح التعجب في عينيها وغمغمت :
 — حقاً ؟ !

- نعم ، ما من مخلوق في حارتنا إلا وأحبه !
فتنهدت في خيبة ، ورمقته بريية قائلة :
— فهمتك ؛ ستبقى الى جانبي شهراً ثم تطلقني
فاتسعت عيناه وتمتم :
— لا نعودي الى الافكار الماضية !
— حيرتني ! ماذا عندك لي ؟
— السعادة الحقيقية .
فقالت بامتعاض :
— عرفتُها احياناً من قبل أن أراك !
— لا سعادة بلا كرامة !
فقالت وهي تضحك على رغبتها :
— ولكننا لا نسعد بالكرامة وحدها .
فقال بصوت حزين :
— لم يعرف أحد من حيننا السعادة الحقيقية .
انجهت بخطوات ثقيلة نحو الفراش ، وجلست على حافته في فتور .
ودنا اليها بحنان وقال :
— انك كجميع أهل حيننا لا تفكرين الا في الوقف الضائع !
فلاح في وجهها السخط وقالت :
— ربنا يقدرني على حل ألغازك .
— ستحل نفسها بنفسها عندما تتخلصين من عفريتك .
فهتفت بحدة :
— اني راضية عن نفسي كما هي .
فقال رفاعاً بأسى :
— هكذا يقول خنافس والآخرون !
ونفخت في ضيق وتساءلت :

- هل نتكلم على هذا النحو حتى الصباح ؟
 - نامي ، أسعد الله أحلامك !
 وترحلت الى الورا ثم استلقت على ظهرها ، ورددت عينيها بين
 الفراغ جنبها وبين عينيها ، فقال :
 - خذي راحتك ، سأنام أنا على الكنبه .
 وانتابتها نوبة ضحك ، لكنها لم تستسلم لها طويلاً ، وقالت ساخرة :
 - أخاف ان تزورنا امك غداً لتحذرك من الافراط !
 ونظرت نحوه لتتشفى برؤية الحجل في وجهه ولكنه طالعها بعينين
 هادتين صافيتين ، وقال :
 - أود أن أخلصك من عفريتك !
 فصاحت غاضبة :
 - دع اعمال النساء للنساء .
 وأدارت وجهها للحائط . وكان صدرها يحرق غيظاً وقلقاً . وقام
 رفاعة الى الفانوس وأخفض ذبالته ثم نفعه فانطلقاً وساد الظلام .

٥٣

وشهدت الأيام التالية للزواج حركة دائبة في حياة رفاعة . انقطع
 عن الدكان أو كاد ، ولولا حب أبيه وعطفه لما وجدما بمسك به حياته .
 ومضى يدعو من يصادفه من آل جبل الى ان يثق به كي يخلصه من
 عفريته فيحقق بذلك سعادة صافية لم يحلم بها من قبل . وهامس آل
 جبل بان رفاعة ابن شافعي قد خف عقله وامسى من زمرة المجذوبين ،
 وعلل البعض ذلك بما عرف عنه من غرابة أطوار ، كما علل آخرون
 بزواجه من امرأة مثل ياسمينه ، ودارت الاحاديث عن ذلك في القهوة

والبيوت وحول عربات اليد وفي الغرز . وشد ما دهشت أم بخاطرهما حين
مال رفاعه على أذنها وقال برقته المعهودة :

— هلا سمحت لي بأن أظهرك ؟

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :

— من أدراك بأن علي عفريتاً شريراً ؟ ! أهذا هو رأيك عن المرأة
التي أحبتك كابنها ؟ !

فقال جاداً :

— أنا لا أعرض خدماتي إلا على الذين أحبهم وأحترمهم ، وأنت
مصدر خير وبركة ولكنك لا تخلين من طمع يملك على الانجسار
بالمرضى ، فلو تخلصت من سيدك لوهبت الخير بلا ثمن !

ولم تمالك المرأة من الضحك وهي تقول :

— أتود خراب بيتي ! الله يسامحك يا رفاعه .

وتناقل الناس حديث أم بخاطرهما ضاحكين ، حتى عم شافعي ضحك
ضحكة بلا مسرة ولكن رفاعه قال له :

— أنت نفسك يا أباي في حاجة إلي ، ومن البر أن أبدأ بك .

فهب الرجل رأسه في كمد ، وراح يرق المسامير بين يديه بقوة وشت
بانفعاله ، ثم قال :

— ربنا يصبرني .

وحاول الشاب اقناعه فتساءل الرجل مثلاً :

— أما كفالك أن جعلتنا أحدى الحبي ؟ !

وانزوى رفاعه في ركن الدكان مكتئباً فرمقه الرجل برية وسأله :

— أحقاً دعوت زوجك إلى ما تدعونا إليه ؟

فقال بأسف :

— وهي مثلكم لا ترغب في السعادة .

ومضى رفاعه الى غرزة شلضم في الحراة وراء القهوة فوجد حول

المحجرة شلضم وحجازي وبرهوم وفرحات وحنورة وزيتونة . تطلعوا اليه
بغربة وقال شلضم :

— أهلاً بابن عم شافعي ، ترى هل أقنعتك الزواج بفائدة الغرز ١٩

فوضع رفاة على الطبلية لفة كنانة وقال وهو يتخذ مجلسه :

— جئتكم بهذه تحية للمجلس .

فقال شلضم وهو يدبر الجوزة :

— مرحباً بالكرم .

لكن برهوم ضحك فجأة وقال بلا هوادة :

— وسوف يعرض علينا بعد ذلك أن يقيم لنا حفلة زار ليطهرنا من

العفاريت !

وهتف زيتونة حائقاً بصوته الأخنف وهو يلتهمه بنظرة حاقدة :

— على زوجتك عفريت اسمه بيومي فخلّصها منه إن استطعت .

وهبت الرجال ووضح في وجوههم الحرج فقال زيتونة وهو يشير الى

انفه المحطم :

— بسببه فقدت أنفي .

وبدا أن رفاة لم يغضب ، فنظر فرحات نحوه بأسى وقال :

— أبوك رجل طيب ونجار ماهر ، ولكنك بسلوكك هذا تجر عليه

المتاعب والسخرية ، لم يكذ الرجل يفيق من زواجك حتى هجرت دكانه

لتخلص الناس من العفاريت ! شفاك الله يا بني .

— لست مريضاً ولكني أود لكم السعادة .

فشد زيتونة نفسها طويلاً وهو يرمقه بقموسة ثم نفث الدخان متسائلاً :

— ومن أخبرك بأننا غير سعداء ؟ !

فقال الشاب :

— أراد جدنا لنا غير ما نحن عليه .

فقال فرحات ضاحكاً :

- دع جلدك في حاله ، من أدراك انه لم ينسنا !
وحده زيتونة بنظرة حائقة حاقدة ولكن حجازي لكزه قائلاً في
تحذير :

- ينبغي ان تحترم المجلس فلا تفكر في الاعتداء !
وأراد الرجل ان يغير الجو فhez رأسه وأشار الى أصحابه اشارة خاصة
فراحوا يغنون :

مركب حبيبي في الميه جايه
راخية شعورها على الميه

وغادر المكان وبعضهم ينظر نحوه في رثاء . وعاد الى بيته بفؤاد
كسير فاستقبلته ياسمينه بابتسامة هادئة . وكانت تلومه أول الأمر على
سلوكه الذي جعل منه - ومنها بالتالي - نادرة . لكنها كفت عن لومه
يائسة . وصبرت على تلك الحياة التي لم تدر على أي وجه ستنتهي ، بل
وعاملته بلطف ورقة . ودق الباب ، وإذا بالقادم خنفس فتوة آل جبل.
دخل الرجل دون استئذان فقام له رفاعة مرحباً فقبض الفتوة على منكبه
بيد شديدة كأنها فكاً كلب غاضب . وسأله دون مقدمات :

- ماذا قلت عن الوقف في غوزة شلضم ؟
ارتاعت ياسمينه حتى هرب دمها لكن رفاعة قال بهدوء رغم انه بدا
كعصفور بين مغالب نسر :

- قلت إن جدنا يود لنا السعادة !

فهزه هزة عنيفة وسأله :

- من أدراك بذلك ؟

- ورد ذلك ضمن أقواله لجبل .

فازدادت يده شدة على منكبه وقال :

- انه كلم جبل عن الوقف .

فقال رفاعة وقد انهكه تحمل الألم :

— لا يعنيني الوقف في شيء ، السعادة التي لم استطع ان أحققها
بعد لأحد شيء غير الوقف ، وغير الخمر ، وغير الخيش ، قلت
ذلك في كل مكان بحي جبل ، وسمعتي الجميع وأنا أقوله .
فهزه مرة أخرى وقال :

— كان ابوك عاصياً ثم تاب ، إحدرك ان تعيد سيرته والا هرسك
كما تهرس البقة ..

ودفعه فهوى على ظهره فوق الكنية ، ثم ذهب . وهرعت ياسمينة
اليه لتواسيه وتلك منكبه الذي مال عليه رأسه من الوجع . وبدا في شبه
غيبوبة ، وغمغم كأنما يحدث نفسه :
— انه صوت جدي الذي سمعته :

ونظرت في وجهه باشفاق وذعر . ونساءلت هل ضاع عقله حقاً ؟
ولم تعد عليه ما قال وساورها قلقت لم تشعر به من قبل . ويوما غادر
الربع فاعترضت سبيله امرأة من غير آل جبل ، وقالت له باستعطاف :
— صباح الخير يا معلم رفاعه .

ودهش لرنه الاحترام في صوتها وللقب الذي قرنته باسمه فسألها :
— ماذا تريدين ؟
فقال بفضاعة :

— لي ابن ممسوس أرجو ان تخلصه !
وكان كآل جبل جميعاً يحتقر أهل الحارة فاستنكف ان يضع نفسه
في خدمة المرأة فيضاعف من ازدراء آله له ، فقال لها :

— الا توجد كودية في الحارة ؟

فقال المرأة بصوت باك :

— بلى ولكني امرأة فقيرة .

ورق لها قلبه كما أسره لجوؤها اليه هو الذي لم يلق من آله الا الهزاء
والاحتقار . ونظر اليها في تصميم وهو يقول :
— اني طوع أمرك .

كانت ياسمينة تطل من النافذة على الحارة متسلية بالمنظر الجديد .
 وكان في أسفل الربع غلمان يلعبون ، وبائعة دوم تنادي ، على حين
 أمسك بطيخة بتلابيب رجل وراح يضرب وجهه بكفه والآخر يستعطفه
 دون جدوى . وسألها رفاعه وهو جالس على الكنبه يقص أظافر قدميه :
 - هل يعجبك بيتنا الجديد ؟

فالتفت نحوه قائلة :

- هنا تحتنا الحارة ، أما هنالك فلم نكن نرى الا الدهليز المعتم .
 فقال رفاعه بأسى :

- ليت الدهليز بقي لنا ، إنه دهليز مبارك ، اذ فيه تقرر النصر
 لجبل على اعدائه ، ولكن لم يكن في الامكان مواصلة الاقامة بين اناس
 يستهزئون بنا في كل خطوة ، أما هنا فالفقراء طيبون ، والطيب هو
 السيد لا آل جبل .

فألت ياسمينة باستهانة :

- وأنا كرهتهم مذ عزموا على طردي .
 فسألها باسماء :

- لماذا إذن تقولين للجيران إنك من آل جبل !
 فضحكت ضحكة كشفت عن اسنانها اللؤلؤية وقالت في مباهاة :
 - ليعلموا انني فوقهم جميعاً .

فوضع المقص على الكنبه وطرح ساقبه على الحصيرة وهو يقول :
 - ستكونين اجمل وافضل عندما تقهرين الغرور ، ليس آل جبل
 بخير حارتنا ، خير الناس أطيبهم ، وكنت مخطئاً مثلك فخصصت آل

جبل باهتامي ، ولكن السعادة لا يستحقها الا من ينشدها مخلصاً ،
انظري الى الطيبين كيف يقبلون عليّ وكيف يبرأون من العفاريث !
فقلت باحتجاج :

— لكن كل أحد هنا يعمل بأجر إلا أنت !
— لولاي ما وجد الفقراء من يشفيهم ، انهم يقدرّون الشفاء لكنهم
لا يملكون ثمنه ، وانا ما عرفت الأصدقاء حتى عرفتهم .
وامسكت عن الجدل بوجه ممتعض فقال رفاعه :
— آه لو تدعنين لي كما يدعون ! اذن خلصتك مما يعكر صفو
الحياة .

فتساءلت غاضبة :
— أنجدني مزعجة لهذا الحد ؟
— من الناس من يعشق عفريته وهو لا يدري .
فهتفت بحدة :
— ما أبغض هذا الحديث إليّ !
فقال باسمًا :
— انك من آل جبل ، وكلهم أبى ان يسلم لدوائى ، حتى
أبى نفسه !
وعندما دق الباب أدركا ان زبوناً جديداً قد قدم فنهيا رفاعه
لاستقباله .

والحق ان رفاعه لم يلق من عمره اسعد من هذه الأيام . كان يدعى
في الحي الجديد بالمعلم رفاعه ، وكانوا يدعونه بها في اخلاص ومحبة .
وعرف بأنه يخلص من العفاريث ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحده .
وهذا سلوك نقي لم يعرف عن أحد قبله ، فلذلك أحبه الفقراء كما لم
يجبوا احداً قط . وطبيعي ان بطيخة فترة الحي الجديد لم يجبه ، لسلوكه
الطيب من ناحيته ولأنه لم يكن من القادرين على اداء أجرة اتاوة من

ناحية أخرى ، ولكنه في الوقت نفسه لم يجد مسوغاً للاعتداء عليه .
أما الذين برثوا على يديه فكان لكل منهم قصة يرددها . فأم داود
كانت اذا ركبته النوبة العصبية عضت وليدها ، وهي اليوم مثال للهدوء
والاتزان . وسنارة الذي لم يكن له من هواية إلا الشجار والنقار أصبح
وديعاً حليماً كأنه تحية سلام . وطلبة النشال تاب توبة صادقة واشتغل
صبي مبيض نحاس . وعويس تزوج بعد الذي كان . واصطفي رفاعه
من مرضاه أربعة وهم زكي وحسين وعلي وكريم ، اصطفاهم لصدافته
فصاروا إخوة . لم يعرف أحد منهم الصداقة ولا الحب قبل ان يعرفه .
كان زكي برجياً ، وكان حسين مدمن أفيون لا يفيق ، وعلي يتدرب
على الفتوة ، وكريم قوادة ، فانقلبوا رجالاً ذوي قلوب كبيرة . وكانوا
يجمعون عند صخرة هند حيث الحلاء والهواء النقي ، فيتبادلون أحاديث
المودة والصفاء ، ويتطلعون إلى طبيبتهم بأعين تفيض بالحب والاخلاص ،
ويحلمون جميعاً بسعادة ستظل الحارة بأجنحتها البيضاء . ويوماً تساءل
رفاعة وهم بمجلسهم ينظرون الى حمرة الشفق في هدوء المغيب :

— لماذا نحن سعداء ؟

فأجاب حسين بحماس :

— أنتَ أنتَ سر سعادتنا .

فابتسم ابتسامة شكر وقال :

— بل لأننا تخلصنا من العفارىت فتطهرنا من الحقد والطمع والكراهية
وسائر الشرور التي تفتك بأهل حارتنا .

فقال علي مؤمناً على قوله :

— سعداء بالرغم من أننا فقراء ضعفاء لا حظ لنا في الوقف

او الفتوة .

فهز رفاعه رأسه اسفاً وقال :

— كم يتعذب الناس من أجل الوقف الضائع والقوة العمياء فالعنوا

معي الوقف والفتونة .
فاستبقوا الى لعنهما ، وتناول علي طوبة فرماها بأقصى قوته صوب
الجليل . وعاد رفاعة يقول :
— ومنذ قال الشعراء إن الجبل لا يحول على أن يجعل من ربع
آل جبل بيوتاً تضارع البيت الكبير في جلاله وجماله طمح الناس الى
قوة الجبل لاوي وجاهه ، وتناسوا مزاياه الأخريات ، لذلك لم يستطع
جبل ان يغير النفوس بنيله حقه في الوقف ، ولما رحل عن الدنيا انقلب
الأقوياء مقتصبين والضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع ، أما أنا
فأفتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه .
وهو كرم بوجهه إليه فقبله ، ففضى يقول :
— وغداً عندما يلمس الأقوياء سعادة الضعفاء سيذكرون ان قوتهم
وجاههم واموالهم المقتضية لا شيء .
وصدرت عن الاصدقاء كلمات الثناء والحب . وحل الهواء غناء راع
في أقصى الخلاء .
وتجلى في السماء نجم واحد . ونظر رفاعة في وجوه الأصحاب وقال :
— ولكني لا أكفي وحدي لعلاج أهل حارتنا ، آن لكم ان تعملوا
بأنفسكم ، وان تتعلموا الأسرار لتخلصوا المرضى من العفاريث .
فبدت الغبطة في الوجوه وهتف زكى :
— ذلك أعز أمانينا .
فابتسم اليهم قائلاً :
— ستكونون مفاتيح السعادة في حارتنا .
ولما عادوا إلى حيّهم وجدوه يضيء بأنوار عرس في أحد الربوع .
ورأى كثيرون رفاعة فأقبلوا عليه مصافحين . وتغيظ بطيخة فقسام من
مجلسه بالقهوة وهو يسب ويلعن ، ويصفع هذا وذاك ، ثم تحول الى
رفاعة متسائلاً في قحة :

— ماذا ترى في نفسك يا ولد ؟

فقال رفاعة برقة :

— صديق المساكين يا معلم .

فصاح الرجل :

— اذن امشِ كما يمشي المساكين لا كعريس الزفة ، أنسيت انك

طريد حيّ وزوج ياسمينة وكودية زار ؟!

وبصق في تحرش . وتباعد الناس . وساد الوجوم . لكن زغاريسد

الفرح غطت على كل شيء .

٥٥

وقف بيومي فتوة الحارة وراء باب حديقته الخلفي الذي يفتح على
الخلاء . كان الليل في أوله وكان الرجل ينتظر وهو يتصنت . وعندما
طرق اصبع الباب بخفة فتح الباب فتسللت الى داخل الحديقة امرأة كأنها
بملاءتها ونقابها قطعة من الليل . تناول يديها وسار بها في ممشي الحديقة
متجنباً الاقتراب من البيت حتى بلغ المنطرة فدفع الباب ودخل ، وهي
في أثره . وأشعل شمعة فأقامها على حافة نافذة ، فبدت المنطرة في شبه
مغيب ، والكنبات مصطفة باضلعها ، وفي الوسط صينية كبيرة محملة
بالجوزة ولوازمها في دائرة من الشلت . ونزعت المرأة عنها ملاءتها
والنقاب ، فضمها بيومي اليه بقوة نفذت الى عظامها حتى رمقته بنظرة
استرحام . وتخلصت منه برشاقة فضحك ضحكة خافتة وجلس على
شلتة . وراح يعبث بأصبعه في رمال المجمرة حتى تكشف عن جمر
يومض . وجلست الى جانبه وقبلت أذنه ثم اشارت الى المجمرة
وهي تقول :

— كذبت أنسى رائحته .

فراح يطرخدها وعنقها بالقبل ثم قال وهو يرمي قطعة في حجرها :

— هذا الصنف لا يدخنه في حارتنا إلا الناظر والعبد لله !

وترامى من الحارة صوت معركة تحتدم ، سبّ وارنظام عصي ،
وتحطم زجاج ، ووقع أقدام جارية ، وصوات امرأة ، ثم نباح كلب ..
ولاح تساؤل مترعج في عيني المرأة ولكن الرجل راح يقطع الصنف في
غير مبالاة ، فقالت المرأة :

— كم يشق عليّ المجيء ! فلكي آمن العيون اسير من الحارة الى
الجمالية ، ومن الجمالية الى الدراسة ، ومن الدراسة الى الحلاء حتى
بابك الخلفي .

فقال نحوها دون ان تكف أصابعه عن العمل وتشم ابطها في
تلذذ وقال :

— لن أبالي ان ازورك في بيتك .

فابتسمت قائلة :

— لو فعلت ما تعرض لك احد من الجبناء ، حتى بطيخة سيفرش
لك الرمل ، ثم يصبون غضبهم عليّ وحدي .

وعبثت بشاربه الغليظ وقالت في دعابة :

— لكنك تسلت الى المنطرة في بيتك خوفاً من زوجتك .

فترك القطعة وطوقها بذراعه فضمها اليه بعنف حتى أنت ،
ثم همست :

— اللهم احفظنا من عشق الفتوات .

فأطلقها وهو يرفع رأسه ويبرز صدره كالديك الرومي وقال :

— لا يوجد الا فتوة واحد ، اما الآخرون فصبيان .

فلاعبت شعر صدره المحور عنه طوق جلباه وقالت :

— فتوة على الناس لا عليّ أنا .

- فقرصها في صدرها بخفة وقال :
- أنت تاج رأس الفتوة .
- ومد يده الى ما وراء الصينية فتناول ابريقاً وهو يقول :
- بوظة عجيبة !
- فقالت آسفة :
- لها رائحة قوية قد يشمها زوجي العزيز !
- فتجرع من الابريق حتى روي ، ومضى يرص الحجر وهو يقول مقطباً :
- يا له من زوج ! لمحته مرات وهو يهيم على وجهه كالمجنون ، أول كودية زار من جنس الرجال في هذه الحارة العجيبة !
- فتابعته وهو يدخن وقالت :
- اني مدبنة له بحياتي ، لذلك أتصبر على معاشرته ، ولا ضرر منه اذ ليس أيسر من خداعه .
- وقدم اليها الجوزة فالتصمت فوهنها بشوق وشدت انفاساً بشراهة ثم زفرت الدخان مغمضة العينين ثملة الحواس . وراح بدوره يدخن ، فيأخذ انفاساً منقطعة وبين كل نفس وآخر يتكلم قائلاً :
- تركبته ... يعبث ... بك ... عبث ... الاطفال ..
- فهزت منكبيها هازئة وقالت :
- لا عمل لزوجي في هذه الدنيا الا تخليص الفقراء من العفاريث ..
- وانت ألا تخلصينه من شيء ؟
- مظلومة وحياتك ! نظرة واحدة الى وجهه تنفي عن الكلام .
- ولا مرة كل شهر !
- ولا كل سنة ، انه مشغول عن زوجته بعفاريث الناس !
- فلتركبه العفاريث ! وأي فائدة يجنيها من وراء ذلك ؟
- فهزت رأسها في حيرة وقالت :

— لا يجني شيئاً ، ولولا ابوه لهلكنا جوعاً ، وهو يعتقد بأنه مكلف
باسعاد الفقراء وتطهيرهم .

— ومن الذي كلفه ؟

— يقول إن هذا ما يريده الواقف لأبنائه .

وتجلى الاهتمام في عيني بيومي الضيقتين فوضع الجوزة في الكوز وسألها :
— أقال إن الواقف يريد ذلك ؟

— نعم ..

— ومن أدراه بما يريد الواقف ؟

وشعرت المرأة بضيق وانزعاج ، وخافت أن يفسد الجو ، أو أن
تحدث أمور خطيرة ، فقالت :

— هكذا يؤول أقواله التي يتغنى بها الشعراء .

ومضى يرص حجراً جديداً وهو يقول :

— حارة بنت كلب ، وحيّ جبل أنجبها ، فيهم ظهر أكبر دجال ،
وينشرون الاخبار الغريبة عن الوقف والشروط العشرة ، كأن الواقف
جدهم وحدهم ؛ وبالأمس جاء دجالهم جبل بكذبة سرق بها الوقف ،
واليوم يؤول هذا المعنوه كلاماً لا يقبل التأويل ، وسيزعم أنه سمعه من
الجبلاوي نفسه .

فقالت بقلق :

— انه لا ينشد سوى تخليص الفقراء من العفاريث .

فشخر الفتوة هازئاً ثم تساءل :

— ومن يدرينا فلعل في الوقف عفريناً !

ثم بصوت ارتفع للدرجة لا تتفق وسرية الاجتماع :

— الواقف ميت أو في حكم ذلك يا اولاد الكلب .

وانزعجت ياسمينه . خافت أن تغفل الفرصة المتاحة وان يتعكر الجو ،
مدت يدها الى الفستان لتزعه رويداً . وانبسطت اسارير الرجل بعد

نجهم ورنأ اليها بعينين متوثبتين .

٥٦

بدا الناظر في عباة ضئلاً . وكان الاهتمام بارزاً في وجهه الأبيض المستدير بروز الذبول الذي اعتور جفنيه والشيخوخة المبكرة الواضحة في نظرة عينيه وفي التجاعيد المرسومة تحتها من اثر التهالك في الشهورات . أما وجه بيومي المعتلى فلم يش بالارتياح الباطنى الذي سرى فيه نتيجة لقلق سيده ، ذلك القلق الذي يدل على خطورة الأنباء التي نقلها اليه ، فيدل بالتسالي على خطورة الدور الذي يؤديه للناظر وللوقف . وكان يقول للناظر :

— على رغبى أزعجك بهذه الأخبار ، ولكن لم يكن في وسعى أن أنصرف دون الرجوع اليك في أمر يتعلق بالوقف ، ومن ناحية أخرى فهذا المشاغب المعتوه من آل جبل ، وعلينا عهد بألا يتعدى أحد منا على أحد منهم الا بعد اذنك .

وتساءل الناظر ايهاب بوجه مكفهر :

— وهل زعم حقاً انه اتصل بالواقف ؟

— تأكد لديّ ذلك من أكثر من مصدر ، ان مرضاه يؤمنون بذلك

ولو أنهم يتكتمون الأمر بحرص شديد .

— لعله مجنون ، كما كان جبل دجالاً ، ولكن هذه الحارة القذرة

تحب المجانين والدجالين . ماذا يريد آل جبل بعدما نهوا الوقف بلا

حق ؟ لماذا لا يتصل الواقف بأحد غيرهم ؟ لماذا لا يتصل بي وأنا

اقرب الناس اليه ؟ انه قعيد حجراته ، ولا يفتح باب بيته الا عندما

تحمل اليه حوائجه ، لا يراه أحد ولا يرى هو الا جاريته ، ولكن ما

أيسر ان يقابله آل جبل او ان يسمعه .

فقال بيومي بحق :

— لن يرتاح لهم بال حتى يستولوا على الوقف كله .
فاصفر وجه الناظر غضباً ، وتوئب لاصدار الأوامر ، ولكنسه
تراجع متسائلاً :

— أقال عن الوقف شيئاً أم قصر نشاطه على اخراج العفاريت ؟

فقال بيومي بحق :

— مثل جبل كان نشاطه قاصراً على اخراج الثعابين .

ثم في تهكم :

— ما للواقف والعفاريت ؟

فوقف ايهاب وهو يقول بحدة :

— لا اريد ان تصيبي اللعنة التي أصابت الأفندي .

ودعا بيومي جابر وخذوسة وخالد وبطيخة الى غرخته وقال لهم ان
عليهم ان يجدوا علاجاً لجنون رفاعة ابن شافعي النجار . وتساءل بطيخة
في انزعاج :

— أمن اجل هذا دعوتنا يا معلم ؟

فهز بيومي رأسه بالايجاب فضرب بطيخة كفاً على كف وهتف :

— يا هوه ! فتوات الحارة تجتمع من اجل مخلوق لا هو ذكر ولا

هو انثى !

فرماه بيومي بنظرة ازدراء وقال :

— مارس نشاطه تحت سمعك وبصرك فلم تدرك له خطراً ، وطبعاً لم

تسمع عن مزاعمه عن الاتصال بالواقف .

وتبادلوا نظرات نارية من خلال الدخان المنتشر وقال بطيخة بذهول :

— ابن الهرمة ! ما للواقف والعفاريت ! هل كان جدنا كودية زار ؟

وشرعوا في الضحك ولكن سرعان ما عدلوا عنه لتجهم ييسومي

الذي قال :

— انت شمام يا بطيخة ، الفتوة يسكر ويحشش ولكن لا يليق به الشم !
فقال بطيخة مدافعاً عن نفسه :
— يا معلم انا في زفة عتري كنت المهدف لنبايت عشرين رجلاً فغطى
الدم وجهي وعنقي ولكن نبوتي لم يسقط من يدي .
وهنا قال جندوسة في رجاء :

— فلندع له الأمر يعالجه بما يرى ، والا فقد هيبته ، وليته يجد
طريقة غير الاعتداء على المعتوه ، فان الاعتداء على مثله مهين للفتوة !
ونامت الحارة ولا احد يدري بما بيت في غرزة بيومي . وفي صباح
اليوم التالي غادر رفاعة الربع فرأى بطيخة في طريقه فحياه قائلاً :
— صباح الخير يا معلم بطيخة .
فرماه الرجل بنظرة مقت وصاح :
— صباح القطران يا ابن القديمة ، عد الى بيتك ولا تخرج منه والا
كسرت رأسك .

فتساءل رفاعة في دهش :

— ماذا أغضب فتوتنا ؟

فصاح مزجراً :

— أنت تكلم الآن بطيخة لا الواقف فاذهب بلا تردد .
وهم رفاعة بالكلام فلطمه الفتوة لطمه دفعته الى جدار الربع مترنحاً .
ورأت امرأة الموقعة فصوتت حتى ملأ صوتها الحارة ، وتبعها نسوة
اخرى . وارتفعت اصوات استغاثة من اجل رفاعة . وفي لمح البصر
جرى نحو الكان كثيرون ، من بينهم زكي وعلي وحسين وكريم ، ثم
جاء عم شافعي ، كما جاء جواد الشاعر متلمساً طريقه بعصاه ، وما
لبث ان ازدحم الموقع بمحبي رفاعة من الرجال والنساء . ودهش بطيخة
الذي لم يتوقع شيئاً مما حدث ، ورفع يده وهوى بها على وجه رفاعة

فتلقاها هذا دون دفاع ولكن الواقفين تصايحوا في انزعاج ، واعتراهم
انفعال شديد ، فتوسل البعض الى بطيخة ان يتركه ، وعدد آخرون
حسنات رفاة ومزاياء ، وتساءل كثيرون عن اسباب الاعتداء ، وتعالى
احتجاجات ، فاستشاط بطيخة غضباً وصاح :

— أنسيتم من اكون ؟

والحق ان حب المتجمعين لرفاة الذي دفعهم بغير وعي الى التجمع
هو الذي شجعهم على الرد على انذار بطيخة ، فقال احد الواقفين في
الصف الأول :

— فتوتنا وتاج رأسنا ، وما جئنا الا لنسألك العفو عن الرجل الطيب.

وصاح رجل من وسط المظاهرة متشجعاً بالزحام وبمكانه فيه :

— فتوتنا على العين والراس ، ولكن ماذا فعل رفاة ؟

وصاح ثالث في آخر المظاهرة مطمئناً الى تواريه عن متناول

عين الفتوة :

— رفاة بريء والويل لمن يمدّ له بدأ بسوء !

وثار غضب بطيخة فرفع نبوته فوق رأسه وهو يصيح :

— يا نسوان ، ساجعلكم عبرة .

واذا بصوات النساء يرتفع من الأركان حتى انقلب الحي مائماً ،
وقدفت الأفواه الغاضبة بالانذارات الدموية ، وأخذ الطوب يتساقط امام
بطيخة ليمنعه من التقدم . ووجد الرجل نفسه في مركز حرج لم يقع له
ولا في الكابوس . كان الموت أهون عليه من الاستنجاد بأحد من الفتوات ،
وكان الهجوم يهدد بالقضاء عليه تحت وابل الطوب ، وكان في السكوت
الاجهاز على فتوته . وتطاير الشرر من عينيه ، واستمر تساقط الطوب ،
وتمادى القوم في تحديهم ، ولم يكن حدث شيء كهذا لأحد من الفتوات
من قبل .

واندفع رفاة فجأة حتى وقف أمام بطيخة ، ولوح للناس بيده

حتى ساد السكوت ، وهتف بصوت قوي :
— لم يخطيء فتوتنا وأنا الملولم !
لأحت نظرات الإنكار في الوجوه ولكن أحداً لم ينبس بكلمة
فقال رفاعه :

— تفرقوا قبل ان تتعرضوا لغضبه .
وفهم اناس انه يريد ان ينقذ كرامة الفتوة حلاً للأزمة فتفرقوا ،
وتبعهم آخرون وهم في حيرة من الأمر ، ثم سارع الباقون بالتفرق
خشية ان يتفرد بطيخة بأحد منهم ، فأقفر الحي ..

٥٧

اشتد التوتر بالحارة بعد تلك الواقعة . وكان أخوف ما يخاف الناظر
ان تعتقد الحارة بأن في تضامنها قوة تكفل الصمود امام الفتوات . لذلك
وجب — في نظره — القضاء على رفاعه ومن تحدّثهم انفسهم بالوقوف
الى جانبه على ان يتم ذلك بالاتفاق مع خنفس فتوة آل جبل تجنباً لنشوب
عراك شامل في الحارة . وقال الناظر ليومي : « ليس رفاعه بالدرجة التي
تظنها من الضعف ، فوراءه محبون استطاعوا انقاذه رغم انف الفتوة ،
فإذا يكون من أمره لو تعلقت به الحارة كما تعلق به حية ؟ هنالك
سيدع العنصاريت جانباً ويجاهر بأن الوقف غايته ! » . وصحب بيومي
غضبه على بطيخة ، فهزه من منكبيه بعنف وقال له : « تركنا الأمر
لك وحدك فإذا فعلت يا شين الفتوات ! » . وعرض بطيخة على نواجهه
بحق وقال : « سأريحكم منه ولو بقتله » فصاح به بيومي : « خير
ما تفعل ان تخفي من الحارة الى الأبد » . وأرسل الى خنفس من يدعوه
الى مقابلته . ولكن عم شافعي اعترض سبيل خنفس وهو في حال من

الفرع لم تسبق له من قبل . وكان قد حاول اقتناع ابنه بالعودة الى الدكان والاقلاع عن العمل الذي يجرح عليه المتاعب ولكنه فشل في مساعاه وعاد خائباً . ولما علم باستدعاء خنفس الى مقابلة بيومي اعترض سبيله وقال له : « يا معلم خنفس ، أنت فتوتنا وحامينا ، وانهم يطلبونك لتتخلّى عن رفاة فلا تتخلّى عنه ، تعهد لهم بما يشاءون ولكن لا تتخلّى عنه ، مرني فأهجر الحسرة مصطحباً إياه ولو بالقوة ولكن لا تتخلّى عنه ! » فقال خنفس في حذر واحتياط : « اني اعلم الناس بما يجب علي وبما تقتضيه مصالح آل جبل » . والحق ان خنفس توجس خيفة من ناحية رفاة منذ علم بوقعة بطيخة ، وقال لنفسه إنه هو الذي ينبغي له ان يحذر لا الناظر ولا بيومي .

ومضى الى بيت بيومي فاجتمع به في المنظرة . وصارحه الفتوة بانه دعاه بصفته فتوة آل جبل ليتفقا على رأي في مشكلة رفاة . قال :
— لا تستهن بشأنه فان الاحداث تقطع بخطورة اثره .
ووافق خنفس على ذلك ولكنه قال برجاء :
— أرجو ألا يعتدى عليه أمامي .

فقال بيومي :

— نحن رجال يا معلم ، ومصالحنا واحدة ، ولا نعتدي على أحد في بيوتنا ، وسيجيء هذا الولد الآن لأستجوبه على مسمع منك .
وجاء رفاة بوجهه المشرق فحيا الرجلين ، وجلس حيث اشار له بيومي ان يجلس على شلته أمامهما . وتفرس بيومي في وجهه الجميل المطمئن وهو يعجب كيف امسى هذا الطفل الوديع مصدراً للقلق المفرعة . وسأله بصوت غليظ :

— لماذا هجرت حيك وأهلك ؟

فقال ببساطة :

— لم يستجب لي منهم أحد !

- ماذا كنت تريد منهم ؟
- أن أخلصهم من العقاريت التي تفسد عليهم سعادتهم !
- فوشى صوت بيومي بغیظه وهو یسأله :
- وهل أنت مسئول عن سعادة الناس ؟
- فقال رفاعة بصراحة وبراءة
- نعم ما دمت قادراً على تحقیقها .
- فتجههم وجه بیومي وهو یقول :
- سمعوك وأنت تحقر الجاه والقوة ؟
- لكي ابرهن لهم على ان السعادة لیست فیما یتوهمون ولكن فیما أفعل .
- فتساءل خنفس غاضباً :
- ألیس فی ذلك تحقیر لأصحاب القوة والجاه ؟
- فقال دون ان یضطرب لغضب الرجل :
- كلا یامعلم ولكن فیہ تنبیہ بأن السعادة غیر ما یملكون من قوة وجاه .
- وتفحصه بیومي بنظرة نافذة وهو یسأله :
- وسمعوك أيضاً وأنت تؤكد ان ذلك ما یریده لهم الواقف .
- فتجلی الاهتمام فی العینین الصافیتین وقال :
- هم یقولون ذلك !
- وماذا تقول أنت ؟
- فقال بعد تردد لأول مرة :
- على قدر فهمي أتکلم .
- فقال خنفس متهمكماً :
- المصائب تجيء من العقل الزنخ .
- وقال بیومي وهو یضیق عینه :
- لكنهم یقولون إنك تعید علیهم ما سمعته من الجبلاوي نفسه !
- فبدت الحيرة فی عینه ، وتردد للمرة الثانية ، ثم قال :

— هكذا فهمت اقواله لأدهم ولجبل !

فصاح خنفس غاضباً :

— اقواله لجبل لا تحتل التأويل .

واشتد الحق بيومي ، وقال لنفسه : « كلكم كذابون ، وجبل

أول كذاب فيكم يا لصوص » وقال :

— أنت تقول إنك سمعت الجبلوي ، وتقول هذا ما يريد الجبلوي ،

وليس لأحد أن يتكلم باسم الجبلوي الا ناظر وقفه ووريثه ، ولو أراد

الجبلوي أن يقول شيئاً لقاله له ، هو الأمين على وقفه ومنفذ شروطه

العشرة ، يا معنوه كيف تحقر القوة والجاه والثراء باسم الجبلوي وهي

مزاياء وصفاته ؟ !

فتمت الاسارير الصافية عن ألم وقال :

— اني اخاطب أهل حارتنا لا الجبلوي ، هم الذين تركبهم

العفاريث ، وهم الذين تعذبهم المطالب .

فصاح به بيومي :

— ما أنت الا عاجز عن القوة والجاه : فلذلك تلعنهما ، ولترفع

مكانتك الحقيرة في نظر الأغبياء من أهل حارتنا فوق مكانة السادة ،

وعندما تجدهم طوع يدك تنهب بهم القوة والجاه !

فانتسعت عيناً رفاعة دهشة وتساءل :

— لا غاية لي الا سعادة أهل حارتنا .

فصاح بيومي :

— يا ابن الماكرة ، انت توهم الناس بانهم مرضى ، باننا جميعاً

مرضى ، فلا صحيح غيرك في هذه الحارة !

— لماذا تكرهون السعادة وهي بين ايديكم ؟

— يا ابن الماكرة ! ملعونة السعادة التي تجيء من مثلك !

فتساءل رفاعة متنهداً :

— لماذا يكرهني أناس وأنا ما كرهت أحداً قط ؟ !

فصرخ فيه بيومي :

— لا تخدعنا بما تخدع به الأغبياء ، وأقلع عن خداعك ، وافهم
ان أمري لا يخالف ، واحمد الله على انك في بيتي والا ما خرجت سالماً .
وقف رفاعه يائساً ، فحياهما وانصرف . وقال خنفس :

— دعه لي .

لكن بيومي قال :

— للمعتوه محبوبون كثيرون ، ونحن لا نريد مذبة .

٥٨

خرج رفاعه من بيت بيومي قاصداً بيته . كانت السماء متلعة بأردية
الحريف وفي الجو نسيم معتدل . وازدحمت الحارة حول مقاطف الليمون
كأنما تحتفل بموسم التخليل ، وترامت الأحاديث والضحكات ، على حين
اشتبك غلمان في معركة يتقاذفون بالتراب . وتلقى رفاعه تحيات الكثيرين
وأصابه رشاش تراب ففضى الى بيته وهو يتفضه عن كتفه ولاسته .
ووجد زكي وعلي وحسين وكريم في انتظاره فتعانقوا كما يتعانقون عند
كل لقاء ، ثم قص عليهم — وعلى زوجته التي انضمت الى المجلس —
ما دار بينه وبين بيومي وخنفس . تابعوه باهتمام وقلق ، فلما فرغ من
قصته تجهمت الوجوه . وساءلت يasmine نفسها ترى عم يتمخض هذا
الموقف الدقيق ؟ وأليس هناك حل يقي الرجل الطيب من الهلاك دون
أن يهدد سعادتها ؟ وبدا التساؤل في الأعين جميعاً ، أما رفاعه فأسند
رأسه الى الحائط في شيء من الاعياء . وقالت يasmine :

— لا يجوز الاستهانة بأمر بيومي .

وكان علي أحدهم طبعاً فقال :
 - لرفاعة أصدقاء هزموا بطيخة فاختنى من الحارة .
 فقالت ياسمينة مقطبة :
 - بطيخة لا بيومي ! اذا تحديتم بيومي فقل عليكم السلام !
 فالنفت حسين الى رفاعة قائلاً :
 - فلنستمع أولاً الى المعلم !
 فقال رفاعة وهو شبه مغضض العينين :
 - لا تفكروا في العراق فإن الذي يشقى لاسعاد الناس لا يهون عليه
 سفك دمائهم .
 وتهلل وجه ياسمينة . كانت تكره فكرة الترميل خشية ان تحرق بها
 الأعين فلا تجد منفذاً الى رجلها الرهيب ، وقالت :
 - خير ما تفعل ان ترحم نفسك من ذلك العناء .
 فقال زكي محتجاً :
 - لن نترك هذا العمل ولكن نترك الحارة .
 فحقق قلب ياسمينة جزءاً لتخيل البعد عن حارة رجلها وقالت بحدة
 - لن نعيش غرباء ضائعين بعيداً عن حارتنا .
 وتركزت الأعين في وجه رفاعة فاعتدل رأسه رويداً وقال :
 - لا أحب أن أهجر حارتنا .
 وهنا دق الباب دقات متتابعة في لفظة فذهبت ياسمينة تفتحه ، وسمع
 الجالسون صوتي عم شافعي وعبيدة وهما يسألان عن ابنهما . وقام رفاعة
 فلتقى والديه بالعناق . وجلسوا وشافعي وزوجته يلهتان ، ووجهاهما
 ينطقان بما يحملان من انباء مزعجة . وسرعان ما قال الأب :
 - يا بني ، تخلى عنك خنفس ، فحياتك في خطر ، واخبرني اصحابي
 بأن اعوان الفتوات يحومون حول بيتك .
 وجففت عيدة عينين مراوين وقالت :

- ليتنا ما عدنا الى هذه الحارة التي تباع فيها الأرواح بلا ثمن
فقال علي متحمساً :
- لا تخافي يا سيدتي ، فحينئذ كله أصدقاء بحبونا .
وقال رفاعه متأوهاً :
- ماذا فعلنا مما نستحق عليه العقاب ؟ !
فهتف عم شافعي جزعاً :
- أنت من حي جبل المكروه لديهم ، وكم توجس قلبي خيفة مسد
جاء ذكر الواقف على لسانك !
فقال رفاعه متعجباً :
- بالأمس حاربوا جبل لمطالبتة بالوقف واليوم يحاربوني لاحتقاري
الوقف !
فلوح شافعي بيده جزعاً وقال :
- قل فيهم ما تشاء فلن يغير هذا منهم شيئاً ، ولكن اعلم انك
هالك ان غادرت بيتك ، ولست آمن عليك ان بقيت فيه .
تسرب الخوف الى قلب كريم أول ما تسرب لكنه داراه بارادة قوية
وقال مخاطباً رفاعه :
- انهم يتربصون لك في الخارج ، وإذا لبثت هنا فسيجيئون اليك ،
هؤلاء هم فتوات حارتنسا كما عرفناهم ، فلنهرب الى بيتي من فوق
الأسطح وهناك تفكر فيما ينبغي عمله .
فصاح شافعي :
- ومن هناك تهربون من الحارة ليلاً .
فتأوه رفاعه متسائلاً :
- وأترك بنائي يتهدم ؟
فتوسلت اليه أمه باكية :
- افعل ما يشير به عليك وارحم أهلك !

فقال الأب محتداً :

— واستأنف عملك فيما وراء الحلاء اذا شئت .

وقام كريم في اهتمام وقال :

— فلتتدبر أمرنا ، سيبقى المعلم شافعي وحرمه قليلاً ثم يذهبان الى ربيع النصر كأنهما راجعان بعد زيارة عادية ، وتخرج ست ياسمينه الى الجمالية كأنما لتتسوق ، وعند عودتها تتسلل إلى مسكني وهذا أسرها من الهرب عبر الأسطح .

ارتاح شافعي الى الخطة فقال كريم :

— لا ينبغي ان نضيع دقيقة سدى ، سأذهب لاستكشاف الأسطح .
وغادر الحجرة . وقام شافعي آخذاً رفاة في يده . وأمرت عبدة ياسمينه بأن تجمع الثياب في بقعة .

وأخذت ياسمينه في جمع الثياب القليلة بصدر مخنق وقلب مكلوم ، وثورة من الحق في باطنها تتجمع . واقبلت عبدة على ابنها ثقبه وترقيه بأعين باكية . ومضى رفاة يفكر في حاله بقلب حزين ، كم أحب الناس بكل قلبه وكم شقي لاسعادهم وكيف يعاني من بغضائهم وهل يسلم الجبلأوي بالفضل ؟ ! ورجع كريم وهو يقول لرفاة وصحبه :

— اتبعوني .

وقالت عبدة وهي تفحم في البكاء :

— سنلحق بك ولو بعد حين .

وقال له شافعي وهو يضغط على مخارج الدمع :

— فلتصحبك السلامة يا رفاة .

عائق رفاة والديه ثم التفت الى ياسمينه قائلاً :

— احبكي الملاة والبرقع كيلا يعرفك أحد .

ثم وهو يميل الى اذنها :

— لا أطيق أن تمتد لك يد بسوء .

غادرت ياسمينة للربع ملتفة في "السواد وكلمات عبدة تتردد في أذنيها حين قالت لها وهي تودعها : « مع السلامة يا بنتي ، رينا يحفظك ويصونك ، رفاعة عهدتك ، سادعو لكما في النهار والليل » . كانت طلائع الليل تزحف ، وفوانيس المقاهي تشتعل ، والغلمان يلعبون حول الأنوار المنبعثة من مصابيح عربات اليد ، على حين احتدم عراك القطط والكلاب - كشأنه في ذلك الوقت من اليوم - حول اكوام الزبالة . مضت ياسمينة نحو الجمالية وليس في قلبها العاشق مكان للرحمة . لم يساورها التردد ولكن ملأها الخوف فخيّل اليها أن أعيناً كثيرة ترقبها . ولم تشعر بشيء من الاطمئنان حتى عرجت من الدراسة الى الخلاء ، لكنها لم تجد الاطمئنان الحقيقي الا في المنظرة بين يدي بيومي . ولما نزع النقاب عن وجهها تفحصها باهتمام وتساءل :

- خائفة ؟

فأجابت وهي تنهث :

- نعم .

- كلا ، الجبن ليس من صفاتك ، خبريني ماذا وراءك ؟

قالت بصوت لا يكاد يسمع :

- هربوا من فوق الأسطح الى بيت كريم ، وسيغادرون الحارة عند الفجر .

فغمغم بيومي ساخراً :

- عند الفجر يا أولاد الهرمة !

- أقنعوه بالذهاب فلماذا لا تدعه يذهب ؟

فابتسم ساخراً وقال :
— قديماً ذهب جبل ثم عاد ، هذه الحشرات لا تستحق الحياة .
فقالت وهي شاردة اللب :
— انه ينكر الحياة ولكنه لا يستحق الموت .
فتقلص فوه اشمئزاً وقال :
— في الحارة كفايتها من المجانين .
فنظرت اليه في استعطاف ثم غضت بصرها وهمت وكأنما تحدث
نفسها :

— انقذني يوماً من الهلاك .
فضحك في سخرية غليظة وقال :
— وما أنت تسلمينه للهلاك ، واحدة بواحدة والبادي أظلم !
فشعرت بقلق موجه كالمرض ، ورمقته بعتاب وهي تقول :
— فعلت ما فعلت لأنك أغل من حياتي .
فربت خدها برقة وقال :
— سيخلو لنا الجو ، وإذا ضايقتك الظروف فلك في هذا البيت مكان .
فارتفعت روحها من هبوطها درجات وقالت :
— لو عرضوا علي بيت الواقف من دونك ما قبلته .
— أنت بنت مخلصة .

وشككتها « مخلصة » فعأودها القلق الذي هو كالمرض . وتساءلت
تري هل يسخر منها الرجل ؟ ولم يكن ثمة وقت لمزيد من الكلام فقامت
وقام ليودعها ، حتى تسالت من الباب الخلفي . ووجدت زوجها وأصحابه
في انتظارها ، فجلست الى جانب زوجها وهي تقول لرفاعة :
— بيتنا مراقب ، ومن الحكمة ان امك تركت المصباح مشتعلًا وراء
للنافذة ، وسيكون الهرب ميسوراً عند الفجر .
فقال لها زكي وهو يلحظ رفاعة في حزن :

— لكنه حزين ، أليس المرضى في كل مكان وأليسوا هم في حاجة
كذلك الى الشفاء ؟
فقال رفاعه :

— تشتد الحاجة الى الدواء حيث يستفحل المرض .
ونظرت ياسمينه نحوه في رثاء . وقالت لنفسها ان من الظلم قتله .
وتمنت لو كان فيه جانب واحد يستحق العقاب . وذكرت انه الوحيد
في هذه الدنيا الذي احسن اليها وان جزاءه على ذلك سيكون القتل .
ولعنّت في سرها هذه الأفكار وقالت ليفعل الخير من يجد في حياته
الخير . ولما رأته يبادلها النظر قالت كالمنشفة :
— حياتك أغلى من حارتنا اللعينة .
فقال رفاعه باسماء :

— هذا ما يقوله لسانك غير اني اقرأ الحزن في عينيك !
وارتعدت . وقالت لنفسها يا ويلي لو كانت قدرته على قراءة العين
كقدرته على اخراج الغفاريات . وقالت له :
— ليس ما بي حزن ولكنه الخوف عليك !
وقام كريم وهو يقول :
— سأعد العشاء .

ورجع حاملاً الطبلية فدعاهم الى الجلوس فجلسوا حولها . وكان
العشاء مكوناً من الخبز والجبين والمش والخيار والفجل ، وثمة ابريق من
البوظة . وملأ كريم الاكواب وهو يقول :
— ليلتنا تحتاج الى التدفئة والتشجيع .
وشربوا ، ثم قال رفاعه باسماء :
— الحمر توقظ الغفاريات ولكنها تنعش من تخلّص من غفريته .
ونظر نحو ياسمينه الى جانبه فادركت مغزى نظره وقالت :
— ستخلصني من غفرتي غداً ان مدّ الله في العمر .

فنهّل وجه رفاعه سروراً وتبادل الأصدقاء التهاني . ومضوا يتناولون
المشاء . قطعت الأرغفة . وتلاقت الأيدي فوق الأطباق ، وبدأوا وكأنهم
تناسوا الموت المحيط بهم ، وإذا برفاعة يقول :
- اراد صاحب الوقف لابنائه ان يكونوا مثله ، ولكنهم ابوا الا
ان يكونوا مثل العفاريت ، انهم اغبياء : وهو لا يحب الغباء كما
قال لي .

فهز كريم رأسه أسفاً ، وبلغ لقمته ثم قال :
- لو كان على شيء من قوته الأولى لسارت الأمور كما يشاء .
فقال علي حائقاً :
- لو .. لو .. لو ، ماذا أفدنا من لو ! علينا ان نعمل .
فقال رفاعه بقوة :

- ما قصرنا قط ، حاربنا العفاريت دون هوادة ، وكلما ترك عفريت
غراغاً ملأه الحب ، وليس وراء ذلك من غاية
فقال زكي متحسراً :

- ولو تركونا نعمل للأنا الحارة صحة وجباً وسلاماً .
فقال علي معترضاً :
- اني أعجب كيف تفكر في الهرب على كثرة ما لنا من اصدقاء !
فقال رفاعه باسمياً :

- ان عرق عفريتك ما زال لاصقاً بجوفك ، فلا تنس ان غابتنا
الشفاء لا القتل ، ولخير للانسان ان يُقتل من ان يُقتل .
والتفت رفاعه الى ياسمينه فجأة وقال :

- انك لا تأكلين ولا تصغين !
فتقلص قلبها خوفاً ، بيد أنها تغلبت على انفعالها وقالت :
- اني اعجب لكم كيف تتحدثون في مرح كأنكم في عرس !
- ستألفين البهجة عندما تتخلصين من عفريتك غداً .

ثم نظر الى اخوانه وقال :
- بعضكم ينجل من المسألة ، فنحن ابناء حارة لا نحترم الا الفتونة ،
ولكن الفتونة ليست قاصرة على الأرهاب ، فصارعة العفاريت اشق
عشرات المرات من الاعتداء على الضعفاء أو منازلة الفتوات .
فهز علي رأسه أسفاً وقال :

- وكان جزاء الاحسان هذا الموقف التعيس الذي وجدنا انفسنا فيه !
فقال رفاة بيقين :

- لن تنتهي المعركة كما يتوهمون ، ولسنا ضعفاء كما يتصورون !
انما نقلنا المعركة من ميدان الى ميدان ، وميداننا يتطلب شجاعة اسمى
وقوة اشد .

وواصلوا العشاء وهم يفكرون فيما سمعوا . وبدا لأعينهم هادئاً مطمئناً
قوياً بقدر ما بدا جميلاً وديعاً . وفي فترة الصمت تجلى صوت شاعر
الحي وهو يحكي قائلاً : « ومرة جلس أدهم في حارة الوطاويط عند
الظهر ليستريح فنفس . واستيقظ على حركة فرأى غلاماً يسرقون عربته
فنهض مهدداً . وراه غلام فنه اقرانه بصغير ودفع العربية ليشغله بها
عن مطاردتهم فاندلق الخيار على الأرض على حين تفرق الغلمان مسرعين
كالجراد . وغضب ادهم غضباً شديداً حتى قذف فوه المهذب بسيل
من أقذع الشتائم ، ثم انكب على الأرض يجمع الخيار الذي لوث بالطين .
وتضاعف غضبه دون ان يجسد له متنفساً فراح يقول بتأثر وانفعال :
« لماذا كان غضبك كالنار تحرق بلا رحمة ؟ لماذا كانت كبرياؤك احب
اليك من لحمك ودمك ؟ وكيف ندم بالحياة الرغيدة وأنت تعلم أننا
نداس بالأقدام كالحشرات ؟ والعضو واللين والتسامح ما شأنها في بيتك
الكبير ايها الجبار ! » وقبض على يد العربية وهم بدفعها بعيداً عن الحارة
اللعينة واذا بصوت يقول متهمكاً :

- بكم الخيار يا عم ؟

رأى ادريس واقفاً يتسم ابتسامة ساخرة .. « واذا بصرت امرأة
يرتفع مغطياً على صوت الشاعر وهي تصرخ « ولد تائه يا أولاد الحلال ! »

٦٠

مضى الوقت والاخوان في سمر وباسمينه في عذاب . أراد حسين أن
يلقي على الحسارة ، نظرة ولكن كريم اعترضه ان يلمحه احد فيشك في
الأمر . وتساءل زكي ترى هل هاجموا بيت رفاعه فقال رفاعه أنهم
لا يسمعون الا نواح الرباب وتهليل الغلمان . كانت الحارة تحيا حياتها
فليس ثمة ما يشي بسر جريمة تدبر . ودارت بباسمينه دوامة الفكر حتى
خافت ان تفضحها عينها . وتمنت ان ينتهي عذابها على أي وجه وبأي
ثمن ، وتمنت ان تملأ جوفها بالخر حتى تذلل عما حولها . وقالت لنفسها
انها ليست أول امرأة في حياة بيومي ولن تكون اخرهن ، وانه حول
اكوام الزبالة تكثر الكلاب الضالة ، ولكن فلينته هذا العذاب بأي ثمن .
وبتقدم الوقت أخذ الصمت يبتلع الضوضاء رويداً رويداً ، فسكنت أصوات
الأطفال ونداءات الباعة ، ولم يبق الا نواح الرباب . ودهمتها كراهية
مفاجئة لهؤلاء الرجال ، لا شيء الا لأنهم على نحر ما يعذبونها .
وتساءل كريم :

— هل أعد المجرة ؟

فقال رفاعه بحزم :

— نحن في حاجة الى وعينا !

— ظننت ان به نستعين على تحمل الوقت .

— أنت خائف اكثر مما ينبغي .

فنفي التهمة عن نفسه قائلاً :

— يبدو الا داعي هناك للخوف !
أجل لم يقع حادث ولم يُهاجم بيت رفاعه . وسكنت الانغام وذهب
الشعراء . وترامت اصوات الأبواب وهي تغلق ، وأحاديث العائدين الى
البيوت ، وضحكات وسعلات ، ثم ساد الصمت . واستمر الانتظار
والترقب حتى صاح اول ديك . وقام زكي الى النافذة ينظر الى الطريق
ثم التفت اليهم قائلاً :

— صمت وخلاء ، الحارة كما كانت يوم طرد اليها ادريس .

فقال كريم :

— آن لنا ان نذهب .

وركب الجوزع ياسمينه فتساءلت في نفسها ماذا يكون من أمرها لو
تأخر بيومي عن مواعده او لو عدل عنه ؟ وقام الرجال وكل يحمل
بقية . وقال حسين :

— الوداع يا حارتنا الجهنمية !

سار في المقدمة . ودفع برقة رفاعه ياسمينه امامه وتبعها واضعاً يده
على منكبها كأنما يخشى ان يفقدها في الظلام ، ثم جاء كريم فحسين
ثم زكي . تسللوا من باب الشقة واحداً في اثر آخر ، وركبوا في السلم
متهدين بالدرايزين في الظلمة الخالكة . وبدأ السطح أرق ظلمة رغم انه
لم يبد في السماء نجم واحد . ونضحت سحابة بنور القمر المتوارى خلفها
فسجلت لوجتها ركض السحب . وقال علي :

— اسوار الاسطح شبه متلاصقة وسنساعد الست ان لزم الأمر .

تتابعوا داخلين . ولما دخل زكي — وهو آخرهم — احس حركة
وراءه فالتفت نحو باب السطح فرأى اربعة اشباح ، فتساءل مذعوراً :
— من هناك ؟

تسمر الجميع والتفتوا . وجاء صوت بيومي وهو يقول :

— قفوا يا اولاد الزنا .

وانتشر عن يمينه وعن يساره جابر وخالد وحنودسة . رندت عن
باسمينه آهة . وأفلتت من يد رفاعه ثم جرت نحو باب السطح فلم يعترضها
أحد من الفتوات ، حتى قال علي مخاطباً رفاعه في ذهول :
- خانتك المرأة .

وفي لحظة أحاطوا بهم . وراح بيومي يتفحصهم عن قرب واحداً
بعد آخر متسائلاً :

- أين كودية الزار ؟

حتى تبينه فقبض على منكبه بيد من حديد وهو يسأله متهمكماً :

- اين انت ذاهب يا نديم العفاريت ؟

فقال رفاعه في وجوم :

- ضايقسكم وجودنا فأثرنا الرحيل .

فأطلق ضحكة قصيرة ساخرة ثم التفت الى كريم وقال :

- وأنت هل أجدى اخفاؤك لهم في بيتك ؟

فازدرد كريم ريقه الجاف وقال وفرائصه ترتعد :

- لم أكن أعلم بشيء مما بينك وبينهم !

فلطمه بيده الأخرى على وجهه فسقط على الأرض ، ولكن سرعان

ما وثب قائماً وركض في رعب نحو سطح الريع الملاصق . وفجأة جرى

وراءه حسين وزكي . وانقض حنودسة على علي فركله في بطنه فتهاوى

على الأرض وهو يئن من أعماقه . وفي ذات الوقت هم جابر وخالد

باللحاق بالهاربين ولكن بيومي قال باستهانة :

- لا خوف من هؤلاء فلن ينبس أحدهم بكلمة وإلا هلك .

وقال رفاعه وقد انحنى رأسه نحو قبضة بيومي لشدة ضغطها :

- لم يفعلوا شيئاً يستحق العقاب .

فهوى بيومي بكفه على وجهه وهو يقول متهمكماً :

- خبرني ألم يسمعوا الجبلاوي كما سمعته ؟

ثم دفعه أمامه وهو يقول :

— سر أمامي ولا تفتح فاك .

سائر مستسلماً للمقادير . هبط السلم المظلم محاذراً ووقع الاقدام الثقيلة
يتبعه . وغشيه الظلام والحيرة والشر الذي يتهدده فلم يكذب يفكر فيمن هرب
ولا فيمن خان . وران عليه حزن شامل عميق فغطى حتى على مخاوفه .
وخيل اليه ان ذلك الظلام سيمس صفة الدنيا الملازمة . وانتهوا الى
الحارة فقطعوا الحي الذي لم يبق فيه مريض بفضله . وتقدمهم حندوسة
نحو حي جبل فروا تحت ريع النصر المغلق حتى خيل اليه انه يسمع تردد
أنفاس والديه . وساءل نفسه لحظة عنها فخيّل اليه انه يسمع نجيب
عبدة في الليل الصامت ولكن سرعان ما استرده الظلام والحيرة والشر
الذي يتهدده . وبدا حي جبل هياكل اشباح عمالقة غارقة في الظلام ،
ما أشد الظلام وما أعمق النوم ، أما وقع أقدام الجلادين في الظلمة
الحالكة وأطيط نعالهم فكأنه ضحكات شياطين تعبت في الليل . ومضى
حندوسة نحو الخلاء بجذاء سور البيت الكبير فرفع رفاة عينيه الى البيت
لكنه رآه مظلماً كالسما . ولاح شبح في نهاية السور فتساءل حندوسة :

— المعلم خنفس ؟

فأجابه الرجل :

— نعم .

وانضم الى الرجال دون كلام . وظلت عينا رفاة مرفوعتين نحو
البيت . ترى هل يدري جده بحاله ؟ إن كلمة منه تستطيع ان تنقذه
من محالب هؤلاء الجبارين وترد عنه كيدهم . إنه قادر على ان يسمعهم
صوته كما أسمعهم اياه في هذا المكان . جبل وجد نفسه في مأزق مثل
مازقه ثم نجا وانتصر . لكنه جاوز السور دون ان يسمع شيئاً سوى وقع
اقدام الجبارين وتردد أنفاسهم . وأوغلوا في الخلاء فنقلت خطواتهم
فوق الرمال . وشعر رفاة بالغربة في الخلاء وذكر ان المرأة خانته وأن
الاصحاب لاذوا بالفرار . أراد ان يلتفت الى الورا صوب البيت ولكن

يد بيومي دفعته في ظهره بغتة فسقط على وجهه . ورفع بيومي
نبوته وهتف :

— معلم خنفس ؟

فرفع الرجل نبوته قائلاً :

— معك إلى النهاية يا معلم .

وتساءل رفاة في يأس :

— لماذا تبغون قتلي ؟

فهوى بيومي بنبوته على رأسه بشدة فصرخ رفاة صرخة عالية
وهتف من أعماقه : « يا جبلاوي ! » .

وفي اللحظة التالية كان نبوت خنفس يصيب عنقه ، واستبقت
النبايت .

وساد صمت لم تسمع خلاله إلا حشرجة .

وأخذت الأيدي تحفر الأرض بقوة في الظلام .

٦١

غادر القتلة المكان متجهين نحو الحارة فسرعان ما ذابوا في الظلام .
وإذا بأربعة أشباح تنهض قائمة من موضع غير بعيد من موقع الجريمة .
وندت عنهم تنهدات واصوات بكاء مكتوم حتى صاح أحدهم :
— يا جنباء ، أمسكتم بسي وكنتمم انقاسي فقتل دون دفاع .
فقال له آخر :

— لو أطعناك لهلكنا جميعاً دون ان ننقله .

فعاد علي يقول غاضباً :

— يا جنباء ! ما أنتم إلا جنباء .

فقال كريم بصوت باك :
- لا تضيعوا الوقت في الكلام ، أماننا عمل شاق يجب ان نُنجزه
قبل الصباح .

ورفع حسين رأسه إلى السماء بقلب فيها عينيه اللامعتين وتمتم بجزع :
- الفجر قريب فلنسرع .

فهتف زكي متأوهاً :
- يا له من وقت قصير كالحلم لكننا فقدنا فيه أعز من عرفنا
في الحياة !

واتجه علي نحو موقع الجريمة وهو يصر على أسنانه مغمغماً :
- يا جناء .

فوضوا خلفه ، ثم جلسوا جميعاً على ركبهم في هيئة نصف دائرة
وراحوا يتحسسون الأرض مفتشين .

وبغته صرخ كريم كالملدوغ :
- هنا !

وتشم يده وهو يقول :

- ان هذا هو دمه !

وفي ذات الوقت صاح زكي :

- وهذا الموضع الهش مدفنه .

وتجمعوا حوله وأخذوا يزيلون الرمال براحتهم . لم يكن في الأرض
من هو أتعس منهم ، لضبايع العزيز ، ولموقف العجز الذي وقفوه عند
مصرعه . وعبرت كريم لحظة جنون فقال في بلاهة :

- لعلنا نجده حياً !

فقال علي بازدرأه ويده لا تكفان عن العمل :

- اسمعوا أوهاهم الجبناء !

وامتألت خياشيمهم برائحة التراب والدم . وترامى من ناحية الجبل

عواء . وهتف علي باشفاق :

— تمهلوا ، فهذا جسده .

فانخلعت قلوبهم ، ورقت أيديهم ، وتلمسوا أطراف ثوبه بجزع ، ثم ارتفعت اصواتهم بالبكاء ، وتعاونوا على استخلاص الجثة من الرمال وقاموا بها في رفق ، وكان صباح الديكة يتراعى من الحارات والأزقة . وحث البعض على الأسراع ولكن لفهم علي الى وجوب ردم الحفرة ، فخلع كريم جلبابه وفرشه على الأرض فطرحوا الجثة عليه ، -وتعاونوا مرة أخرى على ردم الحفرة . وخلع حسين جلبابه فغطى به الجثة ثم حملوها ، وساروا نحو باب النصر . وأخذ الظلام يخف فوق الجبل ويشف عن السحاب ، وتساقط الندى فوق الجباه والدموع . وكان حسين يدهم على طريق مقبرته حتى بلغوها . وانهمكوا في فتح القبر صامتين ، والضياء ينتشر رويداً ، حتى تراءى للأعين اليثمان المسجى ، وايدهم الملطخة بالدم ، وأعينهم المحمرة من البكاء . وحملوا الجثة وهبطوا بها الى جوف القبر . وقفوا حولها خاشعين وهم يضغطون جفونهم ليزيلوا الدموع التي تحول دون رؤيتها . وهمس كريم والعبرات تخنقه :

— كانت حياتك حلماً قصيراً ، لكنها ملأت قلوبنا بالحب والنقاء . وما كنا نتصور ان تغادرنا بهذه السرعة فضلاً عن ان تقتل بيد أحد من الناس ، أحد من أبناء حارتنا الجاحدة التي داويتها وأحبتها ، حارتنا التي أبت إلا ان تقتل الحب والرحمة والشفاء ممثلة في شخصك فقضت على نفسها باللعة حتى آخر الزمن .

وتساءل زكي منتحباً :

— لماذا يذهب الطيبون ؟ لماذا يبقى المجرمون ؟

وتأوه حسين قائلاً :

— لولا حبك الباقي في قلوبنا لمقتنا الناس إلى الأبد !

عند ذلك قال علي :
- لن يرتاح لنا بال حتى نكفر عن جبتنا .
وعندما غادروا المقبرة متجهين نحو الخلاء كان النور يصبغ الآفاق
بمثل ذوب الورد الأحمر .

٦٢

لم يعد أحد من الصحاب الأربعة يظهر في حارة الجبلوي . وظن
ذوهم أنهم غادروا الحارة خفية وراء رفاة انقاء لتحرش الفتوات .
وعاش الرفاق في أطراف الخلاء في حال نفسية متوترة ، يصارعون
بكل قواهم ودلالة الألم وحز الندم . كان فراق رفاة أشد من الذبح
على قلوبهم ، وكان تخليهم عنه معذباً قاتلاً ، لم يبق لهم من أمل في
الحياة إلا ان يتحدثوا موته بأحياء رسالته ، وان ينزلوا العقاب بقائليه
كما صمم علي . أجل لم يكن في وسعهم العودة الى الحارة ولكن كان
في مأمولهم ان يتأبلوا من يشاءون خارجها . وذات صباح استيقظ ربع
النصر على صوات عبدة فهرع الجيران إليها يستطلعون الخبر فصاحت
بصوت مبحوح :

- قتل ابني رفاة .

ووجم الجيران وتطلعوا الى عم شافعي الذي كان يحفف عينيه
فقال الرجل :

خ قتل الفتوات في الخلاء .

وعادت عبدة تتوح هاتفة :

- ابني الذي لم يؤذ أحداً في دنياه .

فتساءل البعض :

— وهل علم بذلك فتوتنا خنفس ؟
فقال شافعي غاضباً :
— كان خنفس ضمن القتالين .
وقالت عبدة باكية :
— وخانته باسمينة فدلّت بيومي عليه !
فلاح الاستنكار في الوجوه وقال صوت :
— لذلك فهي تقيم في بيته بعد ان هجرته زوجته .
وانتشر الخبر في حي جبل فجاء خنفس الى بيت شافعي وصاح به :
— اجننت يا رجل ؟ ماذا قلت عني ؟
فوقف شافعي أمامه دون مبالاة وقال بشدة :
— انك اشركت في قتله وأنت فتوته وحاميه !
فتظاهر خنفس بالغضب وصاح :
— أنت مجنون يا شافعي ، لا تدري عما تقول شيئاً ، ولن أبقي
حتى لا أضطر إلى تأديبك .

وغادر الريع وهو برغي ويزيد . وانتقل الخبر إلى حي رفاعه الذي
أقام فيه عقب مغادرته لحي جبل فذهل الناس له ، وارتفعت الأصوات
بالسخط والبكاء ، ولكن الفتوات خرجوا الى الحارة يقطعونها ذهاباً
واياباً ، النبابت في أيديهم والشر يتقد في نظراتهم . ثم سرى نبأ يقول :
إن الرمال غربسي صخرة هند وجدت ملطخة بدم رفاعه . وذهب عم
شافعي وخاصة اصحابه للبحث عن الجثة هنالك ، ففتشوا وحضروا
ولكنهم لم يعثروا على شيء . ولغظ الناس بالخبر وتبلبت الأفكار وتوقع
كثيرون إن تحدث في الحارة أمور . وراح الناس في حي رفاعه يتساءلون
ماذا فعل رفاعه حتى يقضى عليه بالقتل ؟ وقال آل جبل : رفاعه قتل
وباسمينة مقيمة في بيت بيومي . وتسلسل الفتوات بليل الى المكان الذي
قتل فيه رفاعه ، وحفروا مدفنه على ضوء مشعل ، ولكنهم لم يعثروا

للجنة على أثر . ونساءل بيومي :

— هل أخذها شافعي ؟

ولكن خنفس أجابه :

— كلا ، لم يضر على شيء كما أخبرني العيون .

فضرب بيومي الأرض بقدمه وصاح :

— إنهم أصحابه ، لقد أخطأنا بتركهم يفلتون ، وها هم يحاربوننا من وراء وراء .

وعند عودتهم مال خنفس على اذن بيومي وهمس قائلاً :

— ان احتفاظ المعلم بياسمينه لما يسبب لنا المتاعب .

فقال بيومي ساخطاً :

— بل اعترف انك فترة ضعيف في حيك !

وودعه خنفس ساخطاً . واشتد التوتر بحي جبل ورفاعة ، وتكرر اعتداء الفئوات على الساخطين . وساد الارهاب في الحارة حتى كره أهلها الخروج إليها إلا للضرورة . وفي ليلة من الليالي - وكان بيومي في قهوة شلضم - تسلل اهل زوجته الى بيته بقصد الاعتداء على ياسمينه ، فشعرت بهم ، وفرت بجلبابها الى الحلاء وهم يطاردونها . وظلت تعدو في الظلام كالمجنونة ، حتى بعد ان كف المطاردون عن مطاردتها . وظلت تعدو حتى أوشكت أنفاسها ان تنقطع فاضطرت الى التوقف وهي تلهث بعنف وقد طرحت رأسها الى الراء وأغمضت عينيها . ولبت كذلك حتى استردت أنفاسها . ونظرت وراءها فلم تر شيئاً ولكنها جفلت من فكرة العودة الى الحارة ليلاً . ونظرت أمامها فرأت عن بعد نوراً ضئيلاً لعله ينبعث من كوخ فسارت نحوه آملّة ان تجد عنده مأوى يؤويها حتى الصباح . وطال بها المسير قبل ان تبلغه . وكان كما ظنت كوخاً فاقربت من بابه وهي تنادي أهله . وبغتة وجدت نفسها امام أصدقاء زوجها الحميمين : علي وزكي وحسين وكريم .

تسمرت ياسمينة بالأرض وهي تقلب في وجوههم بصرًا زائناً .
 تراءوا لها كمجدار يعترض مطاردًا في كابوس . كانوا يحذقون فيها
 باشمئزاز ، وبدأ الاشتزاز في عيني علي في اطار حديدي من القسوة .
 وهتفت بلا وعي :

— اني بريئة ، ورب السماوات بريئة ، ذهبت معكم حتى هاجسونا
 فهربت كما هربتم !

وكلحت الوجوه . وتساءل علي حائقًا :

— ومن ادراك باننا هربنا ؟

فقال بصوت متهدج :

— لولا الهرب ما بقيتم على قيد الحياة ؛ لكني بريئة ، وما فعلت
 شيئاً إلا اني هربت !

فقال علي وهو بعض اسنانه :

— هربت الى سيدك بيومي .

— ابدأ ، دعوني اذهب .. أنا بريئة .

فصاح بها علي :

— مستذهين الى جوف الأرض !

فهتت بالهرب لكنه وثب عليها فقبض على منكبيها بشدة فصرخت :

— أعطني إكراماً له فانه لم يكن يحب القتل ولا القاتلين !

فقبض على عنقها بيديه ، حتى قال كريم جزعاً :

— انتظر حتى تفكر في الأمر .

فصاح به :

— اصمتوا يا جناء !

وشد على عنقها بكل ما يعتلج في صدره من حنق وحقد وألم وندم. حاولت التخلص من قبضته عبثاً ، قبضت على ساعديه ، ركلته ، هزت رأسها ، كان كل مجهود عبثاً ضائعاً فخارث قواها ، وجحظت عينها ، ثم نفث انفها دماً ، وارتج جسدها بعنف ، وسكنت الى الأبد ، وتركها فسقطت جثة تحت قدميه .

وفي صباح اليوم التالي وجدت جثة ياسمينة ملقاة امام بيت بيومي . وانتشر الخبر كغبار الحماسين فجرى الناس نساء ورجالا نحو بيت الفتوة . وارتفعت الضوضاء ، واختلطت التعليقات ، ودارى الجميع مشاعرهم الحقيقية . وفتح باب بيت بيومي ، واندفع منه الرجل كالثور الهائج ، وراح يضرب بنوته كل من يصادفه فركض الجميع في فرع ، ولاذوا بالدور والمقاهي ، ووقف الرجل في الحارة الخالصة يسب ويلعن ويهدد ويتوعد ، ويضرب الهواء والجلدران وأديم الأرض .

وفي اليوم نفسه هجر عم شافعي وزوجته الحارة ، وبدا ان اي اثر لرفاعة قد اختفى .

ولكن ثمة اشياء كانت تذكر به على الدوام ، كبيت عم شافعي بربع النصر ودكان التجارة ومسكن رفاعة في الحي الذي أطلقوا عليه دار الشفاء ، ومصرعه غربي صخرة هند ، وفوق كل أولئك اصحابه المخلصون الذين واصلوا اتصالاتهم بمحبيه ، ولقنوهم اسرار علمه بتخليص الأنفس من العفاريث ليزاولوها في مداواة المرضى ، اقتنعوا انهم بذلك يعيدون رفاعة الى الحياة . اما علي فلم يكن ليهدأ له بال حتى يقضي على المجرمين . وقد قال له حسين معاتباً :

— انك لست من رفاعة في شيء !

فقال علي بقوة :

— اني أعرف رفاة أكثر مما تعرفونه ، قضى حياته القصبيرة في قتال
عنيف مع العفاريت .

فقال كريم :

— انك تريد العودة الى الفتوة وما كان أبغضها إليه .

فهتف علي بحماس :

— كان فتوة ولا كل الفتوات ولكن خدعتكم رفته .

وتوثب كل فريق للعمل على رأيه بإيمان صادق . وتناقلت الحارة قصة
رفاعة على حقيقتها التي كان يجهلها الاكثرون ، وتناول أيضاً ان جريته
ظلت ملقاة في الخلاء حتى حملها الجبلأوي بنفسه فوالها التراب في حديقته
الغناء . وكادت الأحداث الخطيرة تتلاشى عنه ذلك ، لولا ان اختفى
الفتوة حندوسه اختفاء مريباً . وإذا بجريته تكتشف ذات صباح ملقاة
مشوهة أمام بيت الناظر لإيهاب . وتزلزل بيت الناظر كما تزلزل بيت بيومي .
ومرت بالحارة فترة رهبة من الرعب . انصب الاعتداء كالمنطق على كل
من له صلة أو شبهة صلة برفاة أو بأحد من رجاله . انهالت النبايات
على الرؤوس ، وهرست الأقدام البطون ، وحضرت الكلمات ، الصدور ،
والهبت الأيدي الأفقية ، حتى حبس نفسه في الدور من حبس ، وهجر
الحارة من هجر ، وقتل في الخلاء من استهان بالخطر ، ففصمت الحارة
بالصوات والعويل ، وغشيتها السواد والظلام ، وفاحت منها رائحة
الدم . ومن عجب ان ذلك كله لم يقض على عمل العاملين ، فقد قتل
الفتوة خالد وهو خارج من بيت بيومي قبيل الفجر . واشتد غضب
الارهاب حتى بلغ الجنون . لكن حارتنا استيقظت في المزيغ الأخير من
الليل على حريق هائل التهم ست الفتوة جابر وأهلك أسرته . وصاح
بيومي :

— ان مجانين رفاة منتشرون كالبق ، والله ليقتلن ولو في بيوتهم !

ذاع في الحارة ان البيوت ستهاجم بليل فركب الفرع الناس حتى

جئنا . وخرجوا من الربوع في ثورة هوجاء يحملون العصي والمقاعد وأغطية الحلل والسكاكين والقبايب والطوب . وصمم بيومي على ان يضرب قبل أن يستفحل الأمر فرفع نبوته وخرج من بيته في حالة من الأعوان . وظهر علي لأول مرة ومعهم رجال اشداء على رأس الثائرين . وما ان رأى بيومي قادماً حتى أمر بقذف الطوب فأرسل الهائجون اسراب الطوب كالجراد فانصبت على بيومي ورجاله وتفجرت الدماء . وهجم بيومي بجثثه ، وهو يصرخ كالوحش ولكن حجراً اصاب أعلى رأسه فتوقف رغم الغضب ورغم القوة ورغم الفتوة ، ثم ترنح وسقط مقتعاً بدمه . وسرعان ما فر الأعوان ، واكتسخت امواج الغاضبين بيت الفتوة حتى ترامت أصوات الكسر والتحطيم الى مثنى الناظر في بيته . واستطار الشر ، وانقض العقاب على من بقي من الفتوات وأعوانهم ، وخربت بيوتهم ، واستفحل الخطر ، وأوشك ان يفلت الزمام . عند ذلك أرسل الناظر في طلب علي فذهب علي لمقابلته . وكف رجال علي عن الانتقام والتخريب انتظاراً لما تسفر عنه المقابلة فبدأت الأحوال ومكنت الخواطر .

وتمخضت المقابلة عن عهد جديد في الحارة . فقد اعترف بالرفاعين كحي جديد مثل حي جبل فيما له من حقوق وامتيازات ، ونصب علي ناظراً على وقتهم ، وبمعنى فتوة لهم ، يتسلم نصيبهم في الوقف ويوزعه عليهم على أساس المساواة الشاملة . وعاد الى الحي الجديد جميع المهاجرين الذين فروا من الحارة في فترات الارهاب ، وعلى رأسهم عم شافعي وزوجته وزكي وحسين وكريم . وحظي رفاة في موته بما لم يكن ليحلم به في حياته من التكريم والاحلال والحب حتى سار قصة باهرة يرددها كل لسان ، وتتغنى بها الرباب ، وبخاصة رفع الجبلاني لجثته ودفنها في حديقته الغناء . وقد أجمع الرفاعيون على ذلك ، كما أجمعوا على الولاء والتقدير لوالديه . لكنهم اختلفوا فيما عدا ذلك فأصر كريم وحسين وزكي على ان رسالة رفاة يجب ان تقتصر على مداواة المرضى واحتقار الجاه

والقوة ، فساروا ومن تبعهم في الحياة مساره ، وغالى منهم قوم فتجنبوا
الزواج حباً في محاكاته واستعادة لسيرته ، أما علي فتمسك بكافة حقوقه
في الوقف وتزوج ودعا الى تجديد حي رفاة . لم يكره الوقف لذاته ولكن
ليبرهن على ان السعادة الحققة متاحة بدونه ، وليقضي على الشرور التي
يستثيرها الطمع ، فاذا وزّع الربيع بالعدل ، ووجهه للبناء والخير ، فهو
الخير كل الخير .

وعلى أي حال استبشر الناس خيراً ، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة ،
وقالوا بثقة واطمئنان ان اليوم خير من الأمس ، وإن الغد خير من اليوم .
فلماذا كانت آفة حارتنا النسيان ؟ !

قاسم

لم يكده يتغير شيء في الحارة . الأقدام ما زالت عارية تطبع آثارها غليظة على التراب . والذباب ما زال يلهو بين الزبالة والأعين . والوجوه ما زالت ذابلة مهزولة ، والثياب مرقعة ، والشئاتم تتبادل كالتحيات ، والنفاق يصمم الأذان . والبيت الكبير ما زال قابلاً وراء أسواره غارقاً في الصمت والذكريات ، وإلى اليمين بيت الناظر ، وإلى اليسار بيت الفتوة ، ثم يجيء حي جبل ، يليه حي رفاعة في وسط الحارة ، أما بقية الحارة وهي الناحية المنحدرة إلى الجمالية فكانت مقام من لا صفة لهم ولا نسب ، أو الجرايبع كما كانوا يدعونهم ، وهم أنعس أهل الحارة وأضيعهم . وفي هذا العهد ولي النظارة السيد رفعت ، وكان كسابقه من النظار . وكان فتوتها لهيطة وهو رجل قصير دقيق لا يوحى مظهره بالقوة لكنه ينقلب عند المعركة لساناً من نار في سرعته وحدته وتدميره ، وقد نال الفتوة بعد سلسلة من المعارك سالت لها الدماء في جميع الأحياء . أما فتوة جبل فكان يدعى جلطة ، وما زال حيه معتداً بنفسه مباهياً بقرابته للواقف وبأنه خير حي ، وأن رجلهم جبل كان أول وآخر من كلمه الجبلأوي وفضله ، ولذلك قل أن أحبهم أحد . وكان حجاج فتوة آل رفاعة ، لكنه لم يخذ مثالي في نظارته وإنما سار على درب خففس وجلطة وغيرهما من المفتصبين . كان يستأثر

بالربع ويضرب المتذمرين ويحث آله على اتباع سنة رفاة في احتقار
الحاه والثراء ! وحتى الجرايع كان لهم فتوتهم ، ويدعى سوارس ،
لكنه لم يكن طبعاً بناظر ولّف . على هذا النحو استقرت الأوضاع ،
وأكد حملة النبايت وشغراء الرباب انه نظام عادل ، جرت به شروط
الواقف العشرة وسهر على تنفيذه ورعايته الناطر والفتوات . وفي حي
الجرايع عرف عم زكريا بيع البطاطة بالطيبة ، وامتاز بين الناس بمرابته
للبعيدة للمعلم سوارس فتوة الحي . كان يطوف بأحياء الحارة سائقاً عربته
منادياً على البطاطة ، وفي وسط العربة تقوم الفرن نافثة دخاناً معبقة
برائحة شهية ، تجذب غلمان رفاة وجبل ، كما تجذب الغلمان بالجمالية
والعطوف والدراسة وكفر الزغاري وبيت القاضي . وكانت قد مضت
فترة غير قصيرة من حياة عم زكريا الزوجية دون أن يرزق بمولود ،
ولكن آنس وحشته في تلك الفترة صغير يتيم هو قاسم - ابن شقيق
زكريا - عقب وفاة والديه . ولم يجد الرجل في الصغير عبئاً يؤوده ،
اذ أن الحياة وخاصة في هذا الحي من الحارة لم تكن تملو كثيراً عن
حياة الكلاب والقطط والذباب التي تعثر على رزقها في النفايات واكوام
الزباله . وأحب زكريا قاسم كما كان يحب أباه من قبل ، ولما حملت
زوجته عقب انضمام الصغير للأسرة تناءل به خيراً وازداد عليه عطفاً ،
ولم يقل عطفه عندما رزق بابنه حسن . ونشأ قاسم شبه وحيد ، إذ كان
اليوم يمضي وعمه بعيد عن الحارة وزوجة عمه مشغولة بدارها ووليدها ،
ثم اتسع عالمه بنموه فأخذ يلعب في حوش الربع أو في الحارة ، وصادق
أقرانه في حيه وحي رفاة وجبل ، وذهب الى الخلاء فلعب حول
صخرة هند ، وشرق في الصحراء وغرب ، ورتي في الجبل . وكان
يتطلع مع الصغار الى البيت الكبير مفاخر بجدته ومقام جدته ، ولكنه لم
يكن يجد ما يقوله إذا تكلم البعض عن جبل والبعض الآخر عن رفاة ،
كما لم يكن يجد ما يفعله إذا انقلب الكلام تشاماً وتماسكاً وعراكاً . وم

نظر الى بيت الناظر بدهش واعجاب ، وكم رمق الثمار فوق الأشجار
برغبة واشتهاء . ويوماً رأى البواب ناعساً فتسلل الى الحديقة بخفة ، دون
ان يرى احداً او يراه احد ، وراح يقطع الماشي في بهجة وسرور ،
ويلتقط ثمار الجواقة من فوق الحشائش ويأكلها بلذة ، حتى وجد نفسه
أمام الفسقية ، وعلقت عيناه بعمود الماء المتصاعد من النافورة . استخفه
الفرح فخلع جلبابه ونزل الى الماء ومضى يخوض فيه ويضرب سطحه
بيديه ويدلك به جسده وقد ذهل عما حوله . وما يدري الا وصوت
حاد بصيح بغضب : « يا عثمان يا ابن الكلب ، تعال يا أعمى يا ابن
الأعمى » التفت رأسه نحو مصدر الصوت فرأى على السلامك رجلاً
متلفعاً بعباءة حمراء ، يشير نحوه بأصبعه المرتجف ، والغضب يشتعل في
وجهه ، فاندفع نحو حافة الفسقية وصعد الى ارض الحديقة مرنكزاً على
مرفقيه ، وعند ذاك لمح البواب قادماً مهرولاً ، فجرى نحو عريشة الياسمين
الملاصقة للسور ، ناسياً جلبابه حيث خلعه ، وركض نحو الباب ، فرق
الى الحارة . عدا بكل قواه ، ورآه اطفال فتبغوه مهللين ، فتبحت
كلاب ، ثم خرج عثمان البواب الى الحارة وراح يجري وراءه حتى
ادركه في منتصف حية ، فقبض على ذراعه وتوقف وهو يلث ، وعلا
صراخ قاسم حتى ملأ الحي . وسرعان ما جاءت زوجة عمه حامله وليدها ،
وخرج المعلم سوارس من القهوة . دهشت زوجه عمه لمنظره ، وامسكت
بيده وهي تقول للبواب :

— وحد الله يا عم عثمان ، أرعبت الولد ، ماذا فعل وأين جلبابه ؟
فصاح البواب في تكبر :

— رآه حضرة الناظر وهو يستحم في الفسقية ، هذا العفريت يجب
جلده ، دخل الملعون وانا نائم ، لماذا لا تريحوننا من عفاريتكم !
فقال المرأة برجاء :

— السماح يا عم عثمان ، الولد يتيم ، وحقت عليّ .

واستنفذته من يده قائلة :
- سأضربه عنك ولكن وحياة شيبتك الا ما اعدت له جلبابه الوحيد
فلوح البواب بيده متسخطاً وولاهها ظهره راجعاً وهو يقول :
- بسبب هذه الحشرة لعنت وسببت ، أولاد عفاريت وحارة
بنت كلب !
وعادت المرأة الى الربع ، متوركة حسن ، جارة قاسم من يده وهو
يشهق باكياً .

٦٥

وقال عم زكريا لقاسم وهو يرمقه باعجاب :
- لم تعد طفلاً يا قاسم ، فأنت تقارب العاشرة وآن لك ان تعمل !
فالتمعت عينا قاسم السوداء وان ابتهاجاً وقال :
- طالما رجوتك ان تأخذني معك يا عمي .
فضحك الرجل قائلاً :
- كان غرضك اللعب لا العمل ، اما اليوم فأنت ولد عاقل وتستطيع
ان تعاونني .
فهرع الغلام الى العربة محاولاً دفعها لكن عم زكريا منعه ، وقالت
زوجة عمه :
- حاسب ان تنزلق البطاطة فتموت جوعاً .
وقبض زكريا على يدي العربة وهو يقول له :
- سر امام العربة وناد : « بطاطة العمدة .. بطاطة القرن » وخذ
بالك من كل ما اقول أو أعمل ، وستصعد بالبطاطة الى الزبائن بالادوار
العليا ، وعلى العموم فتح عينك .

فقال قاسم وهو ينظر الى العربية بحسرة :

— لكني قادر على دفعها :

وساق الرجل العربية وهو يقول :

— أفعل كما أمرتك ولا تكن عنيداً ، كان ابوك أطف الناس .

انحدرت العربية نحو الجمالية وقاسم يصيح بصوت رفيع كالصغير :
« بطاطة العمدة ، بطاطة القرن » : لم يكن كمثّل فرحه شيء وهو
ينطلق الى الأحياء الغربية ويعمل كالرجال . ولما بلغت العربية حارة
الوطاويط نظر قاسم فيما حوله وقال لعمه :

— هنا اعترض ادريس سبيل ادهم !

فهز زكريا رأسه بلا اكتراث فعاد الغلام يقول ضاحكاً :

— كان ادهم يسوق عربته مثلك يا عمي .

ومضت العربية في تجوالها اليومي ، من الحسين الى بيت القاضي ،
ومن بيت القاضي الى الدراسة ، وقاسم يتطلع بدهش الى العابرين والدكاكين
والجوامع حتى انتهت الى ميدان صغير قال العم انه سوق المقطم ، فتأمله
الغلام باعجاب وقال :

— أهذا سوق المقطم حقاً ؟ الى هنا هرب جبل ، وهنا ولد رفاعة

فقال زكريا بلا حماس :

— نعم ، لا لنا في هذا ولا ذاك !

فقال قاسم :

— لكننا جميعاً اولاد الجبل اوي فلماذا لا نكون مثلهم ؟

فضحك الرجل وقال ساخراً :

— على الأقل جميعنا في الفقر سواء !

ووجه الرجل عربته نحو اطراف السوق المشرفة على الخلاء ، وبخاصة
نحو كوخ من الصفائح على هيئة دكان لبيع المسابح والبخور والأحذية ،
جلس امامه على فروة عجوز ذو لحية بيضاء .

- أوقف زكريا العربية امام الكوخ وصافح العجوز بحرارة ، فقال الرجل :
- عندي اليوم كفايتي من البطاطة .
- فجلس زكريا الى جانبه وهو يقول :
- مجالستك خير عندي من الريح .
- ونظر العجوز نحو الغلام مستظلاً فصاح به زكريا :
- تعال يا قاسم وقبل يد المعلم يحيى .
- فأقرب الغلام من العجوز وتناول يده المعروقة فلتحمها في أدب .
- وراح يحيى يداعب قصة قاسم ويتأمل وجهه الوسيم ثم تساءل :
- من الغلام يا زكريا ؟
- فقال زكريا وهو يمد ساقه في الشمس :
- ابن المرحوم أخي .
- فأجلسه الى جانبه على الفروة وهو يسأله :
- هل تذكر أباك يا بني ؟
- فهز قاسم رأسه قائلاً :
- كلا يا عمي .
- كان أبوك صديقاً لي ، وكان لطيفاً .
- ورفع قاسم عينيه الى البضائع يتأمل الوانها فد يحيى يده الى رف قريب وتناول حجاباً ، ثم علقه بعنق الغلام وهو يقول :
- احتفظ به فيحفظك من كل سوء .
- واذا بعم زكريا يقول لقاسم :
- المعلم يحيى كان من حارتنا ، ومن حي رفاعة .
- فنظر قاسم الى يحيى وتساءل :
- لماذا تركت حارتنا يا عمي ؟
- فأجاب زكريا قائلاً :
- غضب عليه فتوة رفاعة منذ عهد بعيد فأثر الهجرة .

- فقال قاسم بدهش :
- فعلت كما فعل عم شافعي والد رفاة .
- فضحك يحيى عن فم فارغ طويلاً ثم قال :
- أعرفت ذلك يا غلام ؟ ما أعرف أولاد حارتنا بالحكايات فسا بالهم لا يعتبرون !
- وجاء صبي قهوة حاملاً صينية شاي فوضعها امام يحيى ثم رجع واخرج يحيى من صدره لفافة صغيرة وجعل يفتكها قائلاً برضى :
- لدي شيء ثمين ، مفعوله أكيد حتى الصباح .
- فقال زكريا باهتمام :
- دعنا نجربه .
- فقال يحيى ضاحكاً :
- ما سمعتك تقول لا قط .
- كيف أرفض النعمة يا عمي !
- وتقاسما القطعة ، وراحا يلوكانها ، وقاسم يتابعهما بشغف حتى أضحك عمه . وأخذ العجوز يحسو الشاي ، ويسأل قاسم :
- هل تحلم بالفتوة كأهل حارتنا ؟
- فقال قاسم مبتسماً :
- نعم .
- فتبسمه زكريا وقال كالمعتذر :
- اعذره يا معلم يحيى فأنت تعلم أنه في حارتنا اما أن يكون الرجل فتوة وأما أن يُعدّ قفاه للصفع .
- فقال يحيى متأوهاً :
- ليرحمك الله يا رفاة ، كيف نبت في حارتنا الجهنمية !
- لذلك كانت نهايته كما تعلم .

- فقال يحيى مقطباً :
 - رفاة لم يمّت يوم مصرعه ولكنه مات يوم انقلب خليفته فتوة ؟
 فسأله قاسم باهتمام :
 - أين دفن يا عمي ؟ أهله يقولون إن جدنا دفنه في حديقته ،
 ويقول آل جبل إن جثته ضاعت في الحلاء .
 فصاح يحيى غاضباً :
 - الملاعين الأشقياء ، ما زالوا يحقدون عليه حتى اليوم !
 ثم مستدركاً في تساؤل :
 - خبرني يا قاسم هل تحب رفاة ؟
 فنظر الغلام نحو عمه في حذر ولكنه قال ببساطة :
 - نعم يا عمي ، أحبه كثيراً .
 - أيهما أحب اليك أن تكون مثله أم أن تكون فتوة ؟
 فرفع اليه عينين تمتزج فيهما الحيرة والابتسام وتحركت شفاه للكلام
 ولكنه لم ينبس ، فقال زكريا مقهقهاً :
 - فليقنع مثلي ببيع البطاطة !
 وساد الصمت بينهم على حين قامت ضجة في السوق حول حمار طرح
 أرضاً قال بالكارو المربوطة به ، واخذت الراكبات يثن منها ، أما
 السائق فقد أنهال على الحمار ضرباً . ونهض زكريا وهو يقول :
 - امامنا مشوار طويل ، سلام عليكم يا معلم .
 فقال يحيى :
 - احضر الغلام معك جنباً جنباً .
 وصافح قاسم وهو يداعب قصّته قائلاً :
 - ما أظرفك !

لم يكن في الخلاء من مكان يستظل به من وقدة الشمس الغاضبة الا
صخرة هند . هنالك اقتعد قاسم الأرض ولا أنيس له الا الغنم . بدا
في جلباب أزرق نظيف - نظيف بالقدر المتاح لراعٍ - مثلفح الرأس
بلاسة غليظة وقاية من الشمس ، ومنتعلاً مركوباً قديماً بالياً تهتك
اطرافه . وكان يخلو الى نفسه حيناً ويراقب التماج والخرفان والمغر
والجداء حيناً آخر ، وعصاه مطروحة الى جانبه . ولاح المقطم من مجلسه
القريب عالياً ضخماً متجهماً ، كأنه المخلوق الوحيد تحت القبة الصافية
الذي يتحدى غضبه الشمس في عناء واصرار ، كما ترمى الخلاء حتى
الآفاق مشمولاً بصمت ثقيل وهواء ساخن . وكان اذا أضنته أفكاره
وأحلامه ونوازع شبابه الفائر سرح الطرف في الغنم ملاحظاً لهوها وعيبتها ،
وتخاصمها وتواددها ، ونشاطها وكسلها ، وخاصة البهم والحملان منها
التي تستدر عطفه ومحبه . وكانت تعجبه أعينها الكحلوات وتهز فؤاده
بنظراتها كأنما تخاطبه ، وكان بدوره يخاطبها فيقارن بين ما تلقى في رعايته
من عطف وما يلقي اولاد حارته تحت غطسة الفتوات من هوان . ولم
تهمه نظرة الاستعلاء التي يلقيها أهل الحارة على الرعاة ، اذ آمن من
باديء الأمر بأن الراعي خير من البلطجي والبرجي والمتسول ، وفضلاً
عن ذلك فقد أحب الخلاء والهواء النقي وأنس الى المقطم وصخرة هند
وقبة السماء ذات الأطوار العجيبة ، إلا أن الرعي كان يقوده دائماً الى
لعلم يحبي ! وتساءل المعلم يحبي أول ما رآه راعياً :

— من بائع بطاطة الى راعي غنم ؟ !

فقال قاسم دون حرج :

— ولم لا يا معلم ! انه عمل يحسدني عليه مئات من النساء في حيننا !
— ولماذا تركك عمك ؟

— ابن عمي حسن كبير وهو أحق بمرافقة عمي في تجواله ، ورعي الغنم خير من التسول !

ولم يكن يمر يوم دون أن يزور معلمه . كان يحبه ويسعد بأحاديثه .
ووجد فيه رجلاً محيطاً بأخبار حارته ، حاضرها وماضيها ، ويعرف ما
يتغنى به شعراء الرباب وأكثر ، ويعرف أيضاً ما يتجاهلونه أحياناً .
وكان يقول ليحيى : « اني أرعى أغناماً من كل حي ، عندي غنم
للجل واخرى لرفاعة وثالثة للموسرين من حيننا ، ومن عجب أنها ترعى
جميعاً في اخاء لا ينعم بمثل أصحابها القساء من أولاد حارتنا ! » . وقال
له أيضاً : « كان همام راعياً ، ومن الذين يحتقرون الرعاة ! انهم
متسولون وعاطلون وتساء ، وهم في الوقت نفسه يحترمون الفتوات ،
وما الفتوات إلا لصوص فجرة وسفاكو دماء ! ساجدكم الله يا أولاد
حارتنا ! » . ومرة قال له في دعاية :

— اني فقير قانع ، لم تمتد يدي بالأذى لإنسان ، حتى غنمي لا تلقى
مني إلا المودة ، أفلا ترى أنني مثل رفاعه ؟
فرمقه الرجل باستنكار وقال :

— رفاعه ! أنت مثل رفاعه ! رفاعه قضى عمره في تخلص اخوانه
من الفغاريت كي تخلص لهم السعادة !
ثم ضحك العجوز واستدرك قائلاً :

— وانت شاب مولع بالنساء ، ترصد عند المغيب فتيات الحلاء !
فابتسم قاسم متسائلاً :

— وهل في ذلك من عيب يا معلمي ؟
— أنت وشأنك ، ولكن لا تقل إنك مثل رفاعه !
فتأمل قوله ملياً ، ثم قال :

— وجبل ألم يكن كرفاعة من أبناء حارتنا الطيبين ؟ كان كذلك
يا معلمي ، وقد أحب وتزوج واستخلص حق آله في الوقف ووزعه
بالعدل .

فقال يحيى بحدة :

— لكنه جعل من الوقف غايته !

فتفكر الشاب قليلاً ثم قال بصراحة :

— بل حسن المعاشرة والعدل والنظام ايضاً كانت غايته .

فتساءل يحيى في استياء :

— اذن فأنت تفضل جبل على رفاعة ؟

فامتألت العينان السوداوان بالخبرة ، وتردد طويلاً ، ثم قال :

— كلاهما كان رجلاً طيباً ، وما أقل الطيبين في حارتنا ، ادهم

وهمام وجبل ورفاعة ، أولئك هم كل حظنا من الطيبة ، أما الفتوات

فما اكثرهم !

فقال يحيى في أسى :

— وادهم مات كمدأ ، وهمام قتل ، ورفاعة قتل !

أولئك هم الطيبون حقاً من أهل الحارة . سيرة عطرة ونهاية مؤسفة .

مكذا كان يناجي نفسه وهو جالس في ظل الصخرة الكبيرة . وانبعث

من صدره رغبة حارة في أن يكون مثلهم . أما الفتوات فما أقيح فعالمهم .

وداخله حزن غامض وساوره قلق . وقال لنفسه ليهدد خاطره : كم

شهدت هذه الصخرة من أحداث وأناس ، كغرام قدري وهند ،

ومقتل همام ، ولقاء جبل والجبلاوي ، وحديث رفاعة وجدّة ، ولكن

أين الأحداث وأين الأناس ؟ إن الذكرى الطيبة تبقى وهي أئمن من

قطعان المعز والضأن ! وشهدت ايضاً جدنا العظيم وهو يحوب هذه

الآفاق وحده ، يمتلك ما يشاء ويُرهب الأشقياء . ترى كيف حاله في

عزله ؟

وعند الأصيل نهض ثم تخطى مثائباً . وتناول عصاه وهو يصفر صغيراً منغماً ، ثم لَوَّح بعصاه ونفق بالغنم فحضت تتجمع وتتحرك قافلتها نحو العمران . وبدأ يشعر بالجوع ولم يكن تناول في نهاره الا سردينه ورغيفاً ، ولكن عشاء طيباً ينتظره في بيت عمه . وحث السير حتى بدا له اول ما بدا من بعيد البيت الكبير بأسواره العالية ونوافذه المغلقة ورءوس أشجاره . ترى ما شكل الحديقة التي يتغنى بها الشعراء والتي مات أدهم حسرة عليها ؟ ولدى اقترابه من الحارة ترامت الى مسامعه الضوضاء . ومضى بجذء السور الكبير الى الداخل والمغيب يضفي على الجو سمرته . وشق طريقه بين جماعات من الغلمان يلعبون ويتقاذفون بالطين ، وملأت أذنيه نداءات الباعة وأحاديث النساء وسخريات الساخرين وشنائهم ، واستغاثات المجذوبين وجرس عربة الناظر ، على حين افعم أنفه برائحة المعسل النافذة ، والزبالة العطنة ، والنقلية المثيرة . وعرج الى الربوع بحميّ جبل يعيد اليها أغنامها ، كذلك فعل بحميّ رفاعه ، فلم يبقَ لديه الا نعجة واحدة ، تملكها ست قمر ، السيدة الوحيدة التي تملك مالا في حي الجرابيع . وكانت تقيم في بيت مكوّن من دور واحد ذي حوش متوسط تنوسطه نخلة وفي ركنه الأقصى شجرة جوافسة . ودخل الحوش سائفاً أمامه « نعمة » فصادف في طريقه الجارية سكيّنة بشعرها المفلفل الذي وخطه المشيب ، فحيّاها فردت تحيته بابتسامة وسألته بصوت نحاسي :

— كيف حال نعمة ؟

فأعرب لها عن اعجابه بالنعجة ، وتركها لها ، ومضى في سبيله ، وإذا بصاحبة البيت والنعجة تدخل الحوش عائدةً من الحارة . بدت امامه في ملأه لف حوت جسمها المليء ، وطالعه من برقعها عينان

سوداوان ينديان بالحنان . تنحى جانباً وهو يفض بصره فقالت له
برقة مهذبة :

— مساء الخير .

— مساء الخير يا ستي .

وتمهلت المرأة في سيرها وهي تنفحص نعمة ، ثم نظرت نحوه ،
وقالت :

— نعمة تسمن يوماً بعد يوم والفضل لك !

فقال متأثراً من نظرتها الحنونة قبل كلماتها الطيبة :

— الفضل للمولى ولرعايتك .

والنفت ست قمر نحو سكينه وقالت :

— احضري له عشاء !

فرفع يديه بالشكر الى رأسه وقال :

— خيرك سابق يا ستي .

وفاز بنظرة أخرى وهو يحببها مودعاً ثم ذهب . ذهب شديد التأثير برقتها
وعطفها ، كحالها كلما اسعده الحظ بلقائها . وذلك عطف لم يعرف
مثله الا فيما يسمع أحياناً عن عطف الأمهات الذي لم يجربه . ولو امتد
العمر بأمه لكانت اليوم في مثل عمر هذه السيدة الأربعينية . وكم بدا هذا
العطف عجباً في حارته التي تتباهى بالقوة والعنف . وليس اعجب منه
الاجالها المحتشم وما ينفحه في روحه من بهجة غامرة . ليست كذلك
مغامرات الخلاء المحرقة ، بجوعها الملتهب الأعمى وشبعها الخامد المكتئب.
وهول نحو دار عمه ملقياً عضاه على كتفه ، لا يكاد يرى ما بين
يديه من شدة انفعاله . وجد أسرة عمه مجمعة في الشرفة المطلة على
حوش الربيع تنتظره . جلس مع ثلاثتهم حول للطلبة وقد اعد عليها
عشاء من طعمية وكراث وبطيخ . وكان حسن في السادسة عشرة من
عمره ، طويل القامة متين البناء حتى حلم عم زكريا بأن يراه يوماً فتوة

الجرايع . ولما انتهى العشاء رفعت المرأة الطبلية وغادر عم زكريا الربيع ،
ولبت الصديقان في الشرفة حتى ترامى اليهما صوت من الخوش ينادي :
- يا قاسم .

فقام الشابان وقاسم يجيبه :

- نحن قادمان يا صادق .

وتلقاهما صادق ببشر متألق ، وكان مقارباً لقاسم في سنه وطولنه
ولكنه انحل منه عوداً . وكان يعمل مساعداً لمبيض النحاس في اول
دكان بحى الجرايع فيما يلي الجمالية . مضى الاصدقاء الى قهوة دنجل ،
وطالهم لدى دخولهم الشاعر طازة متربعا على اريكته في الصدر ، على
حين جلس سوارس على كنب من مجلس دنجل عند المدخل ، فانجهوا
نحو الفتوة وصافحوه في خضوع رغم ما يعتز به قاسم وحسن من
قربته . واتخذوا مجلسهم على أريكة واحدة وسرعان ما جاء لهم
صبي القهوة بطلباتهم المألوفة ، وكان قاسم مغرماً بالجوزة والشاي
المننع . واذا بسوارس يتفحص قاسم بنظرة ازدراء وتساءل
بغلظة :

- مالك يا ولد متأنقاً كالبنات ؟

فتورد وجه قاسم حياء وقال في نبرة المعتذر :

- ليس في النظافة ما يعيب يا معلم !

فقطب في استياء وقال :

- لكنها في مثل سنك قلة أدب !

وساد الصمت في القهوة كأن روادها وادواتها وجدرانها تنصت
لكلمات الفتوة . ولحظ صادق صاحبه بعطف لما يعلم عن رقة مشاعره .
اما حسن فأخفى وجهه في قلدح الزنجبيل حتى لا يكتشف فيه الفتوة
الغضب . وتناول طازة الرباب ، فانبعثت من اوتارها الانغام ، وتنابت
التحيات لرفعت الناظر ولهيطة الفتوة وسوارس سيد الحي ، ومضى الشاعر

يقول :

« وخيل الى أدهم انه يسمع وقع اقدام . اقدام بطيئة وثقيلة استثارت
ذكريات غامضة كرائحة زكية مؤثرة تستعصى على الادراك والتحديد .
حول وجهه نحو مدخل الكوخ فرأى الباب يفتح ، ثم رآه يمتلئ بشيء
كجسم هائل . حلق في دهش ، وأحدّ بصره في أمل يكتنفه بأس ،
وندّت عنه آهة عميقة ، وغغم متسائلاً :

— أبى ؟

وخيل اليه انه يسمع الصوت القديم وهو يقول :

— مساء الخير يا أدهم .

فاغرورقت عيناه ، وهمّ بالقيام فلم يستطع ووجد غبطة وبهجة لم
يجدهما منذ أكثر من عشرين عاماً .

٦٧

قالت سكينه الجارية :

— انتظر يا قاسم ، عندي شيء لك .

فوقف قاسم حيث ربط النعجة بجذع النخلة ، وقف ينتظر الجارية
التي ذهبت الى الداخل ، وكان قلبه يخفق ، وحدثته نفسه بأن الخير الذي
وعده به صوت الجارية انما يجيء من خير أنبل في قلب صاحبة الدار .
ووجد تشوّفاً عميقاً الى ان يرى نظرتها او يسمع صوتها ليبرد بالبهجة
جسده الذي احترق في الحلاء طيلة النهار . وعادت سكينه بالغافة فأعطته
اياها وهي تقول :

— فطيرة بالهنا والشفا !

فتلقاها بيديه قائلاً :

— اشكري عني السيدة الكريمة .

فجاءه صوتها من وراء النافذة وهي تقول برقة :

— الشكر للمولى يا ابن الطيبين .

فرفع بالشكر يده دون بصره ومضى . وردد قولها : « يا ابن الطيبين »
في سعادة مخدرة . لم يسمع راعي الغنم قولاً كهذا من قبل . ومن
قائلته ؟ السيدة المحترمة في حيّ البائس ! والقي نظرة وردية على الحارة
المسربة بالمغيب ، وقال لنفسه : « رغم تعاسة حارتنا فهي لا تخلو من
اشياء تستطيع اذا شاءت ان تبعث السعادة في القلوب المتعبة » ! وانتبه
من حلمه منزعجاً على صوت يصرخ « نقودي .. نقودي » سرقت !
رأى رجلاً معتماً يهرول في جلباب ابيض فضفاض نحو داخل الحارة
قادمًا من أول حيّهم . وتحولت الحارة نحو الرجل الصارخ ، فجرى نحوه
الصغار ، واشتربت أعناق الباعة والجالسين بالأبواب ، واطلت الرؤوس
من النوافذ ، وارتفعت أوجه من تحت الأرض خلال كوات البدرومات
وخرج رواد المقاهي ، وأحيط بالرجل من كل ناحية . ورأى قسام
رجلاً قريباً منه ، يحك ظهره بعود خشبي من طوق جلبابه ، ويتابع
المنظر بعينين كليتين ، فسأله عن الرجل قائلاً :

— من الرجل ؟

فأجاب ويده لا تمسك عن الحك :

— نجاد كان يعمل في بيت الناظر !

واتجه نحو الرجل سوارس فتوة الجرايع وحجاج فتوة رفاة وجلطة
فتوة جبل ، وسرعان ما امروا الناس بالابتعاد فراجعوا خطوات بلا
تردد . وقالت امرأة من نافذة ريع في حي رفاة :

— عين أصابت الرجل !

فقالت امرأة اخرى من نافذة بأول ربوع جبل :

— صدقت ، ما من احد الا وحسده على ربحه المنتظر من تهجيد

برش الناظر ، اللهم اكفنا شر العين .
 فتأملت امرأة ثالثة واقفة امام باب بيت وهي تغطي رأس غلام :
 - وكان يا عيني يضحك وهو خارج من بيت الناظر ، لم يكن
 يدري انه سيصرخ ويبكي ، قطعت الفلوس وقرفها !
 وكان الرجل يصيح بأعلى صوته :
 - سرق كل ما كان معي من نقود ، اجرة عمل اسبوع ، واخرى
 كانت في جيبى ، نقود البيت والدكان والاولاد ، عشرون جنيهاً
 وقروش ، الله يخرّب بيت اولاد الحرام !
 وقال جلطة فتوة جبل :
 - "مَس ، الكل يسكت ، اسكتوا يا غم ، سمعة الحسارة في
 الميزان ، وأي عيب في النهاية سيلبس الفتوات !
 فقال حجاج فتوة رفاعة :
 - وربك لن يقع عيب ، ولكن من ادرانا انه فقد نقوده في
 حارتنا ؟
 فهتف النجاد بصوت مبحوح :
 - عليّ الطلاق ما سرفت الا في حارتكم ، تسلمتها من بواب
 حضرة الناظر ، وتحسست صدري في آخر الحارة فلم أجد لها أثراً .
 وارتفعت الاصوات فصاح حجاج :
 - اسكتوا يا مواشي ! واسمع يا رجل ، اين عرفت ان نقودك
 ضاعت ؟
 فأشار الرجل الى آخر حيّ الجرايبع وقال :
 - امام دكان مبيض النحاس ، لكنني والحق يقال لم يقترب مني
 احد هناك .
 فقال سوارس :
 - اذن سرق قبل ان يدخل حيّنا !

فقال حجاج فتوة رفاة :

— كنت في القهوة حين مروره فلم ار احدا في حيننا يقترب منه .

فصاح جلطة بنحق :

— ليس في آل جبل لص ، انهم اسياد هذه الحارة !

فأجابه حجاج غاضباً :

— حاسب يا معلم جلطة ، عيب قولك اسياد الحارة !

— لا ينكر ذلك الا مكابر !

فصاح حجاج بصوت كالرعد :

— لا توقظ عفاريتي ! ملعون دين قلة الذوق .

فصاح جلطة بنفس القوة :

— ألف لعنة ، ألف لعنة على قلة الذوق التي لا توجد في حيننا !

وهنا قال النجاد بصوت باله :

— يا رجال ! نقودي فقدت في حارتكم ، كلكم اسياد على العين والراس ، لكن اين نقودي ، يا خراب بيتك يا فتجري !

فقال حجاج بتحد :

— عليكم بالتفتيش ، فلنفتش كل جيب ، كل رجل ، كل مرة ، كل ولد ، كل ركن .

فقال جلطة بازدراء :

— فتشوا ، وستسود وجوه غير وجوهنا !

فقال حجاج :

— خرج الرجل من بيت الناظر فرأى أول ما مر يحيى جبل فلنبسداً بالتفتيش في حي جبل !

فشخر جلطة وقال :

— لن يكون هذا وجلطة حي ، يا حجاج اذكر من تكون أنت ومن اكون انا .

- يا جلطة ، ان ندوب الطعنات في جسدي اكثر من شعره !
 — أما انا فلا مكان للشعر في جسدي !
 — اللهم ابعدك يا شيطان !
 — اليّ يا شياطين الأرض جميعاً !
 وعاد فنجري يصيح :
- يا هوه ، تقودي ، الا يسيثكم ان يقال اني سرقت في حارتكم ؟
 وغضبت امرأة فصاحت به :
- غر يا وجه البومة ، ستهلك الحارة بسبك !
 واذا بصوت يتساءل :
- ولماذا لا تكون النقصود قد سرقت في حيّ الجرايع واكثرهم
 لصوص وشحاذون ؟
 فصاح سوارس :
- لصوصنا لا يسرقون في حارتنا !
 — ومن ادرانا بذلك ؟
 فقال سوارس بعينين محمرتين من الغضب :
- لا حاجة بنا الى مزيد من قلة الأدب ، سيكشف التنقيش عن
 اللص ، والا فقولوا على حارتنا السلام !
 ونادى اكثر من صوت :
- ابدأوا بحيّ الجرايع !
 فصاح سوارس :
- اي خروج عن الترتيب الطبيعي للتنقيش سيلقى نبوتي في وجهه .
 ورفع سوارس نبوته فانحاز اليه رجاله ، وفعل حجاج مثله ، وتراجع
 جلطة الى حيّه وفعل مثلها ، فلاذ النجاد بباب الربع وهو يبكي ، وكان
 الليل على وشك الهبوط . وتوقع الجميع ان تبدأ معركة دامية . واذا
 بقاسم يندفع الى وسط الحارة ، ويصيح بأعلى صوته :

— انتظروا ، لن يكشف الدم عن النقود المفقودة ، وسيقال في
الجمالية والدراسة والعطوف ان داخل حارة الجبلاوي مسروق ولو احتمى
بناظرها وفتواتها !

فتساءل احد رجال جبل :

— ماذا يريد راعي الغنم ؟

فقال قاسم بسماحة :

— عندي حيلة ترد بها النقود الى صاحبها دون عراك !

فجرى النجاد نحوه هاتفاً : « انا في عرض دينك » . فقال قاسم
يخاطب الجميع :

— سترد النقود الى صاحبها دون ان يفتضح أمر السارق .

وساد الصمت ، وتركزت الأعين في قاسم باهتمام شديد ، فعاد يقول :

— فلننتظر حتى يستحكم الظلام وهو قريب ، لن تضاء شمعة واحدة
في الحارة ، ثم نسير جميعاً من اول الحارة الى آخرها كيلا تنحصر
الشبهة في حيّ دون آخر ، وفي اثناء ذلك سيجد حائز النقود فرصة
للتخلص منها في الظلام من غير ان يفتضح امره ، فنعثر على النقود
وتنجو الحارة من شر العراك .

وشدّ النجاد على ذراع قاسم في ضراعة يائس وهتف : « نعم الحل ،
اقبلوه جبراً لحاطري » . وصاح صوت : « حل معقول يا جدعان ! »
وصاح آخر : « هذه فرصة للسارق كي ينجو وينجّي الحارة » .
وزغردت امرأة طويلاً . ونقل الناس اعينهم بين الفتوات الثلاثة وهم
بين الرجاء والخوف . وأبى أي فتوة ان يكون البادىء باعلان القبول
علواً واستكباراً فلبث اهل الحارة يتساءلون هل يغلب العقل او تتلاطم
النبايت وتسيل الدماء . واذا بصوت يعبره الجميع يصيح :

— هو !

فانجذبت الرؤوس نحو مصدره ، حيث وقف لهيطة فتوة الحارة غير

بعيد من بيته . وساد الصمت وقد تعلقت بما سيقول القلوب جميعاً .
وقال الرجل بازدرأ :

— اقبلوا الحل يا غجر ، لولا غباوتكم ما كان منقذكم راعي غنم .
وسرت في القوم هممة ارتياح . وتعالى زغاريد . فاشتد خفقان
قلب قاسم . ولحظ دار قر وهو موثق بأن عينيها السوداوين تراقبانه من
وراء احد الشباكين المطلين على الحارة ، فداخله زهو سعيد ، وشعر
بلذة فوز كبير لا عهد له به . وبدا الجميع وهم يترقبون الظلام ،
فينظرون الى السماء تارة وينظرون صوب الخلاء تارة اخرى . وتابعوا
هبوطه درجة فدرجة . ومضت المعالم تتوارى والوجوه تحتفي والناس
ينقلبون اشباحاً . اما الممران حول البيت الكبير المفضيان الى الخلاء فقد
اغلقتهما الظلمة . ودبت الحركة بين الأشباح فمشوا نحو البيت الكبير ثم
قطعوا الحارة مهولين حتى الحالية ، ثم تفرقوا كل الى حيه . عند
ذاك صاح لطيفة بصوته الأمر :

— نوروا !

وكان أول ما لاح من نور في دار قر يحي الجرايع ، ثم أضيئت
مصاييح عربات اليد ، ثم كلوبات المقاهي ، فعادت الحارة الى الوجود.
وراح قوم يتفحصون الأرض على ضوء كلوب ، حتى تعالى صوت
قائلاً :

— ها هي المحفظة !

وجرى فنجري من فوره نحو الضوء فتناول المحفظة ، وعده نقوده ، ثم
هرول لا يلوي على شيء نحو الحالية مخلفاً وراءه ضجة عالية من الضحكات
والزغاريد . ووجد قاسم نفسه محط أنظار ، ومركز استقبال للتهاني
والمزاح ، ومحور تعليقات شتى تساقطت عليه كالورد . وعندما ذهب
قاسم وحسن وصادق الى قهوة الجرايع ذلك المساء استقبله سوارس

بابتسامة ترحيب وقال :
- جوزة على الحساب لقاسم .

٦٨

موّرد الوجه ، متألق النظرات ، صافي القسمات ، مبهج القلب .
دخل حوس قمر ليأخذ النعجة وهو يقول : « يا مياتر » . وراح يفك
رباط النعجة في بئر السلم ، واذا بصرير باب الحريم يسمع وهو يفتح وصوت
الست تقول :

- صباح الخير .

فقال بفؤاده ولسانه :

- صبحك المولى بالسعادة يا سني .

- صنعت أمس خيراً كبيراً لحارتنا .

فقال وروحه ترقص طرباً :

- الله هو الهادي .

فقالت في نغم وشى باعجابها .

- علمتنا أن الحكمة أجل من الفتنة .

وعطفك أجل من الحكمة ، هكذا قال لنفسه ، ثم قال لها :

- ربنا يكرمك .

فتم صوتها على ابتسامة وهي تقول :

- رأيناك ترعى أولاد الحارة كما ترعى الغنم ، صبحتك السلامة .

ذهب بنعمة ، وكلما مر بربع انضم الى قافلته ماعز أو ماعزة أو

جلدي أو تيس . وكان يلقي بالترحاب ، حتى الفتوات ردوا على تحياته

وكانوا يتجاهلون لها . واخترق الممر الملاصق لسور البيت الكبير وراء

طابور طويل من الأغنام في طريقه الى الحلاء . واستقبل شمساً لافحة تبرع
فوق الجبل ، وجواً يزفر أنفاساً حارة في الصباح المشرق . وتراءى عند
سفح الجبل بعض الرعاة ، ومر رجل مهلهل الثياب ينفخ في ناي ،
وانطلقت في القبة الصافية حدآي مدومة . وفي كل نسمة استنشقت صفاء
نقياً ، وخال الجبل الضخم يحوي كنوزاً من الآمال الواعدة . وسرح
الطرف في الحلاء بارتياح عجيب حتى استخفه طرب جواد فراح يغني :
يا حلو يا زين يا صعيدي اسلك منجوش على أيدي

وجالت عيناه بين صخرة قدرى وهند وبين البقاع التي جرت بها
مصارع همام ورفاعة ، ولقاء الجبلاني وجبل ! هنا الشمس والجبل
والرمال والمجد والحب والموت ، وقلب يبرز فيه الحب لكنه يتساءل عن معنى
هذا كله ، ما مضى منه وما هو آت ، عن الحارة ذات الأنبياء
المتخاضة والفتوات المتنازعين ، عن الحكايات التي تروى في كل مقهى
على شكل .

وقبيل الظهيرة ساق أغنامه نحو سوق المقطم ثم مضى الى كوخ المعلم
يحجي وجلس . وهتف به العجوز :

— ما هذا الذي يقال عما فعلت أمس بجارتنا ؟

ودارى قاسم حياته باحتساء الشاي فعاد المعلم يقول :

— كان الأفضل أن تركهم يتطاحنون حتى يهلكوا جميعاً .

فقال دون أن يرفع عينيه :

— ما تقول هذا إلا بلسانك .

فقال يحجي محذراً :

— تجنب المعجبين خشية أن تستفز الفتوات .

— وهل يستفز الفتوات أمثالي ؟

فتنهده العجوز قائلاً :

— ومن كان يتصور أن يغدر غادر برفاعة ؟

فقال قاسم بدهشة :

— وما وجه التشابه بين رفاعة العظيم وبينى أنا ؟
وعندما هم بالعودة ودعه العجوز قائلاً :
— احتفظ دائماً بحجابي .

وعند العصر كان يجلس في الظل المحدود وراء صخرة هند ، وإذا
به يسمع صوت سكينه وهي تنادي : « نعمة » فوثب قائماً ودار حول
الصخرة فرأى الحارية واقفة عند رأس النعجة تداعب زلمتها . حياها
بابتسامة فقالت بصوتها النحاسي :

— انا ذاهبة في مشوار في الدراسة فررت من هنا اختصاراً للطريق .
فقال قاسم :

— لكنه طريق شديد الحرارة .

فقالت ضاحكة :

— لذلك سأستريح قليلاً في ظل الصخرة .

وجلسا متقاربين في الظل حيث ترك عصاه . وقالت سكينه :

— عندما شهدت صنيعك بالأمس آمنت بأن امك دعت لك من قلبها
قبل وفاتها .

فتساءل مبتسماً :

— وأنت لا تدعين لي ؟

فقالت وهي تداري نظرة مأكرة :

— لمثلك يدعى بينت الحلال !

فقال ضاحكاً :

— ومنذا الذي يرضى براعي غنم !

— الحظ يصنع العجائب ، وأنت اليوم بمنزلة الفتوات دون حاجة

الى سفك دماء !

- أقسم ان لسانك أحلى من الشهد !
 غرمته بنظرة من عينيها الذابلتين وقالت :
 - هل أدلك على طريق عجيب ؟
 فتولاه انفعال طارئ وهو يقول :
 - نعم .
 فقالت بصراحة زنجية :
 - جرب بخنك واخطب سيدة حيناً !
 وبدا كل شيء غير نفسه . وتساءل :
 - من تعين يا سكبنة ؟
 - لا تتجاهل ما أعني ، فليس في حيننا الا سيدة واحدة .
 - ست قرر !
 - دون غيرها !
 فقال بصوت متهدج :
 - كان زوجها من الأكابر ، ولست الا راعي غنم !
 - لكن الحظ اذا ضحكك ضحكك معه كل شيء حتى الفقر .
 وتساءل وكأنما يسأل نفسه :
 - ألا يغضبها طلبي ؟
 قامت سكبنة وهي تقول :
 - لا يدري أحد متى ترضى النساء ومتى تغضب ، فتوكل على الله .
 ثم وهي تمضي :
 - فترك بعافية .
 رفع رأسه نحو السماء وأغمض عينيه كأنما دهمه نعاس .

حملق عم زكريا في وجه قاسم بذهول ؛ ومثله فعلت زوجته ، ومثلها فعل حسين ، وهم يستريحون في الدهليز امام شقتهم عقب العشاء . وقال العم :

— قل كلاماً غير هذا الكلام ، عرفتك مثال العقل والكرامة رغم ففرك ، رغم فقرنا ، فاذا انتاب عقلك ؟

ونجلى في عيني زوجة عمه نهم الاستطلاع فقال قاسم :

— لذي ما شجعني فجاريته هي التي فتحت لي الباب !

— جاريته !

ندت الكلمة عن زوجة عمه وصرخت عيناها بطلب المزيد . اما العم فانطلقت من فيه ضحكة مقتضبة اكدت حيرته ، ثم قال في ارتياب :

— لعلك أسأت فهمها !

فقال قاسم بهدوء يغطي به على انفعاله :

— كلا يا عمي .

فهتفت زوجة عمه :

— فهمت ! اذا قالت الجارية فقد قالت السيدة !

وقال حسن مدفوعاً بحبه لابن عمه الذي لا يخفى على أحد :

— وقاسم رجل ولا كل الرجال !

فهز عم زكريا رأسه وغغم : « بطاقة العمدة .. بطاقة القرن » ثم قال :

— لكنك لا تملك ملياً .

فقلت زوجته :

— انه يرعى نعلتها فهي لا تجهل ذلك .. (ثم وهي تضحك)
انذر يا قاسم الا تذبح نعمة في حياتك اكراماً لنعمة !
وقال حسن في تفكير :

— عم عويس البقال هو عم ست قر ، أغنى رجل في حينا ،
سيكون نسينا ، كما كان سوارس قربينا ، ما أجمل ذلك !
فقلت أمه :

— ست قر على قرابة مع أمينة هانم حرم الناظر ، كان المرحوم
زوجها قريباً للهانم .

فقال قاسم بقلق :

— هذا مما يزيد الأمر عسراً !

واذا بهم زكريا يقول بحماس طارئ كأنما قدر ما يعود عليهم من
رفعة بالنسب المرتقب :

— تكلم كما تكلمت يوم واقعة النجاد ، انك شجاع حكيم ، وسنذهب
معاً الى السيدة لنفاتها في الأمر ثم نكلم عويس ، اذ اننا لو بدأنا
بعويس لارسلنا الى مستشفى المجاذيب !

وجرت الأمور كما رسم زكريا . لذلك جلس عم عويس في حجرة
الاستقبال بدار قر ينتظر مجيئها وهو يعث بشأربه الغزير مداراة لاضطراب
خاطرته . وجاءت قر في ثوب محتشم مغطاة الرأس بمنديل بني فصافحته
بأدب وجلست وفي عينيها نظرة جمعت بين الهدوء والتصميم . قال عويس :
— حيرتني يا بنتي ! بالأمس رفضت يد عم مرسي وكيل أعمالنا
بحجة انه غير كفء لك ، واليوم ترضين بראعي غنم !
فأجابت ووجهها يتورد حياة :

— عمي ، انه رجل فقير حقاً ولكن ليس من أحد في حينا إلا وبشهد
له ولأهله بالطيبة !

فقال عم عويس مقتطاً :
- نعم ولكن على نحو ما نشهد لخدم بالإمانة أو النظافة ، والكفاءة
في الزواج شيء آخر .
فقالت قر بأدب :

- دلني يا عمي على رجل مهذب مثله في حارتنا ، دلني ولو على
رجل واحد لا يباهي بعمل من اعمال البلطجة أو الخسة أو الوحشية ١٩
وكاد الرجل ان ينفجر غاضباً لولا تذكره بأنه لا يخاطب ابنة اخيه
فحسب ولكن المرأة التي تسهم في تجارتها بمال غير قليل ، لذلك قال
برجاء :

- قر ، لو شئت زوجتك من أي فتوة في الحارة ، لهيطة نفسه
يودك لو قبلت ان تقاسمه مع زوجاته .

- لا أحب هؤلاء الفتوات ! ولا هذا النوع من الرجال ، كان أبي
رجلاً طيباً مثلك ، وكم قامى من عنتهم حتى اورثني كراحتهم ، اما
قاسم فهو رجل مهذب ، لا ينقصه الا المال وعندى منه الكفاية .
فتنه عويس ، ثم نظر اليها طويلاً ، ثم قال برجاء أخير :

- اني مبلغك رسالة أمينة هانم حرم حضرة الناظر ، قالت لي قل
لقمر ان تعقل ، وانها مقدمة على غلطة ستجعل منا احدى الحارة .
فقالت قر بحدة :

- أنا لا تهمني أوامر الهانم ، ويبدو للأسف انها لا تعرف من هم
الذين نجعلهم فعالمهم احدى الحارة في الحارة .

- يا بنت أخي انها تود لك الكرامة .

- يا عمي لا تصدق انها تهتم بنا أو حتى تذكرنا ، ومنسذ وفاة
المرحوم من عشرة أعوام لم أجر لها على خاطر .

فتردد الرجل ملياً في حرج ظاهر ثم قال في تأفف ظاهر :

- انها تقول أيضاً إنه ليس من العقل ان تتزوج امرأة من رجل

غير كفاء لها خاصة اذا كان لظرف ما يتردد على بيتها !
فانطلقت قر واقفة بوجه مصفر من الغضب وهتفت :
- قطع لسانها ، لقد ولدت ونشأت وتزوجت وترملت في هذه
الحارة ، الكل يعرفني ، وسيرتي كالعطر على كل لسان .
- طبعاً يا بنتي طبعاً ! ليس الا انها تشير الى ما قد يقال .
- عمي ، دعنا من الهانم فلا يجيء منها إلا وجع الدماغ ، اني
اخبرك وأنت عمي بأنني قبلت الزواج من قاسم ، وسيكون ذلك برضاك
وحضورك !

وصمت عويس متفكراً . لم يكن في الوسع منعها ، ولا من الهين
اغضابها للحد الذي تسحب عنده أموالها من تجارتها . وراح ينظر بين
قدميه في ارتباك وحزن . وفتح فاه ليقول شيئاً ولكن لم تخرج منه غير
غمغة مبهمة . ولبثت قر تنظر اليه في ثبات وصبر .

٧٠

وهب عم زكريا ابن أخيه بضعة جنيهاً - اقترض أكثرها -
ليصلح بها شأنه قبل الزواج . وقال العم :
- لو كنت قادراً لغطينك بالمال يا قاسم ، كان أبوك أئماً كريماً ، ولا
أنسى فضله عليّ يوم زواجي .

وابتاع قاسم جلباباً ، وثياباً داخلية ، ولاسة مزركشة ومركوباً فاقع
الاصفرار ، وعصا خيزران ، وحقن نشوق . وذهب في أعقاب الفجر
الى الحمام ، فاستسلم للبخار ، وغاص في المغطس ، ثم مضى الى المدلك ،

ثم استحم ، ثم تبخر ، ثم تمدد في الخلوة يحسني الشاي ويحلم بالهناء .
أما قمر فتكفلت بالفرح . أعدت سطح الدار لاستقبال المدعوات ،
ودعت عاتمة معروفة واستأجرت امهر طاه في المنطقة . وأقيم في الحوش
سراذق للمدعوين والمطرب . وجاء أهل قاسم وأصحابه ورجال الحي
وعلى رأسهم المعلم سوارس . ودارت أقفاح البوطة وعشرون جوزة
حتى غامت الكلوبات بالدخان وسطعت رائحة الحشيش المفترخ . وتجاوبت
الاركان بالزغاريد والتهليل والقهقهة . وراح عم زكريا يقول في فخفخة
من دارت الخمر برأسه :

— نحن أسرة كريمة أصلها عريق !

فكتم عم عويس غيظه وهو يجلس بين سوارس وزكريا وقال باقتضاب :

— حسبكم قرابتكم للمعلم سوارس !

فصاح زكريا بقسوة :

— المعلم سوارس ألف مرة !

فحينئذ التفت سوارس من فوره حتى جاء الرجل بابتسامة ولوح بيده .
وكان الفتوة فيما مضى يفضج من تمسح زكريا بقرايته البعيدة منه ، ولكنه
أخذ يغير من مشاعره منذ علم بزواج قاسم من قمر ، بل قرر فيما بينه
وبين نفسه الا يعتق قاسم من الاناوة . وعاد زكريا يقول ،

— وقاسم شاب محبوب ، من في حارتنا لا يحبه ؟

وكأنما قرأ شيئاً من الاستياء في نظرة سوارس فأردف يقول :

— لولا حكمته يوم السرقة ما وجدت رعوس رفاعة وجبل من يدفع

عنها نبوت فتوتنا سوارس !

وانبسطت أسارير سوارس وصدق عويس على قول زكريا قائلاً :

— صدقت ورب السماوات والأرض .

وغنى المطرب : زمان الوصل قرب بالتهاني .

وازداد قاسم اضطراباً فظن صادق الى حاله كشأنه دائماً فقدم اليه

اليه قلدحاً جديداً من الشراب وما زال به حتى أفرغه في جوفسه حتى
التهالة ، وكانت الجوزة ما تزال في يده . وأفرط حسن في الشراب حتى
تراقصت تهاويل السراشق امام عينيه . ولاحظ عم عويس ذلك فخطب
عم زكريا قائلاً :

— حسن يشرب اكثر مما يليق بسنه .

فوقف زكريا والقدح بيده وقال لابنه وكأنما ينصحه :

— يا حسن لا تشرب هكذا .

وترجم « هكذا » بافراغ القدح في جوفسه في ضبعة من الضمحك
والانبساط فتلوى الغيظ في باطن عويس حتى قال لنفسه : « لولا حماقة
ابنة أخي لكلفك ما شربت الليلة جميع ما تملك ! » .

وعند منتصف الليل دعي قاسم للزفة فقصد المدعوون قهوة دنجل ،
وعلى رأسهم سوارس سيد الزفة وحاميها . كان الحي خارج الدار مكتظاً
بالغلمان والمتسولين والقطط التي تجمعت تلبية لرائحة المطبخ . وجلس قاسم
بين حسن وصادق فحياهم دنجل قائلاً لصبيه :

— يا ليلة الهنا ، جوزة دنجل يا ولد للجدةعان .

ثم ان كل موسر قدم جوزة على حسابه للجميع .

وجاء المنشدون يتقدمهم حاملو المزامير والطبول فوقف سوارس وقال
بصوت آمر :

— لنبدأ الزفة .

تقدم كعبورة الزفة ، في جلباب على اللحم ، يرقص حافياً ومركزاً
على قفة رأسه نبوتاً . وخلفه سار المنشدون ، فسوارس ، ثم موكب
العريس بين صاحبيه ، وأحاط بالجميع حملة المشاعل . وراح المنشدينغي
بصوت مليح :

الاولى آه من عيني دي

والثانية آه من ايدي دي

والثالثة آه من رجلي دي

أصل اللي شبتني مع المحبوب عيني دي

لما سلمت عليه سلمت بايدي دي

وادي اللي ودبني للمحبيب رجلي دي

وتعالت الآهات من الافواه المخمورة المخدرة والموكب يشق طريقه الى الجمالية فبيت القاضي فالحسين ثم الدراسة ، والليل ينطوي في غفلة من السعداء . وعادت الزفة كما ذهبت في بهجة وانشراح فكانت اول زفة في الحارة ثمر بسلام ، فلا تبوت ارتفع ولا دم سال . وبلغ الطرب من زكريا منتهاه فتناول عصاه رواح يرقص . لعب بالعصا وتمايل في اختيال ، وهز الرأس مرة والصدر اخرى كما هز الوسط . وصور بحركاته المرنّة حياة القتال وهياة الوصال . ثم دار حول نفسه مؤذناً بحسن الختام بين التهليل والتصفيق .

عند ذلك انتقل قاسم الى الحريم . رأى قمر جالسة عند ملتقى صفيين من المدعوات فاتجه نحوها يخوض امواجاً من الزغاريد . وتناول يدها فقامت ، ثم سارا معاً تتقدمهما راقصة كأنما تلقي عليها الدرس الأخير ، حتى احتوتهما حجرة العرس . وباغلاق باب الحجرة انفصلا انفصلاً كلياً عن العالم الخارجي الذي سارع اليه الصمت عدا تهامس خفيف او وقع أقدام . وفي لمحة عين مر قاسم بالفراش الوردي والاريكة الوثيرة والسجادة المنمنمة ، اشياء لم تقع له في خيال ، ثم استقر بصره على المرأة التي جلست تتزع الزينة عن رأسها . بدت فخيمة مليئة بضّة مليحة ذات بهاء . كانت الجدران تنظر اليه متألّثة بالضياء ، وكان يرى كل

شيء من خلال اضطراب وجيشان وهناء زاد عن حده . اقرب منها
بجلبابه الحريري وجسده ينفث حرارة ممزوجة بسطول حتى وقف
امامها ينظر من عل وهي غاضبة البصر فيما يشبه الانتظار . وتناول وجهها
بين راحتيه ثم همّ بأن يقول شيئاً لكنه فيما بدا عدل . وانحنى حتى
اضطربت خصلات شعرها تحت انفاسه ، ثم لثم الجبين والحدين .
وسرت الى انفه رائحة بخور تسربت من عقب الباب ، وترامى الى
سمعه صوت سكبينة وهي تتلو "رقية" مبهمه .

٧١

أيام وليال مرت في حبة ومودة وراحة بال ، فأعذب السعادة في
هذه الدنيا . لم يكن ليغادر الدار الا استحياء ان يقال انه لا يغادر - منذ
تزوج - الدار . ارتوى قلبه من افانين المسرة حتى نمل ، وحظي بكل
ما تمناه من الحنو والعطف والرعاية . كان بهوى النظافة فرأى منظراً
مهندياً ، ووجد جواً معباً بالبخور ، وامراً لا تطالعه الا آخذة زيتها ،
مشرقة الوجه ، بادية الود . وقالت له يوماً وهما جالسان جنباً الى جنب
في حجرة الجلوس :

- اراك كالحمل الوديع ، لا تطلب ولا تأمر ولا تزجر ، وجميع
ما في الدار ملك يديك !

'عجب خصلة من شعرها المصبوغ بالحناء وقال :

- بلغت حالاً لا يطاب عندها شيء !

فشدت على يده بقوة وقالت :

- حدثني قلبي من بادىء الأمر بأنك خير الرجال في حيتنا لكنك

لأدبك تبدو أحياناً كالغريب في دارك ، ألا تدري أن ذلك يؤلمني ؟

- انك تخاطبين رجلاً نقله حفظه السعيد من الرمال المحرقة الى جنة هذا البيت السعيد .

فتظاهرت بالجد وإن غلبها الابتسام وقالت :
- لا تظن أنك ستلقى راحة في بيتي ، ستحل اليوم أو غداً محل عمي في ادارة املاكى ، فهل تستقل ذلك يا ترى ؟
فضحك قائلاً :
- انه اللهو بالقياس الى رعي الغنم .

وتولى ادارة املاكها الموزعة بين حي الجرابيع والجمالية . وكانت معاملة السكان الشرسين تتطلب لباقة لكلى مرونته عاجلت الأمور بخير ما يمكن أن تعالج به . ولم يكن العمل يشغل من وقته إلا أياماً كل شهر ، وفيما عدا ذلك وجد فراغاً لم يألفه من قبل . ولعل اكبر نصر احرزه في حياته الجديدة كان اكتسابه لثقة عويس عم زوجته . أولاه من بادية الأمر احتراماً وعناية ، وتطوع لمعاونته في بعض أعماله ، حتى آنس الرجل اليه وبادله وداً بود واحتراماً باحترام . ولم يملك الرجل أن قال له يوماً في صراحة :

- حقاً ان بعض الظن اثم ! ألا تدري أنني كنت أظنك من برمجية حارتنا ؟ وانك ستستغل عاطفة ابنة أخي لتبتز أموالها فتبعثرها في ملذاتك أو تتزوج بها امرأة اخرى ! ولكنك اثبت انك رجل أمين حكيم ، وأنها أحسن الاختيار .

وفي قهوة دنجل كان صادق يضحك في سرور ويقول له :

- قدم لنا جوزة على الحساب كما ينبغي للأعيان أمثالك !

وكان حسن يقول له :

- لماذا لا تذهب بنا الى الحانة ؟

لكنه اجابهما جاداً :

- لا مال لي الا ما أستحقه نظير ادارة املاك زوجتي أو مقابل

خدمات أؤديها لعم عويس .
 فتعجب صادق ثم قال ناصحاً :
 - المرأة المحبة لعبة في يد الرجل !
 فقال قاسم غاضباً :
 - إلا إذا كان الرجل محباً مثلها !
 ثم وهو يحده بنظرة عتاب :
 - أنت يا صادق كأهل حارتنا لا يرون في الحب إلا وسيلة للاستغلال !
 فابتسم صادق في حياء وقال بالمعتذر :
 - هكذا يفكر الضمءاء ! لسنا في قوة حسن ، ولا حتى في مثل
 قوتك أنت ، فلا مطمع لي بحال في الفتوة ، وفي حارتنا إما أن تكون
 ضارباً ، وإما أن تكون مضروباً !
 فغير قاسم من حدة نبرته كأنما قبل عذره وقال :
 - يا لها من حارة عجيبة ، صدقت يا صادق ، ان حال حارتنا
 بيعث على الأسى !
 فقال حسن باسم :
 - آه لو كانت كما يشعر الناس نحوها في الخارج !
 فقال صادق مصداقاً لقوله :
 - يقولون حارة الجبلاوي ! حارة الفتوات المتجدع !
 فلاحت الكآبة في وجه قاسم ، واختلس نظرة الى مجلس سوارس في
 أول القهوة ليطمئن الى أنهم بمنجاة من سمعه ، وقال :
 - كأنهم لا يسمعون عن تعاستنا !
 - الناس يبعدون القوة حتى ضحاياها !
 فنفكر قاسم ملياً ثم قال :
 - العبرة بالقوة التي تصنع الخير ، كقوة جبل وقوة رفاعة ، لا
 بقوة البططجية والمجرمين !

ر كان الشاعر طازه يواصل حكايته قائلاً :
 « وهتف به أدهم :
 - احمل أخاك !
 فقال قدري بصوت كالأنين :
 - لا أستطيع .
 - انك استطعت ان تقتله .
 - لا أستطيع يا أبي .
 - لا تقل « أبي » ، قاتل أخيه لا أب له ، لا أم له ، ولا أخ له .
 - لا أستطيع .
 فشد قبضته عليه وقال :
 - على القاتل أن يحمل ضحيته .
 ثم تناول الشاعر الرباب وأخذ في الانشاد . وعند ذاك قال صادق
 مخاطباً قاسم :
 - اليوم أنت نمحا الحياة التي كان بها يحلم أدهم !
 فبان الاجتجاج في وجه قاسم وقال :
 - لكن يصادفني عند كل خطوة سبب من أسباب الكدر وتغيص
 الصفو ، وأدهم لم يحلم بالفراغ والرزق الوفور الا باعتبارهما طريق
 السعادة الصافية .
 ولأذ ثلاثتهم بالصمت ملياً حتى قال حسن في براءة :
 - هذه السعادة الصافية لا يمكن أن توجد أبداً !
 فلاححت في عيني قاسم نظرة حاملة وقال :
 - إلا إذا توفرت أسبابها للجميع !
 وفكر في الأمر ، في انه يحظى بالمال والفراغ ، ولكن تعاسة الآخرين
 تفسد عليه سعادته . وها هو يؤدي الاتاة لسوارس صاغراً . لذلك يود
 أن يشغل بالعمل فراغه ، كأنما ليهرب من نفسه ، أو يهرب من جوارته

القاسية . ولعل ادهم لو نال ما تمنى وهو علم، مثل حاله هذه لضاق بالسعادة ذرعاً ، ولتأقت للعمل نفسه .

وفي تلك الأيام طرأت اعراض غريبة على قمر فقالت سكينه انها اعراض الوحى . ولم تكذب تصدق قمر . كان أملها فى الحبلى حلماً من الأحلام . لذلك استخفها الفرح . وامتلاً قلب قاسم بالغبطة حتى اذا عالجى فى كل ركن له فيه حبیب فعلم به بيت عمه ودكان مبيض النحاس وبقالة عم عويس وكوخ المعلم يحى . وغالت قمر فى العناية بنفسها حتى قالت لقاسم بلهجة ذات معنى :

— ينبغي ان اتجنب أي مشقة .

فقال وهو يتسم ابتسامة المدرك لما تعني :

— على سكينه ان تحمل عنك اعباء البيت، وعلى ان اتجمل بالصبر !

فقبلته قائلة فى جذل الأطفال :

— أود ان أقبل الأرض شكراً !

وانطلق الى الخلاء ليزور المعلم يحى لكنه توقف عند صخرة هند ، فضى الى ظلها وجلس . ورأى على مرمى البصر راعياً يرعى غنماً فامتلاً قلبه بالعطف وتمنى لو يقول له : لا يسعد الانسان بالفتونة وحدها ، بل لا يسعد الانسان بالفتونة اطلاقاً . لكن أليس الأجدر ان يقول ذلك للفتوات من امثال لهيطة وسوارس ؟ ما اعطفه على اولاد حارته الذين يحلمون بالسعادة عبثاً ثم سرعان ما تلقي الأيام باحلامهم مع النفائات فى اكوام الزبالة . لماذا لا ينعم بالسعادة المتاحة ويغمض العين عما حوله ؟ لعل هذا التساؤل حير يوماً جبلى كما حير يوماً آخر رفاعة . كان فى وسعها ان ينعم بالراحة ويخلد الى السكينه والسلام ، فما سر هذا العذاب الذى يطاردنا ؟ كان يتأمل وهو ينظر الى السماء فوق الجبل ، سماء صافية فيما عدا قطع صغيرة من السحب متفرقة كأوراق الورد الأبيض . وخفض رأسه فيما يشبه الاعياء فوقع بصره على شيء يتحرك ، وضح

انها عقرب تسرع نحو حجر . ورفع عصاه بسرعة وهوى بها عليها -
فهرسها . وتفرس فيها ملياً بتقزز ، ثم قام ليواصل رحلته .

٧٢

استقبل بيت قاسم حياة جديدة ، شارك في فرحتها فقراء الحي .
وسميت احسان كأمه التي لم يرها . وبمولدها ألف البيت ألواناً جديدة
من البكاء والقذارة والأرق ، ولكنه ازداد بها غبطة ورضى . لكن لماذا
يبدو الأب احياناً شارد اللب والنظرة كأن هموماً تتناوبه ؟ شدّ ما ساورها
لذلك القلق حتى سأله مرة :

— أليست الصمحة على ما يرام ؟

— بلى ..

— لكنك لست كمادتك !

فقال وهو يغض البصر :

— المولى ادرى بحالي .

تساءلت بعد تردد :

— هل بدا لك منا ما تكره ؟

فقال بقوة :

— ليس احب اليّ منك ولا حتى العزيرة الصغيرة .

فتنهدت قائلة :

— لعلها عين !

فقال باسمّاً :

— لعلها !

ففرقته وبخوته وهي تدعو له من صميم قلبها . واستيقظت ذات ليلة على بكاء احسان فلم تجده الى جانبها . ظنت لأول وهلة انه لم يرجع بعد من سهرته في القهوة ، ولكن لما كفت الصغيرة عن البكاء تنبهت المرأة الى ان الحارة غارقة في صمت عميق لا يستحکم بها عادة الى بعد اغلاق المقاهي بفترة غير قصيرة ، فدخلها ارتياب ، فقامت الا النافذة وأطلت منها فرأت ظلاماً شاملاً يلف حارة مستغرقة في النوم . وعادت الى الصغيرة التي عاودت اليكاء فألقمتها ثديها ، وراحت تتسأل عما أخره الى هذا الوقت لأول مرة في حياتها المشتركة . ونامت احسان فغادرت الفراش الى النافذة مرة اخرى ، ولما لم تسمع نأمة ، خرجت الى الصلاة فابقظت سكينه . وجلست الجارية كالمسطورة ، ثم هبت واقفة في جزع ، فاخبرتها سيدتها بما دفعها الى الاثناس بها . وقررت الجارية من فورها ان تذهب الى عم زكريا لتسأل عن سيدها . وساءلت قمر نفسها عما يبقيه في بيت عمه حتى هذا الوقت ، فجاء الجواب قاطعاً للأمل ، ولكنها مع ذلك لم تمنعها من الذهاب ، ربما جرياً وراء غير المنتظر ، او في الأقل استعانة بالعم على حيرتها . ولما ذهبت سكينه جعلت تتسأل مرة اخرى عما أخره . لذلك سبب بما طرأ على مزاجه من تغير ؟ أله علاقة بترهاته في الخلاء التي يقوم بها في الأصائل والأماسي ؟

واستيقظ عم زكريا وحسن متزعجين على نداء سكينه . وقال حسن ان قاسم لم يشاركه سهرته الليلة . وسأل عم زكريا متى غادر ابن اخيه بيته فأجابت سكينه بأن ذلك كان قبيل العصر . وغادر ثلاثتهم الربع ، ومضى حسن الى الربع المجاور ثم عاد ومعه صادق الذي قال في نيرة قلقة :

— الفجر يوشك ان يطلع ! ترى ابن ذهب ؟

هفقال حسن :

— لعل النوم غلبه عند الصخرة .

وأمر عم زكريا الجارية ان تعود الى سيدتها لتخبرها في انهم ذاهبون للبحث عنه في فطانة . ومضى ثلاثتهم صوب الخلاء . واستشعروا رطوبة ليل الخريف فحبكوا اللامسات فوق رؤوسهم . وساروا على هدى هلال آخر الشهر وقد تجلى في رقعة مرصعة بالنجوم انحسرت عنها سماء متشحة بالسحب . وصاح حسن بصوت شق الفضاء كالشهاب : « قاسم .. يا قاسم ! » ذارء الى الصدى من جانب المقطم مكرراً النداء . وحثوا السير حتى بلغوا صخرة هند ، فداروا حولها متفحصين المكان ولكنهم لم يعثروا له على اثر . وتساءل عم زكريا بصوت غليظ :

— اين ذهب ؟ لا هو من اهل المجون ولا من ذوي العداوات !

فتمتم حسن في حيرة :

— ولا من سبب آخر يدعوه للهرب !

وتذكر صادق ان الخلاء لا يخلو من قطاع طرق فغاص قلبه في صدره دون ان ينبس ، واذا بزكريا يتساءل في فتور :

— أيبكون عند المعلم يحيى ؟

وهتف الشبان معاً فيما يشبه استغاثة يائس :

— المعلم يحيى !

لكن زكريا تساءل في نكد :

— وماذا دعاه للبقاء عنده ؟

ومضوا نحو اطراف الخلاء صامتين ، تتناوبهم الأفكار السود . وترامى الى مسامعهم من بعيد صياح الديكة ، لكن الظلام لم يخف لتكاثف السحب . وند عن صادق صوت كالزفرة وهو يقول : « اين انت يا قاسم ! » . وبدت الرحلة عسياً لكنهم واصلوا السير حتى وقفوا امام كوخ يحيى الغارق في النوم . وتقدم زكريا يثق الباب بقبضته حتى جاءه صوت المعلم وهو يتساءل :

- من بالباب ؟
- وفتح الباب فبدا شبحه متوكئاً على عصاه فقال زكريا بأسف :
- عدم المواخذة ، جئنا نسأل عن قاسم .
- فقال المعلم بهدوء :
- زيارة متوقعة !
- فأحيا قوله نفوسهم لأول وهلة ، لكن سرعان ما ارتد اليهم القلق فتنساءل زكريا :
- عندك اخبار عنه ؟
- هو نائم في الداخل !
- بخير ؟
- أن شاء الله !
- ثم مردفاً في بساطة مقصودة :
- هو الآن بخير ، لكن بعض جيراني كانوا قادمين من العطوف فعثروا عليه عند صخرة هند وهو مغشى عليه ، فحملوه اليّ ، فرششت على وجهه عطراً حتى أفاق ، لكنه بدا متعباً فتركته لينام ، وما لبث أن استغرق في النوم .
- فقال زكريا معاتباً :
- ليتك ابلغتنا الخبر !
- فقال بالهدوء نفسه :
- جاءوا به عند منتصف الليل فلم اجد من ارسله اليك !
- فقال صادق في قلق :
- انه مريض بلا شك .
- فقال العجوز :
- سيصحو على احسن حال .
- فقال حسن :

— فلنوقفه لنطمئن عليه .
ولكن يحى قال بحزم :
— بل علينا ان ننتظر حتى يستيقظ بنفسه .

٧٣

كان جالساً في الفراش ، مسند الظهر الى وسادة ، ساحباً الغطاء عليه حتى أعلى الصدر ، تعكس عيناه نظرة متفكرة . وكانت قر متربعة عند قدميه ، حاملة على صدرها احسان ، وهذه تحرك يديها الصغيرتين دون توقف ، وتصدر اصواتاً رقيقة غريبة لا يدري احد عن سرها شيئاً . وتتصاعد من مبخرة في وسط الحجرة خيط بخور ، يتلوى ، ثم ينكسر ، ثم ينتشر ، نافثاً عبقاً كأنما يبوح بسر لطيف . ومد الرجل يده الى خوان قرب الفراش فتناول قدح كراوية ، واحتسى منه قليلاً قليلاً ثم أعاده وليس به الا ثمالة ، والمرأة تناغي الطفلة وتداعبها ، ولكن نظراتها القلقة المسرقة الى زوجها دلت على ان مناعاتها ومداعباتها ليست الا مداراة لمشاعرها . واخيراً سألته :

— كيف انت الآن ؟

فانجحه رأسه بحركة عفوية نحو باب الحجرة المغلق ، ثم أعاده اليها ، وقال بهدوء :

— ليس ما بي مرض !

فتجلت في عينيها نظرة حائرة وقالت :

— يسرني ان اسمع هذا ، ولكن خبرني بالله عما بك !

فبدا كالمتردد قليلاً ، ثم قال :

— لا ادري ! كلا فليس هذا ما ينبغي ان يقال ، اني ادري كل

شيء ، ولكن ... الحق اني اخشى ان تكون ايام الراحة قد ولت .
وبكت احسان فجأة ، فألقمتها ثديها في عجلة ، ثم نظرت اليه
مستطلعة في قلبي ، وتساءلت :
— لماذا ؟

تنهد ، وأشار الى صدره قائلاً :
— لدي هنا سر كبير ، اكبر من ان أحمله وحدي !
فازدادت المرأة قلقاً وقالت لهفة :
— خبرني عنه يا قاسم .

اعتدل في جلسته قليلاً ، وعكست عيناه جداً وتصميماً وقال :
— سأبوح به لأول مرة ، انت اول شخص يسمعه ، لكن ينبغي
ان تصدقني فما اقول الا الحق ، ليلة امس حدث شيء عجيب ،
هنالك تحت صخرة هند ، وأنا وحدي في الليل والحلاء .
وازدرد ريقه وهي تستحبه بنظرة حارة ، ثم قال :

— كنت جالساً اتابع سير الهلال الذي سرعان ما وارته السحب ،
وساد الظلام حتى فكرت في القيام واذا بصوت قريب يقول بغته :
« مساء الخير يا قاسم » فارتعدت من وقع المفاجأة التي لم يسبقها صوت
او حركة ورفعت رأسي فرأيت شيخ رجل واقفاً على بعد خطوة من
مجلسي ، لم اتبين وجهه ولكني ميزت لاسته البيضاء والعباءة التي يتلفع
بها . وقلت له وأنا اداري غيظي : « مساء الخير ! من انت ؟ » فأجابني :
ولكن بم تظنينه اجاب ؟

فحركت قمر رأسها في جزع وقالت :

— تكلم فلم يعد لي صبر .

— قال لي : « أنا قنديل ! » فميجبت لشأنه وقلت له : « لا تؤاخذني
غأنا ... » فقاطعني قائلاً : « انا قنديل خادم الجبلأوي ! » .
وهتفت المرأة :

— ماذا قال الرجل ؟

— قال أنا قنديل خادم الجبلأوي .

وكان الثدي قد افلت من ثغر احسان اثناء اضطراب الأم فتقلص وجهها ايذاناً بالبكاء ولكن المرأة اعادته اليها ، ثم قالت بوجه شاحب :

— قنديل خادم الواقف ! ؟ لا يدري احد عن خدم الواقف شيئاً ، حضرة الناظر هو الذي يتولى بنفسه اعداد لوازم البيت الكبير ، ثم يحملها خدمه الى البيت الكبير ليتسلمها بعض خدم الواقف في الحديقة .

— نعم ، هذا ما تعرفه حارتنا ، لكنه قال لي ذلك !

— وهل صدقته ؟

— وقفت من فوري ، تأدباً من ناحية واستعداداً للدفاع عن نفسي ان لزم الأمر من ناحية اخرى ، وقات له متسائلاً من ادراكي انه صادق فيما يقول ، فقال لي بهدوء مطمئن : « اتبعني اذا شئت حتى تراني وأنا أدخل البيت الكبير » ، فاطمأن قلبي ، وقلت لنفسي فلأصدقه حتى تبين لي أمره ، ولم اخف عنه فرحي ببقياه ، وسألته عن جدنا ، كيف حاله ، وماذا يفعل .

فقاطعه صوت قر قائلاً في ذهول :

— كل ذلك دار بينك وبينه ؟

— نعم ، بالله انصتي ، قال لي ان جدنا بخير ، ولم يزد على ذلك شيئاً ، فسألته هل يدري بما يجري في حارتنا ؟ فأجاب بأنه يعلم كل شيء ، وبأن المقيم في البيت الكبير يستطيع ان يطلع على كل صغيرة وكبيرة مما يقع في حارتنا ، وانه لذلك ارسله الي .

— اليك انت !

فقطب قاسم فيما يشبه الاستياء وقال :

— هكذا قال ، وندّ عني ما يفصح عن دهشتي ولكنه لم يسأل ، وقال : « لعله اختارك لحكمتك يوم السرقة ولأمانتك في بيتك ،

وهو يبلغك بأن جميع اولاد الحارة أحفاده على سواء ، وان الوقف ميراثهم على قدم المساواة ، وان الفسونة شر يجب ان يذهب ، وان الحارة يجب ان تصير امتداداً للبيت الكبير . وساد الضمت ، وكأنما فقدت القدرة على النطق ، ولمحت عيناى المرفوعتان الى هامته السحب وهي تنحسر عن الهلال في رقة صافية ، فسألته بأدب : « ولماذا يبلغني ذلك ؟ » فأجاب : « لكي تحققه بنفسك ! » .
- أنت !

بذلك هتفت قر ، فقال قاسم بصوت متهدج :

- هكذا قال ، وهمت بأن استوضحه ، ولكنه حياني وذهب ، فتبعته حتى خيل اليّ انني رأيته يصعد الى أعلى السور المشرف على الخلاء على سلم خارق الطول او شيء شبيه بذلك ، فوقفت ذاهلاً ، ثم عدت الى مكاني السابق وفي نيتي ان اقصد المعلم يحبي ، لكنني غبت عن الوجود ، ولم اعد الى رشدي الا في كوخ المعلم .

وعاد الصمت يغشى الحجرة وقر لا تحول عن وجهه عينيها اللذائتين . وتسلسل النوم الى اجفان احسان وهي ترضع فقال رأسها الى اسفل من فوق ساعد امها فأرقدتها برفق على الفراش ، وعادت تنظر الى زوجها بعين قلقة ووجه شاحب . وارتفع من الحارة صوت سوارس الأجنس وهو يسب رجلاً ، وصراخ الرجل وتأوهاتة التي وشت بما ينهال عليه من ضرب او صفع ، ثم صوت سوارس مرة اخرى وهو يتعد منذراً متوعداً ، وصوت الرجل وهو يرتفع في نبرة حنق ويأس هائفاً : « يا جبلاوي ! » . وساءل قاسم نفسه المرهقة بنظرات زوجته: ترى ماذا تظن بي ؟ وحادثت المرأة نفسها : انه صادق ، لم يكذبني قط ، فلماذا يختلق هذه الحكاية ؟ وهو امين لم يطمع في مالي مع ما في ذلك من أمان فكيف يطمع في مال الوقف على ما في ذلك من خطر ! وترى هل ولت ايام الراحة

حقاً . وقالت :

— انا اول ما افضيت اليه بسرك ؟

فأخني رأسه بالإيجاب ، فعدت تقول :

— قاسم ، حياتنا واحدة ، وأنا لا تهمني نفسي بقدر ما تهمني أنت ، وسرك هذا شيء خطير ، وعواقبه لا تخفى عليك ، ولكن أعمل ذاكرتك جيداً وخبرني أكان واقعاً ما رأيت أم لعله كان حلماً ؟

فقال بتصميم وفي شيء من الامتناع :

— كان واقعاً ملموساً ولم يكن حلماً !

— وجدوك مغنى عليك ؟!

— كان ذلك بعد اللقاء !

فقالت باشفاق :

— ربما اختلط الأمر عليك !

فتنهذ في عذاب لم تدرك به وقال :

— لم يختلط شيء عليّ ، كان اللقاء واضحاً كالنهار المشمس !

فترددت قليلاً ثم تساءلت :

— من يدرينا أنه حقاً خادم الواقف ورسوله اليك ؟ ولماذا لا يكون

مسطولاً من مساطيل حارتنا وما أكثرهم !

فقال في نبرة عناد :

— رأيتوه وهو يصعد الى سور البيت الكبير .

فتنهذت قائلة :

— ليس في حارتنا سلم يمكن ان يصل الى نصف ارتفاع السور !

— لكنني رأيتوه !

بدت كفأراً في مصيدة ، لكنها ابت ان تستسلم ، وقالت :

— لست الا انني أخاف عليك ، وأنت تعلم ما أعني ، أخاف عليك وعلى بيتنا وابتنا وسعادتنا ، واني اسأل نفسي لماذا قصدك أنت بالذات ؟ ولماذا لا يحقق ارادته بنفسه وهو صاحب الوقف وسيد الجميع ؟

فتساءل بدوره :

— ولماذا قصد جبل ورفاعة ؟

اتسعت عينها ، وتقلص ركن فيها كالطفل الموشك على البكاء ، وغضبت بصرها في جفول ، فقال :

— أنت لا تصدقيني وأنا لا أطلبك بتصديقي .

فأجهشت في البكاء ، واسترسلت فيه كأنما لتهرب من أفكارها ، قال قاسم نحوها ، ثم مد يده الى يدها فجذبها نحوه ، وسألها في رقة :
— لماذا تبكين ؟

فنظرت اليه خلال دموعها ، وقالت وهي تشهق شهقات متقطعة :
— لأنني أصدقك ، نعم أصدقك ، أخشى ان تكون أيام الراحة قد ولت .

ثم في صوت تحافت مشفق :

— ماذا أنت فاعل ؟

٧٤

شحن جو الحجرة بالقلق والتوتر . بدا عم زكريا مفكراً مقطباً ، وراح عم عويس يعبث بشاربه ، وكأن حسن كان يحدث نفسه ، أما صادق فلم يحول ناظره عن وجه صديقه قاسم ، على حين انزوت

قمر في ركن حجرة الاستقبال وهي تدعو الله ان يهدي الجميع إلى السداد والرشاد . وكانت فناجيل القهوة قد فرغت وأخذت ذبابتان تحومان حولها فنادت قمر سكرينة لتأخذ الصينية فجاءت الجارية وحملتها ثم ذهبت وأغلقت الباب وراءها كما كان . وقال عويس وهو ينفخ :

— يا له من سرّ يهد الأعصاب هدأ !

وعوى كلب في الحارة كأنما أصيب بطوبى أو عصا ، وارتفع صوت بيع بنادي مترنماً بالبلح ، وامرأة عجوز هتفت في أسى : « يا ربّ خلصنا من عيشتنا » . والتفت زكريا إلى عويس قائلاً :

— يا معلم عويس ، انك اكبرنا مقاماً وجاهاً ، فصارحنّا برأيك !

فنقل الرجل عينيه بين زكريا وقاسم وقال :

— أقول الحق إن قاسم رجل ولا كل الرجال ، ولكن حديثه

أذار رأسي !

فقال صادق بعد توثب طويل للكلام :

— انه رجل صادق ، أتحدى أي مخلوق ان يذكرنا بكذبة صدرت

عنه ، فهو عندي مصدق ، واقسم لكم على ذلك بتربة أمي !

وقال حسن بحماس :

— وأنا كذلك . وسيجدني دائماً إلى جانبه .

وابتسم قاسم لأول مرة في امتنان وهو يرمق جسم ابن عمه القوي

باعتجاب ، لكن زكريالقى على ابنه نظرة انتقاد وقال :

— ليس الأمر لعباً ، فكروا في حيائنا وسلامتنا .

فأمّن عويس على قوله باحناءة من رأسه وقال :

— صدقت ، لم يسمع أحد من قبل مثل ما سمعنا اليوم .

فقال قاسم :

— بل سمعوا مثله وأكثر عن جبل ورفاعة !

فدهش عويس وحدهجه بانكار متسائلاً :

- أنظن انك مثل جبل ورفاعة ؟
وغض قاسم بصره مثلاً وقر تراقبه باشفاق ، ثم قالت :
- عمي ! من يدري كيف تقع هذه الأمور !
فعاد الرجل يعبث بشاربه ، وقال زكريا :
- وأي خير في ان يظن نفسه كجبل أو رفاعة ؟ قتل رفاعة شر
قتلة ، وكاد جبل ان يقتل لولا انضمام أهله اليه ، ومن لك انت يا
قاسم ؟ انسيت انهم يدعون حيناً بحبي الجرايع ، وان اكثره ما بين
متسول وتعيس ؟
فقال صادق بقوة :
- لا تنسوا ان الجبلاوي اختاره من دون الجميع بما فيهم الفتوات ،
ولا أظنه يتخلى عنه عند الشدة !
فقال زكريا ممتعضاً :
- هكذا قيل عن رفاعة في أيامه ، ولقد قتل رفاعة على بعد أذرع
من بيت الجبلاوي !
وقالت قمر محذرة :
- لا ترفعوا أصواتكم :
واسترق عويس إلى قاسم النظر وهو يفكر . ما أعجب ما يسمع
وما يقال . هذا الراعي الذي جعلت منه ابنة أخي سيداً ! أقر له
بالصدق والأمانة ولكن هل يكفي هذا ليجعل منه جبل أو رفاعة ؟
وهل يحبيء الرجال الكبار بهذه البساطة ؟ وماذا يحدث لو صدقت
الأحلام ! وقال عويس :
- يبدو أن قاسم لا يتأثر بتحذيرائنا ، ترى ماذا يريد الفتى ؟ هل
عز عليه ان يبقى حيناً وحده الذي لا نصيب له في الوقف ؟ أتريد
يا قاسم ان تكون فتوة وناظراً لحيثنا ؟
فبان الاحتداد في وجه قاسم وقال :

— لم يبلغني ذلك ، وإنما قال : إن جميع اولاد الحارة احفاده ،
وان الوقف لهم على قدم المساواة ، وان الفتونة شر !
برق الحماس في عيني صادق وحسن ، وذهل عويس ، اما زكريا
فتساءل :

— أتعرف ماذا يعني هذا ؟

فقال عويس بغضب :

— قل له !

— أن تتحدى قوة الناظر ونبايت لهيطة وجلطة وحججاج وسوارس !
فامتقع وجه قمر ، اما قاسم فقال بهدوء كالحزن :
— هو ذلك !

فندت عن عويس ضحكة انعكس صدىها استياء في وجوه قاسم
وصادق وحسن ، ولم يحفل زكريا بذلك ومضى يقول :
— سيقضى علينا جميعاً بالهلاك ، سنوطأ بالأقدام كالنمل ، ولن
يصدقك أحد ، انهم لم يصدقوا من قابل الواقف ولا من سمع صوته
وحاوره فكيف يصدقون من أرسل اليه خادماً من خدمه ؟
وقال عويس بنبرة جديدة :

— دعونا مما تقول الحكايات ، لم يشهد أحد لقاء الجبلابي وجبل ،
ولا الجبلابي ورفاعة ، تلك الاخبار تروى عادة ولكن لم يشهدا أحد ،
غير انها عادت بالخير على أصحابها ، فصار لحي جبل كيانه المحترم ،
كذلك حي رفاعة ، ومن حق حيننا ان يكون مثلها ، لم لا ؟ كلنا
من صلب ذلك الرجل المعتكف في بيته الكبير ، ولكن علينا ان نأخذ
الأمر بالحكمة والحذر ، فاهتم يا قاسم بحيك ، دعك من الاحضاد
والمساواة وما هو خير وما هو شر ، ومن اليسير ان نضم سوارس الينا
وهو قريبك ، ويمكن الاتفاق معه على ان يترك لنا نصيباً في الربيع .
وقطب قاسم غاضباً ، وقال :

- يا معلم عويس ، أنت في واد ونحن في واد ، أذن لا أروم مساومة ولا نصيباً في الريع ولكني عقدت العزم على تحقيق ارادة جدنا كما أبلغتها .

وتأوه زكريا قائلاً :

- يا ساتر يا رب !

لم يزل قاسم مقطباً . ذكر اشجانه وخلوانه وأحاديث معلمه يحجي . وكيف جاءه الفرج على يد خادم لم يعرفه من قبل . وكيف تلوح الخطوب في الأفق . وكيف ان زكريا لا يفكر إلا في السلامة وان عويس لا يفكر إلا في الريع . وكيف ان الحياة لن تطيب الا بمواجهة الأفق المليء بالخطوب . وتنهّد قائلاً :

- عمي ، كان يجب ان ابدأ بمشاورتكم ولكني لن اطالبكم بشيء !
فشد صادق على يده قائلاً :

- اني معك .

وكوّر حسن قبضته قائلاً :

- وأنا معك ، في الخير والشر معك .

فقال زكريا في ضجر :

- لا تغتر بكلام العيسال ! عندما ترتفع النباييت تمتليء الجحور بامثالكم ، وفي سبيل من تعرض نفسك للهلاك ؟ ليس في حارتنا الا حيوان او حشرة ، ولديك من الأسباب ما يضمن لك حياة رغيدة طيبة فاعقل وتمتّع بحياتك .

وسأل قاسم نفسه ماذا يقول الرجل ؟ كأنما يستمع لبعض هوائف نفسه . عندما تقول له ، ابنتك ، زوجتك ، بيتك ، نفسك . لكنك اخترت كما اخترت جبل ورفاعة فليكن جوابك كما كان جوابهما . قال :

- فكرت يا عمي طويلاً ثم اخترت سبيلي .

فضرب عويس كفاً بكف وقال :

— لا حول ولا قوة الا بالله !

وقال عويس محذراً :

— سيقنلك الأقوياء ويهزأ بك الضعفاء !

وقلبت قر عينيها بين عمها وبين عم زوجها في حيرة ، مشفقة من خذلان زوجها وفي الوقت نفسه خائفة عليه عواقب التمادي في رأيه .
وقالت مخاطبة عمها :

— عمي ، انت سيد الأعيان ، وبوسعك ان تؤيده بنفوذك !

فسألها عويس مستهجناً :

— فيم تطمعين يا قر ؟ لك مال وابنة وزوج فماذا يعنيك "وَزْع"
الوقف على الجميع أم استأثر به الفتوات ؟ اننا نعد الطامح الى الفتوة
مجنوناً فما بالك بمن يطمح الى نظارة الحارة جميعاً !
فهب قاسم واقفاً في تألم شديد وقال :

— لست طامحاً الى شيء من هذا ، انما أريد الخير الذي
أراده جدنا .

فاسترضاه عويس بابتسامة متكلفة وقال :

— أين هو جدنا ؟ فليخرج الى الحارة ولو محمولاً على اعناق خدمه
ثم فليحقق شروط وقفه كما يشاء ، أنحسب ان احداً في الحارة مهما
بلغت قوته يستطيع اذا تكلم الواقف ان يرفع نحوه عيناً او أصبعاً ؟
وقال زكريا مكلاً :

— وهل هو إذا وثب الفتوات لذبنا سيحرك ساكناً أو يكثر
لما يصيبنا ؟

فقال قاسم في وجوم شديد :

— لن أطالب أحداً بتصديقي أو بتأييدي .

فقام زكريا اليه ووضع يده على منكبه بعطف وقال :

— يا قاسم ، أصابتك عين ، انا اعلم بهذه الشرور ، طالما تحدثوا

عن عقلك وسعيد حظك ، حتى أصابتك العين ، استعد من الشيطان
 بالله ، واعلم أنك اليوم من وجهاء خيّننا ، وبوسعك إذا شئت أن
 تتاجر ببعض مال زوجتك فتحظى بالثراء الوفير ، فأقلع عما في رأسك
 وارض بما وهبك الله من خير ونعمة .
 فأطرق قاسم محزوناً ، ثم رفع رأسه الى عمه ، وقال بتصميم
 عجيب :
 - لن ألقع عما في رأسي ولو ملّكت الوقف كله وحدي .

٧٥

ماذا أنت فاعل . وحتام تفكر وتنتظر . وماذا تنتظر . وما دام
 القريب لم يصدقك فنذا الذي يصدقك . وما فائدة الحزن . وما جدوى
 الانفراد تحت صخرة هند ؟ النجوم لا تجيب ولا الظلام ولا يجيب القمر
 كأنك تأمل في لقيا الخادم مرة أخرى ولكن أي جديد عنده ترتقب ؟
 وتجنّس في الظلام حول البقعة التي قيل إن جدك قابل فيها جبل .
 وتقف طويلاً وراء السور الكبير في الموضع الذي قيل إنه خاطب عنده
 رفاة . لكن لا شخصه رأيت ولا صوته سمعت ولا خادمه رجع .
 ماذا أنت فاعل ؟ سيطاردك هذا السؤال كما تطارد الشمس في الخلاء
 راعي الغنم . وسيقتلعك دواماً من راحة البال ومن طيبات النعم . وجبل
 كان مثلك وحيداً لكنه انتصر . ورفاعة عرف سبيله ومضى فيه حتى
 قتل ثم انتصر . ماذا أنت فاعل ؟
 وقالت له قمر معاتبة :
 - شد ما تهمل طفلك الجميلة ، تبكي فلا ترجها ، وتلعب
 فلا نلاعها .

فابتسم الى الوجه الصغير مستروحاً نسمة منه لسعير فكره ، وغغم :

— ما أطفها !

— حتى الساعة التي تجالسنا فيها تغيب عنا كأننا لم نعد من أهل

دنياك .

فاقرب منها على الكنبه التي تجمعها ولثم خدها ، ثم قبل وجهه
الطفلة في اكثر من موضع وقال :

— ألا ترين أنني بحاجة إلى عطفك ؟

— ولك قلبي كله بما فيه من عطف وحب ومودة ، ولكن ينبغي

ان ترحم نفسك .

وناولته الطفلة فاحتضنها وراح يهددها برفق وحنان مصغياً الى

انغامها السماوية . وبغته قال :

— اذا نصرني المولى فلن أحرم النساء من ريع الوقف .

فقال قمر بدهشة :

— لكن الوقف للذكور دون الاناث .

فرنا الى العينين السوداوين في وجه الصغيرة وقال :

— قال جدي على لسان خادمه إن الوقف للجميع ، والنساء نصف

كيان حارتنا ، ومن عجب ان حارتنا لا تحترم النساء ، ولكنها

ستحترمن يوم تحترم معاني العدالة والرحمة .

وتجلى الحب والاشفاق في عيني قمر . وقالت لنفسها : انه يذكر

النصر ، فأين منا هذا النصر ؟ وكم ودت ان تنصحه بما فيه الأمن

والسلامة ولكن خانتها شجاعته . وساءلت نفسها عما ينبغيء لهم الغد .

ترى أياكون لها حظ شفيقة زوجة جبل أم تصاب بما أصيبت به عبدة

أم رفاعة ! واقشعر بدنّها فنظرت بعيداً حتى لا يقرأ في عينيها ما يريه .

وعندما جاءه صادق وحسن ليذهبا جميعاً الى القهوة عرض عليهما

ان يزوروا المعلم يحيى ليقدمها اليه . ولما بلغوا كوخه وجدوه يدخن

الجوزة ورائحة الحشيش الثنائية تعبق الجو . وقدّم اليه صاحبيه ،
وجلسوا جميعاً في دهليز الكوخ والبدر من كوة يلوح كأنه السعادة .
وكان يحيى ينظر الى وجوه الثلاثة بمعجب وكأنه يتساءل أهؤلاء حقاً
هم الذين سيقلبون الحارة رأساً على عقب ! ومضى بعيد على مسمع
قاسم ما سبق ان رده له ، قال :

— احذر ان يعلم أحد بسرّك قبل ان تستعد .
ودارت الجوزة دورة مليحة ، وكان ضوء القمر النافذ من الكوة
يتوج رأس قاسم وينطرح على الكتف من صادق ، على حين توهجت
جمرات الموقد في ظلمة الدهليز . وتساءل قاسم :

— وكيف استعد ؟

فضحك العجوز قائلاً في دعابة :

— ليس من حق من اختاره الجبلّاي ان يستعين برأي عجوز مثلي !
وأخلى الصمت لقرقرة الجوزة حتى قطعه العجوز قائلاً :

— لديك عملك وعم زوجتك ، أما عملك فلا فائدة منه ولا ضرر ،
وأما الآخر فبوسعك ان تكسبه الى جانبك لو منيته بشيء !

— بماذا أمنّيه ؟

— عده بنظارة الجرابيع !
فقال صادق باخلاص :

— لن يميّز أحد بشيء من ريع الوقف ، هو ميراث الجميع على
قدم المساواة كما قال الجبلّاي .

فضحك يحيى قائلاً :

— ما أعجب جدنا ، كان قوّة في جبل ، ورحمة في رفاعه ،
واليوم له شأن آخر !

فقال قاسم :

— انه صاحب الوقف ، ومن حقه ان يغير ويبدل في الشروط العشرة !

— لكن مهمتك شاقة يا بني ، انها تخص الحارة كلها لا حياً من الأحياء .

— هكذا أراد الواقف .

وسعل يحيى سعالاً متواصلاً تركه كالقنبل فتطوع حسن للخدمة الجوزة محله . ومد الرجل ساقيه وهو يتنهد بعمق . ثم تساءل :

— ترى أتعتمد الى القوة كمجبل أم تؤثر الحب كرفاعة ؟

فجاست يد قاسم خلال لاسسته ، ثم قال :

— القوة عند الضرورة والحب في جميع الأحوال .

فهز يحيى رأسه ، وجعل يبتسم ، ثم قال :

— لا عيب فيك إلا اهتمامك بالوقف ، وسوف يسرقك ذلك الى

متاعب لا حصر لها .

— كيف يعيش الناس بغير الوقف ؟

فقال العجوز في مباهاة :

— كما عاش رفاعة .

فقال قاسم بجذ وأدب :

— عاش بمعونة أبيه ومحبيه ، وخلف أصدقاء لم يستطع أحدهم أن

يحدو حدوه ، والحق ان حارتنا التعيسة في حاجة الى النظافة والكرامة .

— ألا يحيى ذلك إلا بالوقف ؟

— بلى يا معلم ، بالوقف وبالقضاء على الفتونة ، هناك تتحقق الكرامة

التي أهداها جبل الى حيه ، والحب الذي دعا اليه رفاعة ، بل والسعادة التي حلم بها أدهم .

فضحك يحيى متسائلاً :

— ماذا أبقيت لمن يحيى بعدك ؟

فتفكر ملياً ، ثم قال :

— اذا نصرني المولى فلن نجد الحارة حاجة الى أحد بعدي .

ودارت الجوزة كملك في حلم ، وغنى المساء في القنينة . وتشاءب
الانسجام . ثم تساءل :

— ماذا يبقى لأحدكم اذا وزع الربيع بالتساوي ؟
فقال صادق :

— انما نريد الوقف لنستغله وبذلك تصير الحارة امتداداً للبيت الكبير !
— وماذا أعددت من عمل ؟

واختفى ضياء القمر وراء سحابة عابرة فساد الدهليز الظلام ، ولكن
لم تمض دقيقة حتى انهل الضياء . ونظر يحجي الى جسم حسن المفتول
وتساءل :

— هل يستطيع ابن عمك ان يهزم الفتوات ؟
وإذا بقاسم يقول :

— اني أفكر جاداً في مشاورة محام شرعي !
فصاح يحجي :

— أي محام يقبل ان يتحدى الناظر رفعت وفتواته ؟
واختلط ذهول الكيف بوجوم الفكر . ورجع الأصدقاء الثلاثة فيما
يشبه القنوط . وعانى قاسم في خطواته من العذاب ، وركبه الهم والكدر
حتى قالت له قمر ذات يوم :

— ما ينبغي ان نهتم بسعادة الناس إلى حد إشقاء انفسنا !
فقال بحدة :

— ينبغي ان اكون عند حسن الظن الذي وضع في .
ماذا أنت فاعل . لماذا لا تتزحرح عن حافة الهاوية . هاربة اليأس
المليئة بالصمت والركود . مقبرة الأحلام المغطاة بالرماد . ذئب الذكريات
الجميلة والانعام المنطربة . طارحة الغد في كفن الأمس .
لكنه دعا يوماً صادق وحسن اليه وقال لها :
— آن لنا أن نبدأ !

فتهزل وجهاهما وقال حسن :
 — هات ما عندك .
 فقال بصوت دبت فيه الحياة :
 — انتهيت من تفكيري الى قرار ، وهو ان ننشيء نادياً للرياضة
 البدنية !
 وعقدت الدهشة لسانيهما فابتسم وهو يقول :
 — سنجعله في حوش بيتي ، والرياضة هواية منتشرة في اكثر الأحياء .
 — وما علاقة ذلك بعملنا ؟
 وتساءل صادق بدوره :
 — نادٍ لرفع الاثقال مثلاً ! ما علاقة ذلك بالوقوف ؟ !
 فقال قاسم وعينه تبرقان :
 — سيجيء إلينا الشبان ، حباً في القوة واللعب ، وسيقع الاختيار
 على من هم أهل للثقة والاستعداد .
 فانسعت الاعين ، وهتف حسن :
 — سنكون عصابة وأي عصابة !
 — نعم ، وسيجيء إلينا شبان من جبل وآخرون من رفاة .
 وشملتهم فرحة غناء ، وبدا قاسم في مشيته وكأنه يرقص .

٧٦

جلس قاسم لصق النافذة بحيث يشاهد الحارة في يوم العيد . وما
 أبهج العيد في حارتنا .
 لقد رش السقاءون الأرض بالقرب . وزينت أعناق الحبير وأذياها
 بالورود الاصطناعية . ورقص الفراغ بالألوان الفاقعة يرتديها الصغار

وتنطلق بها بالولونات . وركزت في عربات اليد الأعلام الصغيرة . واختلط الصباح والحتاف والتهليل بأصوات الزمامير . وتمايلت العربات الكارو بالراقصات والراقصين . وأغلقت الدكاكين واكتظت المقاهي والحانات والغرز . وعند كل ركن بزغت البشاشة وقال قائل : « كل عام وانتم بخير » . وجلس قاسم في ثوب جديد واحسان واقفة في حجره متأبطة راحتيه ، تجوس بيديها الصغيرتين في قسباته او تنشب اطافرها في خديبه . وارتفع صوت تحت النافذة يغني :

أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دية

فذكر لتوه زفته السعيدة حتى رق قلبه . وهو رجل يحب الغناء والطرب . وكما تمنى أدهم أن يتفرغ الغناء في الحديقة الغناء . وماذا يغني الرجل في العيد ؟ أصل اللي شبكتني مع المحبوب عيني دية ؟ صدق الرجل . فنذا ارتفعت عيناه في الظلام الى قنديل سلب قلبه وعقله وارادته . وما هو حوش بيته يستحيل نادياً لتقوية الأبدان وتطهير الأرواح . وهو مثلهم يرفع الأثقال ويتعلم التحطيب . وصادق امتلاآت عضلات ذراعيه كما امتلاآت من قبل - بفضل عمله في تبييض النحاس - عضلات ساقيه . أما حسن فيا له من مارد عملاق . والآخرون ما أبهر حماسهم . وكان صادق حكماً يوم نصحه بدعوة المتعطلين والمتسولين الى ناديه وسرعان ما تحمسوا لألعابه كما تحمسوا لأقواله . أجل انهم قلة ولكنهم لطموحهم اذا وزنوا بأضعاف أضعافهم رجحوا بهم . وهتفت احسان : « آد .. آد .. » فقبلها كثيراً ، وكان طرف جلبابه الجديد مبتلاً تحنّسها . وترامى اليه من المطبخ دق الهاون وصوتا قمر وسكينة ونواء القطة . ومرت عربة كارو تحت الشباك وهي تنشد مصفقة :

الفاخرة للعسكري قلع الطربوش وعمل ولى

وابتسم قاسم فتذكرا ليلة غنتي المعلم يحيي هذه الانشودة وهو في تمام السطول . آه لو تستقيم الأمور فلا يبقى لك الا الغناء يا حارتنا ! غداً يمتلئ النادي بالأعوان الأقوياء والصادقين . غداً أتحدى بهم الناظر والفتوات وجميع العقبات . كي لا يبقى في الحارة الا جد رحيم وأحفاد بررة . ويمحق الفقر والقذارة والتسول والطغيان . وتختفي الحشرات والذباب والنباييت . وتسود الطمأنينة في ظل الحداثق والغناء . واستيقظ من أحلامه على صوت قر وهي تنهر سكينه في غضبه داهمة . انصت متعجباً ثم نادى زوجته ، وسرعان ما فتح الباب وجاءت قر وهي تدفع الجارية امامها وتقول :

— أنظر الى هذه المرأة ! ولدت في بيتنا كما ولدت أمها من قبل ، ولا تتعفف عن التجسس علينا !

فنظر الى سكينه بانكار حتى هتفت بصوتها النحاسي :

— لست خائنة يا سيدي ولكن ستي لا ترحم !

وقالت قر وفي عينيها قزع أخفقت في مداراته :

— رأيتهما تبسم وتقول لي : « سيجيء العيد القادم ان شاء الله

وسيدي قاسم سيد الحارة كلها كما كان جبل في حي حمدان » .. سلها عما تعني بذلك ؟

وقطب قاسم مهتماً ، وسألها :

— ماذا تعنين يا سكينه ؟

فقالت الجارية بجرأة غير غريبة عليها :

— أعني ما قلت ، لست خادمة كالخادومات ، أعمل اليوم هنا وغداً

هناك ، اني ربيبة هذا البيت ، وما كان يجوز ان يخفى عني سر .

فتبادل الرجل نظرة سريعة مع زوجته ، و اشار الى الطفلة فجاءت

وتلقته منه ، وأمر الجارية ان تجلس فجلست عند قدميه وهي تقول :

— أصبح أن يعلم بسرك غرباء عن البيت وأظل أجهله أنا ؟ !

— أي سر تقصدين ؟

فقالت الجارية بنفس الجرأة :

— حديث قنديل اليك عند صخرة هند !

ندت عن قر آهة ولكن قاسم اشار الى الجارية ان تستمر فقالت :

— كما حدث لجبل ورفاعة من قبل ، لست دونهما يا سيدي ، أنت سيد ، حتى على عهد الرعي كنت سيداً ، وكنت الوسيط الذي جمع بينكما الا تذكر ؟ كان يجب أن اعلم قبل الآخرين ، كيف تأمن الغرباء ولا تأمن جاريتك ! ساعكما الله ، لكنني أدعو لك بالنصر ، نعم أدعو لك بالنصر على الناظر والفتوات ، مندا الذي لا يدعو لك بذلك ؟

فصاحت قمر وهي تهدد الطفلة بحركة عصبية :

— ما كان يجوز أن تتجسسي علينا ، وسيظل العيب لاصباً بذقنك .

فقالت سكينه في حرارة صادقة :

— لم أقصد التجسس وربي شهيد ، ولكن نفذ الي من الباب كلام لم يسعني الا متابعتي ، وما كان في وسع انسان ان يغلق اذنيه دونه ، ان ما يقطع قلبي يا ستي هو انك لا تطمئين الي ، لست خائفة ، أنت آخر ما أخون ، ولحساب من أخونك ؟ ساعك الله يا ستي .

كان قاسم يتفحصها بعناية ، بعينه وبقلبه ، فلما انتهت قال بهدوء :

— أنت مخلصه يا سكينه ، لا شك في اخلاصك .

فحدجته بنظرة مستطلعة مؤملة ، وتمتمت :

— عشت يا سيدي ، انا والله كذلك .

فقال بصوت خفيض :

— أنا أعرف المخلصين ، ولن تنبت الخيانة في بيتي كما نبتت في

بيت أخي رفاعة ، يا قمر .. هذه المرأة مخلصه مثلك فلا تسيئي اليها

بالظن ، هي منا كما نحن منها ، ولن أنسى انها كانت رسول السعادة الي .

فقالت قمر بصوت نهم على بعض الارياح :

- لكنها استرقت السمع !
 فقال قاسم باسم :
 - لم تسترق السمع ، ولكن الصوت نفذ اليها بمشيئة المولى ، كما سمع
 وفاعة صوت جده دون تدبير منه ، مباركة أنت يا سكيينة !
 فخطفت الجارية يده وانهاالت عليها لثماً وتقبيلاً وهي تقول :
 - روحي فداؤك يا سيدي ، والله لتنتصرن على اعدائك واعدائنا
 حتى تسود الحارة كلها .
 - ليست السيادة مطلبنا يا سكيينة !
 فبسطت يديها داعية :
 - اللهم حقق مطالبه !
 - آمين ..
 ثم نظر اليها باسم وهو يقول :
 - وستكونين رسولي اذا احتجت الى رسول ، وبذلك تشركين في
 عملنا !
 فتهلل وجه المرأة بشراً ، ونطقت عيناها بالعزة ، فأردف قائلاً :
 - اذا اذنت الأقدار بأن يوزع الوقف كما نريد فلن تحرم منه امرأة ،
 سيده كانت أم خادمة !
 عقدت الدهشة لسان المرأة ، فعاد يقول :
 - قال الواقف ان الوقف للجميع ، وأنت يا سكيينة حفيدة الواقف
 مثل قر سواء بسواء .
 واكتسى وجه المرأة بالبهجة ورنّت الى سيدها بامتنان . وترامت
 من الحسرة انغام مزمار راقصة . وصاح صائح : « لهيطة ..
 الف مرة » فتحول قاسم نحو الطريق فرأى موكب الفتوات وهم يخطرون
 على الجياد المزينة ، والناس تستقبلهم بالهتاف والاتاوات ، ثم
 مضوا نحو الحلال ليتنافسوا كماداتهم في الأعياد في مضمار السباق
 والتخطيط .. وما ان اختفى موكبهم حتى ظهر عجربة في الحارة وهو

يترنح سكرًا . ابتسم قاسم لدى ظهور الشاب الذي يعد من اصدق شباب
النادي وتابعه بعينه حتى وقف في مركز الوسط من حي الجرايع وصاح :
- انا جدع ..

فهبط عليه صوت ساخر من اول ربع في حي رفاعة قائلاً :

- يا زين الجرايع !

فرفع عجربة نحو النافذة عينين حمراوين وصاح بصوت مخمور :

- جاء دورنا يا عجير !

والتف حوله غلمان وسكاري ومساطيل في ضجة عالية من الغناء
والزغاريد والطلل والزمر ، واذا بصوت يصيح :

- اسمعوا .. جاء دور الجرايع .. الا تريدون ان تسمعوا !

فهتف عجربة وهو يترنح :

- جد واحد للجميع ، وقف واحد للجميع . والسلام على الفتوة .

ثم غاب في الزحام . وسرعان ما وثب قاسم واقفاً فتناول عباءته ،
وغادر الحجرة مسرعاً وهو يقول :

- الله يلعن الحبرة وزمانها !

٧٧

- تجنبوا الظهور بين الناس وأنتم سكارى .

قال قاسم ذلك جاداً مقطباً وهو جالس تحت صخرة هند يقلب عينيه
في وجوه أصحابه المقربين من اعضاء النادي : صادق وحسن وعجربة
وشعبان وأبو فصادة وحمروش . كان الجبل يلوح من ورائهم شاخاً وهو
يتلقى طلائع الليل الهابطة ، ولم يكن في الخلاء الا راعي غنم يقف
معتمداً على عصاه في أقصى الجنوب . وبدا عجربة مطرماً أسيفاً

وهو يقول :

— ليتني متّ قبل ذلك .

فقال قاسم في فتور :

— من الأخطاء ما لا يجدي معه الاعتذار ، المهم عندي الآن ان أعرف مدى أثر هذيانك في أعدائنا !

فقال صادق :

— من المؤكد انه سمع على نطاق واسع .

وقال حسن متجهماً :

— لمست ذلك بنفسني في قهوة جبل حيث دعاني صديق من آل جبل الى مجالسته ، فسمعت رجلاً يحكي بصوت مرتفع ما كان من أمر عجربة ، أجل كان يحكي وهو يضحك هازئاً ولكني لا استبعد ان تثير حكايته ريبة في بعض النفوس ، كما اخشى انتقالها من فم الى فم حتى تبلغ أحد الفتوات .

فقال عجربة متنهداً :

— لا تبالغ يا حسن .

فقال صادق :

— المبالغة خير من التهاون والا أخذنا من حيث لا نتوقع !

فقال عجربة :

— أقسمنا ألا نخاف الموت !

فقال صادق محتداً :

— كما أقسمنا ان نحفظ السر !

فقال قاسم :

— واذا هلكنا اليوم تبددت الآمال الكبار .

واشتد الوجوم مع الظلام الزاحف حتى عاد قاسم الى الكلام قائلاً :

— ينبغي أن نتدبر الأمر :

- فقال حسن :
- فلندبر أمرنا على افتراض أسوأ الاحتمالات .
- فقال قاسم بصوت كئيب :
- هذا معناه القتال .
- وتحركت الرؤوس تتبادل النظرات في الظلام ، ومن فوقها انبثقت النجوم تباعاً ، وهب هواء بطوي في تضاعيفه بقايا من حر النهار كالنوايا السيئة . ثم قال حروش :
- سنقاتل حتى الموت .
- فقال قاسم ممتمصاً :
- ويستمر الحال كما كان !
- فقال صادق :
- ما أسرع ما يقضون علينا .
- فقال أبو فصادة مخاطباً قاسم :
- من حسن الحظ أن هناك أسباب قريبي تجمع بينك وبين سوارس ، كما تجمع بين حرمك وحرم الناظر ، وفضلاً عن هذا وذاك كان لهيطة من اصدقاء أبيك في شبابه .
- فقال قاسم بفتور :
- ربما أجّل هذا القضاء ولكنه لن يمنع وقوعه .
- فسأل صادق برجاء :
- ألا تذكر أنك فكرت يوماً في الالتجاء الى محام شرعي ؟
- وقيل لنا إنه لن يجرؤ محام على تحدي الناظر والفنوت .
- فقال عجرمة محاولاً التخفيف من ذنبه :
- هناك محام في بيت القاضي معروف بالجرأة .
- ولكن صادق عاد يقول مترجماً :
- أخشى ما أخشاه أن نجهز بالعداوة عن طريق القضية وتكون .

عاجونا من عواقب ددم عجرمه سابقه لاواه .

فقال عجرمه :

— فلنشاور المحامي في الأمر ، ولنتفق معه على تأجيل رفع الدعوى حتى تدفعنا الضرورة الى ذلك ، وسنجد من يواليها منا ولو من خارج الحارة .

ووافق قاسم والآخرون على هذا الرأي كاجراء احتياطي . وقاموا من فورهم فذهبوا الى مكتب الشنايفري المحامي الشرعي ببيت القاضي . وقبلهم الشيخ فشرح له قاسم قضيتهم ، وأخبره عن نيتهم في تأجيل رفع الدعوى الى حين ، على أن يستعد هو للأمر بدراسة الموضوع والتأهب لاتخاذ كافة الاجراءات . وعلى خلاف ظن اكثرهم قبل المحامي القضية ، وقبض مقدم الأتعاب ، فانصرفوا من لدنه مغتبطين . وتفرقوا ، فعاد الصحاب الى الحارة ومضى قاسم الى المعلم يحيى . وجالسه في دهليز الكوخ يدخنان ويتبادلان الرأي . وبدا المعلم أسفاً على ما وقع ووصى قاسم باليقظة والحذر .

وعاد قاسم بعد ذلك الى داره ، ولما فتحت له قمر رأى في وجهها ما أزعجه فسألها عما وراءها فقالت :

— أرسل حضرة الناظر في طلبك !

فخفق قلب قاسم ، وتساءل :

— متى ؟

— آخر مرة منذ عشر دقائق !

— آخر مرة !

— أرسل اليك ثلاث مرات في ظرف ساعة .

واغرورت عينها وهي تتكلم ، فقال :

— ليس هذا ما انتظره منك .

فانتحبت قائلة :

— لا تذهب .
فقال وهو يتظاهر بالهدوء :
— الذهاب آمن من التخلف ، ولا تنسي أن هؤلاء اللصوص لا
يعتدون على أحد في بيوتهم .
وبكت احسان في الداخل فهرعت اليها سكيئة ، وقالت قر :
— أجّل ذهابك حتى أقابل أمينة هانم .
فقال بحزم :
— هذا لا يليق بنا ، سأذهب من فوري ، ولا داعي للخوف
فلا أحد منهم يعرف غني شيئاً .
فتشبّث به قائلة :
— دعاك أنت لا عجرفة ، أخشى أن يكون بعضهم قد وثى بك .
فتخلص منها برفق وهو يقول :
— قلت لك منذ اللحظة الأولى إن أيام الراحة ولت ، وجميعنا يعلم
بأننا سنواجه الشر عاجلاً أو آجلاً ، فلا نتمزج هكذا ، وابقى بخير
حتى أرجع .

٧٨

عاد البواب من داخل بيت الناظر وقال لقاسم في فتور وجفاء :
— أدخل .
ومضى أمامه فتبعه قاسم باذلاً جهده للسيطرة على مشاعره ، وسطعته
رائحة الحديدية الزكية دون أن يلتفت اليها حتى وجد نفسه أمام مدخل
البهو . وتنحى البواب عن طريقه فدخل ثابت الجنان بدرجة لم يكشفها
في نفسه من قبل . ونظر أمامه فرأى في أقصى البهو الناظر جالساً على

ديوان ، وكان هناك شخصان ، يجلس احدهما على معقده الى يمين الناظر والآخر الى يساره ، لكنه لم يتبينهما أو يُعَيِّنَ بالالتفات الى أحدهما ، واقترب من مجلس الناظر حتى وقف على بعد أذرع منه ، فرفع يده بالتحية وقال بأدب :

— مساء الخير يا حضرة الناظر .

ولمح دون قصد الجالس الى يمينه فإذا به لهيطة ، ولحظ الآخر لكن عينيه حملت في بلا وعي منه ، وتلقى صدمة كادت أن نهضه . لم يكن الرجل الا الشيخ الشافيري المحامي الشرعي ! أدرك خطورة الموقف ، أن سره انكشف ، إن المحامي النذل خان الأمانة ، وأنه وقع . التحم في قلبه اليأس بالغيط والغضب . وعرف انه لن ينجيه المكر أو الدهاء فصمم على الصمود والتحدي . ولم يكن في الوسع أن يتراجع خطوة فكان عليه ان يتقدم او يثبت على الأقل . وقد ذكر موقفه هذا فيما تبع من أيام ، وكان يؤرخ به مولد شخص جديد في ذاته لم يكن يتصور وجوده . وانتزعه من دوامته صوت الناظر الجاف وهو يتساءل :

— أنت قاسم ؟

فأجاب بصوت طبيعي :

— نعم يا سيدي !

فسأله دون ان يأذن له بالجلوس :

— هل أدهشك وجود الأستاذ ؟

فأجاب بنفس النبرة :

— كلا يا سيدي .

فتساءل بازدياد :

— أأنت راعي الغنم ؟

— انقطعت عن رعي الغنم منذ أكثر من عامين .

— وماذا تعمل الآن ؟

— وكيلاً لزوجتي في أملاكها .
فندت عن الناظر هزة رأس ساخرة ، ثم أشار الى المحامي آذناً له
بالكلام فقال الشيخ مخاطباً قاسم :

— لعلك تعجب من موقفني باعتباري محاميك ، ولكن لحضرة الناظر
مكانة تعلق على هذه الاعتبارات جميعاً . وسيفسح تصرفي لك مجالاً للتوبة
هو خير من التورط في عداوة كانت ستؤدي بك الى الهلاك ، وقد
أذن لي حضرة الناظر في أن أخبرك بأنني تشفعت لك عنده بالعفو إذا
أعلنت التوبة ، فأرجو ان تقدر حسن نيتي ، وهاك مقدم الأتعاب أردته
اليك .

فرمقه قاسم بنظرة قاسية وتساءل :
— لماذا لم تنصخني بالحق وأنا في مكتبك ؟
فأخذ المحامي بجراوته : ولكن الناظر أسعفه بقوله !
— أنت هنا لتسأل لا لتسأل :
ونهض المحامي مستأذناً بالانصراف ، ثم مضى وهو يحبك جبته
مدارة لارتبأكه . وعند ذاك تفحص الناظر قاسم بنظرة قاسية وقال
بنبرة كالسب :

— كيف سولت لك نفسك الشروع في رفع دعوى علي ؟
وجد نفسه محاصراً ، فاما القتال واما القتل ، ولكنه لم يدر ماذا
يقول ، فقال الآخر :

— انطق ، خبرني عما وراءك ، هل أنت مجنون ؟
فقال قاسم في وجوم :
— أنا عاقل بحمد الله .
— لا يبدو هذا مؤكداً ، لماذا أقدمت على فعلتك المنكرة ؟ لم تعد
فقيراً مذ رضيتك المجنونة زوجاً لها ، فإذا أردت من فعلتك ؟
فزجر قاسم كأنما ليأمن الغضب وقال :

- لا أريد شيئاً لنفسي .
- فنظر الناظر نحو لهيطة كأنما يشهده على غرائب ما يسمع ، ثم أعاد عينيه إلى قاسم فيما يشبه الثورة ، وصاح :
- إذن لماذا فعلت ما فعلت ؟ !
- فأجاب قاسم :
- ما أردت إلا العدل .
- فضيق الرجل عينيه في حقدٍ وتساءل :
- أتحسب ان علاقة زوجتك بالهانم قادرة على حمايتك ؟
- فغض بصره وهو يقول :
- كلا يا سيدي .
- هل أنت فتوة قادر على تحدي فتوات الحارة جميعاً ؟
- كلا يا سيدي .
- فصرخ الرجل :
- قل انك مجنون وأرحني .
- أنا عاقل والحمد لله .
- لماذا شرعت في رفع دعوى عليّ ؟
- أردت العدل .
- لمن ؟
- فارتسم التفكير في عينيه وهو يقول :
- للجميع .
- ففرس في وجهه مرتاباً في عقله ، وتساءل :
- وما شأنك أنت ؟
- فقال قاسم وكأنه ثمل بشجاعته :
- بذلك تتحقق شروط الواقف !
- فصرخ الناظر :

— أنت يا جربوع تتكلم عن شروط الواقف ؟ !

فقال قاسم بهدوء :

— انه جدنا جميعاً .

فهب الناظر واقفاً في غضب وهوى بشعر منشته على وجه قاسم بأقصى

قوته وصاح :

.. جدنا ! ليس فيكم من يعرف أباه ولكنكم تقولون بكل وقاحة

جدنا : يا لصوص يا جرابيع يا سفلة ، انما تمادى في وقاحتك استناداً

الى حاية هذا البيت لك ولزوجتك ، ولكن كلب البيت يفقد حمايته اذا

عض يد المحسنين اليه .

ووقف لهيطة ليسكن من ثورة الناظر فقال :

— عد الى مجلسك مطمئناً فلا يصح ان تكدر صفوك ذبابة .

فجلس رفعت وشفته ترتعشان من الغضب ، وصاح :

— حتى الجرابيع يطعمون في الوقف ويقولون بكل وقاحة جدنا .

وعاد لهيطة الى مجلسه وهو يقول :

— الظاهر ان ما تناقله الناس عن الجرابيع صحيح ، ومن سوء حظ

حارتنا انها تسعى الى الهلاك باقدامها .

والتفت الى قاسم وقال :

— كان أبوك من أعواني الأوائل فلا ترغني على قتلك .

فصاح الناظر :

— انه يستحق ما هو أقطع من القتل جزاء فعلته ، ولولا الهام لكان

الساعة في الهالكين !

وواصل لهيطة استجواب قاسم قائلاً :

— اصغ الىّ يا بني ، وخبرني عمّن وراءك ؟

فتساءل قاسم وهو ما زال يستشعر الألم عند موقع المنشة من وجهه :

— من تقصد يا سيدي ؟

- من دفعك الى رفع الدعوى ؟
- لا أحد سوى نفسي .
- كنت راعي غنم ثم ابتسم لك الحظ فقيم تطمع أكثر من ذلك ؟
- العدل ، العدل يا معلم .
- فصرّ الناظر على أسنانه وهتف :
- العدل ! يا كلاب يا أراذل ، هذه كلمة السر عندكم إذا اعتزمتهم
- النهب والسرقة .
- ثم ملتفتاً نحو لهيطة :
- قرّره حتى يقر !
- فعاد لهيطة يقول بصوت تنجّمع في نبراته نذر الوعيد :
- خبرني عن وراءك !
- فقال قاسم بتحدٍ خفي :
- جدنا ..
- جدنا !
- نعم ، اطلع على شروط وقفه وستعلم أنه هو الذي دفعني .
- وهب رفعت واقفاً مرة أخرى وهو يصيح :
- أبعد عن وجهي .. إرمه خارجاً .
- وقام لهيطة فأخذ قاسم من ذراعه ، ومضى به نحو الباب ، وشد
- على ذراعه بقبضة من حديد تحملها الآخر متصبّراً ، ثم همس في أذنه :
- اعقل اكراًماً لنفسك ، ولا تضطروني إلى أن أشرب من دمك .

وشعبان وابو فصادة وحروش . تطلعون اليه في اشفاق وصمت ، ولما
جلس الى جانب زوجته قال عويس :

— ألم أنصحك ؟

فقالت قمر في عتاب :

— مهلاً يا عمي حتى يستريح .

فهمتف الرجل :

— شر المتاعب ما تجيء صاحبها من نفسه !

وجعل زكريا يتفحص وجه قاسم بعناية ثم قال :

— أهانوك يا ابن أخي ، اني أعرفك كما أعرف نفسي ، ما كان
أغناك عن هذا كله .

وقال عويس :

— لولا أمانة هانم ما رجعت الينا سالماً .

وقلب قاسم عينيه في وجوه صحبه وقال :

— خائنا المحامي اللئيم !

فتصلبت وجوههم ، وتبادلوا النظرات في انزعاج ، فسبقهم عويس
الى الكلام قائلاً :

— انفضتوا بسلام ، وليحمد كل منكم الله على نجاته .

وسأله حسن :

— ما قولك يا ابن عمي ؟

فتفكر قاسم قليلاً ثم قال :

— لا أخفي عنكم أن الموت يتهددنا ، واني أعني من معاونتي من
يشاء .

فقال زكريا :

— فلينته الأمر عند هذا الحد .

فقال قاسم بهدوء وتصميم :

– لن أتخلى عن الأمر مهما تكن العواقب ، ولن أكون دون جبل
أو رفاة برأ بجدي وأهل حارتنا .

فقام عويس غاضباً وغادر حجرة الجلوس وهو يقول :
– هذا الرجل مجنون ، وكان الله في عونك يا بنت أخي .
أما صادق فوثب الى قاسم وقبل جبينه وهو يقول :
– رددت إليّ روجي بما قلت .
وقال حسن متحمساً :

– الناس في حارتنا يقتلون بسبب ملهم ، وبلا سبب ، فلماذا نخاف
الموت عندما نجد له سبباً حقاً ؟ !

وارتفع صوت سوارس من الحارة نادياً زكريا فأطل الرجل من
النافذة ودعاه الى الدخول ، وما لبث ان دخل الحجرة وجلس وهو
مقطب متجههم . ثم نظر الى قاسم وقال :
– لم اكن أدري ان في حينا فتوة سواي .
فقال زكريا مشفقاً :

– ليس الأمر كما قيل لك .

– ما قيل لي أدهى وأمر .

فقال زكريا متأوهاً :

– عبث الشيطان بعقول أولادنا .

فقال سوارس بجفاء :

– أسمعني لهيطة كلاماً ثقيلاً بسبب ابن أخيك ، كنت أحسبه فتى
عاقلاً فإذا بجنونه يفوق كل جنون . اسمعوا جيداً ، إذا تهاونت معكم
جاء لهيطة ليؤدبكم بنفسه ، ولكني لن أسمح لأحد بأنه يعرض كرامتي
للمهانة ، فالزموا حدودكم ، والويل لمن تحدّثه نفسه بالعناد .

وراح سوارس يراقب أعوان قاسم فلم يسمح لأحد منهم بالاقتراب
من بيته ، وفي سبيل ذلك أهان صادق ولكم ابو فصادة ، وطلب الى

زكريا ان ينصح قاسم بالتزام داره حتى تنسى الزوبعة . روجد قاسم نفسه سجيناً في بيته ، لا يزوره أحد سوى ابن عمه حسن . ولكن ما من قوة تستطيع ان تسجن الأخبار في الحارة . فقد تسلت الى حي رفاعه وجبل همسات عما يضطرب في حي الجرايع ، عن دعوى كادت ان ترفع على الناظر ، وعن مزاعم خاصة بالشروط العشرة ، بسل عن اتصال وقع بين قنديل خادم الجبلاوي وبين قاسم . وثارت النفوس بشئ الانفصالات ، وتطايروا التهم والسخریات . وقال حسن يوماً لقاسم :
— الحارة تتهاشم بالخبر ، وفي كل غرزة لا حديث إلا عنك .
فرفع قاسم إليه وجهها غائماً بالهم والفكر كشأنه في الأيام الأخيرة وقال :

— انقلبنا سجناء ، والأيام تمر بلا عمل .

فقال قمر باشفاق :

— لا يطالب مخلوق بما فوق طاقة البشر .

وقال حسن :

— اخواننا على أشد ما يكون من الحماس .

فسأله قاسم :

— أحق أن آل جبل ورفاعة يرموني بالكذب والجنون ؟ !

فغض حسن بصره مثلاً وقال :

— الجبن أفسد الرجال !

فهز قاسم رأسه في حيرة وتساءل :

— لماذا يكذبني آل جبل ورفاعة ومنهم من قابله الجبلاوي أو

حادثه ؟ لماذا يكذبونني وهم أولى الناس بتصديقي وتأبيدي ؟ !

— ان داء حارتنا الجبن ولذلك فهم ينافقون فتواتهم !

وارتفع من الطريق صوت سوارس كالخوار وهو يسب ويلعن فأطلت

الأسرة من الشباك فرأوا سوارس ممسكاً بتلابيت شعبله وهو بصرخ فيه :

— ماذا جاء بك هنا يا ابن الزانية ؟

وعبثاً حاول الشاب التخلص من قبضته ، وإذا بسوارس يقبض على عنقه بيسراه وينهال باليمين ضرباً على وجهه ورأسه . وغضب قاسم غضباً شديداً فراجع عن الشباك وهرع نحو الباب غير مبال بتوسلات قمر . وفي أقل من دقيقة كان يقف امام سوارس ويقول له بحزم وتصميم :
— اتركه يا معلم سوارس .

فلم يكف الرجل عن تكميل الضربات لفريسته وصاح بقاسم :

— احترم نفسك وإلا أبكيك عليك عدوك .

وقبض قاسم على يده الضاربة وشد عليها بقوة هاتفاً بغضب :
— لن أدعك تقتله وافعل ما تشاء .

وترك سوارس شعبان فانهار على الأرض في غيبوبة ، وخطف مقطف تراب من فوق رأس امرأة عابرة وألبسه رأس قاسم . وهمّ حسن بالوثوب عليه لولا ان طوقه زكريا بذراعه في الوقت المناسب الذي وصل فيه . ورفع قاسم المقطف عن رأسه فبدا وجهه كالمختنق وانسال التراب على رأسه ووثبه حتى غطاه ، وسرعان ما تملكته نوبة سعال . وصرخت قمر وصوتت سكبنة ، وجاء عويس مهرولاً ، وانطلق النساء والرجال والصفار من الأبواب نحو الموقعة فعلا اللغو والضوضاء . وكان زكريا يشد على ذراع ابنه حسن بكل قواه وينظر في عينيه الجاحظتين بتوسل وتحذير . واقترب عويس من سوارس قائلاً :

— امسح العيب في وجهي أنا يا معلم سوارس .

وهتف اكثر من صوت : « شفاعة الله يا معلم ! » .. حتى صرخ سوارس قائلاً :

— هذا قريب وذاك شفيع ، وبين هذا وذاك ضاع سوارس وانقلب مرة بعد ما كان فتوة !
فصاح زكريا :

— استغفر الله يا معلم ، انت سيدنا وتاج راسنا .
ومضى سوارس إلى القهوة ، فرفع رجال شعبان ، وراح حسن ينفخ
التراب عن وجه قاسم وثوبه ، واستطاع المتجمعون — بعد اختفاء
سوارس — أن يبدوا عن أسفهم .

٨٠

وفي مساء ذلك اليوم ضج أحد الربوع بحي الجرايع . بالصوت يعني
ميتاً . أطلقت حنجرة متهالكة وسرعان ما رددته عشرات الحناجر في
الربيع . وأطل قاسم من النافذة فسأل فطين بياع اللب فأجابه الرجل :
« تعيش أنت ، شعبان مات ! » . وغادر الرجل داره فزعاً فقصد
ربع شعبان على مبعدة ربعين من داره . وهناك وجد الحوش مظلاً ومكتظاً
بسكان الشقق التحتانية الذين راحوا يتبادلون كلمات الرثاء والحزن والسخط
على حين تجاوبت دهاليز الادوار الفوقانية بالصوت . وسمع امرأة تقول
بعنف :

— لم يمت ولكن قتله سوارس .

— الهى يخرب بيتك يا سوارس !

فاعترضت ثالثة تقول :

— ما قتله إلا قاسم ! يفترى الأكاذيب ورجالنا تقتل .

فانقبض قلب قاسم حزناً ، وشق طريقه في الظلام حتى صعد الى أول
دور حيث توجد شقة القتيل . ورأى على ضوء سراج مثبت في حائط
الدهليز أمام الشقة أصحابه حسن وصادق وعجربة وابو فصاده وحروش
وآخرين ، فأقبل صادق نحوه وهو يبكي فعانقه دون ان ينبس . وقال
حسن وقد بدا وجهه مروعاً تحت الضوء الشاحب :

- لن يذهب دمه هدرا .
 واقترب عجومة من قاسم وهمس في أذنه :
 - زوجته في حالة سيئة حتى أنها حملتنا مقتلته .
 فهمس قاسم له :
 - كان الله في عونها .
 وقال حسن في نبرة انتقامية :
 - القاتل لا بد أن يقتل .
 فقال أبو فصادة بغيظ :
 - منذ الذي يشهد عليه في حارتنا ؟
 فقال حسن :
 - لكننا نستطيع ان نقتل كالأخرين .
 فلكره قاسم ليسكنه وقال :
 - من الحكمة الا تسيروا في جنازته ولكننا سنجتمع في القرافة .
 واتجه قاسم نحو شقة الفقيد فاعترضه صادق ليمنعه ولكنه نحاه جانباً
 ودخل . ونادى زوجته فجاءت متعجبة تطالع به بعينين دامعتين ، ثم
 تحجرت نظراتها وسألته :
 - ماذا تريد ؟
 فقال بحزن :
 - جئت أعزبك .
 فقالت بحدة :
 - أنت فتنته ، ما كان أغنانا عن الوقف ، وأحوجنا اليه هو .
 فقال برقة :
 - ربنا يصبرك ، ويهلك المجرمين ، ونحن أهلك كلما احتجت الى
 أهلك ، ولن يضيع دمه .
 رمقته شزراً واستدارت راجعة . ويرجعها انفجر النواح والعويل ،

فغادر المسكن كثيراً مفتعلاً .

وعندما طلع الصباح رأى الناس سوارس جالساً عند مدخل قهوة دنجل
يقلب في المارين وجهاً مدمعاً بالتحدي والاجرام . وحياته الناس مضاعفين
له التودد مداراة لسخطهم . وتجنبوا الاشتراك في الغزاة فلبثوا في دكاكينهم
او وراء عرباتهم او فوق التراب . وخرج النعش محمولاً عند الضحى ،
واقصر المشيعون على الأهل والأقارب ولكن قاسم انضم اليهم غير مبال
بنظرات الفتوة المحرقة . وغضب صهر القتل فقال لقاسم محنداً :

— تقتل القتل وتمشي في جنازته !

فلاذ بالصمت والصبر حتى سأله آتعر بخشونة :

— لماذا جئت ؟

فقال باصرار :

— لأقاتل كما قاتل صديقي رحمه الله ، كان شجاعاً ، ولسم كما
كان ، وتعرفون القاتل وتصفون غضبك علي .

فوجم أكثرهم . وتجمهرت النساء وراء الرجال ، حافيات يهروئن
بالسواد ، يسفن التراب فوق رموسهن ويلطمن الحدود . واخترقت
الجنازة الجمالية نحو باب النصر . ولما تمت مراسم الدفن تفرق المشيعون
الا قاسم ، فقد تباطأ في السير حتى تخلف عنهم ، ورجع الى القبر فوجد
اصحابه في الانتظار . واغرورقت عيناه بالدموع فأجهشوا جميعاً بالبكاء .
وجفف عينيه براحته وقال :

— من يريد السلامة فليذهب .

فقال حروش :

— لو كنا نريد السلامة ما وجدتنا حولك .

فقال وهو يطرح يده على شاهد القبر :

— عز علي فقده ، كان شجاعاً متحمساً ، وذهب غدرأ ونحن في

أشد الحاجة اليه .

فقال صادق :

— قتله فتوة غادر ، وسوف يبقى منا بعض ليشهدوا مصرع آخر
فتوة في حازتنا .

فقال حمروش :

— ولكن لا ينبغي أن نضيع غدرأ كما ضاع فقيدنا ، فكروا في الغد
وكيف نحقق النصر !

— وكيف نجتمع لتبادل الرأي .

فقال قاسم :

— لم يكن لي من أنيس في سجنى الا التفكير في هذا ، واهتديت
الى رأي ، ليس باليسير ولكن لا محيد عنه .

فاستطلعوه متسائلين فأردف :

— أهجروا حارتنا ، فليدبر كل شأنه وليهاجر ، سنهاجر كما هاجر
جبل قديماً وكما هاجر المعلم يحيى بالأمس ، ولنقسم نادينا في مكان آمن
بالخلاء حتى يشتد ساعدنا ويكثر عددنا .

فهتف صادق :

— نعم الرأي .

— لن نظهر حارتنا من الفتوة الا بالقوة ، ولن نحقق شروط الواقف
إلا بالقوة ، ولن يسود العدل والرحمة والسلام إلا بالقوة ، وستكون
قوتنا أول قوة عادلة غير باغية .

استمعوا بقلوب واعية . وتطلعوا الى قاسم ، الى القبر وراء ظهره ،
فخيل اليهم ان شعبان يشاركهم الاستماع ويباركه . وقال عجرة متأثراً :
— نعم فبالقوة تحل المشاكل ، القوة العادلة غير الباغية ، كان شعبان
يقصده عندما اعترضه سوارس ، لو كنا معه لاعترض الفتوة قوة لا
يسهل قهرها ، لعنة الله على الخوف والتفرق .

استروح قاسم لأول مرة نسمة ارتياح وابتهاج فقال :

— لقد وضع جدنا ثقتَه بين ايدينا وهو عن يقين يؤمن بأن في ابنائه
من هم أهل لحملها .

٨١

ورجع قاسم الى بيته عند منتصف الليل ، لكنه وجد قمر مستيقظة تنتظره .
وبالغت أكثر من عاداتها في العناية به والحنو عليه ، وكان يؤله بقاؤها
مستيقظة حتى تلك الساعة ، ثم تبين له ذبول في عينيها واحمرار يخلفه
البكاء كما تخلف الشمس الشفق ، فتساءل في كآبة :

— هل كنت تبكين ؟

لم تجبه كأنما شغلت عنه بكوب اللبن الدافئ الذي تعده له ، فعاد
يقول :

— موت شعبان أحزننا جميعاً ، رحمه الله .

فبادرته قائلة :

— بكيت على شعبان قبل ذلك ، لكنني كنت أبكي كلما تذكرت
اعتداء الرجل عليك ، أنت آخر رجل يستحق ان يمال التراب على
رأسه ووجهه .

فقال محزوناً :

— ما أخف هذا بالقياس الى ما أصاب صاحبنا المسكين .

فجلست الى جانبه وهي تقدم له الكوب وتمتعت :

— وكم يضايقني ما يقال عنك .

فابتسم متظاهراً بالاستهانة ورفع الكوب الى فيه ، فأردفت مغيظة :
— ان جلطة يؤكد لآل جبل انك طامع في الوقف لنسأثر به وحدك ،
وهكذا يقول حجاج في آل رفاعه ، ويشيعان عنك انك تنقص من

جبل ورفاعة .

فقال دون ان يخفي ضيقه :

— أعرف ذلك ، كما أعرف انه لولاك لما كنت حتى اليوم حياً .
فربت كتفه بخنان . وإذا بها تتذكر الأيام الماضية لغير ما سبب .
أيام لم تكن لأحاديثها نهاية ولا لسعادتها غاية . وأفراح الليالي المضيفة
بعد مولد احسان . هي اليوم لا تملك منه شيئاً ولا يملك هو من نفسه
شيئاً . حتى آلام المرض التي تنتابها أحياناً تخفيها عنه . انه لا يفكر في
نفسه فكيف تشغله بنفسها . وهي تنجل ان تثقل عليه حتى لا تعين
اعداءه بغير قصد عليه . منذ الذي يطمئنها عليه وأيام العمر تولى كما
ولت أيام الراحة . ساحك الله يا حازتنا . وعاد قاسم يقول :

— لا يغيب عني الأمل ولو في الظلام ، وما أكثر الأصدقاء الصادقين
وان بدوت وحيداً ، تحدى أحدهم سوارس فن كان يجرؤ على ذلك من
قبل ، والآخرون مثله ، والشجاعة أخطر ما يلزم حارتنا كي لا تقضي
العمر تحت الأقدام ، فلا تنصحيني بالسلامة ، ان الذي قُتل ، قُتل
وهو في طريقه الى دارى ، وأنت لا ترضين لزوجك بمذلة الجبن .
ابتسمت قر وهي تسترد الكوب فارغاً ، وقالت :

— ان زوجات الفتوات يزغردن عند المعارك وهي شر ، فكيف أَرْضَى
بأن أكون دونهن للخير ؟

وأدرك أن حزنها اخطر مما تبديه فربت خدها بحب وقال معزياً :

— أنت كل شيء لي في دنياي ، أنت خير رفيق في الحياة .

فابتسمت استدعاء للسكنة التي يجب ان تسبق النوم .

وعجب عم شنطح مبيض النحاس من اختفاء صادق ، وكان سعى
اليه في داره فلم يجد له ولا لأحد من ذويه أثراً . وعبد الفتاح الفسخاني
كذلك لم يجد لعامله عجرة أثراً في الخارة . ولم يعسد ابو فصاده الى
حقلى حمدون ولم يندره بغيابه . وأين حمروش ؟ قال حسونة الفران انه

اختفى كأن نيران الفرن التهمتته . وآخرون ذهبوا بلا عودة . وانتشر
الخبر في حي الجرايع وامتدت منه أصداً الى بقية الحارة حتى قال
الناس في حي جبل ورفاعة هازئين إن الجرايع يهاجرون وأن سوارس
لن يجد مع الأيام من يحصل منه الاثاوة . واستدعى سوارس زكريا الى
قهوة دنجل وقال له منذراً :

— ابن أخيك خير من يدلنا على سر الهاربين
فقال زكريا :

— يا معلم سوارس لا تظلمه ، مضت أيام وأسابيع وأشهر والرجل
لا يغادر داره .

فقال الفتوة مزجراً :

— ألاعب أطفال ، لكنني استدعيتك لأحذرك بما قد يصيب ابن
أخيك .

— قاسم من دملك ، ولا تُشمت بنا العدو !

— هو عدو نفسه وعدوي ، انه يتوهم نفسه جبل هذا الزمان ، وهذه
اللغة هي أقرب سبيل الى باب النصر .

فقال زكريا في جزع :

— حلمك يا معلم سوارس ، نحن جميعاً في حمايتك !

ولما رجع زكريا الى مسكنه صادف حسن راجعاً من بيت قاسم
فأفرغ فيه الخنق الذي ملأه به سوارس ، غير ان حسن قاطعه قائلاً :

— صبرك يا أببي ، قبر مريضة ، مريضة جداً يا أببي .

وعلمت الحارة بمرض قبر حتى بيت الناظر . ولأزمها قاسم وهو في
عاية من الكآبة والحزن . وكان يهز رأسه في حيرة ويقول :

— في لحظة واحدة ترقدين بلا حول !

فقال المرأة بصوت ضعيف :

— كنت أخفي عنك حالي رحمة بقلبك الثقيل بالمناعب .

فقال في حزن شديد :

— كان ينبغي ان اشاركك ألمك من أول الأمر
فانفجرت شفتاها الشاحبتان عن ابتسامة كالزهرة الذابلة في غود
ناضب ، وقالت :

— ستعود الصحة الى سابق عهدها .

بذلك دعا قلبه . لكن ما هذا الغيم يغشى العين . وما هذا الجفاف
يسري في الوجه . وما تلك القدرة على اخفاء الألم ؟ ذلك كله من
اجلك أنت . يا الهي احفظها برحمتك . وابقيها لي ، واعطف على
بكاء الطفل الذي لا ينقطع .

— سمحك معي جعلني لا أسامح نفسي .

فابتسمت مرة أخرى فيما يشبه العتاب . وجيء بألم سالم لتبخرها ،
وأم عطية لتعد لها بعض المعاجين ، وابراهيم الحلاق ليحجنها ، ولكن
أم احسان استعصت فيما بدا على الشفاء . وقال لها قاسم :

— وددت لو افتديك من ألمك .

فأجابت بصوت واهن كالصمت :

— لا أصابك سوء .

ثم مردفة :

— يا أحب الناس الى قلبي .

وقال لنفسه : « لمنظرها تسود الدنيا في عيني ! » وقالت هي :

— العاقل مثلك آخر من يعز عليه الغراء .

وجاء زائرون وزائرات ولكنه ضاق بالمكان ففر الى سطح البيت .
كانت أصوات النساء ترتفع من نوافذ الربوع ، واللعنات تختلط ببنداءات
الباعة في الطريق ، وبكاء طفل حسبه لأول وهلة صوت احسان حتى
رأى صاحبه وهو يتمرغ في تراب سطح مجاور . وكان الظلام يهبط
وثيداً ، وسرب من الحمام يعود الى برجه ، ونجمة وحيدة تومض في

الأفق . وتساءل عن معنى النظرة الغريبة التي تلوح في عين قمر ، كأنها لا ترى ، وعن اهتزازات جانب فيها غير الارادية ، وعن الزرقة التي تصيغ شفيتها ، وعن شعوره البالغ بالانقباض . ولبت ساعات ثم نزل ، فقابل سكينه في الصالة حاملة احسان بين يديها فقالت له همساً :

— ادخل على مهل كيلا توقظها .

واستلقى على الكنبه المواجهه للفراش في ضوء خافت ينبعث من مصباح فوق أرضية الشباك . ولم يكن ثمة صوت في الحي إلا نواح الرباب ، ثم تلاه طابعا الشاعر قائلاً : « فقال الجد بهدوء :

— رأيت ان اعطيك فرصة لم تنح لأحد ممن في الخارج ، وهي ان تعيش في هذا البيت ، وأن تتزوج به ، وان تبدأ حياة جديدة فيه . فتتابعت دقات قلب همام في نشوة من الأفراح ، وقال :

— الشكر لك على نعمتك .

— انك تستحقها .

واختلج نظر الشاب بين جده وبين السجادة ثم تساءل في اشفاق :

— وأسرتي ؟

فقال الجبلابي في عتاب :

— قلت ما أريد بوضوح .

فقال همام باستعطاف :

— انهم يستحقون رحمتك وعفوك . »

ونذرت عن النائمة حركة لا تخلو من عنف فوثب فوق الكنبه اليها . رأى في عينيها بريقاً جديداً حل محل الغيم ، فسألها عما بها فهتفت بصوت قوي :

— احسان ! أين احسان !

غادر الحجرة مسرعاً ، ثم عاد وفي اثره سكينه حاملة الصغيرة النائمة . وأشارت قمر نحو احسان فقربت بها سكينه اليها حتى لثمت خدها ،

على حين جلس قاسم على حافة الفراش . ومالت عيناها اليه ، ثم همست :
- ما بي أعظم !
فقال نحوها متسائلاً :
- ماذا تعنين ؟
- ألمئك كثيراً ولكن ما بي اعظم .
فعض شفته ثم قال :
- قمر ، انا حزين لأنني عاجز عن تخفيف ألمك !
فقال باشفاق :
- أخاف عليك من بعدي .
فقال في حزن شديد :
- لا تتحدثي عني .
- قاسم ، ارحل ، الحق باصحابك ، سيفتلونك ان بقيت .
- نرحل معاً .
فقال بمشقة :
- ليس الطريق واحداً .
- لا تريدان ان ترجميني كما عودتني
- آه ، كان ذلك في الأيام الماضية .
وبدت كأنها تقاوم ضغطاً شديداً فلوحت بيدها . واشتد ميله نحوها
حتى امتلأ بانفاسها . وتلاوت ، وامتدت رقبتها كالمتغيثة ، وانطلق
صدرها في عنف ، وزفر حشجة قاسية ، فصاحت سكيته :
- اجلسها ، تريد ان تجلس .
فأحاطها بذراعيه ليجلسها ولكن ندت عنها شهقة كأنها وداع أبكم ،
وانهار رأسها على صدره . وهرولت سكيته بالطفلة الى الخارج .
ومن الخارج دوى صوتها يمزق الصمت .

وفي الصباح ازدحم بيت قاسم والطريق امامه بالمعزين . ان لصلات القربى في الحارة احتراماً متأصلاً لا تحظى بجزء منه شئ الفضائل مجتمعة . فلم يكن بد من ان يجيء سوارس معزياً وما أسرع ان اقبل وراءه الجرايع . ولم يكن بد من ان يجيء الناظر رفعت معزياً فتبعه على الأثر لهيطة وجلطة وحجاج وما أسرع ان اقبل وراءهم كل من هب ودب ، فانتظمت الجنازة جموعاً غفيرة لم تشهد لها الحارة مثيلاً من قبل إلا في جنازات الفتوات . وتحلى قاسم بصبر الرجل الحكيم رغم آلامه الدفينة . وحتى في ساعة الدفن بكى جميع حواسه وجوارحه إلا عينيه . وانصرف المعزون حتى لم يبق في المدفن إلا قاسم وزكريا وعويس وحسن ، وعند ذاك ربت زكريا عضد قاسم وقال بأسى :

— شد حيلك يا ابن أخي ، كان الله في عونك .

فانحنى عوده قليلاً وهو يزفر من الأعماق ، وغغم :

— قلبي دفن في التراب يا عمي .

فتقلص وجه حسن تأثراً ، وساد صمت المدفن كأشد ما يكون الصمت.

وانتقل زكريا خطوة وهو يقول :

— آن لنا ان نذهب .

لكن قاسم تشبث بموقفه وهو يقول في استياء :

— ما الذي جاء بهم ؟

ففطن زكريا الى من يعني بقوله فقال :

— لهم الشكر على أي حال .

فتشجع عويس قائلاً :

— ابدأ معهم من جديد ، فهذه الخطوة منهم تتطلب منك خطوات ،
ومن حسن الحظ أن ما يقال عنك خارج حيناً لا يؤخذ مأخذ الجدل !
فأثر أن يغوص في الصمت والحزن على مجادلته . وإذا بجماعة تقبل
على رأسها صادق وكأنما كانوا يرصدون اختفاء المعزين . كانوا كثرة
وليس فيهم غريب فعانقوا قاسم حتى دمعت عيناه . وقلب عويس عينيه
فيهم بامتناع ولكن أحداً لم يباله ، وقال صادق مخاطباً قاسم :
— لم يعد ثمة ما ييقبك في الحارة .

لكن زكريا قال معترضاً في حدة :
— ابنته وداره واملاكه هناك .
وقال قاسم بلهجة ذات مغزى :

— كان بقائي في الحارة ضرورياً فبفضله ازددتم مع الأيام عدداً !
ونظر الى الوجوه المتطلعة اليه كأنما يستشهد بكثرتها على صدق قوله .
فاكثرهم ممن اغرامهم بالهجرة واللحاق بأصحابه حينما كان يتسلل من
داره كل ليلة عقب نوم الحارة فيقصد من يأنس فيهم مودة وحسن
استعداد للاقتناع بكلامه . وسأله عجرة :

— هل يطول بنا الانتظار ؟

— حتى يتجمع عندكم عدد كاف .

وانحنى به جانباً فقبله وهمس له :

— قلبي يتقطع حزناً لك فاني ادرى الناس بقسوة فجيعتك .

فعاوده التأثر ، وهمس :

— صدقت ، ما أقسى الألم .

ورمقه باشفاق ثم قال :

— عجل باللاحاق بنا فانك اليوم وحيد .

— كل شيء رهن بوقته .

وقال عويس بصوت مرتفع :

— بتبغي ان نعود .

وتعانق الصحاب مودعين ، وعاد قاسم ورفاقه . ومضت الايام وهو في داره وحيد كئيب حتى خافت عليه سكيئة عواقب الحزن . ولكنه واصل جولاته الليلية الخفية بهمة لا تعرف الوهن . ومضى عدد المختفين في النمو وأخذ الناس يتساءلون حيارى . واشتدت السخرية بحمي الجرابيع وفتوتهم في بقية الحارة ، وقالوا ان نوبة سوارس في الحرب ستجىء اليوم أو غداً . وقال له عم زكريا ذات يوم محذراً :

— هذه حال تدعو الى أشد القلق ، ونخشى عواقبها .

ولكن لم يكن من الانتظار بد . وكانت أياماً مليئة بالعمل والخطر ، وكانت احسان البسمة الوحيدة في وجهها المتجهم . وكانت تتعلم الوقوف معتمدة على أطراف المقاعد ثم تتطلع اليه بوجهها الصافي وتحذثه بلغة العصافير والبلابل . وكان ينعم النظر في وجهها بخنان ويقول لنفسه : ستكون طفلة جميلة ولكن اهم عندي أن تكون كأما طيبة وحناناً . وسره أن تطالعه بعينيه السوداوين في وجه قر المستدير لتظل رمزاً باقياً للعلاقة المحبوبة التي مزقها الدهر . ونرى هل يمتد به العمر حتى يراها عروساً في الحسان أو كتب عليها ألا تجني من دار مولدها الا ألم الذكريات ؟

ويوماً طرق باب الدار طارق فذهبت سكيئة تتساءل من القادم فجاءها صوت يافع قائلاً :

— افتحي يا سكيئة .

فتحت الباب فرأت فتاة في الثانية عشرة أو تزيد ، ملفوفة على غير المألوف في ملاءة وعلى الوجه حجاب . دهشت سكيئة وسألتها عما تريد ولكنها سارعت الى حجرة قاسم وهي تقول بلهجة :

— مساء الخير يا عمي .

ونزعت النقاب فبدا وجه بدري قحي بديع القسمات ، يقطر خفصة

فقال قاسم متعجباً :
 - اهلاً بك ، اجلسي ، اهلاً وسهلاً .
 قالت وهي تجلس على حافة الكتبة :
 - أنا بدرية ، وارسلني اليك أخي صادق .
 فقال قاسم باهتمام :
 - صادق !
 - نعم .
 ورنا اليها مستطعماً ، ثم قال :
 - ماذا دفعه الى هذه المخاطرة ؟
 فقالت باهتمام زائداً ملاحظة :
 - لا يمكن أن يعرفني أحد في الملاة .
 وادرك ان جسمها اكبر من سنّها فهز رأسه كالمطمئن فأردفت في
 مزيد من الاهتمام :
 - انه يقول لك أن غادر الحارة فوراً ، فان لهيطة وجلطة وحجاج
 وسوارس تأمروا على قتلك الليلة .
 قطب كالمترعج على حين شهقت سكينه ، وسألها :
 - كيف علم بذلك ؟
 - أخبره المعلم يحيى .
 - ولكن كيف عرف يحيى ذلك ؟
 - أفشى سكران السر في حانة كان بها صديق للمعلم يحيى ، هذا
 ما قاله أخي .
 وجعل ينظر اليها صامتاً حتى قامت واخذت تحبك الملاة حول جسدها
 الغض ، فقام بدوره وهو يقول :
 - اشكرك يا بدرية ، تخفّصي جيداً ، وبلغني تحياتي الى اخيك ،
 واذهي بسلام .

فأسدلت النقاب على وجهها وتساءلت :
— ماذا أقول له ؟
— خبريه بأننا سنلتقي قبل الصباح .
فصافحته ثم ذهبت .

٨٣

اصفر وجه سكينه ونطق بعينيها الذعر ، وهتفت قائلة :
— فلنقادر البيت دون إبطاء .
وتوثبت للتحرك فقال لها :
— لقي احسان واخفيها في شملتك واخرجي كأنك ذاهبة لبعض شأنك
ثم اقصدي مدفن المرحومة وانتظري هنالك .
— وأنت يا سيدي !
— سألق بك في الوقت المناسب .
فرددت عيناها بين الحيرة والجزع فقال بنبرة مطمئنة :
— سيذهب بكما حسن الى المكان الذي سنقيم فيه .
وفي ثوان تأهبت للرحيل فلم احسان مرات ، ثم قالت له المرأة وهي
تمضي نحو الباب :
— استودعتك الحي الذي لا يموت .
ووقف وراء الحصص يراقب الطريق فرأى الجارية وهي تسير نحو
الجمالية حتى غيبتها المنعطف . وجعل قلبه يخفق وهو يرنو الى ثنية ذراعها
حول الحمل الثمين . وأجال بصره في الحي فرأى رجالاً من أعوان
الفتوات ، بعضهم يجلس بقهوة دنجل والبعض يتسكع هنا وهناك ، وتكاد
معالمهم تنوب في الظلام الزاحف . الدلائل تقطع بأنهم يتأهبون . ولكن

هل يتربصون به حتى يخرج لجولته الليلية ان كان سرّها انكشف لهم ؟
أو سيطبقون على داره في آخر الليل ؟ انهم ينتشرون منذ الآن على
سبيل الخيطة ان يكون سر مؤامرتهم انكشف . وها هم يدبون في الظلام
كالحشرات تفوح من أنفاسهم رائحة الجريمة ، فهل يلقي مصير جبل أو
مصير رفاعه ؟ هكذا وجد رفاعه نفسه في ليلة من الليالي المظلمة . وتوارى
في داره بقلب مغمم بالنوايا الطيبة وأسفل الدار تدب اقدام غليظة تنضح
جلود اصحابها بشهوة الدم . متى تكفين عن سفك الدماء يا حارتننا
التعيسة ؟ ومضى يتمشى في الحجرة ذهاباً وجيئة حتى طرق الباب وترامى
اليه صوت حسن وهو يناديه . وجاء حسن بجسمه الضخم وعيناه تعكسان
نظرة قلقة ، فقال :

- في الحي حركة غريبة .. مريبة ..

فسأله دون اكتراث للملاحظة :

- هل عاد عمي من تجواله ؟

- كلا ، لكنني اقول انه توجد في حيننا حركة مريبة ، انظر من

شيش الشباك .

- رأيت ما ازعجك وعرفت ما وراءه ، حذّرني صادق في الوقت

لمناسب بارسال اخته الصغيرة اليّ ، واذا صدقت رسالته فالفتوات
سيحاولون قتلي الليلة ، لذلك هربت احسان مع سكينته وهما ينتظرانك
في مدفن المرحومة فاذهب اليهما وسيروا جميعاً الى مقر اخواننا .

- وأنت ؟

- سوف أهرب بدوري والحق بكم

فقال حسن بعزم :

- لن اتركك وحدك .

فقال برجاء لم يخل من استياء :

- افعل ما قلت لك دون تردد ، سأهرب بالحيلة لا بالقوة ، ولن

تنفعني قوتك اذا الجأتنا الظروف الى المقاومة ، ولكن ذهابك سيحمي

ابني ، وبممكنك من ان تضع بعض رجالنا على رؤس الطرق من الجبالية حتى الجبل لعلهم يهبون الى مساعدتي ان احتجت لهم عند الحرب .
اذعن حسن لارادته ، فصافحه بقوة وقال :

— ليس كمثلك شيء ، فلعلك اعددت للأمر عدته .
فأجابه بابتسامة مطمئنة ، وذهب حسن بوجه عابس . ولم يمض طويل وقت حتى جاء عم زكريا وهو يلهمث فأيقن انه عائد من عند المعلم يحيى بالخبر فبادره قائلاً :

-- أرسل الى صادق بالخبر .

فقال الرجل باضطراب ظاهر :

— علمت به منذ قليل لدى مرووي بالمعلم فخشيت الا يكون بلغك .
فأجلسه قاسم وهو يقول كالمعتذر :

— أعف عما أسبب لك من متاعب .

— كنت أتوقع هذا من زمن ، ووجدت من سوارس تغيراً في المعاملة فرحت اكذب نفسي ، ورأيت اليوم الشياطين منتشرين كالجراد ، وأنت وحيد ويتعذر عليك الحرب .

فاشتد عوده في تصميم وهو يقول :

— سأحاول ، واذا فشلت فهناك في الجبل رجال لا يغلبون .

فقال زكريا في ضجر :

— ما قيمة هذا كله بالنسبة لحياتك أو طفلك !

فقال قاسم معاتباً :

— انني اعجب كيف لم تكن على رأس اعواني !

فقال وكأنه لم يسمع قوله :

— تعال معي الى سوارس نسومه ونتعهد له بما يشاء !

فضحك قاسم ضحكة مقتضبة ، سخرت من اقتراح عمه دون كلام ، والتفت زكريا الى الشيش يطالع من خلاله الطريق فبدأ مظهلاً مخيفاً .

وانتبه على صوت قاسم وهو يتساءل :

— لماذا اختاروا الليلة بالذات ؟

فأجاب زكريا :

— أول أمس جهز رجل من جبل بأن قضيتك كانت لخبر الجميع :

وقبل مثل ذلك عن رجل من رفاة ، فلعل ذلك ما دفعهم الى التعجيل .

فتهلل وجه قاسم وقال :

— أرايت يا عمي ؟ أنا عدو الناظر والفتوات ولكني صديق حارثنا ،

وسيعلم الجميع ذلك .

— فكّر الآن بما ينتظرك .

فقال قاسم باهتمام :

— أليك خطي ، سأهرب عبر الأسطح حتى بيتك تاركاً مصباحي

مضياء للتضليل .

— قد يراك أحد .

— لن أشرع في الحرب حتى تخلو الأسطح من السمار .

— وإذا سبقوا بالمهجوم على دارك ؟

— لن يقع هذا حتى تنام الحارة .

— قد يبلغ بهم الاستهتار حداً لا تتصوره .

فقال باسمًا :

— في هذه الحال أموت ، ومنذا يدفع الأجل ؟

فرفع الرجل البه وجهاً ينطق بالرجاء لكنه طالع ابتسامة هادئة ثابتة

كأنها التصميم مجسداً فقال يائساً :

— قد يفتشون داري .

— من حسن الحظ أنهم لا يعلمون بتسرب مؤامراتهم الينا ، ولذلك

سأستبهم الى الحرب ان شاء الله .

وتبادلا نظرة طويلة ، أفصح من الدمع ، ثم تعانقا . ولما وجد نفسه وحيداً تغلب على تأثره واقترب من النافذة يراقب الطريق . بدا الحي في حياته المألوفة . فالصغار يلعبون حول مصابيح العربات ، والقهوة تبعج بالسمار ، والأسطح تضج بأحاديث النساء ؛ وسبعال المدخنين يتخلله الفحش والسباب ، ونواح الرباب ، يرتفع ، وهذا سوارس رابض على عتبة القهوة ، ورسل الموت تحتل الأركان . يا سلالة الحياة ويا لصوص البشر . منذ اطلق ادريس ضحكته الباردة وانتم تتوارثون الجريمة وتفترقون الحارة في بحر من الظلمات . الم يثن للطير الحبيس ان ينطلق ؟ ومضى الوقت وثيداً ثقيلاً ، ولكنه حمل ليل السمار الى غايته . صمتت الأسطح ، وخلا الطريق من العربات والصغار ، وأقبرت المقاهي ، وعلت الى حين أصوات الأشباح العائدة ، ورجع من الجمالية السكارى وهم يهلوسون ، حتى الغرز اطفأت المجامر ، ولم يبق في الظلام الا ندامى الموت . وقال لنفسه : « حان وقت العمل » . وسارع الى السلم فرفاه الى السطح . ومضى الى السور الفاصل بين سطحه والسطح الملاصق فعبه دون عناء وهم بالجري واذا بشبح يعترضه قائلاً : « قف » ، فأدرك ان الأسطح محتلة بالقتلة وان حصاره أحكم . واستدار ليرجع ولكن الآخر وثب نحوه واحاطه بذراعين قويّتين . واستدعى قوته التي ضاعفها الخوف وفاجأه بضربة في بطنه ففك حصار ذراعيه ، وثنى بركلة في بطنه ايضاً فسقط وهو يشق ثم لم يقم ، وجاءت سعة مكتومة من السطح الثالث ، او الرابع جعلته يعدل عن التقدم فتراجع مضطرباً الى سطحه . وقف عند السلم يتصنت فسمع وقع اقدام صاعدة ! وتكتل الصاعدون امام باب شقته . وخبطوا الباب خبطة شديدة فانفتح وهو يكاد يقتلع ، ثم تدافعوا الى الداخل . وهبط مسرعاً دون ان يضيّع ثانية حتى انتهى الى الحوش . وسارع إلى الباب . ولمح خارج الدار شبحاً يتحرك فانقض عليه قابضاً على عنقه ، ثم نطحه برأسه ، وطعن

بطنه بركبته ، ودفعه فاستلقى على ظهره دون حراك . واندفع نحو الجمالية وضربات قلبه تتلاحق . الآن تبين لهم خلو الدار ، ولعل بعضهم يصعد الى السطح ليغثر على صاحبهم الملقى ، ولعل الآخرين يهبطون في اعقابه . مر بربع عمه دون ان يتوقف ، ولما اقترب من نهاية الحارة أطلق ساقيه . وعند اتصال الحارة بالجمالية وثب شبح في طريقه وصاح بصوت كالرعد لينبه الآخرين : « قف يا ابن اللئيمة » . ورفع نبوته قبل ان يحيد قاسم عن طريقه . ولكن شبحاً آخر ظهر من زاوية المنعطف وضرب الشبح الأول بهراوته على رأسه فهوى صارخاً ، ثم قال لقاسم : — فلنجز بكل ما فينا من قوة .

وانطلق قاسم وحسن يجران في الظلام دون مبالاة بما قد يعترضهما من حجر أو نقرة .

٨٤

عند مدخل حارة الوطاويط انضم صادق اليهما . وعند نهايتها وجدوا عجيمة وأبو فصادة وخروش حول عربة كارو ذات اربع عجلات ، فاستقلوها مبادرين وانطلق الجواد بها يلهمسه سوط الخوذي . انطلقت العربة بسرعة رغم الظلام ، محدثة في سكون الليل صوتاً مزعجاً كالفرقة المتواصلة ، وهم يتلفتون الى الوراء من خشية وتوجس . وقال صادق جلياً للطمأنينة :

— سيجرون نحو باب النصر ظناً بأنك تلوذ بالخلاء حول المقابر .

فقال قاسم بارتياح :

— لكنهم يعلمون أنكم لا تقيمون عند المقابر .

غير ان سرعة العربة بدت حاسمة ، وبغضلها غلب شعور بأنهم

يبتعدون حقاً عن الخطر . وعاد قاسم يقول في شيء من الارتياح :
— أحسنتم التنظيم والتدبير ، وشكراً لك يا صادق فلولاً تحذيرك لكننت
الساعة في المالكين .

فشدّ صادق على يده في صمت . وتواصل اندفاع العربة حتى لاح
سوق المقطم على ضوء النجوم ، يلفّه الظلام والوحشة عدا نور مصباح
ينبعث من كوخ المعلم يحيى . وعن حذر اوقفوا العربة وسط الميدان ،
ثم تركوها متجهين نحو الكوخ . وما لبث ان جاءهم صوت المعلم
متسائلاً عن القادمين فأجابه قاسم ، فارتفع صوته مرة أخرى بالحمد .
وتعانق الرجلان عناقاً حاراً ، وقال له قاسم :

— اني مدين لك بالحياة .

فقال المعجوز ضاحكاً :

— انها الصدفة وحدها ! لكنها وقعت لتنفذ رجلاً هو أول من
يستحق الحياة ، أسرعوا الى الجبل ، فالجبل خير حصن لكم .
وشد قاسم على يده ، ونظر على ضوء المصباح إلى وجهه في مودة
وامتنان ، فعاد المعجوز يقول :
— اليوم أنت كرفاعة أو كجبل ، وسوف أعود الى حارتنا عندما
يقيض لك النصر .

ابتعدوا عن الكوخ شرقاً يوغلون في الخلاء نحو الجبل . وتقدمهم
صادق إذ كان أخبرهم بالطريق . وكانت ثمة رقة تمازج الظلام مبشرة
بالفجر . والسماء تقطر ندى رطيباً . وترامى من بعيد صياح الديكة
كصرخة المخاض لمولد يوم جديد . وبلغوا السفح فساروا بحذائه نحو
الجنوب حتى عثروا على الممر الضيق الذي يصعد الى مقامهم الجديد
فوق الجبل . وصعدوا وراء صادق في طابور فرداً فرداً لضيق المشى .
وقال صادق لقاسم :

— اعددنا لك داراً وسط ديارنا ، وفيها الآن تنام احسان .

فقال عجرفة :

— بيوتنا من الصفائح والحيش .

فقال حسن في مرح :

— ليست اسوأ كثيراً من بيوتنا في الحارة !

فقال قاسم :

— حسبنا ألا نجد بيتنا ناظراً أو فتوة .

وهبطت اليهم أصوات فقال صادق :

— حارتنا الجديدة مستقيمة تنتظر .

ورفعوا الرؤوس فرأوا خيوط الضياء الأولى تطارد فلول الظلام .
وصاح صادق بأعلى صوته : « هُوَ » فأطلت رؤوس رجال ونساء ،
وتعالى الهتاف والزغاريد ، وانطلقت الحناجر تشد :

يا عني دبل العصفورة

فاستخف قاسم الابتهاج وقال باكبار :

— ما اكثروهم !

فقال صادق بفخار :

— حارة جديدة فوق الجبل ، سكانها يتزايدون مع الأيام ، وقد

انضم إلينا بارشاد المعلم يحيى جميع المهاجرين من حارتنا .

وقال حمروش :

— لا يتعبنا إلا أننا نسعى إلى إرزاقنا في الأحياء البعيدة خشية أن

يعثر علينا أحد من حارتنا .

ولما صعد قاسم إلى السطح تلقاه الرجال بالعناق ، وصافحته النساء ،

وارتفعت الأصوات بالتحيات والتهليل والتكبير ، وكانت سكينه بين

المستقبلين فأخبرته بأن لإحسان نائمة في الكوخ الذي أعده لهم داراً .

وساروا جميعاً نحو الحارة الجديدة التي أقيمت على هيئة مربع من

الأكواخ فوق مسطح من الجبل ، وهم يهللون وينشدون ، وقد ابتهج

الافق بالنور المتدفق كأنه بحيرة من الورد الأبيض . وهتف رجل :
— أهلاً بفتوتنا قاسم .
فتغير وجه قاسم وصاح مغضباً :
— ألا لعنة الله على الفتوات جميعاً ، فلا سلام ولا أمان حيث
يوجدون .

وتطلعت إليه الوجوه الجديدة فقال :
— سنرفع النبايت كما رفعها جبل ، ولكن في سبيل الرحمة التي
نادى بها رفاعه ، ثم نستغل الوقف لنحير الجميع حتى نحقق حلم أدهم ،
هذه هي مهمتنا لا الفتونة .
ودفعه حسن برفق نحو الكوخ الذي أعد له وهو يقول مخاطباً الجميع :
— مضى الليل دون أن يغمض له جفن فدعوه الآن ليأخذ بعض
حقه من الراحة .

استلقى قاسم على خيشة جنب ابنته وسرعان ما استغرق في النوم .
واستيقظ فيما بين الظهيرة والعصر برأس مثقل وجسد متعب . وجاءته
سكينة باحسان فوضعها في حجره وراح يلثمها في حنان . وقدمت له
المرأة كوز ماء وهي تقول :
— هذا الماء يُحمل النساء من الحنيفة العمومية كما كانت تحمله
:وجه جبل ا

فابتسم الرجل ، وكان يحب كل ما يربطه بذكريات جبل أو
رفاعة . والقي نظرة على داره الجديدة فرأى جدراناً مغطاة بالخيش ولا
شيء بعد ذلك ، فضم احسان الى صدره بخان اكثر . ونهض قائماً
فأعطى سكينة ابنته وغادر الكوخ لينجد صادق وحسن في انتظاره ،
فجلس بينهما وهم يتبادلون تحية الصباح . والقي نظرة على الحارة فلم
تقع عينه الا على امرأة او طفل ، فقال صادق موضعاً :
— ذهب الرجال الى السيدة وزينهم معياً وراء الأرزاق وتحلفنا نحن

- حتى نطمئن عليك .
- وتابعت عيناه النسوة العاملات في الطهي او الغسل امام الاكواخ ،
والاطفال اللاهين هنا وهناك ثم تساءل :
- ترى هل هن راضيات ؟
- فقال صادق :
- انهن يحلمن بامتلاك الوقف والنعيم الذي تنهأ به أمينة هانم
حرم الناظر !
- فابتسم ابتسامة عريضة ثم ردد بصره بينهما في بطاء وتساءل :
- ماذا يدور في رأسيكما عن الخطوة التالية ؟
- فرفع حسن رأسه فوق منكبيه العريضين وقال :
- نحن على يئنة مما نريد .
- ولكن كيف ؟
- ننتهز غفلة ثم نهجم .
- لكن صادق قال معترضاً :
- بل نصبر حتى نضم الينا اكبر عدد من أهل حارتنا ثم نهجم
فنضمن النصر من ناحية وقلة الضحايا من ناحية أخرى .
- فهتف قاسم واسايريه تنبسط :
- أحسنت !
- وشملتهم طمأنينة حاملة ، واذا بصوت يقول في استحياء !
- الطعام !
- فرفع قاسم عينيه فرأى بدرية حاملة اناء فول وارغفة وهي ترنو اليه
بعينين باسنتين لما ملك ان ابتسم قائلاً :
- أهلاً برسول الحياة إلي .
- فوضعت الاناء بين يديه وهي تقول :
- أطل الله عمرك .

وذهبت الى كوخ صادق فيها يلي كونه . وداخلت نفسه رقة ورضى
فتناول طعامه بشهية . وفي اثناء ذلك قال :
— لدي قدر من المال لا بأس به سينفعنا عند الحاجة .

ثم مردفاً بعد قليل :
— علينا ان نصطاد كل من نأمن فيه استعداداً الى مشاركتنا من
أهل حارتنا ، وما اكثر المظلومين الذين يتمنون لنا النصر ولا يقعدهم
إلا الخوف .

وما لبث ان ذهب الرجلان الى حيث سبقهم الآخرون فوجد نفسه
وحده . وقام فضى يتجول في المكان كأنما يتفقده . مر بأطفال لاعبين
فلم يلتفت اليه أحد منهم . أما النساء فكان يحينه بالدعاء . واستوقفت
نظره عجوز بالغة في الكبر ، ذات رأس مكلل بالبياض الناصع ، وعينين
تغشاهما سحابة الهرم ، وذقن متقلقل كأنها تزدد لحبيها ، فاقرب

منها محيياً فردت التحية بالدعاء فسألها :

— من أمي ؟

فأجابت بصوت كخشخشة الأوراق الجافة :

— أم حموش .

— أهلاً بأمنا جميعاً ، كيف هانا عليك ان تهجري حارتنا ؟

— أطيب المكان ما يوجد فيه ابني .

ثم كالمستدركة :

— والبعده عن الفتوات غثيمة .

ثم تشجعت بابتسامته فقالت :

— رأيت رفاة وأنا شابة !

فسألها باهتمام :

— حقاً ؟

— نعم وحياتك ، كان لطيفاً جميلاً ، ولكن لم يجر لي في خاطر

انه سيكون عنوان حي وحكاية من حكايات الرباب .

فسألها باهتمام متزايد :

... الم تقصديه كالأخرين ؟

— كلا ، لم يكن يدري بنا في حيننا أحد ، ولا كنا ندري بأنفسنا ،
ولولاك ما جرى ذكر للجرايع على لسان .

وتفحصها بغرابة . وتساءل ترى كيف يكون جدنا اليوم ! لكنه
ظل يبتسم لها بركة فدعت له طويلاً حتى ذهب . وواصل المشي حتى
وقف عند رأس الممشى على حافة الجبل . التي نظرة على الخلاء أسفل
ثم مد البصر نحو الأفق . تراءت على البعد القباب والاسطح كأنها ملامح
متباعدة في كائن واحد . وقال إنه ما ينبغي ان تكون إلا شيئاً واحداً .
وهذا الشيء ما أصغره من عل . فلا معنى للنظر رفعت ولا للفتوة
لهيطة . ولا فرق هنا بين رفعت وعمه زكريا . ومن العسير ان تهدي
من موقفك الى الحارة المثيرة المتاعب . لولا بيت الواقف الذي يبدو انه
يميز من أي موقع . بيت جدنا بسوره العجيب وأشجاره العالية . لكنه
طعن في السن وخفت خشيته كهذه الشمس المائلة نحو الأفق . أين أنت
وكيف أنت ولم تبدو وكأنك لم تعد أنت . المزيغون لوصيتك على بعد
أذرع من منزلك . وهؤلاء النسوة والصغار المبعدون في الجبل أليسوا أقرب
الناس الى قلبك ؟ ستعود الى مكانتك عندما تنفذ شروط وقفتك دون
اغتيال ناظر او اعتداء فتوة . كعودة الشمس غسداً الى كبد السماء .
ولولاك ما كان لنا أب او حارة او وقف او أمل .

وأيقظه من تهويمته صوت عذب يقول :

— القهوة يا معلم قاسم .

التفت وراءه فرأى بدرية باسطة راحتها بالفنجال فتناولته قائلاً :

— لم التعب ؟

— تعبك راحة يا سيدي .

وترحّم على قر . وراح يحمو القهوة في رفق . وبين المدسوة والحسوة
تلتقي عيناهما في ابتسامة . ما ألد القهوة عند طرف الجبل فوق الحلاء .

— ما عمرك يا بدرية ؟

فثنت شفيتها داخل فيها ثم غمغت :

— لا أدري .

— لكنك تدرين بما جاء بنا الى الجبل ؟

فترددت في استحياء ثم قالت :

— أنت !

— أنا ؟ !

— تريد ان تضرب الناظر والفتوات وتجعل الوقف لنا ، هذا ما

يقول أبي .

فابتسم . وانبه الى انه أنى على ما في الفئجال لكنه سها عن رده ،

فرده اليها ، هو يقول :

— ليت عندي من الشكر بعض ما تستحقين .

فاستدارت باسمه موردة وجرت ، فتمتم قائلاً :

— تصحبك السلامة .

٨٥

وكان وقت الأصيل هو وقت التحطيط فينبري الرجال لممارسة التمرينات
الشاقة بالنبايت . ويبدأ ذلك عقب عودتهم بنقود قليلة وطعام بسيط بعد
يوم شاق كادح ينقضي سعياً وراء الرزق ، هكذا يعودون نساء ورجالاً .
وكان قاسم أول المتبارين . وكّم سره ان يرى حماسة رجاله وتوثبهم
لليوم العصيب . أشداء بين الرجال ولكنهم يكتنون له من الحب ما لم

تعرفه حارتهم الممزقة بالبغضاء . وترتفع التبايت وتهاوى وتتلاقى في
ارتطامات شديدة ، ويتفرج الغلمان ويقلدون ، على حين تتخذ النساء الى
الراحة او يعددن العشاء . وصف الأكواخ بـ"متدطولا" بما ينضم الى الحارة
الجديدة من رجال جدد . وأثبت صادق وحسن وأبو فصادة انهم صيادون
مهرة . كانوا يرصدون رجالاً من الحارة في مظانهم وما يزالون بهم
حتى يقنعوهم بالانضمام اليهم فيهجروا الحارة خفية وراء آمال لم تشتعل
من قبل في صدورهم . وكان صادق يقول لقاسم :
- لا اضمن مع هذا النشاط الا يهتدي اعداؤنا الى مقرنا .

فيقول له :

- لا سبيل لنا الا خلال المر الضيق ، وسيكون الهلاك نصيبهم
اذا جاءوا منه .

وكانت احسان هي سعادته الباقية ، حين يلاعبها وحين يهددها
وحين يناغيها ، لكنها لم تكن كذلك حين تذكره بالراحلة فتطبق عليه
الوحشة وتلفحه أنفاس الحنين . تلك التي خطفت من بين يديه في أول
الطريق ، فركته فريسة للوحشة كلما خلا الى نفسه ، وأحياناً للندم كما
حدث عند حافة الجبل ، عند حافة الجبل يوم القهوة ، أو يوم النظرة
الرقيقة كنسمة العصارى . وذات ليلة حزن النوم أمام عينيه فوقع صيداً
معذباً للوحشة والأرق في ظلمة الكوخ ، فقام من فراشه وانطلق خارجاً .
ومضى في الساحة بين الاكواخ تحت النجوم الساهرة يستقبل هواء منعشاً ،
هواء الصيف عند منتصف الليل فوق الجبل . وإذا بصوت يناديه ثم
تساءل صاحبه :

- الى أين أنت ذاهب في هذه الساعة من الليل ؟

فالتفت وراءه فرأى صادق وهو يقترب منه ، فسأله :

- ألم تنم بعد ؟

- لمحتك وأنا راقد امام الكوخ ، وأنت أطيب عندي من النوم .

- وسارا جنباً الى جنب حتى حافة الجبل ، فوقفا هنالك وقاسم يقول :
- الوحدة أحياناً لا نطاق .
- فقال صادق ضاحكاً :
- تباً لها في جميع الاحيان .
- ومدا البصر نحو الأفق فبدت الدنيا سماء متلاثة فوق أرض غارقة في الظلام . وعاد صادق يقول :
- اكثّر رجالك أزواج أو ذوو أهل فهم لا يعرفون الوحشة .
- فتساءل قاسم كالمستنكر :
- ماذا تعني ؟
- مثلك لا يستغني عن امرأة .
- واشتد الاحتجاج في صوته بقدر ما استشرع في قول الرجل من صدق ، فتساءل :
- أتزوج بعد قر ؟
- فقال الرجل بإيمان :
- لو استطاعت ان تسمعك صوتها لأعادت على مسمعك رأيي .
- واضطرب قاسم وجاش بالانفعال صدره ، وقال وكأنه يخاطب نفسه :
- كأنها الخيانة بعد الحب والرعاية .
- ما أغنى الأموات عن اخلاصنا !
- ماذا يعني الرجل الطيب ؟ يقرر الصدق أم يبرر الهوى ؟ ولكن للحقيقة طعماً مرّاً في بعض الأحوال . وأنت نفسك لا تواجه نفسك بالصراحة التي واجهت بها الأوضاع في حارتك . والذي سوى هذه الأمور في عالمك هو الذي سوى هذه النجوم في السماء . والحق الذي لا مرية فيه أنّ قلبك يخفق كما خفق أول مرة . وتنهد بصوت مسموع فقال صادق :
- أنت أول من يحتاج إلى أنيس .

ولما رجع إلى كوخه لمح سكينه واقفة عند الباب فتطلعت إليه كالمسائلة وهي تقول بقلق :

— لمحتك خارجاً حين كنت أظنك في عز النوم ؟ !

فقال دون تمهيد لشدة ضغط أفكاره على رأسه :

— أنظري الى صادق كيف يحضني على الزواج !

فقالت سكينه كأنما تتلقف فرصة من السماء :

— وددت ان أسبقه !

— أنت ! ؟

— نعم يا سيدي ، شد ما يحز في قلبي ان أراك جالساً وحده مستسلماً للوحشة والفكر .

فأشار بيده الى الأكواخ النائمة وقال :

— جميع هؤلاء معي .

— نعم ولكن لا أحسد لك في دارك وأنا عجوز ، رجل فوق

الأرض ورجل في القبر .

وشعر بأن تلبسته دليل تقبل لما تريد ، ولكنه مع ذلك لم يدخل الى

كوخه وقال في نبرة رثاء :

— لن أجد زوجة مثلها !

— هذا حق ، ولكن توجد بنات يبشرون بالسعد !

وتبادلا نظرة خلال الظلام ، أردفت بهنيهة صمت ، ثم تمتمت الجارية :

— بدرية ! ما الطفها من فتاة .

فقال بدهشة تعدل خفقة قلبه :

— البنت الصغيرة !

فقالت وهي تداري ابتسامة مأكرة :

— ما أنضجها وهي تقدم الطعام او القهوة !

فتحول عنها وهو يقول :

— يا شيطانة ! لعنة الله على سلالتك !
١. وكان للخبر رنة فرح في خارة الجبل جميعاً . كاد صادق ان
يرقص . وزغردت أمه حتى أستمعت الحلاء . وانهالت الزهاني على قاسم .
واحتملت الحارة بالزفاف دون استدعاء لأحد من المحترفين ، فرقصت
نساء من بينهن أم بدرية . وغنى أبو فصاده بصوت مليح :
أنا كنت صياد سمك وصيد السمك غيلة
وسارت الزفة حول الاكواخ مستضيئة بأنوار السماوات . وانتقلت
سكينة باحسان الى كوخ حسن على حين خلا كوخ قاسم للعروسين .

٨٦

لذ له حتماً ان يراقب — من مجلسه على الفروة امام الكوخ — بدرية
وهي تعجن . هي صغيرة بلا جدال ولكن أي امرأة تفوقها في النشاط
وتدبير الشئون ! وتمطت من جهد ، وبظهر راحتها رفعت ما تهدل من
شعرها فوق الجبين ، فبدت فاتنة غازية لسويداء القلب . ونم تورده
وجهها على احساسها بمتابعة عينيه حتى توقفت في دلال ، فضحك بسرور
ومال نحوها فتناول صغيرتها وقبلها مارة ثم عاد الى جلسته . وكان
سعيداً بخالي البال كشأنه في الأوقات التي يعتزل فيها أصدقاءه وأفكاره ،
وعلى بعد يسير مضت احسان تنقل من موضع الى موضع على مرمى
النظر من سكينة الرابضة فوق حجر . وتعالى ضجة عند رأس المعمر .
رأى صادق وحسن وبعض الأصدقاء قادمين نحوه حول رجل عرف فيه
خردة الزبال من حي رفاعه فوقف من فوره لاستقبالهم على حين زغردت
نساء كما يفعلن كلما أنضم الى الجبل رجل جديد من أهمل الحارة .
وعانقه والرجل يقول :

- اني معكم ، وجئت معي بنبوت !
 فقال له هاشا هاشا :
 - أهلاً بك يا خردة ، نحن لا نفرق بين حي وحي ، فالحسرة
 حارتنا ، والوقف للجميع .
 فضحك الرفاعي قائلاً :
 - يتساءلون عن مكانكم ويتوقعون من ناحيتكم شراً ، ولكن قلوباً
 كثيرة تتمنى لك النصر .
 وألقى نظرة على ما حوله فشملت الأكواخ والناس ثم قال باعجاب :
 - كل هؤلاء معك !
 وقال صادق :
 - جاء خردة بنحبر هام .
 فحلجه قاسم بنظرة متسائلة فقال خردة :
 - اليوم يتزوج سوارس للمرة الخامسة . وستسير زفته هذه الليلة .
 فقال حسن بحماس :
 - هذه فرصة لا تتكرر للقضاء عليه .
 وتحمس الرجال . وقال صادق :
 - سنهجم يوماً على الحارة ، فكلما تخلصنا من فتوة جاء المهجوم
 أبسر عناء وأضمن نتيجة .
 وتفكر قاسم ملياً ثم قال :
 - سنهاجم الزفة كما يفعل الفتوات ولكن اذكروا دائماً أننا نهاجم
 للقضاء على الفتوة .
 وقبل منتصف الليل تجمع الرجال عند حافة الجبل ، ثم مضوا يهبطون
 رجلاً رجلاً وراء قاسم وأيديهم قابضة على نبايتهم . كانت السماء صافية ،
 والبرد يحتمل منها الكبد ، ونوره يضفي على الدنيا وشى الأحلام .
 وانتهوا الى الخلاء فاتجهوا ناحية الشمال من وراء سوق المقطم ثم ساروا
 مخدء الجبل حتى لا يضلوا الطريق . ولما اقتربوا من صخرة هند

أقبل نحوهم شبح رجل كان يتجسس لهم الأخبار فقال لقاسم :

— ستسير الزفة نحو باب النصر .

وتعجب قاسم قائلاً :

— لكن زفاتنا تسير عادة نحو الجمالية .

فقال خردة :

— لعلهم يتعدون عن الأماكن التي يظنون مقامكم قريباً منها !

وفكر قاسم بسرعة ثم قال :

— سيذهب صادق وبعض الرجال الى ما وراء بوابة الفسوح ،

ويمضي عجرة وآخرون الى خلاء باب النصر ، وسأنتظر أنا وحسن وبقيّة

الرجال وراء باب النصر ، وعندما ادعوكم الى الهجوم اجمعوا .

وبدأ الرجال يتقسمون جماعات ، وقبل أن يهجموا بالرحيل قال :

— ركزوا الضرب على سوارس وأعوانه ، أما الآخرون فسيكونون

اخوانكم غداً .

ومضت كل جماعة في طريقها وأوغل هو وحسن ومن معها شمالاً

بجذاء الجبل ، ثم عدلوا الى اليسار في طريق القرافة حتى كمنوا وراء

البوابة . وكان رجاله يحاصرون الطريق ، فصادق يترصد يميناً ، وعجرة

يتوثب يساراً ، وهو يكمن وراء البوابة . وقال حسن :

— ستجتمع الزفة في قهوة الفلكي .

فقال قاسم :

— عاينا أن نهجمها قبل الوصول الى القهوة كيلا نمتدي على قوم

لا شأن لنا بهم .

وليثوا في الظلام ينتظرون وقد توترت منهم الأعصاب . وبغته قال

حسن :

— شد ما أذكر مقتل شعبان .

فقال قاسم :

— للفتوات ضحايا لا يحصيه العدد .
وأرسل صادق صغيراً وتبعه عجربة فاشتدت عزيمتهم وقال حسن :
— إذا هلك سوارس تسارع أهل حينا إلينا .
— وإذا جاء الآخرون للقضاء علينا أهلكناهم في الممر .
هذه الاحلام مثل ضوء القمر . وما هي الا ساعة حتى يتقرر النصر
لهم أو تنبخر الآمال مع أرواحهم المهذرة . وخيل له أنه يرى شبح
قنديل ، وانه يسمع نبرة قر ، وكان دهرأ مضى مذ كان يرعى الغنم .
وشدت قبضته على نبوته وقال لنفسه لا يمكن ان ننهزم . وسمع حسن
وهو يسأله :
— ألا تسمع ؟

وأرهف السمع قليلاً حتى التقط أصداً من انغام فقال :
— استعدوا ، الزفة قادمة .
وأخذت الاصوات تقترب ، وتنضح ، ثم ترامى الزمر والطبل ،
وتعالت الآهات ، وأطبق التهليل . ثم على ضوء المشاعل بدت الزفة وهي
تتقدم ، وتراءى سوارس للعين وسط هالة من الراقصين اللاعبين بالنباييت .
وتساءل حسن :
— أصفر لعجربة ؟
فقال قاسم بثبات :

— عندما تصل طليعة الزفة الى وكالة الثوم .
واستمر تقدم الزفة ، واشتد الرقص واللعب . وأخذ راقص بنشوة
الرقص فجعل يثب في الهواء ثم يدور أمام الزفة في سرعة رشيقة راسماً
دائرة متموجة ، والنبوت يدور مرتكزاً على راحته المرفوعة فوق رأسه
كالمروحة ، ومضى يتقدم خطوة عقب كل دورة حتى جاوز وكالة الثوم
والزفة من ورائه تتقدم في بطء شديد حتى بلغ رأسها الوكالة . عند
ذاك صفر حسن ثلاثاً . فهبط عجربة ورجاله من عطفة الطمّاعين وانقضوا

على مؤخرة الزفة تسبقهم نبايتهم فاجتاح الاضطراب صفوفها وارتفع صراخ الغضب والخوف . وصفر حسن ثلاثاً مرة اخرى فاندفع صادق ورجاله من السماكين على وسط الزفة من الناحية الأخرى قبل ان تنفيق من الهجمة الأولى . وفي الحال هجم قاسم ورجاله من تحت البوابة على مقدمة الزفة هجمة رجل واحد . استرد سوارس ورجاله أنفسهم من شرك المفاجأة فرفعوا النبايت واشتبكوا في معركة مريرة . وتطاير كثيرون من المسلمين فلاذوا بالجواري والأزقة . واشتد ارتطام النبايت . وسالت الدماء من الأوجه والرءوس . وتحطمت كلويات وتناثر الورد فطحنته الاقدام . وانطلق الصوت من النوافذ وأغلقت المقاهي أبوابها . وضرب سوارس بقسوة ، وبخفة ، فانطلق نبوته كالمجنون ، مرة في هذه الناحية ومرة في تلك . واشتد الضرب وتكاثف الحقد كقطع الليل . ووجد سوارس نفسه بغثة امام صادق فصرخ :

— يا ابن النجسة !

ووجه اليه ضربة فتلاقت مع ضربة وجهها صادق الذي ارتجج وترنح . ورفع سوارس نبوته وهوى به مرة اخرى عليه فتلقاه بنبوته المرتكز على قبضته ، غير انه سقط على ركبتيه من شدة الصدمة . وهم بتوجيه الضربة الثالثة والقاضية لكنه لمح حسن منقضاً عليه كالوحش لانقاذ صاحبه فتحول نحوه وهو يطفح بالغضب صائحاً :

— وأنت أيضاً يا ابن زكريا ! يا ابن الزانية

وأطلق نحوه ضربة هائلة ، لو لم يتفاد منها بوثة جانبية لهلك ، ثم طعن سوارس في أثناء وثبته برأس نبوته فأصاب عنقه . عطلت الطعنة سوارس لحظات عن تسديد الضربة التالية ، فسيطر حسن على توازنه ووجه ضربة شديدة بقبوته الحارقة فأصابته جبهة سوارس ، وفجرت نافورة من الدم ، وسرعان ما تراخت قبضته عن نبوته فهوى ، وتراجع خطوات مترنحة ، ثم سقط على ظهره دون حراك ، وعلا على أصوات

النبأيت المتلاطمة صياح رجل :

— سوارس قتل !

فأدركه عجرة بضربة نبوت فوق أنفه فصرخ ، وتراجع فعثر بطريح فسقط . وقويت عزيمة رجال قاسم فاشتدت ضرباتهم ، وتخاذل رجال سوارس ، وهالتهم كثرة الساقطين من رجالهم فتقهقروا ، ثم أسلموا أرجلهم للفرار . وأخذ رجال قاسم في التجميع حوله وهم يلهثون ، البعض تسيل دماؤهم ، والبعض يحملون جرحاهم . ونظروا صوب الأرض على ضوء الفوانيس الصادر من شراعات أبواب المقاهي أجساداً مطروحة ، منها ما لقي حتفه ومنها ما راح في غيبوبة . ووقف حروش فوق ظل سوارس وهتف :

— ليطمئن جثمانك يا شعبان !

فجذبه قاسم الى جانبه وقال :

— يوم النصر قريب ، يوم يلقي بقية الفتوات نفس المصير ، يوم تصبح سادة حارتنا وأصحاب وقفنا وأخفاداً بررة لجدنا .

وعند عودتهم الى الجبل استقبلتهم النساء بالزغاريد ، وجرت مع الهواء أنباء النصر . وآوى قاسم الى كوخه وبدرية تقول له :

— عليك غبار كثير ودم ، يجب ان تستحم قبل النوم .

ولما استلقى عقب الاستحمام تأوه من الألم . وأتت له بطعام وانتظرت أن يجلس ليتناولها ، ولكن استولت عليه حال بين اليقظة والمنام . شعر بارتياح كأنه السعادة ولكن شابه احساس قلق كأنه الحزن ، وقالت بدرية :

— تناول طعامك .

فنظر اليها بعينين مثقلتين حالمتين وقال :

— شهيدين النصر قريباً يا قمر .

وابته انى حقوة اللسان اثر وقوعها ، ورأى تغير وجه بدرية ، فجلس

في فراشه الأرضي وقال في توادد وارثباك :
 - ما أشهى طعامك .
 لكنها نفرت من توادده متجهمة فتناول قطعة من الطعمية قائلاً :
 - جاء دوري لأدعوك للطعام !
 فلوت عنه وجهها وتمتمت :
 - كانت طاعة في السن ولا جبال لها !
 فتقوضت قامته المنتصبه في كآبة كأنه تهمدم وقال في عتاب وحزن
 شديدتين :
 - لا تذكرها بسوء ، فثلها لا ينبغي ان يذكر الا بالرحمة .
 فارتد اليه رأسها متوثباً لكنها رأت على صفحة وجهه حزناً خفيفاً
 فرددت ، ثم لاذت بالصمت .

٨٧

رجع المغلوبون يركبهم الخزي . ابتعدوا ما استطاعوا عن الانوار
 المنبعثة من بيت سوارس حيث يتألق الجوبهجة الفرح والطرب ، وانحجز
 كل رجل في ربهه . وإذا بالانباء السود تنتشر كالخريق ، فتعالى الصوات
 في مساكن كثيرة وانطفأ العرس كأنما أهيل عليه التراب . انطلقت
 الحناجر تنحي سوارس ، ثم تنحي من قتل معه من رجاله . وامتد المصاب
 فشمّل رجالاً من الرفاعية وآخرين من جبل ممن اشتركوا في الزففة .
 ومن المجرم المعتدي ؟ قاسم ، قاسم الغنام ، قاسم الذي كان ينبغي ان
 يظل متسولاً مدى عمره لولا قر ! وشهد رجل بأنه تبع عصاة قاسم
 في عودتها حتى امتدى الى ملجأها فوق المقطم . وتساءل كثيرون هل
 بعصم بالجبل حتى يقضي على رجال الحارة ؟ واستيقظ النائمون وخرجوا

إلى الحارة والأربع تتجارب بالصوات . وصرخ أحد رجال جبل في غضب :

— اقتلوا الجرايع .

لكن جلطة أوقفه صائحاً :

لا ذنب لهم ، قتل فتوتهم ، وعدد وافر من رجالهم

— احرقوا المقطم !

— هاتوا جثة قاسم لتأكلها الكلاب .

— علي الطلاق لأشربن من دمه ..

— الجربوع اللئيم الجبان .

— يحسب ان الجبل سيحميه !

— لن يحميه الا الفبر .

— كان يأخذ المليم من يدي ويوس التراب .

— ويظهر بيننا بمظهر اللطيف الودود ثم يغدر بنا فيقتل الرجال .

وفي اليوم التالي بدت الحارة في مأتم شامل . وفي اليوم الثاني اجتمع الفتوات في بيت الناظر رفعت الذي ركب الغضب والحنق حتى قال لهم في تهكم مر :

— لنحبس أنفسنا في حارتنا كي نأمن الموت .

وكان لهيطة أشدهم حرجاً لكنه أراد ان يهون من الخطب تخففاً من مسؤوليته فقال :

— ما هي الا معركة بين فتوة وبعض رجال حيّه !

فقال جلطة معترضاً :

— قتل من حيننا رجل وجرح ثلاثة .

وقال حجاج :

— وقتل منا رجل .

فقال رفعت بمكر مخاطباً لهيطة :

— اللطمة لاصمة بسمعتك يا فتوة الحارة !

فامتقع وجه الرجل غضباً وقال :

— راعي غنم ! والله لقد هزلت !

ولم يخف الناظر قلقه فقال :

— راعي غنم ! فليكن ، لكنه أصبح ذا خطر ، استخفنا بهديانه
زمناً وأغتمضنا عنه العين اكراماً لزوجته فاستفحل شره ، وقد تمسكن
حتى تمكن فقضى على فتوته وأعوانه ، وهو الآن معتصم بالجبل ولن
تقف أطاعه عند حد .

وتبادلوا النظرات في غضب فواصل الناظر حديثه قائلاً :

— وهو يلوح للناس باغراء . هذه هي مصيبة حارتنا ، لا ينبغي ان
نتجاهل ذلك ، انه يعد الناس بالوقف ، ومع ان الوقف لا يكفي أصحابه
الا ان احداً لا يصدق ذلك ، المتسولون لا يصدقون ذلك وما أكثرهم ،
حارتنا حارة المتسولين ! وهو يعد بالقضاء على الفتونة فيطرب لذلك
الجبنة وما أكثرهم ، حارتنا حارة الجبنة ، وسيجدون اهلها دائماً مع
الغالب ، ففي القعود هلاكنا .

فهتف لهيطة :

— حوله مجموعة من الفئران وما أيسر ابادتهم .

فتساءل حجاج :

— لكنهم يمتصمون بالجبل ؟ !

فقال جلاطة :

— نراقب الجبل حتى نجد اليهم منفذاً .

فقال رفعت بتحريض :

— اعملوا ففي القعود كما قلت هلاكنا .

واشتد الغضب بلهيطة فقال للناظر بلهجة ذات مغزى :

— أتذكر يا سيدي انني دبرت قتله في حياة زوجته فعارضت الهام

فحول الناظر عينيه عن الأعين المحدثمة وقال في شبه اعتذار :

- لن يجدينا تذكر الأخطاء .
 ثم مردفاً بعد هنيهة صمت :
 - وهذه العلاقات تراعى في حارتنا منذ القدم !
 وتعالى ضججة في الخارج غير مألوفة كأنما تنذر بشر مستجد ،
 وكانت الأعصاب متوترة فنادى الناظر البواب وسأله عما هنالك فقال الرجل :
 - يقولون إن الغنام انضم الى قاسم سائفاً معه جميع أغنام الحارة !
 فوقف لهيطة ثائراً وهو يصيح :
 - الكلب .. حارة كلاب ، الويل له !
 وتساءل الناظر :
 - من أي حي هذا الغنام ؟
 فقال البواب :
 - من حي الجرابيع ، ويدعى زقلة .

٨٨

- أهلاً بك يا زقلة .
 وعانقه قاسم فقال الغنام بحماس :
 - لم أكن ضدك قط ، وكان قلبي معك دائماً ، ولولا الخيوف
 لكنت بين أوائل المنضمين اليك ، وما ان سمعت بمقتل موارس أججمه
 الله حتى سارعت اليك سائفاً أمامي أغنام أعدائك !
 وألقى قاسم نظرة على مجمع الأغنام في الساحة بين الأكواخ حيث
 التفت حولها النساء وارتفع ضوضاء الحبور ، ثم ضحك قائلاً :
 - هي حلال لنا لقاء ما نهبوا من أموالنا في الحارة .
 وفي أثناء النهار انضم الى قاسم أفراد من الحارة بكثرة لم تعهد من

قبل فاشتدت العزائم ورسخت الآمال . لكن قاسم استيقظ في الصباح الباكر لليوم التالي على ضجة غريبة فغادر كوخه من فوره فرأى رجاله قادمين نحو كوخه في عجلة واضطراب ، وقال له صادق :

— جاءت الحارة للانتقام وهم مجتمعون أسفل المر .

وقال خرقة :

— كنت أول ذاهب للعمل فرأيتهم وأنا على مبعدة خطوات من الحلاء فرجعت مسرعاً ، وطاردني بعضهم فأصابوني بحجر في ظهري ، وجعلت انادي صادق وحسن حتى جاء جماعة من اخواننا الى رأس المر فانتبهوا الى الخطر ورموا المهاجمين بالأحجار حتى تراجعوا .

ونظر قاسم نحو رأس المر فرأى حسن وبعض الرجال واقفين عنده بأيدي قاذبة على الأحجار فقال :

— نستطيع ان نصدهم هناك بعشرة رجال .

فقال حمروش :

— ان الصعود على هذه الحال انتحار فليصعدوا اذا شاءوا .

وتجمع الرجال والنساء حول قاسم حتى خلت الأكواخ . جاء الرجال بالنبايت والنساء بمقاطف طوب أعدت لذلك اليوم . وانطلق أول شعاع للشمس من سماء صافية . وتساءل قاسم :

— أما من مسلك آخر الى المدينة ؟

فقال صادق واجباً :

— يوجد مسلك في الجنوب على مسيرة ساعتين في الجبل .

وقال عجربة :

— لا أظن ان لدينا من الماء ما يكفينا اكثر من يومين .

فسرت فيهم هممة قلق وبخاسة النساء فقال قاسم :

— لقد جاءوا للانتقام لا للحصار ، واذا حاصرونا عمدنا الى المسلك الآخر لفك الحصار .

ومضى الرجل يفكر وهو يحافظ على هدوء وجهه الذي تتطلع اليه
الأبصار . لو حاصروهم لوجدوا اكبر المشقة في احضار المياه من المسلك
الجنوبي . ولو هجم برجاله عليهم فهل يضمن الانتصار على رجال
فيهم لحيطة وجلطة وحجاج ؟ وأي مصير يجنبه مغيب هذا اليوم لهم ؟
ورجع الى كوخه ثم عاد قابضاً على نبوته ثم سار الى حسن ورجاله عند
رأس المر ، فقال له حسن :

— لا يجرؤ أحد منهم على الاقتراب .

ودنا قاسم من حافة الجبل فرأى اعداءه متجمعين على هيئة هلال
في الخلاء بعيداً عن مرمى الحجر . هاله عددهم لكنه لم يستطع ان يميز
الفئات بينهم . ومد بصره خلال الفضاء حتى استقر على البيت الكبير ،
بيت الجبلاني ، الغارق في صمته كأنه لا يبالي بصراع الأبناء من أجله .
ما أحوجهم الى قوته الخارقة التي دانت لها هذه البقاع في الزمن الحالي .
ولعل القلق لم يكن ليساوره لولا ذكرى مصرع رفاة على كذب من
بيت جده . ووجد دافعاً من أعماقه يدعوه الى ان يصيح بأعلى صوته
قائلاً : « يا جبلاني » كما يفعل أهل حارته في أحوال شتى ، لكن
لفت سمعه أصوات النساء المقترية فاستدار ناظراً حوله فرأى الرجال
منتشرين على حافة الجبل ينظرون الى اعدائهم ، والنساء متجهات الى
المواقع نفسها فصاح بهن ان يرجعن ، وشدد في الصياح لدى تردددهن ،
وأمرهن بأن يعددن الطعام وان يزاوئن مألوف الأعمال ، وما زال بهن
حتى صمدن بأمره . فاقترب منه صادق قائلاً :

— أحسنت ، فان أخوف ما أخاف علينا تأثير اسم لحيطة .

فقال حسن :

— ليس امامنا الا ان نضرب !

ولوح بنبوته مردفاً :

— سيتعذر علينا التجوال سعيّاً وراء ارزاقنا بعد ان عرفوا مكمننا ،

- فليس أمامنا إلا ان نهجم .
- فأدار قاسم رأسه ماداً البصر نحو البيت الكبير وقال :
- بالصواب نطق ، ما قولك يا صادق ؟
- ننتظر حتى يجيء الليل .
- فقال حسن :
- سيضرب بنا الانتظار ، ولن ينفعا الليل في عراك .
- وتساءل قاسم :
- ترى ما هي خطتهم ؟
- فقال صادق :
- ان يجبرونا على النزول اليهم .
- وتفكر قاسم ملياً ثم قال :
- اذا قتل لهيطة ضمت النصر .
- وردد عينيه بين الرجلين ثم أردف :
- اذا سقط تقاتل جلطة وحجاج على الفتوة .
- ومضت الشمس في الارتفاع فتوهج الحصا وانتشرت نذر الحر .
- وتساءل حسن :
- خيّراني ما العمل ؟
- فبدا تسأله كالحصار ولكن لم يطل بأحد التردد ، فقد انطلق صراخ امرأة من ناحية الساحة ، وتلته على الفور صرخات ، وتميز الصوت وهو يصيح :
- هوجمنا من الناحية الأخرى !
- وارتد الرجال عن الخافة فانطلقوا نحو الساحة فيما يسلي الجنوب .
- أوصى قاسم المدافعين عن الممر بمزيد من الانتباه . أمر خردة ان يدعوا النساء القادرات الى الانضمام الى المدافعين عن الممر . جرى بين صادق وحسن نحو الساحة حتى توسط رجاله . لاح للجميع لهيطة وهو يقود

عصابة كبيرة من الرجال قادمين من جنوب الجبل . قال قاسم بحق :
- شغلنا برجاله حتى يقوم برحلته حول الجبل ثم يجيئنا من مسلك
الجنوب .

فصاح حسن وجسمه العليل ينتفخ بالتوئب :

- جاء بقدميه الى موته !

فقال قاسم :

- يجب ان نتصر وسنتصر .

وامتد رجاله من حوله كذراعين قويتين . ومضى القادمون يقربون ،
بنابيت مرفوعة ، كأنهم دغل من الأشواك . ودخلوا في مجال الأبصار
فقال صادق :

- ليس فيهم جلطة ولا حجاج !

وأدرك قاسم ان جلطة وحجاج على رأس المحاصرين أسفل الجبل ،
وحدس انها سيهاجان المرهما كلفهم ذلك من مشقة ، لكنه لم يفض
بوساوسه الى أحد . وتقدم خطوات وهو يلوح بنبوته فشد الرجال على
نبايتهم . وجاء الصوت الغليظ ، صوت لهيطة وهو يصيح :

- لن تدفنوا في قبر يا أولاد الزواني .

واندفع قاسم مهاجماً فاندفع حوله الرجال ، وأقبل الآخرون كالصخور
المنقذفة حتى اصطكت النبايت واختلطت الزعجرة وارتفع الزئير . وفي
ذات الوقت انهار الطوب من المدافع عن رأس المر على هجوم من
أسفل الجبل بدأ . لكن كل رجل من رجال قاسم مع آخر من العدو
اشتبك . تضارب قاسم ودنجل بعنف ومكر . وهوى نبوت لهيطة على
ترقوة حموش فانكسر . والتحم صادق وزينهم في هجمات متتابعة .
ودك حسن بنبوته الغضبان فسكت . وضرب لهيطة زقلة في رقبته فانقلب ،
وتمكن قاسم من اصابة دنجل في اذنه فصرخ وتراجع ثم اندلق . وحمل
زينهم على صادق حملة شديدة لكن هذا بادره بطعنة في بطنه فخذلته

يداه ففنى بطعنة أخرى فجندله . وتغلب خردة على الحفساوي ولكن
لهيطة شل ذراعه قبل ان يهنا بنصرته . ووجه ضربة الى الهيطة
لكنه زاغ عنها برشاقة ورفع نبوته ليهوى به على اب غير أن قاسم
ساجله بضربة تلقاها بنبوته ، وجاء ابو فصاده كالريح ليقذفه بالضربة
الثالثة لكن الهيطة نطحه برأسه في أنفه فحطمه . بدا الهيطة كأنه قوة لا
تغلب . واشتد القتال . تلاطمت النبايت بلا هواة . واندفعت سيول
الشتائم واللعنات . وانبثقت الدماء تحت أشعة الشمس المحرقة . وتوالى
الاصابات فخر الرجال تباعاً من الفريقين . واحترق الهيطة غضباً للسقاومة
المستبصلة التي لم يتوقعها فتضاعفت هجاته وضرباته وقسوته . ومن الناحية
الأخرى أمر قاسم حسن وعجربة بأن يتحينا الفرصة للهجوم معه على
لهيطة حتى يهدموا الحصن الذي يلوذ به المهاجمون . واذا بأمرأة من
المدافعات عن الممر تجيء وهي تصرخ مغلدة :

— انهم يصعدون تحت ألواح العجين !

ففزعت قلوب رجال الجبل ، وصاح شيطنة :

— لن تدفنوا في قبر يا أولاد الزواني .

فصاح قاسم في رجاله .

— انتصروا قبل ان يصعد المجرمون .

واندفع نحو الهيطة بجناحين من حسن وعجربة ، فاستقبله الفتوة بضربة
شديدة تلقاها بنبوته ، وأراد عجربة ان يعاجله بضربة ولكن العفش اصاب
ذقنه فانبطح على وجهه . ووثب حسن أمامه وهما يتبادلا ضربتين ،
ورمى حسن بنفسه عليه فالتحما في صراع مميت . وارتفع صراخ النساء
عند رأس الممر وأخذ بعضهن يلدن بالفرار ، وتخرج الموقف . وسارع
قاسم بارسال صادق وبضعة رجال الى حافة الجبل ، ثم انقض على
لهيطة لكن اعترضه زحلفة فاشتبكاً في قتال عنيف . ودفع حسن الهيطة
بكل توته فتراجع خطوة ، فبصق على عينه وهو يسدر ، ثم ركله

فأصاب ركبته ، وبسرعة خاطفة هجم عليه متقوساً فنطح بطنه كأنه
ثور غاضب فاختلف نوازن الجبار ووقع على ظهره فبرك الآخر فوقه
وأطبق بنبوته على رقبته بكلتا يديه وضغط بكل قواه . وأقبل رجال
الدفاع عن فتوتهم فتصدى لهم قاسم وبعض رجاله . واصطكت قدما
لهيطة ، وجحظت عيناه ، واحتقن بالدم وجهه ، واخذ يختنق . وبغثة
وثب حسن واقفاً فوق غريمه الخائر القوة وهوى على رأسه بنبوته
بضربة شرسة حانقة فتحطمت جمجمته وانتهى . وصرخ حسن
بصوت كالرعد :

— لهيطة قتل ، فتوتكم قتل ، أنظروا الى جثته !
وأحدث موت لهيطة غير المتوقع أثراً عنيفاً ، فاشتدت عزائم
ووهنت عزائم ، واندفع الأمل واليأس في قتال مرير . وانضم حسن
الى قاسم في صراعه فلم تحب له ضربة . وشهد الميدان رجالاً تنوَّب
ثم ثب ، ونبايت ترتفع ثم تنفض . وثار الغبار وانتشر ثم أطبق على
المتعاركين كليل دموي . وقذفت الصدور بمجيشات وصيحات ولعنات
وصرخات متأهية وزيجرات متوعدة . وبين كل آونة وأخرى يترنج
رجل ثم يسقط ، او يتراجع ثم يضر ، وانتشر المنطرحون على الأرض
والتمعت الدماء تحت أشعة الشمس . وانتحى قاسم جانباً فأرسل بصره
نحو رأس الممر الذي ألقاه أمره فرأى صادق ورجاله يصبون الطوب
بالمقاطف في توتر شديد دلّ على اقتراب الخطر المتصاعد . وسمع النساء
وبينهن زوجته ، وهن يصرخن كالمستغيثات . وشاهد بعض رجال
صادق وهم يقبضون على النبايت استعداداً للقاء المصريين على الصعود
تحت وابل الطوب . قدر خطورة الأمر ففضى من فوره الى جثة لهيطة
التي ابتعد عنها القتال لتقهقر رجال الحارة ، وراح يسحبها وراءه نحو
رأس الممر . ونادى صادق فجاءه مسرعاً فتعاونوا على حمل الجثة ، وسارا
بها حتى أول الممر ، وقذفا بها معاً فتهافت ثم تدرجت حتى وقفت

تحت أرجل الصاعدين تحت الألواح . ووقع اضطراب واضح . وجلجل
صوت حجاج وهو يصرخ في غضب ،

— اصعدوا ، تقدموا ، الويل للمجرمين !

فصاح قاسم متهكماً ، في ضبط نفس عجيب :

— تقدموا ، هذه جثة فتوتكم ، وورائي جث رجالكم الآخرين ،

تقدموا فنحن في انتظاركم !

وأشار الى الرجال والنساء فأنهال الطوب كالمنزل حتى توقفت طليعة

المهاجمين وأخذوا في التراجع البطيء رغم دفع حجاج وجلطة لهم ،

وترامت الى قاسم هممة تحرش واحتجاج وتذمر فصاح قاسم :

— يا جلطة ، يا حجاج ، اقدا ولا تهربا !

فارتفع اليه صوت جلطة كأنه نبرة الكراهية وهو يصيح :

— انزلوا إن كنتم رجالا ! انزلوا يا نسون يا أولاد العواهر !

وصاح حجاج وهو واقف وسط الموجة المرتدة من الرجال :

— لا عشت ان لم اشرب من دمك يا أقذر من رعى الغنم !

فتناول قاسم حجراً وقذف به بكل قوته . وتواصل انهيار الأحجار .

واسرعت الموجة المرتدة حتى اوشكت ان تنقلب جرياً . واذا بحسن يجيء

فيقول وهو يمسح عن جبهته دماً سائلاً :

— انتهى القتال ، وفر الاحياء منهم نحو الجنوب .

فهتف قاسم :

— ادع الرجال لتبجهم !

لكن صادق قال له :

— ان الدم يسيل من اسنانك وذقنك !

فسح فمه وذقنه براحتة وبسطها فراها حمراء قانية . وقال حسن

بأسف .

- قتل منا ثمانية ، وأصيب الأحياء بجروح بالغة فلن يستطيعوا حراكاً .

ونظر إلى اسفل من خلال الاحجار المتهاوية فرأى اعداءه يركضون في نهاية الممر . فقال صادق :

- لو أتموا رحلتهم ما وجدوا مقاتلاً بصمد لهم .

ثم لثم ذقن قاسم الدامي واردف بامتنان :

- أنقذنا عقلك !

وأمر قاسم رجلين بالبقاء عند رأس الممر للحراسة ، وأرسل آخرين في اعقاب الهاربين لاستطلاع الأنباء ، ثم عاد بين صادق وحسن وهم ينقلون خطوات ثقالا في اعياء وكلال نحو الساحة التي لم يبق فوق أديمها جثث القتلى . كانت مذبحه واي مذبحه . قتل من رجاله ثمانية ومن اعدائه عشرة غير لهيطة . ولم يسلم من رجاله الأحياء أحد من كسر او جرح ، وقد آووا الى الاكواخ فأخذ النساء في تضميد جراحهم ، على حين ضجعت اكواخ الضحايا بالبكاء والصوات . وجاءت بدرية في لهف ودعتهم الى الكوخ لتغسل جروحهم ، ثم جاءت سكينه حاملة احسان وهي تبكي بكاء صارخاً . وكانت الشمس تقذف بنيرانها من كبد السماء ، والحدآى والغريان تدور مدومة وهابطة في الفضاء ، والجو يفوح برائحة الدم والتراب . ولم تكف احسان عن البكاء ولكن لم يعرها أحد التفاناً ، وحتى حسن العملاق بدا وكأنه يترنح . وتتم صادق بصوت حزين :

- ليرحم الله قتلتنا !

فقال قاسم :

- ليرحم الله القتلى والأحياء على السواء .

واخذت حسن صحوة ابتهاج طارئة فقال :

- مستنصر عما قريب فتودع حارتنا عهد الدم والارهاب .

فقال قاسم :
— سحقاً لعهد الارهاب والدم .

٨٩

لم تشهد الحارة كارثة كهذه من قبل . رجع الرجال صامتين ذاهلين ذابلين غاضبين الأبصار كأنما شُدت جفونهم الى أديم الأرض . ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم الى الحارة وان الربوع ترتج باللطم والعيول . وانتشر الخبر في الحارات والأزقة وبانت سمعة الحارة الرهيبة احدىثة تلوكها ألسنة الشفهي . وتبين ان حي الجرابيع بأسره قد غادر الحارة خوفاً من الانتقام فخلت الدور والدكاكين ، ولم يشك أحد في انهم سينضمون حتماً الى ابن حيتهم المنتصر فيزداد بهم عدداً وقوة . وخيم الحزن على الحارة المكلفة بالحداد لكن انفاسه الحارة قطرت حقداً ومقتاً ورغبة في الانتقام . واذا برجال من جبل يتساءلون عن فتوة الحارة ولما تكون ، واذا بالسؤال نفسه يتردد على ألسنة في حي رفاعة ، فانتشر سوء الظن انتشار التراب في العاصفة . وعلم الناظر رفعت بما نهجس به الخواطر فدعا حجاج وجلطة الى مقابلته . وذهب الرجلان وحوله كل رجاله الأشداء حتى غص بهم بهو الناظر ، واحتل كل فريق جناحاً من البهو ، فكأنه لم يعد يأمن الاختلاط بجيرانه ، وقد ادرك الناظر مغزى ذلك فازداد غماً على غم ، وقال :

— تعلمون ان كارثة حلت بنا ، لكننا لم نمت ، ولم يقض علينا ، ولم يزل في وسع سواعدنا ان نحقق لنا النصر على شرط ان نحافظ على وحدتنا ، والافقولوا علينا السلام .

فقال رجل من جبل :

— ستكون الضربة الاخيرة لنا وما شدة الا وبعدها الفرج .

وقال حجاج :

- لولا اعتصامهم بالجبل لهلكوا عن آخرهم .
وقال ثالث :
- لاقاهم لهيطة بعد رحلة طويلة شاقة تبرك بعدها الجبال .
فقال الناظر بامتناع :
— حدثوني عن وحدتكم ما شأنها ؟
فقال جلطة :
- نحن بفضل الله اخوان وسنظل كذلك .
— هذا قولك ، لكن مجيئكم بعددكم الوفير هذا ينم على الارتياح
الذي يفرق بين قلوبكم !
فقال حجاج :
- بل دعت الى ذلك رغبة الجميع في الانتقام !
فوقف الناظر متوتر الأعصاب وقال مقلباً عينيه في الوجوه الكالحة :
— كونوا صريحين ، انكم تنظرون الى بعضكم بعين ، وتنظرون
بالأخرى الى فتوة الحارة ، الى مكان لهيطة الحالي ، ولن تعرف الحارة
الأمان ما دامت هذه الحال ، وأخشى ما أخشاه ان تتداخل النبابت في
الأمر فتهلكوا جميعاً ويأكلكم قاسم لقمة سائغة !
فارتفعت أصوات كثيرة تقول في نفس واحد :
— نعوذ بالله من ذلك .
فقال الناظر بصوت قوي واضح :
- لم يعد بالحارة الا حياً جبلاً رفاعاً ، فليكن عليها فتوتان ، ولا
ضرورة للفتوة الواحد ، ولنتعاهد على ذلك ، ولنكن بدأً واحدة على
الخارجين .
وانقضت ثواني صمت رهيبية ثم رددت أصوات في فتور :
— نعم .. نعم .
وقال جلطة :

- سترضى بذلك رغم اننا سادة الأحياء منذ القدم .
فقال حجاج محتجاً :
- ليكن القبول بلا من ، لا سادة هنا ولا خدام وبخاصة بعد ذهاب
الحرابي ، ومنذا ينكر ان رفاعة كان أنبل من عرفت حارتنا ؟
فهتف جلطة محتجاً حائقاً :
- حجاج ! انا عارف قلبك .
وهم رفاعي بالكلام ولكن الناظر صرخ غاضباً :
- خبروني هل عزمتم على ان تكونوا رجالاً او لا ، ان أي نبأ
يطير عن ضعفكم سيعقبه زحف الحرابي من الجبل كالذئب ، خبروني
هل تستطيعون ان تقفوا صفاً واحداً او أرى لنفسي وجهة أخرى ؟
فصاح افراد من هنا ومن هناك :
- هس ، عيب يا رجال ، حارتنا على وشك ان تفقد كل شيء .
وتطلعت إليه الوجوه في تسليم ، فقال :
- ما زلتم متفوقين في العدد والقوة ، ولكن لا تهاجموا الجبل مرة
أخرى .
- وارتسم التساؤل على الوجوه فاردف قائلاً :
- سنحبسهم فوق الجبل ، سنربص لهم أمام المسكين المفضين
للجبل ، فاما يموتون جوعاً وأما يضطرون الى النزول اليكم فتقتضون عليهم .
فقال جلطة :
- نعم الرأي ، به أشرت على لميطة رحمه الله ولكنه اعتد الحصار
جبناً وأبى الا ان يهاجم .
- وقال حجاج :
- هو الرأي ، ولكن ينبغي تأجيل تنفيذه حتى يرتاح الرجال .
وطلب الناظر اليهم ان يتعهدوا على الاخاء والتعاون ، فتصافحوا
ورددوا الأقسام . وبدا لكل ذي عينين فيما تبع ذلك من أيام ان جلطة-

وحجاج يشتدان في معاملة أتباعها لتغطية آثار الهزيمة التي لحقتهم . وأذاعا في الحارة انه لولا حماقة لهيطة لقضي على قاسم بلا مشقة ، ولكن اصراره على صعود الجبل أنهك رجاله فذهب بقوتهم وشجاعتهم ، ولاقاهم عدوهم وهم على أسوأ حال . وصدق الناس ما قيل لهم ، ومن أبدى شيئاً من الارتياب سب ولعن وضرب . أما فتوة الحارة فلم يكن يسمح لأحد بالخوض فيها ، على الأقل في الجهر ، ولكن كثيرين - من الرفاعية والجبليّة على السواء - جعلوا يتساءلون في الغرز عن سيخلف لهيطة بعد النصر . وتولد في الحارة رغم التعاهد والأقسام جو خفي من الريبة ، فاحتاط كل فتوة لنفسه فلم يكن ينأى عن مركزه إلا وسط جماعة من أعوانه . لكن الاستعداد ليوم الانتقام لم يتوقف لحظة واحدة . واتفقوا فيما بينهم على ان يعسكر جلطة ورجاله أمام مسلك المقطم عند السوق ، وان يعسكر حجاج ورجاله امام مسلك القلعة . وسوف يلزمون اماكنهم ولو بقوا عمراً ، وستسرح النساء للبيع والشراء ويحشّنهم بالطعام . وعند مساء اليوم السابق ليوم الخروج تجمعوا في شتى الغرز ، وجاءوا بقدر البوظة والتبّيذ ، وراحوا يحششون ويسكرون حتى ساعة متأخرة من الليل . وودع الأعوان حجاج أمام ربه بحج رفاعية وهو في نهاية من الانبساط والسلطنة . ودفع الباب ومضى في الدهليز وهو يدندن :

الأوله آه ..

لكنه لم يتمّها . انقض عليه شبح من وراء ، فسدّ فاه بيد ، وطعن بسكين قلبه بالأخرى . انتفض الجسم بقوة بين يديه فلم يتركه ان يحدث سقوطه صوتاً . وأنامه برفق على الأرض لا حراك به في الظلام الدامس .

استيقظت الحارة في باكر الصباح على ضجة صارخة مفزعة . فتحت النوافذ وأطلت الرؤوس ، وسرعان ما اتجهت نحو الربع الذي يقم فيه حجاج فتوة رفاعية ، حيث نجمهر جمع غفير واختلط اللفظ بالصراخ والعيول . وامتلاً دهليز الربع بالرجال والنساء ، وكثر التساؤل والتعليق ، وانذرت الأعين المحمرة بالبكاء بكل شر خطير . وهرع الى الربع الرفاعية من كل ربع ودار وجحر . وما لبث ان جاء جلطة ورجاله فأوسع الناس لهم حتى انتهوا الى الدهليز ، وصاح جلطة :

— مصيبة ولا كل المصائب ، ليتني كنت فذاك يا حجاج .

كف الباكون عن البكاء والصارخون عن الصراخ والحاتقون عن التساؤل ، لكنه لم يسمع كلمة مجاملة واحدة . فعاد يقول :

— مكيدة دنيئة ! ليس الغدر من شيم الفتوات ، لكن قاسم راعي غنم متسول لا فتوة ، ولن يهنا لي بال حتى أرمي بجثته الى الكلاب . وصاحت امرأة في حدة ملتاعة :

— مباركة عليك فتوة الحارة يا جلطة .

وتقلصت سحنته بالغضب فوجم القريبون منه وسرت الدمدمة فباوراء ذلك ، وصاح بغلظة :

— فلتغلق النسوان افواههن في هذا اليوم الأغبر !

فعادت المرأة تقول :

— ليفهم كل ذي عقل !

وصوتت فهاج الصوات ، وانتظر جلطة حتى هدأت العاصفة وقال :

— مكيدة ماكرة دبرت بليل للايقاع بيننا .

- فهتفت امرأة أخرى :
- مكيدة ! قاسم وجراييعه في الجبل ، وحجاج قتل في حارته بين قومه
وجيرانه الطامعين في الفتوة !
فصاح جلطة :
- مرة مجنونة ، ومجنون كل من يتقبل ظنها ، وإذا تماديت فسيقتل
بعضنا بعضاً كما يفسد قاسم .
- وإذا بقلة تهوي فتتخطم عند قدمي جلطة فراجع ورجاله وهو يقول :
- عرف ابن الزانية كيف يفسد بيننا .
- ومضى من توه نحو بيت الناظر . واشتد اللغط عقب ذهابه . وإذا
برجلين — رفاعي وجبلي — يتشابكان في شجار عنيف ، وتبعتهما على
الأثر امرأتان . وتضارب غلمان من الحيين . واستعرت معارك قذف
وسب من النوافذ . وشاع الاضطراب في الحارة حتى تجمهر في كل
حيز رجاله وارتفعت النبائيت . وخرج الناظر من بيته بين خدام ورجال
فسار حتى توسط الحيين وصاح بأعلى صوته :
- اعقلوا .. الغضب سيعميكم عن عدوكم الحقيقي ، قاتل المعلم حجاج !
فصاح أحد الرفاعية :
- من ادراك بذلك ؟ وأي جريوع يتجرأ على دخول الحارة ؟
فصاح رفعت :
- كيف يقتلون حجاج اليوم وهم في أشد الحاجة اليه ؟
- سل المجرمين ولا تسلنا نحن .
- الرفاعية لا يخضعون لفتوة من جبل !
- سيدفعون ثمن دمه غالباً .
- نعاد الناظر يصيح :
- لا تطيعوا المكيدة وإلا رأيتم قاسم زاحفاً عليكم كالوباء .
- فليأت قاسم إذا شاء ، ولكن لن يكون جلطة فتوة علينا .

فقال الناظر وهو يضرب كفّاً بكف :

— انتهينا وسيدركنا الخراب .

فتعالت الأصوات :

— الخراب خير من جلطة .

وقدقت طوبة من حي رفاعة فاستقرت بين الرجال في حي جبل . وأجاب حي جبل بالمثل . ورجع الناظر مسرعاً . وإذا بالطوب ينهمر من الجانبين ، وسرعان ما اشتبك الحيّان في معركة دامية . واشتد الضرب في قسوة بالغة . وامتدت المعركة الى بعض الأسطح حيث تبادل نساء من الحيّين قذف الطوب والحصى والتراب والأخشاب . وتواصل الاشتباك فترة طويلة رغم أن الرفاعية كانوا يقاتلون بغير فتوهم ، ولكن كثّر صراهم أمام ضربات جلطة التي لا تخيب . وإذا بأصوات نساء تنطلق من النوافذ في ضوضاء غير متميزة ضاعت في ضوضاء المعركة ، غير أن النساء بدون وهن يشرن بأيديهن في فرع تارة نحو طرف الحارة الشرقي وطوراً نحو الطرف الآخر . والتفت أناس الى حيث تشير النساء . رأوا قاسم أمام البيت الكبير ، يتقدم في عصبة من رجاله تسبقهم نبايتهم . ورأوا في الطرف الآخر حسن يتقدم في عصبة أخرى . ضج المكان بصيحات التحدير وتناوبت الأحداث في سرعة خاطفة . أمسكت الأيدي عن الضرب كأنما شلت . وبدافع عفوي تكتلوا وتداخلوا ، الضارب منهم والمضروب ، وانقسموا فرقتين لمواجهة القادمين . وصاح جلطة بحق :

— قلت أنها مكيدة فلم تصدقوا ..

استعدوا للقتال وهم من الجهد واليأس على أسوأ حال . لكن قاسم توقف فجأة عن التقدم ، ومثله فعل حسن كأنهما يتفانان خطة واحدة . وصاح قاسم بأعلى صوته :

— لا نريد أذى لأحد ، لا غالب ولا مغلوب ، أبناء حارة واحدة . وجدّ واحد ، والوقف للجميع .

لجيش جملطة :

- مكيدة جديدة !

فقال قاسم غاضباً :

- لا تدفعهم الى القتال دفاعاً عن فتونتك ، دافع عنها وحدك
اذا شئت ..

وصرخ جملطة :

- اهجموا ..

وانقض على مجموعة قاسم . تبعه رجال . وانقض آخرون على حسن
ورجاله . تردد كثيرون . تسلل الجرحى الى الربوع ، وكذلك المنهكون ،
ثم تبعهم المترددون . لم يبق الا جملطة وعصابته . لكنهم خاضوا معركة
شديدة رغم ذلك واستماتوا في الدفاع . تضاربوا بالنبايت والرءوس
والاقدام والأيدي . وركز جملطة هجومه على قاسم بمحمد أعمى . تبادلوا
ضربات عنيفة ، ثم مضى قاسم يتلقى ضربات خصمه بنبوته في خفة
وحذر . لكن رجال قاسم أطبقوا بكثرتهم على عصابة جملطة حتى غابت
تحت عشرات النبايت . وانقض حسن وصادق على جملطة وهو مشتبك
مع قاسم ، فضرب صادق نبوته وهوى حسن بنبوته على رأسه ، مرة
وثانية وثالثة ، فسقط النبوت من يده واندفع يجري كالثور الذبيح ثم
انكب على وجهه كمصراع بوابة . انتهت المعركة . سكنت أصوات
النايات وصرخات الرجال . وقف المنتصرون وهم يلهثون ويمسحون الدماء
عن الوجوه والرءوس والمعاصم لكن ثغورهم افترت رغم ذلك عن ابتسامة
الفوز والسلام . كان العويل يترامى من النوافذ ، ورجال جملطة مبعثرين
على الأرض ، والشمس ساطعة ترسل أشعة حامية . ونخاطب صادق
قاسم قائلاً في ثقة وطمأنينة :

- انتصرت ، نصرك الله ، ان جدنا لا يخطيء في اختياره ، ولن
تسمع حارتنا للغويل بعد اليوم .

فابتسم قاسم ابتسامة هادئة ، ثم استدار في عزم موجهاً بصره نحو بيت الناظر فاتجهت الرؤوس اليه ..

٩١

سار قاسم على رأس رجاله الى بيت الناظر فوجدوا الباب والنوافذ مغلقة ، والصمت والكآبة يخيمان عليه . وطرق حسن الباب بقوة ولكن أحداً لم يرد . وتجمع نقر من الرجال وراحوا يدفعون الباب بشدة حتى انفتح على مصراعيه . ودخل الرجل ، ورجاله وراءه . فلم يعثروا للباب على أثر ولا لأحد من الخدم . وتسارعوا الى البهو ، ببقية الحجرات ، ثم الادوار الثلاثة ، فتبين لهم أن الناظر وأهله وخدمه قد غادروا البيت هاربين . والحق أن قاسم لم يأسف على ذلك اذ كان في أعماقه رغباً عن الفتك بالناظر اكراماً لزوجته التي لولاها لقضي عليه من أول الأمر ، ولكن حسن والآخريين غضبوا غضباً شديداً لنجاة الرجل الذي أذاق الحارة الفقر والهوان طوال عهده بها . وهكذا تم النصر لقاسم وأصبح رجل الحارة دون منازع . وتولى شئون النظارة اذ انه كان لا بد للوقف من ناظر . وعاد الجرابيع الى حيثهم ، وعاد معهم كل ما هاجر من الحارة خوفاً من الفتوات وعلى رأسهم المعلم يحيى . ومضت أربعون يوماً في هدوء فالتأمت الجراح وسكنت النفوس واطمأنت القلوب . ويوماً وقف قاسم امام البيت الكبير ودعا اليه أهل الحارة رجالاً ونساء من جميع الأحياء فوضوا اليه في لطفة وتطلع وقلوبهم تخفق بشتى الحواطر . واكتظ بهم المكان واختلط جرابيعهم بآل جبل وآل رفاعه . وبدأ قاسم باسماء متواضعاً رقيقاً مهيباً معاً فأشار الى أعلى ، الى البيت الكبير وقال :

— هنا يقيم الجبلأوي ، جدنا جميعاً ، لا تميز في الانتساب اليه بين

حي وحي ، أو فرد وفرد ، أو رجل وامرأة .
هللت الوجوه في دهشة وبشر وبخاصة وجوه الذين توقعوا أن يسمعوا
مقالة رجل ملك وانتصر .
وأردف قاسم قائلاً :

- وحولكم وقفه ، وسيكون لكم جميعاً على السواء كما وعد أدهم
حين قال له : « سيكون الوقف لذريتك » ، وعلينا أن نحسن استغلاله
حتى يكفي الجميع ويغض ، فنحيا كما تمنى أدهم أن يحيا ، في رزق
موفور وطمأنينة شاملة وسعادة صافية غناء .

وتبادل الناس النظرات كأنهم في حلم فواصل كلامه قائلاً :
- ذهب الناظر الى غير رجعة ، واختفى الفتوات ، لن يوجد في
حارتنا بعد اليوم فتوة ، لن تؤدوا أناوة لجبار ، أو تخضعوا لعرييد
متوحش ، فتمضي حياتكم في سلام ورحمة ومحبة .
وقلب عينيه في الوجوه المستبشرة وقال :

- وببذمكم أنتم الا يعود الحال كما كان ، راقبوا ناظركم فإذا خان
اعزلوه ، وإذا نزع أحدكم الى القوة اضربوه ، وإذا ادعى فرد أو حي
سيادة أدبوه ، بهذا وحده تضمنون ألا ينقلب الحال الى ما كان ،
وربنا معكم .

في ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم ، وآخرون عن هزيمتهم ، ونظر
الجميع الى الغد كأنما ينظرون الى بزوغ البدر في ليلة من ليالي الربيع .
ووزع قاسم الربيع على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد
والانشاء . أجل كان نصيب الفرد ضئيلاً ولكن إحساسه بالعدل والكرامة
فاق كل حد . ومضى عهده في تجديد وبناء وسلام . ولم تنعم حارتنا
قبله بمثل ما نعمت به في أيامه من الوحدة والألفة والسعادة . أجل كان
ثمة آحاد في آل جبل يضمرون غير ما يظهرون ويتهامون فيما بينهم :
« أنتم من جبل وبحكمنا جربوع من الجرابيع ؟ » ومثلهم وحد في

ل رفاعة . بل لم يخل الجرايع من قصر أخذتهم العزة والزهو . ولكن صوتاً لم يرتفع لتعكير الصفو في عهده . ورأى الجرايع فيه طرازاً من الرجل لم يوجد مثله من قبل ولن يوجد مثله من بعد . جمع بين القوة والرقه ، والحكمة والبساطة ، والمهابة والمحبة ، والسيادة والتواضع ، والنظارة والأمانة ، والى ذلك كله كان ظريفاً بشوشاً أنيقاً ، وعشيراً تطيب مودته ، فضلاً عن ذوقه الجميل ووجه الغناء والنكتة . لم يتغير من شأنه شيء اللهم الا أنه توسع في حياته الزوجية كأنما جرى فيها مجراه في تجديد الوقف وتنميته . فعلى حبه بديرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة ، وتعشق امرأة من الجرايع ثم تزوج منها ايضاً . وقال أناس في ذلك انه يبحث عن شيء افتقده مذ فقد زوجته الأولى قرر . وقال عمه زكريا انه يريد ان يوثق اسبابه بأحياء الحارة جميعاً . لكن حارتنا لم تكن بحاجة الى تفسير أو تعليل لما حدث ، بل الحق انها اذا كانت أعجبت به لأخلاقه مرة فقد اعجبت به لحيويته مرات . وان حب النسوان في حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون بومنزلة تعدل في درجتها الفتوة في زمانها أو تزيد .

ومهما يكن من أمر فان حارتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقاً ، وبأن أمرها قد آل الى نفسها دون ناظر يستغل أو فتوة يستذل ؛ ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الاخاء والمودة والسلام .

وقال كثيرون انه اذا كانت آفة حارتنا النسيان فقد آن لها أن تبرأ من هذه الآفة ، وانها ستبرأ منها الى الأبد .

هكذا قالوا ..

هكذا قالوا يا حارتنا !

عرفة

المتأمل لحال حارتنا لا يصدق ما تقول الرباب في القهوات . من جبل ومن رفاة ومن قاسم ؟ ! وأين الآثار التي تدل عليهم خارج نطاق القهوات ؟ أما العين فلا ترى إلا حارة غارقة في الظلمات وربابا تتغنى بالأحلام . وكيف آل بنا الأمر الى هذه الحال ؟ أين قاسم والحارة الواحدة والوقف المبدول لخير الجميع ؟ وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء الفتوات المجانين ؟ ستسمع حول الجوزة الدائرة في الغرز ، بين الحسرات والضحكات ، أن صادق خلف قاسم على النظارة فساد سيرته . وأن قوماً رأوا ان حسن أحق منه بالنظارة لقربته من قاسم ولأنه الرجل الذي قتل الفتوات . وأنهم حرصوا حسن على رفع نبوته الذي لا يقاوم فأبى ان يعود بالحارة الى عهد الفتونة . لكن الحارة كانت قد أنقسمت على نفسها ، ومضى أناس في آل جبل وآل رفاة يجاهرون بما كانوا يضمرون . ولما رحل صادق عن الدنيا أسفرت الرغبات المكبوتة عن وجهها الشائه ونظراتها العدوانية . واستيقظت النبابت بعد رقاد ، وسال الدم في كل حي على حدة ، وبين كل حي وآخر ، حتى قتل الناظر نفسه في إحدى المعارك . وافلت الزمام ووئد الأمن والسلام فلم يجد الناس بدءاً من إعادة آخر ذرية الناظر رفعت الى النظارة التي يتقاتل الطامعون عليها . هكذا عاد الناظر قدري الى النظارة . وانقلب

الأحياء الى عصبيتها القديمة ، وإذا كل حي يسيطر عليه فتوة ، ثم دارت المعارك على فتوة الحارة حتى فاز بها سعد الله ، فاحتل بيت الفتوة وصار الناظر الأول ، واستأثر يوسف بآل جبل ، وعجّاج بآل رفاعه ، والسنطوري بآل قاسم . ووزع الناظر الربيع بالأمانة أول الأمر ، فاستمرت حركة التعمير والتجديد . وسرعان ما لعب الطمع بقلب الناظر ، والفتوات من بعده كما كان المتوقع ، فارتدوا الى النظام القديم ، أي ان الناظر يستأثر بنصف الربيع ويوزع نصفه الآخر على الفتوات الأربعة الذين استأثروا به من دون المستحقين ، ولم يقفوا عند ذلك بل جاوزوه بكل وقاحة الى فرض الاتوات على اتباعهم المساكين . وتعطلت حركة الانشاء حتى توقف البناء في بيوت لم يشيد منها الا نصفها او ربعها . وبدا وكأن شيئاً من القديم لم يتغير الا ان حي الجرايع أصبح حي آل قاسم ، يرأسه فتوة كالفتوات الآخرين ، وتقوم على جانبيه الربوع مكان الاكواخ والخرائب . أما أهل الحارة فانقلبوا الى ما كانوا عليه في الزمان الأسود ، بلا كرامة ولا سيادة ، تنهكهم الفاقة وتهتدهم النبايت وتهال عليهم الصفعات . وانتشرت القذارة والذباب والقمل ، وكثر المسؤولون والمشعوذون وذوو العاهات . ولم يعد جبل ورفاعة وقاسم الا اسماء ، واغاني يشدها شعراء المقاهي المسطولون . وتباهى كل فريق برجله الذي لم يبق منه شيء وتنافسوا في ذلك الى حد الشجار والعراك . وذاعت شعارات المساطيل ، فيقول أحدهم وهو داخل الى الغرزة : « ما فيها فائدة » يعني الدنيا لا الغرزة . ويقول آخر : « هناك نهاية واحدة هي الموت ، فلنمت بيد الله خير من ان نموت بنبوت فتوة ، وأحسن ما نفعل سكرة او تحشيشة ! » . وكانوا يتغنون بمواويل حزينة ، ينسجونها من خيوط الخيبة والفقر والذل ، او يترنمون بأغنيات فاحشة داعرة يقذفونها في آذان النساء والرجال الباحثين عن السلوى والعزاء ولو في خرابة مظلمة . وعندما يشتد الكرب بأحدهم يقول : « المكتوب مكتوب ،

لا جبل أجدى ولا رفاة ولا قاسم ، حظنا من الدنيا الذباب ومن الآخرة
التراب » . ومن عجب ان تبقى حارتنا بعد ذلك كله الأثرة بين
الحواري ، يشير اليها الرجل من جيراننا ويقول في اكبار : « حسارة
الجبلاوي » ، ونقبع في أركانها ساهمين واجمين كأننا بتنا قانعين بالذكريات
العزيزة الماضية ، او اننا نجتز الاصفاء الى هاتف في أعماقنا يهمس بصوت
خافت : « ليس من المستحيل ان يقع في الغد ما وقع بالأمس ، فنتحقق
مرة أخرى أحلام الرباب ونختفي من دنيانا الظلمات » .

٩٣

في يوم من الأيام ، قبيل العصر ، رأيت الحارة فتي غريباً قادماً من
ناحية الخلاء ، يتبعه آخر كالقزم . كان يرتدي جلباباً ترابي اللون على
اللحم ، ويشد على وسطه حزاماً شطر جلبابه شطرين انداح اعلاهما وتدل
وامتلاً بأشياء فيه ، وانتعل مركوباً باهتاً متهتكاً ، أما رأسه فبداء عارياً
مشعث الشعر غزيره . وكان أسمر اللون ، مستدير العينين ، حاد البصر ،
تلوح في محجريه نظرة قلقة نافذة ، وفي حركاته ثقة واعتداد . وقف
قليلاً أمام البيت الكبير ثم تقدم على مهل يتبعه صاحبه . وتطلعت نحوه
الأبصار وكأنما تتساءل : « غريب في حارتنا ! يا للوقاحة ! » قرأ
ذلك في أعين الباعة وأصحاب الدكاكين والجالسين في القهوات والمطلات
من النوافذ ، بل في أعين الكلاب والقطط ، حتى خيل اليه ان الذباب
نفسه سيتجنبه ازدراء واحتجاجاً . والتفت نحوه الغلمان في تحرش ، واقترب
بعضهم منه ، وأخذ الآخرون يملأون النبال او يبحثون في الأرض عن
طوبه ، فابتسم لهم متودداً ، ودس يده في عبته فأخرج شوية نعناع
وراح يوزعه عليهم فأقبلوا نحوه فرحين ، ومضوا بمصون النعناع وهم

- يرمقونه باعجاب . وقال لهم والابتسامة لا تفارق وجهه :
- أما من بدروم خال للايجار ؟ هيا يا رجال ، من يدلني منكم عليه فله قرطاس نعناع .
- وسألته امرأة كانت مقتعدة الأرض امام أحد الربوع :
- يا ألف مصيبة عليك ، من أنت حتى تسكن في حارتنا ؟
- فضحك الرجل وقال :
- محسوبك عرفة ، من أولاد حارتكم كالأخرين ، وهو عائد بعد غيبة طويلة .
- فدققت المرأة فيه النظرات وتساءلت :
- ابن من يا روح أمك ؟
- فبالغ في الضحك تودداً وقال :
- خالدة الذكر جحشة ، ألا تعرفينها يا ست النساء ؟
- جحشة ؟ بنين زين ؟ !
- بعينها ولحمها .
- وقالت المرأة مستندة الى جدار ، كانت تتابع الحديث وهي تغطي رأس غلام :
- كنت تتبع أمك في تلك الأيام وأنت غلام ، ما زلت أذكرك ، وتغير كل شيء فيك إلا عينيك .
- فقالت المرأة الأولى :
- أي والله ، وأين أمك ؟ ماتت ! الله يرحمها ، ياما قعدت قدام مقطفها سائلة عن الغيب ، أو شوش الذكر وترمي هي بالودع وتتكلم ، الله يرحمك يا جحشت !
- فقال بارتياح :
- الله يطول عمرك ، ستدليني أنت على بدورم خال بإذن الله .
- فحذجته المرأة بنظر أعمش وسألته :

- وماذا عاد بك بعد الغيبة الطويلة ؟
 فقال محاكياً لهجة الحكماء :
 — مسير الحى الى حارته وأهله .
 فأشارت المرأة الى ربع في حي رفاعه وقالت :
 — عندك هناك بدروم ، خلا مذ ماتت ساكنته حرقاً الله يرحمها ،
 ألا يخيفك ذلك ؟
 فضحكت امرأة مطلة من نافذة وقالت :
 — هذا رجل يخاف منه العفاريت .
 فرفع رأسه متظاهراً بالضحك والانبساط وقال :
 — يا حارتنا يا حلوة ، ما أرق ظرف أهلك ، الآن أعرف لماذا
 نصحتني أمي عند الوفاة بالعودة اليك !
 ثم نظر الى المرأة القاعدة وقال :
 — الموت حق علينا يا زبونة المرحومة أمي ، سواء جاء من جرق
 او غرق او عقرت او نبوت .
 وحياها ومضى نحو الربع الذي أشارت اليه . وأصبح محط أنظار
 كثيرين فقال رجل ساخراً :
 — عرفنا أمه فتنذا يعرف أباه ؟
 فقالت عجوز :
 — ربنا أمر بالستر !
 فقال ثالث :
 — يمكنه ان يدعي انه ابن رجل من جبل او رفاعة او قاسم ، كما
 يشاء او تشاء مصلحته ، الله يرحم امه !
 فهمس صاحبه في أذنه ساخطاً :
 — لماذا عدت بنا الى هذه الحارة ؟
 فقال عرقة والابتسامة ما زالت في شفثيه :

- في كل مكان أسمع هذا الكلام ، وهذه حارتنا على أي حال ،
وهي الحارة الوحيدة التي يمكننا الإقامة بها ، حسبنا تحبباً في الأسواق
ونوماً في الخلاء والحرايات ، ثم ان هؤلاء الناس طيبون رغم قذارة
ألسنتهم ، أغبياء رغم نبايتهم ، فهنا يسهل علينا كسب رزقنا ، نذكر
هذا يا حنش !

فhez حنش منكبيه الضيقين كأنما يقول : « الأمر لله » . واعترضهما
رجل مسطول فسأل عرفة :

- ماذا نسليك ؟

- عرفة .

- ولقبك ؟

- عرفة ابن جحشة !

فضج الواقفون بالضحك مسرورين بهوانه ، فعاد المسطول يقول :
- طالما ساءلنا أنفسنا في ذلك الزمان حينما حملت أمك ترى من يكون
أبوه ؟ فهل خبرتك بالحقيقة ؟

فقال عرفة مدارياً ألمه بمزيد من الضحك :

- ماتت هي نفسها قبل ان تعرفه !

ومضى وهم يضحكون . وسرى نأ عودته في الأحياء . وقبل ان
يتسلم البدروم جاء صبي قهوة الرفاعية وقال له :
- المعلم عجاج فتوة حينما يطلبك .

ذهب الى القهوة على مبعدة قريبة من الربع . لفت نظره أول ما
اقرب منها الصورة المنقوشة على الجدار الأوسط فوق أريكة الشاعر .
كانت تبدأ من أسفل بصورة لعجاج ممطياً جواده ، وفوقها صورة
للتاظر قلوي بشاربه النخيم وعباءته الأنيقة ، ثم فوقها صورة بلحشة
رفاعة بين يدي الجبلأوي وهو يرفعها من الحفرة ليأخذها الى بيته .
تأمل ذلك المنظر باهتمام ولكن بسرعة ، ثم دخل القهوة فرأى عجاج

يجلس على أريكة تتوسط الجناح الأيمن ، ومن حوله يجلس الاتباع والاعوان .

مضى عرفة اليه حتى مثل بين يديه قرقمه الفتوة بنظرة ازدراء طويلة كأنما ينومه بعينه قبل ان يتفحص عليه . وقال عرفة رافعاً يديه الى رأسه :
— التحيات المباركات على فتوتنا ، من نخمي بجاه ونسعد بجواره .
فلاحت السخرية في العينين الضيقتين وقال :
— كلام حلو يا ابن القديمة ولكنه 'عملة' لا نعرف بها وحدها !
فقال عرفة باسماء :

— متجنيء العملة الأخرى في أقرب وقت ان شاء المولى .
— عندنا مسئولون اكثر من الحاجة !
فقال عرفة بكبرياء ضاحك :

— لست متسولاً يا معلم ولكني ساحر اعترفت بفضلته الملايين !
وتبادل الجلوس النظرات فقطب عجاج متسائلاً :
— ماذا تعني يا ابن المجنونة ؟

فدس عرفة يده في عبه وأخرج 'حقاً صغيراً دقيقاً' في حجم النبقه وتقدم في خضوع من المعلم ومد به يده فتناوله المعلم بعدم اكتراث ، وفتح ، فرأى مادة قاتمة ، رفع اليه عينيه متسائلاً فقال عرفة في ثقة لا حد لها :

— قفحة منه على فنجال شاي قبل « لامؤاخذه » بساعتين ، وبعدها فاما ترضى عن محسوبك عرفة واما تطرده من الحارة مشفوراً باللعنات .
اشرأبت الأعناق باهتمام شديد لأول مرة ، وحتى عجاج لم يستطع ان يخفي اهتمامه ، لكنه تساءل في استهانة مصطنعة :
— أهذا هو سحرك ؟

— عندي أيضاً البخور النادر ، الوصفات العجيبة ، الطب والدواء ، الأحجية ، ويعرف قدرتي حقاً عند المرض والعقم والضعف .

فقال عجاج فيما يشبه الوعيد :

— الله .. الله .. فلنبشر بالاطهوات !

فانقبض قلب عرفة لكن وجهه زاد انبساطاً وهو يقول :

— كل ما املك تحت أمرك يا معلم .

فضحك الفتوة بغتة وقال :

— لكنك لم تخبرنا من أبوك !

فقال دون ان يزايله المرح .

— لعلك به اعلم !

وضجت القهوة بالضحك . وتلاقت التعليقات الساخرة في شراريب

الدخان السابحة في الجو . ولما ابتعد عرفة عن القهوة قال لنفسه حانقاً :

« من يدري من يكون ابوه حقاً ، ولا أنت يا عجاج ، آه يا اولاد

الكلب ! » . وتفقد هو وحنش البدرود في ارتياح ، ومضى يقول :

— اوسع مما كنت اتوقع ، مناسب جداً يا حنش ، فهذه الحجرة

صالحة للمقابلات ، والتي بالداخل للنوم ، والأخيرة للعمل .

فسأله حنش بقلق :

— ترى في أي حجرة احترقت المرأة ؟

فضحك عرفة ضحكة عالية رنت بين الجدران الخالية وقال :

— أتخاف من العفاريت يا حنش ؟ اننا نتعامل معهم كما كان يتعامل

جبل مع الثعابين .

ونظر فيما حوله بارتياح وقال :

— ليس عندنا إلا نافذة واحدة في الحجرة المطلة على الطريق ، سرى

الطريق من تحت من خلال النافذة ذات القضبان الحديدية ، فلهذه المقبرة

ميزة جليلة وهي انها لا يمكن ان تسرق .

— قد تنهب !

— قد !

ثم وهو يتنهّد :
— كل ما عندي فيه فوائد للناس ، لكني لم الت في حياتي الا
الاساءة .

فقال حنش :
— سيعوضك النجاح عن كل ما نالك من أذى ، او ما نال المرحومة
امك من قبل .

٩٤

في اوقات الفراغ كان يحلو له ان يجلس على كتبة قديمة ليتفرج على
ما يجري من النافذة المطلة على ارض الحارة . جلس مسند الجبين الى
قضبان النافذة فبدت الأرض على مستوى بصره بكل ما يدب عليها من
اقدام وعجلات وكلاب وقطط وحشرات وأطفال ، اما الوجوه والصدور
فلم يكن ليراها إلا بتخفيض قامته ورفع رأسه . ووقف امامه طفل عار
وهو يلعب بفأر ميت ، ثم مسر عجوز ضئير يحمل على يسراه صينية
خشبية "حملت لباً وفولاً" وحلوى وذباباً ويتوكأ بيمينه على عصا غليظة ،
وكان صوت عويل يتراعى من شباك بدروم ، ومعركة تدور بين رجلين
حتى تدفق الدم من وجهيهما . وابتسم للطفل العاري وسأله بركة :

— ما اسمك يا شاطر ؟

فأجاب :

— اوتة .

— قصيدك حسونة ، هل يعجبك هذا الفأر الميت يا حسونة ؟
فرماه به ، ولولا ان حجزه قضيب لأصاب وجهه ، وجرى الصغير
كقارب يتأمل . والتفت نحو حنش وكان يهيم عند قدميه وقال :

– في كل شبر من هذه الحارة نجد دليلاً على وجود الفتوات ،
ولكنك لن تجد دليلاً واحداً على وجود اناس مثل جبل او رفاعه
او قاسم .

فقال حنش وهو يتثائب :

– نحن نرى امثال سعد الله ويوسف وعجاج والسنطوري ولكننا نسمع
فقط عن امثال جبل ورفاعة وقاسم .

– لكنهم وجدوا ، اليس كذلك ؟

فأشار حنش الى ارض الحجرة بأصبعه وقال :

– ربنا رفاعي ، كل سكانه رفاعية ، أي رجال رفاعه الذي
تؤكد الرباب كل مساء انه عاش ومات في سبيل الحب والسعادة ، ومع
ذلك فنحن نغير ريقنا كل صباح على سبابهم ومشاجراتهم ، هكذا هم
نساء ورجالا .

فلوى عرفة شفتيه امتعاضاً وقال :

– لكنهم وجدوا ، اليس كذلك ؟

فواصل حنش كلامه قائلاً :

– السباب أهون ما يقع في حي رفاعه ، اما المعارك فأجارك الله
منها ، أمس فقط فقد ساكن غينه .

وقف عرفة محتداً وقال :

– حارة عجيبة ! الله يرحمك يا أمي ، انظر الينا مثلاً ، الكل

ينتفع بنا ولا احد يحترمنا !

– إنهم لا يحترمون احداً .

فأصر على أسنانه وقال :

– إلا الفتوات !

فقال حنش ضاحكاً :

– حسبك انك الوحيد في هذه الحارة الذي يتعامل معه الجميع من

جبليّة ورفاعة وقاسية .

— عليهم اللعنة -جميعاً .

وصمت ملياً وعيناه تلمعان في ضوء البدروم الخافت ثم قال :

— كل واحد منهم يفاخر برجله بغباء وعى ، يفاخرون برجال لم يبق منهم الا أسماءهم ، ولا يحاولون قط ان يجاوزوا الفخر الكاذب بخطوة واحدة ! أولاد كلب جبنة .

وكان أول من قصده من زبائن امرأة من رفاعسة ، في الأنبوع الأول من استقراره في مسكنه . وإذا بها تسأله بضوت خفيض :

— كيف يمكن التخلص من امرأة دون ان يدري أحد ؟

فارتاع الرجل ، ونظر اليها باستغراب ، ثم قال :

— ست لذلك يا ستي ، إذا أردت أدوية للجسد او للروح فأنا

خادمك !

فصاءلت بانكار :

— ألسنت ساحراً ؟

فقال بوضوح :

— في كل ما فيه فائدة للناس ، اما القتل فله أناس آخرون !

— لعلك خائف ! ؟ لكننا سنكون شريكين سرهما واحد .

فقال برقة تطوي سخرية :

— لم يكن رفاعسة كذلك !

فهتفت :

— رفاعسة ! عليه الرحمة ، نحن في حارة لا نجد فيها الرحمة ،

ولو كانت تجدي ما هلك رفاعسة نفسه !

وتركته يائسة لكنه لم يندم . ان رفاعسة نفسه — اول الطيبين — لم يظفر بالسلامة في هذه الحارة ، فكيف يأمل فيها من يبدأ عمله بالجريمة ؟ وأمه ! كم لاقت من آلام دون ان تتعرض لأحد بأذى . فليكن على

خير صلة بالناس جميعاً كما يجدر لكل تاجر لبق . ومضى يتردد على جميع المقاهي فيجد في كل قهوة زبوناً يعرفه . واستمع الى قصص الرباب في جميع الأحياء حتى اختلطت في رأسه وكان يدور بها ذلك الرأس . وكان أول زبون جاءه من حي قاسم رجلاً طاعناً في السن فقال له همساً وهو يبتسم :

— سمعنا عن الهدية التي اتخفت بها عجاج فتوة رفاعه .

فتفرّس في وجهه المجدد باسمًا ، فقال الرجل :

— اتحفنا بما عندك ولا تدهش ، فيّ وحياتك رمق !

وتبادلا ابتسامة كالسرفقال العجوز متشجعاً :

— أنت قاسمي ، أليس كذلك ؟ هكذا يعتبرك اهل حيّنا .

فسأله عرفة ساخراً :

— هل يعرفون أبي عندكم !

فقال الرجل بجدة واهتمام :

— القاسمي يُعرف بسمياه ! لذلك فأنت قاسمي ، نحن الذين رفعنا

الحجارة الى قمة العدالة والسعادة ، ولكنها واسفاه حارة مشنومة .

ثم تذكر الرجل الغرض الذي جاء من أجله فقال بركة :

— الهدية من فضلك .

وذهب الرجل وهو يقرّب الحق من عينه العشاء وقد دبّت في مشيته

المتهالكة صحوة نشاط وأمل . وكان آخر من زاره شخص غير متوقع .

كان يجلس في حجرة الاستقبال على شلّة أمامها مبخرة تنفث دخاناً

رقيقاً ساحراً حين دخل عليه حنش بن يدي نوبسي عجوز وهو يقول :

— عم يونس بواب حضرة الناظر .

فانتفض عرفة واقفاً ومدّ له يديه مرحباً وهو يقول :

— أهلاً .. أهلاً ، زارنا النبي .. تفضل يا مولانا !

جلسنا متجاورين ، وقال البواب بصراحة معهودة :

— الهانم ، نظيرة هانم حرم الناظر ، تحلم أحلاماً سيئة حتى قل نومها .
بدا الاهتمام في عيني عرفة ودق قلبه دقة الأمل والطموح ، لكنه
قال ببساطة :

— حال عارضة تمر بسلام ..

— لكن الهانم منزوعة وقد أرسلتني اليك لتجد لها شيئاً مناسباً .
شعر رفاعة بسعادة وسيادة لم يعرفها طوال حياة التشرذ التي فيها
في ظل أمه الراحلة وقال :

— الأفضل أن أحادثها بنفسني !

فقال البواب بحدة :

— محال ! لن تجيء اليك ولن تدخل اليها !

وغالب عرفة اليأس مستميتاً في الدفاع عن فرصته الذهبية فقال :

— يلزمني منديلها أو شيء من طرفها !

وأخى البواب رأسه المعمم وقام ليذهب . وعندما بلغا باب البدروم
تلكا البواب قليلاً ثم مال على أذن عرفة قائلاً في همس :

— سمعنا عن هديتك لعجاج فتوة رفاعة !

ولما ذهب البواب بالهدية ضحك عرفة وحنش طويلاً وتساءل الأخير :

— لمن أخذ الهدية يا نري ؟ لنفسه أم للناظر أم للهانم ؟

وهتف عرفة ساخراً :

— يا حارة الهدايا والنبايت !

ومضى الى النافذة ينظر الى الحارة في الليل . بدا الجدار المواجه
لعينه مفضضاً بضوء القمر ، وتعالى زفرات الصراخ ، وارتفع صوت
الشاعر من قهوة الحي وهو يقول :

« وتساءل أدهم :

— متى تقر بأنه لم تعد تربطنا صلة ؟

فقال ادريس :

— لترحنا الساء ، ألسأ أنأى ؟ هأه رابطة لىس فى الامكان
فصمها .

— اأرىس ! كفاك ما فعلأ بى ..

— الأزن قىبىأ؁ ولكن كالانا مصاب ، أنأ ففأأ همام وقأرى وأنا
ففأأ هنأ ، أأبىأ للأبلاوى العأظم أفىأة عاهرة وأفىأ قائل ..
فألا صوأ أأهم وهو بهأر :

— اذا لم بكن أأأوك من أنس عملك فعلى الالنا العفاء .
وأأول عرفة عن الالفة فى سأم . مآأ أأفأ أارأنا عن أأى الأكاىأ ؟
ومآى بكون على الالنا العفاء ؟ وأمى رأأأ بوماً هأا القول : « اذا
لم بكن الأأاء من أنس العمل فعلى الالنا العفاء » . أمى المسأىنة ساأنة
الألاء . لكن ماأا أفأأ من الأكاىأ با أارأنا ؟

٩٥

كان عرفة وأأش بعمالن بهمة فى أأرة البأروم الألفىة على ضوء
مصباح أازى مشأ فى الأأار . لم أكن الأأرة أأأأ للأىة العأأة
لرأوبأها وظلامها ولموقعها أأر البأروم فأأل عرفة منها مقرأ لعمله .
وبأأ على أرضها وفى أركانها أأموعأا من أوراق الأأأبة ، والأأربة
والأبر ، ونبأاأ وأوابل؁ وأىواأاأ وأأأراأ مأففة كالأأأران والأأأأع
والعقارب ، واأوام من قأع الزأأأ؁ وقوارىر؁ ومىاه فى صأأأ؁
ومسائل أرىة أأا رائأة نفأة؁ وفأم؁ وكانون؁ وقأ ركأ
على الأأران رفوفأ أأأا بأانواع أأى من الأوعىة والآىة والأأسااس .
وكان عرفة منهمكاً فى أأط بعض الموأ وأأأها فى وعاء من الفأأار
أأبر؁ وكان العرق بأأبب من أأىنسه فىأففه بكم أأابابه من أأىن

لآخر ، هذا وحش رابض عن كذب ، يراقبه باهتمام ، واستعداد لتلبية
آية اشارة تصدر منه ، وكأنما اراد ان يعزيه أو يتودد اليه فقال :
— هذا التعب لا يبذل جزءاً منه اكبر عامل في هذه الحارة المنكودة ،
وفي سبيل أي جزاء يبذل ؟ ملاليم أو قرش على خير الفروض !
فقال عرفة بارتياح :

— رحم الله أمي ! لا يعرف فضلها سواي ، ويوم سلمتني لذلك
الساحر العجيب الذي يقرأ لك جميع ما يحول في خاطرك تغيرت حياتي
تغيراً كلياً ، فلولها لكنت على خير ظن نشالاً أو متسولاً ..
فأصر حنش على أسفه قائلاً :
— ملاليم !

— النقود تكثر بالصبر ، لا تياس من ذلك ، ليست الفتونة هي
السبيل الوحيد الى الثروة ، ولا تنس المنزلة السامية التي اتمتع بها ، فان
من يقصدني انما يعتمد كل الاعتماد عليّ ويضع سعادته أمانة بين يدي ،
وليس هذا بالشيء القليل ، ولا تنس ايضاً لذة السحر نفسه ، لذة
استخراج مادة مفيدة من مواد قذرة ، لذة الشفاء حين يأتمر بأمرك ،
وهناك القوى المجهولة التي تنشوف للاتصال بها وامتلاكها ان استطعت .
ونظر حنش الى الكانون وقال منقطعاً فجأة عن تيار صاحبه :
— الأوفى أن أوقد الكانون في دهليز المنور والا اخنقنا .

— أوقده في جهنم ، ولكن لا تخرجني عن افكاري ! ان اي مغفل
من يحسبون انفسهم معلمين في هذه الحارة لا يستطيع ان يدرك خطورة
الأشياء التي تصنع في هذه الحجرة المعتمدة القذرة ذات الروائح الغريبة ،
أدركوا فائدة « الهدية » ولكن ليست الهدية كل شيء ، ان اعاجيب
لا يحيط بها الخيال يمكن ان تخرج من هذه الحجرة ، المجانين لا يدركون
قيمة عرفة الحقيقية ، لعلهم يعرفونها يوماً ما ، وعند ذلك يجب ان
يترحموا على أمي لا ان يعرضوا بها كما يفعلون .

وكان حنش قد قام نصف قومة فعاد يجلس القرفصاء وهو يقول
بامتعاض :

— كل هذا الجمال قد تطيح به عصا فتوة أحمق .

فقال عرفة بحدة :

— نحن لا نؤذي أحداً وندفع الاتاوة فكيف نتعرض للأذى يا ابن
جلجل ؟

فضحك حنش قائلاً :

— وما كان ذنب رفاة ؟

فحدجه بنظرة غاضبة وقال :

— لماذا تقرفني بهذه الأفكار ؟

— أنت تأمل ان ثري وهنا لا يثري الا الفتوات ، وتأمل أن تصير
قوياً وهنا لا يسمح بالقوة الا للفتوات ، فاعمل حسابك يا أخ !
وصمت عرفة حتى يتأكد من حسن تقديره في الخلط بين المواد ،
ثم نظر الى حنش فرأى سحته ما زالت محتفظة بصورة التحذير فضحك
قائلاً :

— حذرني امي من قبلك ، شكراً يا حنش يا ابن جلجل ، لكنني
عدت الى الحارة وفي رأسي خطة !

— يبدو انه لم يعد يهلك إلا السحر .

فقال عرفة في جدل كالنشوة :

— السحر شيء عجيب حقاً ، لا أحد لقوته ، ولا يدري احد اين
يقف ، وقد تبدو النبايات نفسها لمن يملكه لعب اطفال ، تعلم يا حنش
ولا تكن غيباً ، تصور لو كان جميع اولاد حارتنا سحرة ؟
— لو كانوا جميعهم سحرة لمانوا جوعاً !

فضحك عرفة ضحكة كشفت عن اسنان حادة وقال :

— لا تكن غيباً يا حنش واسأل نفسك ماذا كان يمكن ان يصنعوا ،

والله كانت الأعاجيب تخرج من حارثنا في غزارة السباب والشتائم .

— نعم ، على شرط الا يموتوا جوعاً قبل ذلك !

— نعم ، ولن يموتوا ما داموا في غير ..

لكنه سكت قبل أن يتم قوله ، ومضى يفكر في اهتمام حتى كفت يده عن العمل ، ثم رجع يقول :

— شاعر آل قاسم يقول ان قاسم اراد استغلال الوقف حتى يجد كل حاجته فيستغني عن العمل ويفرغ للسعادة الغناء التي حلم بها أدهم .
— ذلك قول قاسم !

فقال وعيناه تلمعان بشدة :

— لكن الغناء ليس هو الهدف الأخير ! تصور ان يمضي العمر في فراغ وغناء ؟ وهو حلم جميل لكنه مضحك يا حنش ، الأجل حقاً ان نستغني عن العمل لنصنع الأعاجيب .

هز حنش رأسه الكبير — الذي يبدو منغرساً في جسده دون رقبة تذكر — محتججاً على حديث لا معنى له ، ثم استرد لهجة العمل الجدية وهو يقول :

— دعني الآن أوقد الكانون تحت المنور .

— افعل ، وضع نفسك فوق اللهب فما تستحق الا الحرق .

وغادر عرفة غرفة العمل بعد ساعة ففضى الى الكنية وجلس ينظر من النافذة الى الخارج . اقتحمت أذنيه ضجة الحياة بعد صمت فتلاقت فيها نداءات الباعة وأحاديث النساء المتبادلة ونكات صارخة ومخاترات من الشتام ، تصاحب تيار الراحين والغادين الذي لا ينقطع . واذا به يلاحظ ان شيئاً جديداً اتخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته . قهوة متنقلة مكونة من قفص مغطى بملاءة قديمة صُفّت عليه علب البن والشاي والقرقة وموقد وكنجات وفناجيل وأكواب ومعالق ، وقد جلس عجوز على الأرض يروح على الموقد ليسخن ماء ، على حين وقفت وراء القفص

فتاة في ربيع العمر وهي تنادي بصوت دافئ : « قهوة مزاج يا جدع ! »
كانت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية ، وبدأ أن أكثر زبائننا
من أصحاب عربات اليد والمساكين . وجعل رفاعية يطيل النظر الى الفتاة
من بين القضبان . هذا الوجه الأسمر المتلفع بنجار أسود ما أطفه ، وهذا
الجلباب البني الغامق الذي يغطيها من العنق حتى القدمين ويتجرجر منه
طرف على الأرض اذا مشت بطلب أو عادت بقدح فارغ ، هذا الجلباب
حشمة وأدب ، وهذه القامة الرشيقة ، والعينان العسليتان ما أجملها لولا
احمرار اشغار يسراها لرمد أو قدارة ! هي ابنة العجوز كما يشهد الوجهان
ويبدو أنه أنجبها في سن متأخرة كما يقع كثيراً في حارتنا . ودون تردد
صاح بها :

— يا شابة .. فنجال شاي وحياتك .

فامتدت اليه عيناها ، وبسرعة ملأت قدحاً من ابريق مدفون حتى
منتصفه في الرمد ، ومضت به اليه عبر الطريق فتسلمه وهو يقول باسمّاً :

— عاشت يدك ، كم ثمنه ؟

— نكلة .

— غال ! ولكن لا يغلو لك ثمن !

فقالت باحتجاج :

— في القهوة الكبيرة بتعريفة وهو لا يمتاز عما في يدك بيبيء .
وذهبت دون انتظار لكلام فراح يحسوه قبل أن يبرد ودون أن يحول
عينيه عنها . ما أسعد أن يملك فتاة بهذا الشباب ! لا عيب فيها الا حمرة
عينها وما اسهل ان يداويها ، ولكن الأمر يحتاج الى قدر من النقود لم
يُوجد بعد . واليدروم جاهز وما على حشش الا ان ينام في الدهليز أو
في حجرة الاستقبال اذا شاء على شرط ان يغليها من البق أول بأول .
وانتبسه على همهمة غريبة ورأى الناس ينظرون نحو أعلى الحارة ويقول
البعض منهم : « السنطوري .. السنطوري » فنظر بميل على قدر ما سمحت

القضبان له فرأى الفتوة قادماً في حالة من الأعوان . ولما مر بالقهرة
المتقلبة وقع بصره على الفتاة فسأل رجلاً من رجاله :
- من الفتاة ؟

- عواطف بنت عم شكرون .

فلعب الرجل حاجبيه في ارتياح ومضى نحو حية . وشعر عرفة
بضيق وقلق . لوح للفتاة بالقدح الفارغ فجاءته في خفة فأخذته وتناولت
من يده النكلة ، وعند ذاك سألها وهو يشير بذقنه الى الناحية التي ذهب
اليها السنطوري :

- ألم يضايقك شيء ؟

فقالت ضاحكة وهي تستدير لتذهب :

- سأستعين بك عند اللزوم ، فهل تعين ؟

فحزت في نفسه سخرتها . سخرية حزينة لا متجدية فتضاعف ضيقه .
وهنا سمع صوت حنش وهو يناديه فوثب الى ارض الحجرة واندفع
الى الداخل ..

٩٦

تكاثر زباين عرفة مع الأيام ، لكن قلبه لم يفرح بزبون كما فرح
بعواطف يوم رآها مقبلة عليه في حجرة الاستقبال . نسي مهابة المعلم
التي يرتديها امام زباينه فوقف مرحباً بها ، ثم أجلسها على شلته أمامه
وتربّع في مجلسه والدنيا لا تسعه من السرور ، حياها بنظرة شاملة لكنها
سرعان ما وقفت على عينيها اليسرى التي كادت تختفي وراء ورم ملتهب ،
فقال محتجاً :

- أهملتها يا شابة ، كانت حمراء منذ أول يوم رأيتك .

فقال كالمعتذرة :

- اكنفيت بغسلها بالماء الساخن ، والمشغول بالعمل مثلي ينسى .
- لا يجوز ان تنسي صبحتك ، وبخاصة اذا تعلق الأمر بعضو عزيز
مثل عينك الجميلة !

ابتسمت متأثرة بالثناء على حين كان هو يمد يده الى رف خلفه
ليجىء بكوز ، ثم اخرج منه لفافة صغيرة وقال وهو يشير اليها :
- صرّتي ما فيها في منديل ، وحطّيه فوق بخار ماء يغلي ، ثم اربطيه
على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعود عينك الى جمال اختها .
تناولت اللفافة ، وأخرجت كيساً من جيبيها وهي تسأله بعينها اليمنى
عن الثمن فقال ضاحكاً :

- لا عليك من هذا فنحن جيران وبيننا صداقة !

- لكنك تدفع ثمن ما تشرب من شاي .
فقال متهرباً :

- اني أدفع في الواقع لأبيك ، هذا الرجل الوقور ، كم أودّ أن
أعرفه ، وكم أسفت على اضطرابه للعمل حتى هذه السن المتأخرة !
فقالت في مباهاة :

- لكن صحته جيدة ، وهو يأبى أن يقعد في البيت ، غير ان
طول عمره من دواعي حزنه في الحياة، اذ انه كان ممن شهدوا الأحداث
على عهد قاسم .

فتبلى الاهتمام في وجه عرفة وسألها :

- حقاً ! أكان من أعوانه ؟

- كلا ، لكنه ذاق السعادة في أيامه وما زال يتحسر عليها .

- أريد أن أعرفه وأن استمع اليه .

فبادرته قائلة :

- لا تجرّه الى هذا الحديث، فاني أود أن ينساه الى الأبد حرصاً على

سلايمته . كان مرة في خفارة يشارب بعض أصحابه ، ولما سكر وقف بينهم يطالب بأعلى صوته بأن تعود الحياة الى ما كانت عليه ايام قاسم ، وما ان عاد الى حارتننا حتى وجد السنطوري امامه فانهاى عليه ضرباً وصعباً ولم يتركه حتى أغمي عليه .

تفكر عرفة في امتعاض شديد ثم لحظ عواطف بمكر وقال :

— لا أمان لأحد مع وجود هؤلاء الفتوات !

فرمقته بنظرة خاطفة كأنما تتساءل عما وراء مقصده الظاهر وقالت :

— صدقت ، لا أمان لأحد معهم .

وتريث وهو بعض شفتيه كالتردد ، ثم قال :

— رأيت السنطوري وهو ينظر اليك نظرة كلها وقاحة .

فدارت ابتسامة بحركة من رأسها الى اسفل ، وقالت :

— ربنا يأخذه .

لكن عرفة تساءل في ارتياب :

— أليس مما يسر الفتاة ان يعجب بها فتوة مثله ؟

— انه زوج لأربع !

فغاص قلبه في أعماقه ، وتساءل :

— واذا كان عنده متسع ؟

فقلت بحدة :

— كرهته منذ اعتدى على أبي ، وهكذا جميع الفتوات لا قلوب

لهم ، يأخذون الاتاة وكأنهم لاستكبارهم هم الذين يعطون .

فانتعش بالارتياح وقال بحماس :

— أحسنت يا عواطف ! كما احسن قاسم من قبل يوم قضى عليهم ،

لكنهم يعودون مثل بعض الدمايل الغامضة .

— لذلك يتحسر أبي على ايام قاسم .

فهز رأسه في غير اكتراث طارئ وقال :

— ويوجد غيره من يتحسرون على أيام حبل ورفاعة ، لكن للماضي لا يعود .

فقلت في استياء مليح :

— تقول ذلك لأنك لم تشهد قاسم مثل أبي .

— وهل شهدته أنت ؟

— أبي قال لي .

— وأمي قالت لي ، ولكن ما جدوى ذلك ؟ انه لا يخلصنا من الفتوات ، وأمي نفسها كانت ضحية لهم ، وها هم يعرضون بها بعد موتها .

— حقاً ؟ !

فقال بوجه متجهم كأنه قدح ماء صاف تعكر فجأة باثارة رواسبه .
— لذلك أخشى عليك يا عواطف ، الفتوات يهددون الرزق والعرض والحب والسلام ، واصارحك بانني اقتنعت منذ رأيت الوحش يتطلع اليك بوجوب القضاء عليهم .

فقلت عواطف باهتمام :

— يقولون إنه في وصية جدنا الواقف .

— أين جدنا ؟

فقلت ببساطة :

— في البيت الكبير

فقال بهدوء وبوجه لا ينم عن السرور :

— نعم ، أبوك يتحدث عن قاسم ، وقاسم حدث عن جدنا ، هكذا نسمع ، ولكننا لا نرى إلا قدرتي وسعد الله وعجاج والسنطوري ويوسف ، نحن في حاجة الى قوة لتخلصنا من العذاب ، فإذا تجدي الذكريات !
وانتبه الى ان مجرى الحديث كاد يفسد عليه اللقاء ، فقال وهو يعدل عن السيكا الى الصنبا :

— الحارة في حاجة الى قوة كما انا في حاجة اليك !
فحدجته بنظرة استنكار فابتسم في جرأة بدت غير غريبة عن عينيه
الجارحتين وقال بجدية ليتحاشى غضبة متوتبة في حاجبيها :
— شابة طيبة مجتهدة جميلة ، تنسى في غمرة العمل عينها حتى تورم ،
ثم تبحثني وهي تظن انها في حاجة إلي فتتضح لها الحقيقة وهي اني انا
الذي في حاجة اليها .

قالت وهي تهتم بالقيام :

— آن لي ان انصرف .

— بغير غضب من فضلك ، واذكري اني لم اصرح بجديده ، فلا شك
انك استشففت اعجابي بك طوال الأيام الماضية اذ نظراتي تذهب ونجبيء
ما بين نافذتي وقهوتك ، ان أعزب مثلي لا يمكن ان يعيش وحده الى
الأبد ، وان بيته المشحون بالعمل في حاجة للرعاية ، وان ارباحه تفيض
عن حاجته فلا بد ان يشاركه فيها انسان .

غادرت الحجرة . وقف في نهاية الدهليز ليودعها . وكأنها لم ترض
ان تذهب دون تحية فقالت :

— فتك بعافية .

ولبت مكانه وهو يترنم بصوت مهموس :

نحلك المياس يا بدري واملا لي الكاس من بدري

وانت احلى الناس في نظري

ثم مضى في فتوة ونشاط الى حجرة العمل فوجد حشش منهمكا في
واجباته ، فسأله :

— ماذا عندك ؟

فعرض امامه زجاجة وهو يقول :

— معبأة ومحكمة الاغلاق ، ولكن ينبغي ان تجرب في الخلاء .

فتناولها عرفة وراح يمتحن سدادتها ، ثم قال :

- نعم ، في الحلاء والا افتضح أمرنا .
فقال حنش بقلق :
- الرزق بدأ يجيء والحياة تبترسم ، فلا تفرط فيما وهبك الله من سعادة .
أخذ حنش يضيق بالحياة بعد ان حلت في عينيه . ابتسم عرفة عند هذا الحاطر . ونظر الى حنش ملياً ثم قال :
- كانت أملك كما كانت أمي .
نعم ولكنها توسلت اليك الا تفكر في الانتقام .
- كان رأيك غير ما تبدي الآن !
- سنقتل قبل ان نتقم .
فضحك عرفة وقال :
- لا أخفي عنك انني كففت عن التفكير في الانتقام من زمن .
فتهلل وجه حنش وهو يقول :
- هات الزجاجة لفرغها يا أخي .
لكن عرفة شدد قبضته على الزجاجة وهو يقول :
- بل سنجرها حتى تبلغ الكمال .
فقطب حنش في استياء احتجاجاً على المزء به فأردف عرفة قائلاً :
- انا اعني ما أقول يا حنش ، ثق انني عدلت عن الانتقام ، لا ادعائاً لتوسلات أمنا ، وانما لاقتناعي بوجوب القضاء على الفتوات بصرف النظر عن انتقامنا ..
- فقال حنش محتدأ :
- بسبب حبك لهذه الفتاة .
فضحك عرفة حتى بان حلقه ، وقال :
- حب الفتاة ، حب الحياة ، أسمه بما تشاء .. كان قاسم على حق !
- مالك انت وقاسم ! كان قاسم يحقق رغبة جده !
فقط بوزه وقال :

- من يدري ؟ ! حارتنا تحكي الحكايات ، اما نحن فنقوم بأعمال
حاسمة في هذه الحجرة لا شك فيها ، وأين الأمان في حياتنا ؟ سيجي-
عجاج غداً لينهب رزقنا ، واذا قدّمت يداً للزواج من عواطف اعترضني
نبوت السنطوري ، وهذا حال كل رجل في حارتنا حتى المنسول ، فإنا
يكدر صفوي هو ما يكدر صفو حارتي ، وما يؤمنني هو ما يؤمنها .
حق ما أنا فتوة ، ولا برجل من رجال الجبل ، ولكني املك الأعاجيب
في هذه الحجرة ، ومنها قوة لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين .
ورفع بالزجاجة بيده متخذاً هيئة الموثب للقفز بها ، ثم اعادها الى
حشش قائلاً :

- سنجرها الليلة بالجبل .. ابسط وجهك واستعد حماسك .
وغادر حجرة العمل الى النافذة . وتفرّص فوق الكنبه مرسلًا ناظره
الى القهوة المنقلة . وكان الليل يهبط رويداً ، وصوتها يعلو منادياً
بالقهوة والشاي . وتجنب النظر الى نافذته فدل التجنب على خطوره
يبالها . وومض بالابتسام فيها مثل ذلك النجم . وابتسم عرفة ، كيانه
كله ابتسم ، وفاض من قلبه الرضى حتى أقسم ليمشطن شعره كل
صباح . وترامت من الجمالية ضجة اقوام يطاردون لصاً ، ثم انبعثت من
القهوة انغام الرباب وترامى صوت الشاعر مفتتحاً ليلته بقوله :

الأولى آه مي قدري ناظرنا
والثانية آه سعد الله فتوتنا
والثالثة آه عجاج فتوة حتنا

فانتزع من حلمه بلا رحمة . وقال بملل وتمرد : ستبدأ الحكايات ،
متى تنتهي هذه الحكايات ؟ وماذا افاد الاستماع اليها طوال الليالي ؟
سيغني الشاعر وتستيقظ الغرز يا حارة الحشرات .. »

وطراً على حياة عم شكرون اضطراب غامض . كان يتكلم احبائنا بصوت مرتفع جداً كأنه يخاطب فيقول بعطف : « الكبر .. انه الكبر » . وكان يغضب شديد الغضب لأنفه سبب او لغير ما سبب فيقولون : « الكبر » . وكان يصمت طويلاً حتى حين تتطلب الحال الكلام فيقولون : « الكبر » . وكان يقول أقوالاً تعد في الحارة كضراً فيقولون في اشفاق : « الكبر اللهم احفظنا » . وكان عرفة يراقبه كثيراً من خلال القضبان في عطف واهتمام . ومضى يراقبه ذات يوم وهو يقول لنفسه : رجل مهيب رغم اسماله البالية وقذارته ، وعلى صفحة وجهه الناحلة نقشت النكسة التي عدت على الحارة عقب أيام قاسم ، اذ انه من سوء حظه انه عاصر قاسم ، فنعم بأيام العدل والأمانة ، ونال نصيبه كاملاً من ربيع الوقف ، ورأى الأبنية تشيد باسم الوقف ثم تتوقف بأمر قدرى ، وبالجمله هو رجل بائس طال به العمر اكثر مما ينبغي ! ورأى عواطف قادمة بوجه لا تشوبه شائبة بعد ان شفيت عينها فتحول عن الرجل اليها وهتف باسمه :

— الشاي يا أهل النظر !

وجاءته بالقدح فقال قبل ان يتناوله من يدها ليضمن بقاءها :

— مبارك عليك الشفاء يا وردة حارتنا .

فقالت باسمه :

— الفضل لله ولك .

وتناول القدح متعمداً ان تمس أنامله أناملها ، فرجعت ومرح مشيتها ينيء عن القبول والرضى . ما أجدر ان يخطر الخطورة الحاسمة . وهو

رجل لا تعوزه المرأة غير انه يجب ان يعمل للسنتوري ألف حساب .
الحق على عم /شكرون الذي جاء بفتاته الى طريق السنتوري ! لكنه
مسكين أعياه التجوال وراء عربته حتى عجز عن الاستمرار ففتح هذه
القهوة المشنومة . وترامت من بعيد ضجة وهتاف فتطلعت الرؤوس نحو
الجمالية ، وما لبث ان ظهرت عربة كارو حملت النساء المغنيات المصفقات
في وسطهن عروس عائدة من الحمام فجرى الغلمان نحو العربية مهللين
وتعلقوا بأطرافها وهي صاعدة نحو حي جبل ، ويضطرم الجو حيناً
بالزغاريد والتهاني والهمسات الفاحشة . ووقف عم /شكرون كالغاضب
وصاح بصوت كالرعد :

— اضرب .. اضرب !

فهرعت اليه عواطف وأجلسته وهي تربت ظهره في أمى وحنان .
وتساءل عرفة ترى هل يحلم الرجل او يهلوس ؟ ما ألعن الكبير . كيف
إذن يعيش جدنا الجبلاوي ؟ وجعل ينظر الى الرجل حتى سكن ثم
سأله برقة :

— يا عم /شكرون هل رأيت الجبلاوي ؟

فأجابه دون ان ينظر اليه :

— يا مغفل ألا تدري انه اعتكف في بيته من قبل أيام جبل !

فضحك عرفة ، كما ابتسمت عواطف ، وقال بصوت باسم :

— ربنا بمد في عمرك يا عم /شكرون .

فصاح /شكرون :

— دعاء كان له قيمة حقاً عندما كان العمر له قيمة .

وجاءت عواطف لتأخذ القدح فقالت له همساً :

— دعه في حاله ، انه لا ينام من الليل ساعة !

فقال باهتمام حار :

— قلبي عندك يا عواطف .

ثم بسرعة قبل ان تمهم بالسير :

- أود ان احديثه في أمرنا .

فحذرته بأصبعها وذهبت . وراح يتسلى برؤية صغار يلعبون « وطي البصلة » . وبغته ظهر السنطوري قادماً من حي آل قاسم فتراجع رأسه عن القضبان بحركة غريزية . ماذا جاء به ؟ من حسن حظه انه اقام في حي رفاعه فأصبح له من عجاج حام ، عجاج الغارق في « هداياه » . اقترب الفتوة حتى وقف امام قهوة شكرون ، وتفحص وجه عواطف وهو يقول :

- واحد سادة .

لعلبت ضحكة امرأة في نافذة وتساءلت أخرى :

- أي شيء حمل فتوة قاسم على طلب السادة من قهوة المتسولين ؟
بدا السنطوري غير مكترث لشيء . قدمت عواطف له الفنجال فتلوى قلب عرفة في صدره . وانتظر الفتوة حتى تذهب حرارة المشروب وهو يتسم الى الفتاة ابتسامة وقحة كشفت عن اسنانه المذهبة . وتوعده عرفة في نفسه بضربه بجبل المقطم . ورشف السنطوري رشفة وقال :

- تسلم يدك الجميلة .

وخافت ان تبسّم كما خافت ان تقطب على حين تطلع شكرون اليها بارتياح . ثم اعطاها الفتوة قطعة من ذات الخمسة القروش فدفست يدها في جيبها لاحتضار الفكة ولكنه لم ينتظر ولم يبد انه يطالب بشيء ، وعاد الى قهوة القاسمية . وحارت عواطف في امرها فقال لها عرفة بصوت منخفض :

- لا تذهبي اليه .

فتساءلت :

- وبأني النقود ؟

فنهض عم شكرون رغم ضعفه وأخذ الباقي وذهب الى المقهى . وبعد

قليل عاد العجوز الى مجلسه . وما لبث ان أغرق في الضحك حتى
اقتربت منه ابنته وقالت برجاء :
- كفك ضحكاً .

ونفض قائماً مرة أخرى . وقف مستقبلاً بيت الواقف في نهاية
الحارة ، وصاح :

- يا جبلاوي .. يا جبلاوي ..

وانفتحت نحوه الأعين من النوافذ وابواب الأربع والمقاهي والبدرومات ،
وهرع نحوه الغلمان ، حتى الكلاب رمت بأعينها ، وعاد شكرون بصيح :
- يا جبلاوي ، حتى متى تلازم الصمت والاختفاء ، وصاياك مهمة
وأموالك مضيعة ، انت في الواقع تُسرق كما يُسرق احفادك يا جبلاوي .
وهتف الصغار « هيه » ، وقهقهه كثيرون ، اما العجوز فاستدرك
صراخه :

- يا جبلاوي ألا تسمعي ؟ ألا تدري بما حل بنا ؟ لماذا عاقبت
ادريس وكان خيراً ألف مرة من فتوات حارتنا ! يا جبلاوي !
خرج عند ذاك السطوري من المقهى وهو يصيح به :
- يا مخرف احتشم .

فالتفت نحوه غاضباً وهتف :

- عليك اللعنة يا وغد الأوغاد !

همس كثيرون في اشفاق : « ضاع الرجل » . واتجه السطوري نحوه
وقد أعماه الغضب وضربه على رأسه بقبضته . ترفع الرجل وكاد يهوي
لمولا ان ادركته عواطف . وراها السطوري فرجع الى مجلسه .
وقالت الفتاة باكية :

- لنعد الى البيت يا أبي .

وانضم اليها عرفة في مساندته ، ولكن العجوز حاول في ضعف ان
يبغدهما عنه . وثقلت انفاسه على حين ساد الأقربين وجوم . وقالت

- امرأة من نافذة :
- الحق عليك يا عواطف ، فالأحسن انه كان يبقى في البيت .
 - فقلت عواطف وهي ما زالت تبكي :
 - مالي حيلة .
 - وراح شكرون يقول بصوت ضعيف :
 - يا جبلاوي .. يا جبلاوي ..

٩٨

- وقبيل الفجر شق صوات مولول السكون ، ثم عرف الناس ان شكرون قد مات . كانت حادثة غير غريبة على الحارة . وقالت بطانة السنطوري : « الله يحجمه ، عاش قلبيل الأدب ، وقلة الأدب كانت السبب في موته » . وقال عرفة لحنش :
- قتل شكرون ، كما يقتل كثيرون في حارتنا ، والقتلة لا يبالون باخفاء جرائمهم ، ولا يتجرأ احد على الشكوى او يجد شاهداً واحداً !
 - فقال حنش بتقزز :
 - يا للمصيبة ! لماذا جئنا الى هنا !
 - انها حارتنا .
 - أمتا غادرتها منكسرة الخاطر ، حارة ملعونة هي ومن عليها .
 - فقال باصرار :
 - لكنها حارتنا .
 - كأننا نكفر عن ذنوب لم نجنها .
 - التسليم هو اكبر الذنوب جميعاً .
 - فقال حنش بياس :

— خابت تجربة الزجاجاة في الجبل !

— لكنها ستنجح في المرة القادمة .

ولما حمل نعش شكرون لم يكن وراءه الا عواطف وعرفة ، وهكذا
بدا امام الربيع . وعجب الجميع من اشتراك عرفة الساحر في الجنازة
وتهامسوا بجرائئه العجيبة ذلك الساحر المجنون .

وكان الأعجب من ذلك ان السنطوري انضم الى الجنازة عندما توسطت
حي آل قاسم . بأي جرأة وقحة فعل ! لكنه فعل بلا حياء وقال
لعواطف :

— البقية في حياتك يا عواطف !

وادرك عرفة ان الرجل يمهّد بذلك لطلبه القادم . والمهم ان حال
الجنازة تغير في غمضة عين اذ تسارع اليها الجيران والمعارف الذين منعهم
الخوف حتى ملأت الطريق . وعاد السنطوري يقول :

— البقية في حياتك يا عواطف !

فنظرت اليه في تحدّ وقالت :

— تقتل القتل وتمشي في جنازته .

فقال السنطوري بصوت سمعه الكثيرون :

— قيل مثل هذا لقاسم من قبل .

وتعالت أصوات كثيرة وهي تقول :

— وحدي الله ، الآجال بيد الله وحده !

فصاحت به عواطف :

— قتل أبسي بضربة يدك !

فقال السنطوري :

— الله يسامحك يا عواطف ، لو كنت ضربته ضربة حقيقية لقتل
في الحال ، والحق اني ما ضربته ولكن هوشته والكل يشهدون بذلك .
واستبقت الحناجر قائلة :

— هوشه ! ما لمسته يده ، والله ما لمسه ، ولياً كل الدود عيوننا
كنا كاذبين .

فهمت عواطف :

— ربنا المنتقم !

فقال السنطوري بحلم "ضرب مثلاً عهداً طويلاً" :

— الله يسامحك يا عواطف .

ومال عرفة على أذن عواطف وقال فيما يشبه الحمس :

— نخليّ الجنازة تسير بسلام .

وما يدري عرفة إلا ورجل من أعوان السنطوري يدعى العضاض يهوي
بكفه على وجهه ويصيح به :

— يا ابن المبولة ، ما أدخلك انت بيتها وبين المعلم !

التفت عرفة نحوه في ذهول فتلقى ضربة أشد من الأولى ، وآخر صفعه ،

وثالث بصق على وجهه ، ورابع اخذ بتلابيه ، وخامس دفعه بقوة فسقط

على ظهره ، وسادس قال له وهو يركله :

— ستدفن في القرافة إذا ذهبت إليها .

لبث مطروحاً على الأرض في ذهول ، وتجمع ، وقام في ألم غير

يسير ، وراح ينفذ التراب عن جلبابه ووجهه ، وكان جمع من

الصغار قد التفوا حوله وراحوا يهتفون : « العجل وقع .. هاتوا

السكين » . رجع الى البدروم وهو يعرج وقد جن جنون غضبه .

ونظر حنش اليه بأسى وقال :

— قلت لك لا تذهب !

فصرخ في حلق أهوج :

— اسكت ، الويل لهم .

فقال له بلين وحزم معاً :

— اصرف النظر عن هذه البنت وإلا فعلينا السلام .

فصحت ملياً وهو ينظر الى الأرض مفكراً ، ثم رفع وجهاً مكفهاً
بالاصرار المخيف وقال :

— ستراني متزوجاً بها أقرب مما تتصور !

— هذا هو الجنون بعينه .

— وسوف يرأس عجاج الزفة .

— انك تبلل ثيابك بالكحول وترمي بنفسك في النار .

— وسأعاود تجربة الزجاجة الليلة في الحلاء .

ولزم داره لا يبرحها أياماً ، ولكن صلته بعواطف لم تنقطع عن طريق
النافذة ذات القضبان . ثم قابلها خفية عقب انقضاء أيام الحداد في دهليز
ربيعها وقال لها في صراحة :

— يحسن بنا ان نتزوج في الحال .

ولم تفجأ الفتاة بطلبه ولكنها قالت في حزن :

— ستسبب موافقتي لك من المتاعب ما لا تحتمل .

فقال بثقة :

— قبل عجاج ان يشرف حفلنا ، ولذلك معنى لا يخفى عليك .

واتخذت الخطوات في تكتم شديد حتى تم كل شيء . وعلمت الحارة
دون سابق انذار ان عواطف ابنة شكرون تزوجت من عرفة الساحر ،
وانتقلت الى داره وان عجاج فتوة آل رفاة قد شهد الزواج . ذهل
كثيرون وتساءل آخرون كيف تم ذلك ، كيف تجرأ عرفة عليه ،
وكيف اقنع عجاج بمباركته ، أما اهل الخبرة فقد قالوا يا داهية دقي .

فاجتمع بأعوانه في قهوة آل رفاعه . ودرت الحارة بالاجتماعين فتوتر
جوها ، وسرعان ما خلا الموقع بين القاسمية والرفاعية من الباعة والمتسولين
والأطفال وأغلقت الدكاكين والنوافذ . وخرج السنطوري برجناله الى
الحارة فخرج عجاج برجاله كذلك . واحتدم الشر حتى فاحت رائحته
الكريهة فلم يبق على اندلاع اللهب إلا لمسة . وصاح رجل طيب من
فوق سطح :

— ماذا أغضب رجالنا ؟ فكروا قبل ان تجرى الدماء .

فقال عجاج من خلال صمت الرهبة وهو ينظر إلى السنطوري :

— لسنا غاضبين ولا داعي عندنا للغضب .

فقال السنطوري بغلظة :

— أنت خرجت على حدود الزمالة يا معلم ، ولا يمكن أن يقرك فتوة

علي ما فعلت .

— وما الذي فعلت ؟

فقال السنطوري وكأن الكلام يخرج من فمه وعينيه معاً :

— حميت رجالاً وهو يتحدثاني .

— ما فعل الرجل إلا ان تزوج بنتاً وحيدة بعد وفاة أبيها ، وأنا

أشهد زواج كل رفاعي .

فقال السنطوري بازدياد :

— ما هو برفاعي ، ولا يعرف أحد أباه ، ولا هو نفسه ، وقد

تكون أنت أباه وقد اكونه أنا ، او أي متسول في الحارة .

— لكنه يقيم اليوم في حبيبي .

— ليس إلا أنه وجد به وما خالياً !

— ولو !

فصرخ السنطوري بصوت مدوّ

— أعرفت انك خرجت على حدود الزمالة ؟

فصاح به عجاج :
 - لا تصرخ يا معلم ، الأمر لا يستوجب ان نتناقش كالدبوك !
 - لعله يستوجب .
 فقال عجاج بنبرة كأنها أمر بالاستعداد :
 - اللهم طولك يا روح .
 - عجاج .. انتبه لنفسك !
 - ملعون أبو القفا .
 - ملعون أبوك !
 وارتفعت النبأيت لولا ان ادركها صوت كالحوار يصيح بلهجة آمرة :
 - عيب يا رجال .
 اتجهت الرؤوس نحو مصدره فرأوا المعلم سعدالله فتوة الحسارة وهو يشق طريقه بين الرفاعية حتى وقف في المنطقة بين الحين وهو يقول :
 - نزلوا النبأيت .
 فهبطت النبأيت كرهوس المصلين ، ونظر سعدالله مرة الى السنطوري وأخرى الى عجاج فقال :
 - لا أحب الآن ان اسمع كلام أحد ، تفرقوا بسلام ، ملبحة من أجل مرة ؟ يا خسارة الرجولة !
 تفرق الرجال في سكون ، ورجع سعدالله صوب داره .
 وكان عرفة وعواطف داخل البدروم لا يصدقان أن الليلة ستتم بسلام ، كانا يتابعان ما يدور في الخارج بقلبين واجفين ووجهين متقعين ، ولم يبتلّ لهما خلق حتى سمعا صوت سعدالله بنبرته الآمرة التي لا ترد . تنهدت عواطف من الأعماق وقالت :
 - ما أقسى هذه الحياة !
 وأراد ان يبت في نفسها شيئاً من الطمأنينة فقال وهو يشير الى رأسه :

— أنا أعمل بهذا ، هكذا كان جبل ، وهكذا كان قاسم
الداهية !

فازدردت ريقها بمشقة وقالت .

— ترى هل تدوم السلامة ؟

ضمها الى صدره في مرح ظاهري وقال :

— ليت كل زوجين يسعدان مثلنا .

فطرحت رأسها على كتفه ريثما تسترد أنفاسها وهمست قائلة :

— ترى هل تنتهي المسألة عند ذلك ؟

فنفخ قائلاً في صراحة :

— أي فتوة لا يؤمن جانبه .

فرفعت رأسها وهي تقول :

— أعرف ذلك ، وبسي جرح لن يلتئم حتى أراه صريعاً .

وعرف من تعني ، ونظر في عينيها بتفكير وقال :

— الانتقام في مثل حالتك واجب ولكنه لا يؤدي الى نتيجة حاسمة ،
ان سلامتنا مهددة لا لأن السنطوري يود البطش بنا ، ولكن لأن سلامة
حارتنا كلها مهددة ببطش الفتوات ، ولو تغلبنا على السنطوري فن
يضمن لنا الا يتحرش بنا عجاج غداً او يوسف بعد غد ؟ فاما أمن
للجميع أو لا أمن لأحد .

فابتسمت في فتور متسائلة :

— أتريد ان تكون كجبل او رفاة او قاسم ؟

فقبل شعر رأسها وهو يتشمم رائحته القرفلية دون ان يجيب
فعادت تقول :

— أولئك كلفوا بالعمل من قبل جدنا الواقف .

فقال بضجر :

— جدنا الواقف ! كل مغلوب على أمره يصيح كما صاح المرحوم

ابوك : « يا جبلاوي » ! ولكن هل سمعت عن احفاد مثلنا لا يرون
جدهم وهم يعيشون حول بيته المغلق ؟ وهل سمعت عن واقف يعيث
العابثون بوقفه على هذا النحو وهو لا يحرك ساكناً ؟

فقال ببساطة :

— انه الكبير !

فقال بارتباب :

— لم أسمع عن معمر عاش طول هذا العمر .

— يقال إنه يوجد رجل في سوق المقطم جاوز المائة والخمسين من

العمر ، ربك قادر على كل شيء .

فصمت ملياً ، ثم غنم قائلاً :

— كذلك السحر فهو قادر على كل شيء !

فضحكت من غروره وهي تنقر بأصبعها على صدره وقالت :

— سحرك قادر على مداواة العين .

— وعلى اشيء لا تحصى !

فتنهدت قائلة :

— يا لنا من مساطيل ! نتسلى بالأحاديث كأننا لا يتهددنا شيء !

لم يأبه لمقاطعتها فواصل حديثه قائلاً :

— وقد يتمكن، يوماً من القضاء على الفتوات انفسهم ، وتشيد

المباني ، وتوفير الرزق لكافة أولاد حارتنا .

فتساءلت ضاحكة :

— هل يمكن ان يحدث ذلك قبل قيام القيامة ؟

فرقت عيناه الحادثان بنظرة حاملة وقال :

— آه لو كنا جميعاً سحرة !

— لو !

ثم أردفت قائلة :

- في زمن قصير حقق قاسم العدالة بغير سحر !
- وسرعان ما ولت ، أما السحر فأثره لا يزول ، لا تستخفي
بالسحر يا عسلىة العين ، انه لا يقل عن حينا خطورة ، ويخلق مثله
حياة جديدة ، ولكنه لن يؤتى اثره الحق الا اذا كان اكثرنا سحرة !
فتساءلت في دهابة :
- وكيف يتأتى ذلك ؟
- ففكر طويلاً قبل ان يجيب قائلاً :
- اذا تحققت العدالة ، اذا نفذت شروط الواقف ، اذا استغنى
اكثرنا عن الكد وتوفروا على السحر .
- أتريدها حارة من السحرة !
- وضحكت ضحكة لطيفة واستدركت قائلة :
- وما السبيل الى تنفيذ الشروط العشرة وجدنا قيد القراش ، ويبدو
انه ما عاد بوسعه ان يكلف احداً من أصدقائه بعمل !
- فنظر اليها نظرة غريبة وتساءل :
- لماذا لا نذهب نحن اليه ؟
- فضحكت مرة اخرى وقالت :
- هل نستطيع ان ندخل بيت الناظر ؟
- كلا ، ولكن ربما استطعت دخول البيت الكبير .
- فضربت يده وهي تقول :
- .. كفك مزاحاً حتى نطمئن على حياتنا أولاً !
- فابتسم ابتسامة غامضة وقال :
- لو كنت أحب المزاح ما عدت الى حارتنا .
- فأفزعها شيء في نبرته فحلجته بدهشة وهتفت :
- أنت تعني ما تقول .
- فطالعتها بنظرة صامتة فعادت تقول :

- تصور ان يقبضوا عليك في البيت الكبير !
فقال بهدوء :
— ما العجب في وجود حفيد ببيت جدّه !
— قل إنك تمزح ، رياه ! مالك تنظر جاداً هكذا ، شيء عجيب ..
لماذا تريد ان تذهب اليه ؟
— ألا تستحق مقابلته المخاطرة ؟
— كلمة نددت عن لسانك فكيف انقلبت حقيقة مرعبة .
غربت راحتها ليهديء خاطرها وقال :
— ملذ عدت الى حارتنا وانا افكر وحدي في اشياء لا تخطر ببال ..
فتساءلت بتوسل :
— لِمَ لا نعيش في حالنا ؟
— يا ليت ! لانهم لا يتركوننا نعيش في حالنا ، ولا بد للإنسان
من ان يؤمن حياته .
— لاذن نهرب من الحارة .
فقال باصرار :
— لا أهرب وفي يدي السحر !
وجذبها برقة حتى ألصقها بنفسه ، وجعل يربت منكبها وهو يهمس
في اذنها :
— سنجد للكلام فرصاً كثيرة ؛ اما الآن فليطمئن قلبك .

١٠٠

ترى 'جن' الرجل أم أعماء الغرور ؟ هكذا جعلت عواطف تنساءل.
وهي تراقب عرفة في عمله وتفكيره . ومن ناحيتها هي لم يكن يكتر

صفو أيامها السعيدة إلا رغبتها في الانتقام من السنطوري قاتل أبيها ،
والانتقام في الحارة تقليد مقدس من قديم الزمان . وحتى هذا التقليد
المقدس يمكن أن تنسأه ولو على مفض إكراماً للحياة السعيدة التي
وهبها الزواج . لكن عرفة كان يؤمن بأن الانتقام من السنطوري ما هو
إلا جزء من عمل كبير آلى على نفسه - كما خيل إليها - القيام به ؛
ولم تفهمه . أحسب أنه أحد الرجال الذين تنغى بهم الرباب ؟ لكن
الجبلاوي لم يعهد إليه بشيء ، وهو لا يبدو كبير الثقة بالجبلاوي ولا
بما تحكي الرباب . ومن المؤكد أنه بات يعطي السحر من جهده ووقته
أضعاف أضعاف ما يتطلبه الرزق . وإذا فكر جاوز تفكيره شخصه
وأسرته إلى مسائل عامة لا يعنى بها أحد ، كالحارة والفتونة والنظارة
والوقف والريع والسحر . وكان يحلم أحلاماً عريضة عن السحر والمستقبل
مع أنه كان الرجل الوحيد في الحارة الذي لم يقبل على الحشيش لحاجة
عمله في الحجرة الخلفية إلى اليقظة والانتباه . ولكن كل هذا هان إلى
جانب رغبته الجنونية في التسلل إلى البيت الكبير . لماذا يا رجلي ؟
لأسأله المشورة فيما ينبغي أن تسير عليه الحارة . أنت تعلم بما ينبغي أن تسير عليه
الحارة ، وكلنا نعلم ، فما الضرورة إلى تعريض نفسك للهلاك ؟ أريد معرفة
شروط الوقف العشرة . ليست العبرة في المعرفة ولكن في العمل فماذا
تستطيع أن تفعل ؟ الحق أنني أريد أن أطلع على الكتاب الذي طرد بسببه
أدهم إن صدقت الحكايات . وماذا يهلك في ذلك الكتاب ؟ لا أدري
ما الذي يجعلني أؤمن أنه كتاب سحر وأعمال الجبلاوي في الخلاء لا
يفسرها إلا السحر لا العضلات والنبوت كما يتصورون . وما الداعي إلى
هذه المخاطر وانت سعيد ورزقك موفور بغيرها ؟ لا تظني أن السنطوري
نسيتا . . كلما خرجت كدت اتعث في نظرات رجاله الحانقة . حسبك
السحر ودع البيت الكبير جانباً . هناك الكتاب . . كتاب السحر الأول . .
سر قوة الجبلاوي الذي ضن به حتى على ابنه ، قد لا يكون شيئاً مما

تتصور ، وقد يكون ، والأمر يستحق المخاطرة . وإذا به يخطئ خطوة حاسمة في طريق الصراحة فقال لها :

— هكذا أنا يا عواطف ، ما العمل ؟ لست إلا ابناً حقيراً لامرأة تميمية وأب مجهول والكل يعرف هذا ويتندر به ، ولكن لم يعد لي من هم في الدنيا إلا البيت الكبير ، وليس غريباً على مجهول الأب ان يتطلع بكل قوته الى جده ، وحجرتي الخلفية علمتني الا أؤمن بشيء الا اذا رأيته بعيني وجربته بيدي ، فلا محيد عن الوصول الى داخل البيت الكبير ، وقد أجد القوة التي انشدها وقد لا أجد شيئاً على الإطلاق ولكني سأبلغ برأ هو على أي حال خير من الحيرة التي أكابدها ، ولست أول من اختار المتاعب في حارتنا ، كان بوسع جبل ان يبقى في وظيفته عند الناظر ، وكان بوسع رفاعة ان يصير نجار الحارة الأول ، وكان في وسع قاسم ان يهنا بقمر واملاكها وان يعيش عيشة الأعيان ، ولكنهم اختاروا الطريق الآخر .

فقال حنش بأسى :

— ما اكثر الذين يجرون نحو الهلاك بأرجلهم في حارتنا .

فقال عرفة بجدة :

— قليل منهم من عنده لذلك اسباب وجيهة .

غير ان حنش لم يتخلف عن معاونة أخيه . تبعه كظله في الهزيع الأخير من الليل الى الخلا . ولما يشت عواطف من مقاومته رفعت يديها بالدعاء له . كانت ليلة مظلمة ظهر الهلال في أولها ساعة ثم اختفى . سار الاخوان بلبصق الجدران حتى بلغا السور الخلفي للبيت الكبير فيما يلي الخلا . وقال حنش همساً :

— كان رفاعة يقف في مكاننا عندما ترمى اليه صوت الجبلابي .

فقال عرفة وهو ينظر فيما حوله مدقماً :

— هكذا تقول الرباب وسوف أعرف حقيقة كل شيء .

فأشار حنش الى الخلاء وقال برهبة :
- وفي هذا الخلاء كلم بنفسه جيل وأرسل خادمه الى قاسم .
فقال عرفة بامتعاض :

- وفيه ايضاً قتل رفاة واغتصبت امنا وضربت ولم يحرك جذك ساكناً !
وحط حنش مقطفاً به ادوات حفر على الأرض ، ثم شرعا في حفر
الأرض تحت السور ورفع الأتربة بالمقطف . عملاً بجهد وعزم حتى امتلأ
صدراهما برائحة ترابية . وتبين ان حنش لم يكن دون عرفة حماساً ،
كأنما كانت تدفعه نفس الرغبة وان غلبه الخوف . ولم يكن رأس عرفة
فوق الأرض إلا بشبر حين قال من جوف الحفرة :
- حسبنا هذه الليلة .

ثم وثب الى سطح الأرض معتمداً على راحتيه ثم قال :
- علينا ان نسد الفوهة باللوح الخشبي ثم نغطيها بالتراب حتى لا
ينكشف أمرها .

ثم رجعا مسرعين والفجر في أعقابهما كان يفكر في الغد . الغد
العجيب . حين يسير في البيت الكبير المجهول . ومن يدري فلعله يلقي
الجبلاوي ولعله يحادثه ، فيستوضحه عما مضى وعما هو راهن وعن
شروط وقفه وسر كتابه . ذلك الحلم الذي لا يتحقق إلا بين سحابات
الدخان الذي تنفثه الجوز .

وفي البدروم وجد عواطف ما تزال ساهرة تنتظر فلما رأته حذجته
بنظرة عتاب ناعسة وغمغمت :

- كأنك راجع من مقبرة !

فقال بمرح يداري به قلقة :

- ما أحلاك !

وارتمى الى جانبيها فقالت :

- لو كنت عندك شيئاً لما استهنت برأبي .
فقال مداعباً :

- ستغربين رأيتك عندما تشهدين ما يحدث غدا .
- لي في السعادة فرصة وفي الهلاك ألف !
فضحك عرفة ثم قال :

- لو رأيت الأعين الحاقدة لأيقنت ان ما ننعم به من سلام ما هو
إلا خيال .

ومزق سكون الفجر صوات حاداً ، وتبعه عويل ، فعبست عواطف
وتمتمت :

- فأل غير حسن !
فهز منكبيه باستهانة ، ثم قال :
- لا تلوميني يا عواطف وأنت مسئولة بعض الشيء عما أنا فيه .
- أنا !
فقال جاداً :

- عدت الى الحارة مدفوعاً برغبة خفية الى الانتقام لأمي ، ولما
وقع الاعتداء على ابيك تأصلت تلك الرغبة في الانتقام من جميع الفتوات
ولكن حبي لك أضاف اليها جديداً كاد يطمس على الأصل ، وهو ان
اقضي على الفتوات لا للانتقام ، ولكن ليهنأ الناس بالحياة ، وما قصدت
بيت جدنا إلا لأحصل على سر قوته .

ورنت اليه بنظرة طويلة قرأ فيها بوضوح على ضوء النوازة الاشفاق
الاليم من ان تفقده كما فقدت أباهما ، فابتسم إليها مشجعاً متودداً ،
وكان العويل يستفحل في الخارج .

وشد حنش على يد عرفة مودعاً والأخير في أعماق الحفرة . وانبطح عرفة على وجهه وراح يزحف خلال الممر المعبق برائحة الأرض ، وما زال في زحفه حتى برز رأسه من أرض الحديقة داخل البيت الكبير . استقبل أنفه شذاً عجيباً كأنه خلاصة خلاصات من الورد والياسمين والحناء مذابة في ندى الفجر . أسكره الشذا رغم شعوره البالغ بالخطورة . ما هو يتشمم الحديقة التي مات أدهم حسرة عليها . ما يبدو منها الا ظلام ضارب تحت الأنجم الساهرة . وعليها صمت رهيب يند عنه من أن لأن هسيس الأوراق المستجيبة للنسائم . ووجد الأرض طرية رطبة فبيث في نيته ان يخلع نعليه عند تسله الى البيت كيلا يطبع على الأرض آثاره . ترى أين ينام البواب والبستاني وغيرهما من سائر الخدم ؟ وزحف على أربع في حذر شديد ان يحدث صوتاً متجهاً نحو البناء الذي بدا شبح هيكله متربهاً في الظلام . ولاقى في رحلته نحو البيت من الارتياح ما لم يلاق في حياته على ايلافه خوض الظلمات والمبيت في الخلاء والحرائب . ومضى يزحف لصق الجدار حتى مست يده أولى درجات السلم المفضي الى السلامك ان صدقت الرباب . هنا دفع الجبلابي بادريس ليطرده خارجاً . ذلك كان مصير ادريس جزاء تخديه لأمر أبيه ، فما عسى ان يفعل الجبلابي بمن يقتحم عليه داره ليسرق سر قوته ؟ ولكن مهلاً فان أحداً لا يمكن ان يتوقع تسلل لص الى البيت الذي ظل آمناً مدرعاً بمهايته طيلة الأعوام الماضية . ودار زاحفاً حول الدرازين ثم اخذ يرقى في الدرج على يديه وركبتيه حتى بسطة السلامك . وخلع نعليه وتأبطهما ثم زحف

نحو الباب الجانبي الذي تقول الرباب انه يفضى الى المخدع . وبغثة سمع
سعلة ! سعلة قادمة من الحديقة . فلبد اسفل الباب مرسلًا ناظره نحو
الحديقة ، فرأى شبحاً يقترب من السلامك . كتم أنفاسه لأنه خيل اليه
ان اضطراب قلبه سيُسمع مدويًا . وأخذ الشبح يقترب . ومضى يرقى
في الدرج . لعله الجبلأوي نفسه . ولعله يضبطه متلبساً بجريمته كما ضبط
أدهم من قبل في نفس الساعة على وجه التقريب . وبلغ الشبح بسطة
السلامك على بعد ذراعين من مكمنه . لكنه مضى الى الجانب الآخر
من السلامك ، ورقد على شيء يشبه الفراش ! خف التوتر غلغلاً وراءه
أعياء . ولعل الشبح لم يكن الا خادماً ذهب لقضاء حاجة ثم عاد الى
مرقده وها هو يعلو شخيره . استرد شيئاً من جرأته فرفع يده متحسباً
موضع الأكرة حتى عثر عليها ، وادارها بهوادة ، ومضى يدفع الباب
برفق حتى انفرج عن فتحة تسعه ثم زحف داخلًا ورد الباب وراءه .
وجد نفسه في ظلمة حالكة ، فأجال يده أمامه حتى مس اولى درجات
السلم ، وجعل يصعد في خفة الهواء . انتهى الى ردهة طويلة مضاءة
بمصباح في كوة بالجدار . وكانت تنعطف يمينا الى الداخل ، وتمتد يساراً
بعرض البيت ، ويتوسطها باب المخدع مغلقاً . عند ذلك المنعطف
وقفت أميمة ، ومن موقفه انطلق أدهم ، وها هو ينطلق وراء الشيء
نفسه . تراكت على صدره الرهبة ، فنادى ارادته وجرائته ، وكان
من السخرية ان يرجع . قد يظهر خادماً في أية لحظة ، وقد يفوق من
جنونه على يد تقبض على كتفه ، فما أجدره أن يسرع . سار على أطراف
أصابعه نحو الباب . ادار المقبض اللامع فدار مع يده ، ودفع الباب
فانفتح برفق ، ثم تسلل راداً الباب وراءه . أسند ظهره الى الباب في
ظلام لا يرى فيه شيئاً ، وتنفس بحذر وكأنما يضمن بأنفاسه . وخبثاً
حاول أن يرى شيئاً . وبعد قليل شم رائحة بخور زكية أفعمت قلبه
قلقاً وحزنًا غريباً لم يدرك له من سبب ولم بعد يشك انه في مخدع

الجبلاوي . متى يألف الظلمة ؟ وكيف يلم نفسه المبعثرة ؟ ومن وقفه موقفه هذا من قبل ؟ وكيف يشعر بأنه سينهار الى الحضيض اذا لم يستمسك بكل ما أوتي من قوة وعزم وجراءة ! وتوعد نفسه بالهلاك اذا لم يحسب لكل حركة حسابها الدقيق . وتذكر السحب في جريانها الذي يرسم لها اشكالاً غريبة بطريقة عفوية في رسم جبلاً كما يرسم قبراً . ومس الجدار بأصبعه فاتخذ منه مرشداً وسار بحذائه متقوساً حتى لمس كتفه مقعداً . لكن حركة مفاجئة نادت من ركن الحجرة البعيدة تصلبت لها شرايينه . لبد وراء المقعد متجه العينين نحو الباب الذي دخل منه . وسمع وقع أقدام خفيفة وحفيف ثوب . وتوقع ان يغمر الظلماء نور وأن يرى الجبلاوي واقفاً حياله . سيسجد عند قدميه مستعظفاً ويقول له اني حفيدك ، لا أب لي ، ولا هدف الا الخير ، فافعل ببي ما تشاء . رأى رغم الظلمة شبحاً يقترب من الباب . ورأى الباب وهو يفتح برفق ونور الردهة الخارجية يتسرب الى ما وراءه . وخرج الشيخ تاركاً الباب موارباً واتجه بمنة فتيه على ضوء المصباح الخارجي ، امرأة عجوز سوداء نحيلة الوجه طويلة بصورة لا يمكن ان تنسى . ترى أمي خادماً ؟ وهل يمكن ان تكون هذه الحجرة من جناح الخدم ؟ ونظر من جانب المقعد الى المكان ليراه على الضوء الباهت المتسلل من الباب ، فميز اشباح المقاعد والكنب ، وتراعى له في الصدر رسم فراش كبير ذي عمد وناموسية يليه عند قدميه فراش صغير لعله هو الذي غادرته العجوز . ان يكون هذا الفراش الضخم الا للجبلاوي . انه نائم الآن هناك غير دارٍ بجريمته . كم يود ان يلقي نظرة عليه ولو من بعيد لولا هذا الباب الموارب الذي ينلر بعودة الذاهبة . ونظر الى يساره فلمح رسم باب الخلوة مغلقاً على سره الرهيب . هكذا تطلع اليه أدهم في القديم فله الرحمة . وزحف وراء المقاعد متناسياً الجبلاوي نفسه حتى صار أسفل الباب الصغير . لم يستطع مقاومة الاغراء فرفع يده حتى دس أصبعه في ثقب المفتاح ثم ضغط الى

أسفل جاذباً إياه إليه فأطاع . وسرعان ما رده وقلبه يرتجف ، انفعالاً واحساساً بالقوز . وإذا بالضوء الضئيل يختفي وتفرق الحجرة مرة أخرى في الظلام . وسمع مرة أخرى كذلك وقع الأقدام الخفيفة ، ثم طفقة فراش وشت باستلقاء العائدة ، ثم ساد الصمت . وانتظر متصبراً حتى تنام العجوز . ومضى يعمّن النظر نحو الفراش الكبير ولكنه لم ير شيئاً . واقتنع بأنه من الجنون أن يحاول الاتصال بجده ، إذ قبل ذلك مستيقظ 'لعجوز وتملاً الدنيا صراخاً ثم يكون الوداع . ولكن حسب الكتاب الخطير بما يتضمن من شروط الوقف وآيات السحر التي سيطر بها جده في الخلاء والناس في زمانه الأول . ان احداً قبله لم يتصور ان الكتاب سحر لأن احداً قبله لم يمارس السحر . وعاد يرفع يده ويدس أصبعه ويجذب الباب ، ثم تسلى زاحفاً ورده وراه . وقف في حذر وهو يتنفس في عمق ليربح شيئاً ما اعصابه المرهقة . لماذا ضمن الجبلوي على أبنائه بسر كتابه ؟ حتى أحبهم الى قلبه أدهم ! هناك سر بلا ريب وسينكشف السر بعد ثوان ، بعد اشعال شمعة . وقد بدأ أشعل أدهم الشمعة ، وها هو مجهول الأب يشعلها مرة أخرى في نفس الموقف ، وسوف تغني الباب بهذا الى الأبد . أشعل الشمعة فرأى عينيّن تنظران اليه . رغم ذهوله أدرك ان العينيّن لعجوز أسود يرقد على فراش في مواجهة الداخل . ورغم ذهوله ورعبه تبين له ان العجوز يجاهد للخروج من الغيبوبة الفاصلة بين النوم واليقظة التي ربما كان أحدثها صوت حك عود الثقاب . وبحركة غير ارادية ولاشعورية انقض عليه فأطبق بمناء على رقبته وشد بكل قوة أعصابه . تحرك العجوز بعنف وقبض على يده فضربه بقدمه في بطنه وغماغف من قوة الضغط على عنقه . وسقطت الشمعة من يسراه فانطلقت وساد الظلام . وفي الظلام تحرك العجوز حركة أخيرة من أعماقه ثم همد لكن يده المجنونة لم تكف عن الضغط حتى

تراخت أصابعها . وتراجع لاهثاً حتى التصق ظهره بالباب . ومرت
الثواني وهو في جحيم من العذاب الصامت، وشعر بقواه تنحدر وبأن الزمن
بات أثقل من الذنوب . سيقع على الأرض أو فوق جثة ضحيته اذا
لم يتغلب على ضعفه . وناداه الهرب كقوة لا قبل له بها . لن يستطيع
ان يتخطى الجثة الى الكتاب الأثري . الكتاب المشنوم . ولا شجاعة
عنده ليشعل الشمعة من جديد . العمى احب اليه من ذلك . وشعر بآلم
في ساعديه لعله من أثر اظافر الرجل عند المقاومة اليائسة . وارتعد جسده
لنك الفكرة . كانت جريمة أدهم العصيان، اما جريمته هو فالقتل . قتل
رجل لا يعرفه ولا يعرف لمصرعه على يده مسياً . وهو قد جاء مسياً
وراء قوة يناضل بها المجرمين فانقلب وهو لا يدري مجرماً . واتجه رأسه
في الظلام الى الركن الذي ظن الكتاب معلقاً به . ودفع الباب ثم تسالط
وهو يرده وراءه . وزحف بحذاء الجدار الى الباب . وتريث وراء المقعد
الأخير . لا يرى في هذا البيت الا الخدم فأين سيده ؟ متحول هذه
الجريمة بينها الى الأبد . وشعر بالخيبة والفشل حتى أعمق أعماقه . وفتح
الباب برفق فأعشى النور عينيه وخيل اليه انه ينقض عليه في ضوضاء
صاخبة ووميض صارخ . أغلق الباب ومضى على أطراف أصابعه . وهبط
السلم في ظلمة خالكة . وعبر السلامك الى الحديقة وقد قل من الاعياء
والحزن حذره . واذا بالنائم في السلامك يستيقظ متسائلاً : « من ! »
فليد عرقه لصق الجدار اسفل السلامك وقد أمده الفزع بقوة . ونادى
الصوت كرة اخرى فأجابت قطرة بنوائها . لبث في مكمنه وهو يخشى
أن يساق الى جريمة جديدة . ولما استقر الصمت زحف على ارض الحديقة
الخلفية حتى السور ، وراح يتحسس موضع الثغرة حتى عثر عليها .
ودخلها زحفاً كما جاء . ولما بلغ النهاية او كاد ارتطم بقدم ! واذا
بالقدم تركله في رأسه بسرعة فاقت خاطره .

وثب على صاحب القدم فاشتبكاً في صراع لم يدم طويلاً اذندت عن الآخر صيحة غضب كشفت عن شخصه لعرفة فهتف في ذهول :
- حنش !

تعاوننا على الخروج معاً الى سطح الأرض وقال حنش :
- طالت غيبتك فدخلت لائنسم الاخبار .

فقال عرفة وهو يتنفس بمشقة :

- اخطأت كمادتك ولكن هلم بنا .

عادا الى الحارة المستغرقة في النوم . ولما رآته عواطف هتفت :

- اغتسل .. رباه .. ما هذا الدم يسيل من يدك وعنقك !

فارتعد لكنه لم يجب . ومضى ليغتسل وسرعان ما أغشى عليه . وأفاق بعد قليل وبمساعدة عواطف وحنش . جلس على الكنية بينهما وهو يشعر بأن النوم بات ابعده عنه من الجبلاوي . ولم يعد يتحمل عبء سره وحده فقص عليها ما وقع له في رحلته العجيبة . وانتهى والأعين تحملق فيه برعب وبأس . ودمست عواطف :

- كنت ضد الفكرة من أول الأمر .

غير ان حنش قصد ان يخفف من وقع الكارثة فقال :

- ليس في الامكان تجنب مثل هذه الجريمة !

فقال عرفة بحزن :

- لكنها أبشع من جرائم السنطوري وسائر الفتوات !

فقال حنش :

- هيهات ان تنجيه الظنون اليك .
- لكني قتلت عجوزاً لا ذنب له ، ومن يدري فلعله الخادم الذي أرسله الجبلأوي الى قاسم !
- وغشيتهم فترة صمت قاتمة كالسهاد المرير حتى قالت عواطف :
- ألا يحسن بنا ان ننام ؟
- فقال عرفة .
- ناما انما ، اما انا فلا نوم لي الليلة .
- وانحط الصمت مرة أخرى فوق رؤوسهم . واذا بحنش يسأله :
- ألم تلمح الجبلأوي او تسمع صوته ؟
- فهز رأسه في ضيق قائلاً :
- كلا .
- لكنك رأيت في الظلام فراشه !
- كما نرى بيته !
- فقال حنش في حسرة :
- ظننت غيابك انقضى في محادثته !
- ما أسهل الخيال خارج البيت !
- فقالت عواطف بقلق :
- انت تبدو كالمحموم ومن الأفضل ان ننام .
- من أين يجيء النوم ؟
- لكنه شعر بصدق قولها فيما ينتابه من حرارة وذهول . وعاد حنش يقول بحسرة :
- كنت على بعد ذراع من الوصية لكنك لم تنظر فيها !
- وتقلص وجهه من الألم فقال حنش :
- يا لها من رحلة شاقة وخاسرة !
- نعم !

ثم بنبرة جديدة حادة :

— لكنها علمتني انه لا ينبغي ان نعلم على شيء سوى السحر الذي بين أيدينا ! الا ترى انني غامرت برحلة جنونية جرياً وراء فكرة ربما كانت أبعد ما يكون عن ظني ؟

— نعم ، لم يقل غيرك أحد إن كتابه المشهور كتاب سحر . فقال عرفة وقد بدا أكثر من قبل أنه يكابد حال اضطراب في العقل والنفس :

— تجربة الزجاجة ستنتج أقرب مما تتصور ، وستكون جد نافعة اذا احتجنا للدفاع عن النفس !

وأندر الصمت المخيف بالعودة ، فقال حنش :

— ليتك عرفت من السحر ما يمكنك من الوصول الى البيت الكبير وصاحبه دون تلك المغامرة !

فقال عرفة بحماس :

— السحر لا نهاية له ، ليس بين يدي منه اليوم الا بعض الأدوية ومشروع زجاجة للدفاع او للهجوم ، اما ما يمكن ان يوجد فلا يحيط به خيال .

فقالت عواطف في ضجر :

— ما كان ينبغي ان تفكر اطلاقاً في تلك المغامرة ، جدنا من دنيا ونحن من دنيا أخرى ، وما كنت لتفيد شيئاً من محادثته لو وقعت ، ولعله نسي الوقف والنظارة والفتوات والأحفاد والحارة !

وغضب عرفة بلا سبب ظاهر ، ولكن حالته الطارئة كانت تبرر كل غريب ، وقال بحدة :

— هذه الحارة المغرورة الجاهلة ! ماذا تدري من الأمر ؟ لاشيء ، ليس لديها إلا الحكايات والرباب ، وهيهات ان تعمل بما تسمع ، ويظنون حارتهم قلب الدنيا ، وما هي الا مأوى البلطجية والمتسولين ، كانت في البدء مرتعاً قهراً للحشرات ، حتى حل بها جدكم الواقف !

وأجفل حنش ، على حين بللت عواطف خرقه وهمت بوضعها على
جبينه ، ولكنه ابعد يدها بحدة وقال :
- انا عندي ما ليس عند أحد ، ولا الجبلابي نفسه ، عندي
السحر ، وهو يستطيع ان يحقق لمارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم
مجتمعين .

قالت عواطف بتوسل :

- متى تنام ؟

- عندما تحمد النار المشتعلة في رأسي

فتتم حنش باشفاق :

- أوشك الصبح ان يطلع .

فهمت عرفة :

- فليطلع ، ولن يطلع حتى يقضي السحر على الفتوات ، ويظهر
النفوس من عقاريتها ، ويجلب من الخير ما يغجز الوقف عن جزء منه ،
ويصير هو الغناء المنشود الذي كان يحلم به أدهم .
وتنهّد من أعماقه : ثم طرح رأسه على الجدار في أعياء ، فأملت
عواطف ان يحمى النوم عقب ذلك . وإذا بصوت يجلس في السكون
بقوة هزت النفوس . وتبعته اصوات صراخ وعويل . وثب عرفة قائماً
وهو يقول برعب :

- جثة الخادم اكتشفت !

فقالت عواطف من حلق جاف :

- من أدراك ان الأصوات قادمة من البيت الكبير ؟

وجرى عرفة الى الخارج فتبعاه على الأثر . وقفوا أمام الربع برءوس
متجهة نحو البيت الكبير .

كانت آخر الظلمة ترق وتشف عن أمارات الصباح . وفتحت نوافذ
وأطلت رءوس ، واتجهت جميعاً نحو البيت الكبير . وجساء رجل من
أقصى الحارة مهولاً نحو الجمالية فلما مر بهم سأله عرفة :

- ماذا جرى يا عم ؟

فأجابه دون توقف :

- لله الأمر ، من بعد العمر الطويل مات الجبلوي !

١٠٣

انقلب ثلاثتهم الى البدروم ، وعرة لا تكاد تحمله قدماءه ، فانحط على الكنية وهو يقول :

- الرجل الذي قتلته كان خادماً أسود تعيس المنظر، وكان نائماً في الخلوة .

لم ينبس أحد منهما ، ودفنا نظريهما في الأرض متحاشين عينيه الزائعتين ، فقال بحدة :

- أراكما لا تصدقان ! أقسم لكما انني لم اقرب من فراشه .

فتردد حنش ملياً لكنه شعر بأن الكلام خير على أي حال من تركه للصمت فقال بحذر :

- لعلك لم تتبين وجهه من شدة المفاجأة ؟

فهتف بيأس :

- ابدأ ، انت لم تكن معي !

فهمست عواطف بخوف :

- أخفت من صوتك .

وغادرهما مهرولاً الى الحجرة الخلفية ، وقعد في الظلام وهو يرتجف من الاضطراب . أي جنون دفعه الى تلك الرحلة المشئومة ! أجل كانت رحلة مشئومة . ان الأرض تميد به وتنفض من جوفها الاحزان . ولم يعد له من أمل إلا هذه الحجرة العجيبة .

وأشرق أول شعاع للشمس ، فاذا الناس جميعاً مجتمعون في الحارة حول البيت . وتسربت الأخبار وشاعت ، وبخاصة عقب زيارة الناظر للبيت زورة قصيرة ثم عودته الى بيته . وتناقل الناس ان لصوصاً سطوا على البيت الكبير من خلال نفق حفروه تحت السور الخلفي ، فقتلوا خادماً أميناً ،

ولما علم الجبللاوي بالخبر تأثر تأثراً لم تحمله صحته الواهية في تلك الذروه
من العمر ففاضت روحه . وثار الغضب بالنفوس حتى غطى دخانه
الأسود على الدموع والصراخ . وهتف عرفة لما بلغته الأنباء بزوجته وحنش :
- ها هي الأنباء تصدقني !

ثم ذكر من توه انه على اي حال تسبب في موته . فلاذ بصمت الحجل
والألم . ولم تجد عواطف ما تقوله فغمغت :

- فليرحمه الله !

وقال حنش :

- لم يمت ناقص عمر !

فقال عرفة بنبرة الرباب الحزينة :

- لكنني انا سبب موته ! انا من دون أحفاده جميعاً حتى الاشرار
منهم وما أكثرهم !

فبككت عواطف وهي تقول :

- ذهبت بنفس لا تشوبها شائبة سوء .

واذا بحنش يتساءل في قلق :

- ألا يمكن ان يستدل علينا ؟

فهتفت عواطف :

- فلنهرب .

فأشار اليها عرفة حانقاً وهو يقول :

- وبذلك تقدم اسطع دليل على جريمتنا !

وترامت من الطريق المحتشد اصوات متلاطمة :

- يجب قتل الجاني قبل دفن الرجل !

- يا ألعن جيل في حارتنا ، حتى كبار الأشرار احترموا هذا البيت

عليه ماضيها ، وحتى ادريس نفسه ، علينا اللعنة الى يوم القيامة .

- ليس القتلة من حارتنا ، منذ يتصور ذلك !

- سوف يعرف كل شيء .

- علينا اللعنة الى يوم القيامة .

واشتد اللطم والندب ، حتى انهارت اعصاب حنش فقال :

- وكيف نبقى في الحارة بعد اليوم !

واقترح آل جبل ان يدفن الجبلاوي في مقبرة جبل لاعتقادهم من ناحية انهم اقرب نسباً اليه من الآخرين ، ولأنهم كرهوا ان يدفن في المقبرة التي تضم ادريس فيما تضم من رفات اسرة الواقف من ناحية اخرى . وطالب آل رفاعه ان يدفن في القبر الذي دفن فيه رفاعه بيديه ! وقال آل قاسم إن قاسم خير احفاد الواقف وإن قبره هو أليق قبر بجهنم الجدل العظيم . وكادت ان تقع فتنة في الحارة ولما يدفن الرجل . لكن الناظر قدري أعلن ان الجبلاوي سيدفن في المسجد الذي أقيم في مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير . ولاقى هذا الحل ارتياحاً عاماً ملحوظاً وان اسف أهل الحارة على حرمانهم من مشاهدة جنازة الجدل كما حرموا من قبل من مشاهدة الرجل في حياته . وتهامس آل رفاعه فرحين بأن الجبلاوي سيدفن في القبر الذي دفن فيه رفاعه بيديه . لكن أحداً غيرهم لم يكن يصدق تلك الحكاية القديمة ، وراحوا يسخرون منهم حتى ثار عجاج فتوتهم وأوشك ان يلتحم في معركة بالسنطوري . وعند ذاك تصدى سعد الله للجميع وصاح مندرأ :

- سأكسر رأس اي مكابر يحاول النيل من احترام هذا اليوم الحزين ! ولم يشهد الغسل إلا خدمة المقربون . وهم الذين كفنوه وأودعوه نعشه . وحلوا النش الى البهو الكبير الذي شهد اخطر احداث الأسرة كعهده بالنظارة الى أدهم وثورة ادريس عليه . ثم دعي للصلاة عليه الناظر ورءوس جبل ورفاعة وقاسم . ووري بعد ذلك في قبره والشمس تميل نحو الغروب . وفي المساء أم السراشق جميع أولاد الحارة . وذهب اليه عرفة وحنش فيمن ذهب من آل رفاعه . وبدا وجه عرفة الذي لم يذق طعم النوم منذ ارتكب جريمته كوجه ميت . ولم يكن للناس من

حديث الا أجد الجبلاوي ، قاهر الخلاء وسيد الرجال ورمز القوة والشجاعة ، صاحب الوقف والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة .
ربدا عرفة حزينا ولكن ما كان يدور بنفسه لم يخطر لأحد على بال .
ذلك الذي اقتحم البيت غير مبال بجلاله . الذي لم يتأكد من وجود جده إلا عند موته ! الذي شذ عن الجميع ولوث يديه الى الأبد . وتساءل كيف يمكن التكفير عن هذه الجريمة ؟ ان مآثر جبل ورفاعة وقاسم مجتمة لا تكفي . القضاء على الناظر والفتوات وانقاذ الحارة من شرورهم لا يكفي . تعريض النفس لكل مهلكة لا يكفي . تعليم كل فرد السحر وفنونه وفوائده لا يكفي . شيء واحد يكفي هو ان يبلغ من السحر الدرجة التي تمكنه من إعادة الحياة الى الجبلاوي ! الجبلاوي الذي قتله اسهل من رؤيته . فلهذه الأيام القوة حتى يفسد الجرح النازف في قلبه . وهؤلاء الفتوات ذوو الدموع الكاذبة . ولكن آه ثم آه لم يأثم أحدهم كما أثم . وكان الفتوات يجلسون واجبين ، يركبهم الخزي والهوان . ستقول الحواري إن الجبلاوي قتل في بيته ومن حوله الفتوات الكبار يحششون . لذلك تتوعد نظراتهم بالانتقام . الويل والموت يطلان من عيونهم . وعندما عاد عرفة الى البدروم في آخر الليل جذب عواطف اليه وسألها في استغاثة يائسة :

— عواطف ، صارحيني برأيك ، هل ترينني مجرماً ؟
فقال برقة :

— انت رجل طيب ، انت أطيب من صادفت في حياتي ، وإمكانك أن تسهم حظاً !

فأغمض عينيه وهو يقول :

— لم يتجرع أحد قبلي الألم كما تجرعه .

— نعم .. اعرف ذلك .

وقبلته بشفتين باردتين وهمست :

— اخشى ان تحمل بنا اللعنة .

فحول عنها وجهه ، وقال حنش :
- لست مطمئناً ، سيكتشف امرنا اليوم او غداً ، لا اتصور ان
يعرف كل شيء عن الجبلابي ، أصله ، وقفه ، سيرته في ابنته ،
اتصالاته بجبل ورفاعة وقاسم ، وان يجهل فقط موته !
ففنخ عرفة في ضيق وسأله :
- هل عندك حل غير الهرب ؟
فلزم حنش الصمت ، فعاد الآخر يقول :
- اما انا فعندي خطة ، غير اني اود ان اطمئن الى نفسي قبل
الشروع في تنفيذها ، اذ لا استطيع ان اعمل ان كنت مجرمًا .
فقال حنش بفتور :
- انك بريء .

فقال بحدة :
- سأعمل يا حنش ، لا تخف علينا ، فان الحارة ستشغل عن الجريمة
الكبرى بالأحداث ، ستقع عجائب ، وستكون ذروة العجائب ان تعود
الحياة الى الجبلابي .
تأوهت عواطف ، اما حنش فقال مقطباً :
- هل جننت ؟
فقال بصوت المحموم :

- ان كلمة من جدنا كانت تدفع الطيبين من احفاده الى العمل حتى
الموت ، موته اقوى من كلماته ، انه يوجب على الابن الطيب ان يفعل
كل شيء ، ان يحمل محله ، ان يكونه ، أفهمت ؟ !

١٠٤

تأهب عرفة لمغادرة البدروم بعد ان سكت آخر صوت في الحارة .
أوصلته عواطف حتى الدهليز محمرة العينين من البكاء ، وكانت تقول
في تسليم من لا حيلة له :

— فلتحرسك العناية .

اما حنش فتساءل في اصرار :

— لم لا أصحبك ؟

فقال عرفة :

— الهرب أيسر على واحد منه على اثنين .

فقال له ناصحاً وهو يربت ظهره :

— لا تستعمل الزجاجة الا عند اليأس .

فأولاً برأسه موافقاً وذهب .لقى نظرة على الحارة الغارقة في الظلام ثم مضى نحو الجالية . ودار دورة كبيرة شملت حارة الوطاويط والدراسة والخلاء فيما وراء البيت الكبير، حتى انتهى الى سور بيت سعدالله المشرف على الخلاء من ناحية الشمال . واتجه نحو موضع في منتصف السور ، وتحسس الأرض حتى عثر على حجر فأزاحه ثم غاص في الممر الذي دأب على حفره — هو وحنش — ليلة بعد أخرى . زحف على بطنه حتى نهايته، ثم عالج يديه القشرة الرقيقة التي تسده ونفذ منها إلى حديقة بيت الفتوة . كمن وراء السور وألقى نظرة على المكان فرأى في البيت نافذة مغلقة تنضح بضوء خافت ، أما الحديقة فقد غشيها النوم والظلام الا نور نافذة المنطرة الساهرة . ومن المنطرة ترامت بين آونة وأخرى عربدات الساهرين وضحكاتهم الغليظة . استل من صدره خنجراً ولبث متوثباً والوقت يمر أثقل من الذنوب . لكن الغرزة انفضت عقب وصوله بنصف ساعة . فتح بابها وخرج الرجال تباعاً نحو الباب الخارجي المفضى الى الحارة والبواب يتقدم بفانوس في يده . واغلق الباب وعاد البواب متقدماً سعدالله نحو السلامك . تناول عرفة من الأرض حجراً بيسراه ، وتسلسل متقوساً والخنجر بيمنه ثم كمن وراء نخلة حتى هم سعدالله بارتقاء أول درجة من درجات السلم فانقض عليه وأغمد خنجره في ظهره فوق القلب . نددت عن الرجل صرخة ثم تقوض بناؤه . التفت البواب مدعوراً

لكن الحجر أصاب الفانوس فأطفأه وحطمه ثم جرى عرفة مسرعاً نحو
 السور الذي جاء منه . وصرخ البواب صرخة مدوية . وسرعان ما
 تدافعت أقدام وتلاطمت اصوات في الداخل وفي آخر الحديقة . وعثر
 عرفة في جريه بقائم كأنه أصل شجرة مقطوعة ، فسقط على وجهه وهو
 يحس بألم يهرسه في ساقه وكوعه ، لكنه تغلب على ألمه وقطع بقية المسافة
 الى النفق زحفاً . وارتفعت الاصوات واشتد وقع الاقدام . رمى بنفسه
 في النفق وزحف بسرعة حتى خرج الى الحلاء . ونهض وهو يئن ثم
 اندفع شرقاً . وقبل ان يدور مع سور البيت الكبير التفت ورائه فرأى
 اشباحاً تندفع نحوه وسمع صوتاً يصيح : « من هنا » افضاعف من
 سرعته رغم ألمه حتى بلغ نهاية السور الخلفي للبيت الكبير . وعندما عبر
 الفراغ الذي يفصل بين البيت الكبير وبيت الناظر لمح اضواء كالمشاعل
 وسمع ضجة فاندفع في الحلاء متسماً سوق المقطم . وشعر بأن الألم
 سيقهره عاجلاً او آجلاً ، وبأن اقدام المطاردين تقترب واصواتهم تتعالى
 صارخة في السكون « امسك .. حلق » . عند ذلك اخرج الزجاجة
 من عبه ، الزجاجة التي قضى الشهور في تجربتها ، ثم توقف عن الجري
 واستقبل القادمين بوجهه ، وأحسد بصره حتى تراءت له اشباحهم ثم
 قذف الزجاجة عليهم . وما هي الا ثانية حتى دوى انفجار لم تعرفه
 اذن من قبل . وتتابعت صرخات وتأوهات . وواصل جريه وقد كفت
 الاقدام عن مطاردته . وعند حافة الحلاء ارتمى على الأرض وهو يلثث
 ويئن . لبث في ألم وعجز وحيداً تمت النجوم . ونظر ورائه فلم ير إلا
 ظلاماً وصمتاً . وجعل يمسح الدم السائل على ساقه ييسده ثم جففها في
 الرمال . وشعر بأنه ينبغي ان يذهب معها كلفه الأمر فقام معتمداً على
 يديه ، وسار متمهلاً نحو الدراسة . وفي اول الدراسة رأى شبحاً قادمًا
 فنظر نحوه بحذر وخوف ، ولكن القادم مر به دون ان يلتفت اليه فتنهد
 في ارتياح . ومضى راجعاً في نفس الدورة التي جاء بها . ولما اقترب

من حارة الجبلأوي ترامت الى اذنه ضجة حارة غير مألوفة في ذلك
الهزيع من الليل . خليط من الاصوات المادرة والبكاء والصرخات الغاضبة
ونذر شر تطاير في الظلام . تردد ملياً ثم تقدم ملتصقاً بالجدران .
والقى نظرة من عين واحدة عند ركن الحارة فرأى خلقاً كثيراً متجمعاً
في الآخر فيما بين بيتي الناظر وسعدالله على حين بدا حي قاسم خاليساً
مظلماً . وتسلسل بجذء الجدار حتى غيبه الربيع . ارتنى بين عواطف
وحنش ، ثم كشف عن ساقه الدامية فارتاعت عواطف وذهبت مسرعة
لنعود بطبق القلة المملوء بالماء ، وراحت تغسل الجرح وهو يعرض على
اسنانه حتى لا تفلت منه صرخة ألم . وساعدها حنش وهو يقول بقلتي:
- الغضب يشتعل في الخارج كالنار .

فسأله عرفة بوجه متقبض :

- ماذا قالوا عن الانفجار ؟

- وصف الذين كانوا يطاردونك ما وقع فلم يصدقهم أحد ، لكنهم
وقفوا ذاهلين امام الجراح التي اصابته الوجوه والاعناق ، وكادت
حكاية الانفجار تغطي على مقتل سعدالله !
فقال عرفة :

- قتل فتوة الحارة ، وغداً يبدأ التناحر بين الفتوات على مكانه !

ثم نظر الى زوجته المنهمكة في تضميد جراحه برقة وقال :

- عهد الفتوات موشك على الزوال ، وأولهم قاتل أبيك !

لكنها لم تجب . وظلت عينا حنش ترمضان في قلتي . ثم اسند عرفة
رأسه الى يده من شدة الألم .

١٠٥

في باكر الصباح طرق طارق باب البدروم ، ولما فتحت عواطف
رأت أمامها عم يونس بواب بيت الناظر ، فحيته برقة ودعته الى الدخول ،
لكنه قال وهو ثابت في مكانه :

- حضرة الناظر يطلب عم غرفة الى مقابلته لاستشارة عاجلة !
ذهبت عواطف لابلأغ غرفة دون ان تجد للدعوة العالية السرور
الخليق بها في غير الظروف التي تعانيها .
ومضت فترة قصيرة ثم جاء غرفة مرتدياً خبر ملابسه ، جلباباً ابيض
ولاسة منقطة ومركوباً نظيفاً ، غير انه كان يتوكأ على عصا لعرج
طارىء غير خاف ، فرفع يده تحية وغن :
- نحت الأمر .

فسار البواب وهو يتبعه . وكانت الكآبة تغشى الحارة من اولها الى
آخرها ، فالأعين قلقة كأنما تنساءل في خوف عما سيحيى به الغد من
الكوارث ، وأعوان الفتوات تجمعوا في المقاهي ينشاورون ، على حين
تتابع العويل والنواح في بيت سعد الله . ودخل بيت الناظر وراء البواب ،
فسارا في الممر المسقوف بهريشة الياسمين حتى بلغا السلامك . وتخيّل
أوجه الشبه بين هذا البيت والبيت الكبير فوجدوها كثيرة حتى ظن الا
اختلاف إلا في الدرجة ، وقال لنفسه بحق : « تقلدونه فيما ينفعكم لا
فيما ينفع الناس ! » . وسبقه البواب ليستأذن له ثم عاد ليشير اليه
بالدخول فضى الى البهو الكبير حيث رأى الناظر قدرى جالساً في انتظاره
في أقصى المكان . وقف على بعد ذراع منه وهو ينحني احتراماً حتى
تقوس ظهره . وبدا لعينه من أول لمحة طويل القامة قوي البنيان ممثلي
الوجه باللحم والدم ، ولما ابتسم اليه رداً على تحيته افترقه عن اسنان
صفير قدرة لا تناسب بهاء منظره بحال . واثار اليه ان يجلس الى جانبه
على ديوانه ، لكن غرفة اتجه الى اقرب مقعد وهو يقول :

- عفواً يا حضرة الناظر !
لكن الناظر اصرّ على دعوته فأشار الى الديوان قائلاً بلطف وأمر معاً :
- هنا .. اجلس هنا .

هلم يجده بدأ من الجلوس الى جانبه في أقصى الديوان وهو يقول

لنفسه : لا شك انها حالة سرية ! وتأكد ظنه حينما رأى البواب وهو
يفلق باب البهو ! ولبث صامتاً في حال خضوع والناظر يرمقه بهدوء ،
ثم قال الناظر في نبرة هادئة كالمناجاة :
- عرفة ! لمَ قتلت سعدالله ؟

تجمد البصر تحت البصر . وسابت المفاصل . ودار كل شيء .
وانقلب المستقبل ماضياً . ورأى الرجل ينظر اليه بعين الواصل فلم يشك
في انه عرف كل شيء كالقضاء والقدر . ثم لم يمهله فقال بشيء من الحدة :
- لا ترتعب ! لماذا تقتلون اذا كنتم هكذا ترتعبون ؟ تمالك مشاعرك
لستطيع ان تجيبني ، وخبرني صراحة لمَ قتلت سعدالله ؟
وكره الصمت فقال وهو لا يدري ما يقول :
- سيدي .. أنا !

فقال الناظر بحدة :
- يا ابن الخبيثة أحسبني أهذي ! او انني اتكلم دون دليل ؟
أجيني لماذا قتلته ؟

وهو يتمزق من الحيرة واليأس جالت عيناه في أرجاء البهو بحركة
لا معنى لها ، فقال الناظر بصوت بارد كاللوت :
- لا مهرب يا عرفة ! وفي الخارج أناس لو علموا بأمرك لمزقوك
بأسنانهم ولشربوا دمك .

وكان النواح يشتد في بيت الفتوة ، أما آماله فقد ووريت في التراب .
وفتح فمه دون ان يقول شيئاً .
فقال الناظر بقسوة :

- الصمت مهرب في متناول اليد ، سأدفع بك الى الوحوش في
الخارج وأقول لهم هاكم قاتل سعدالله ، وان شئت اقول لهم هاكم
لائل الجبلأوي !

هتف بصوت مبحوح :
- الجبلأوي !

— حافر الاتفاق وراء الأسوار الخلفية ! نجوت في المرة الأولى
ووقعت في الأخرى ، لكن لماذا تقتل يا عرفة ؟
وقال في يأس بلا قصد ولا معنى :
— بريء يا حضرة الناظر ، انا بريء !

فقال في نهك :

— اذا اعلنت تهمتكم فلن يطالبني أحد بدليل ، في حارتنا الاشاعة
حقيقة ، والحقيقة حكم ، والحكم هو الاعدام ، ولكن خبرني عما دفعك
الى اقتحام البيت الكبير ؟ ثم قتل سعد الله ؟
هذا الرجل يعرف كل شيء . كيف ؟ لا يدري لكنه يعرف كل
شيء . والا فلماذا صب عليه اتهامه دون أهل الحارة جميعاً ؟

— هل كنت تقصد السرقة ؟

غضب بصره في يأس لكنه لم يتكلم فهتف الناظر في غضب :

— انطق يا ابن الافاعي !

— سيدي .

— لماذا تسعى الى السرقة وانت افضل حالاً من كثيرين ؟

فقال بنبرة الاعتراف اليائسة :

— النفس امارة بالسوء .

ضحك الناظر بظفر ، أما عرفة فساءل نفسه في حيرة : عما جعل
الرجل يؤجل الفتك به الى الآن . بل لم لم يفض بصره الى احسد
الفتوات بدلا من استدعائه على ذلك النحو الغريب ؟ وتركه الناظر لنفسه
كأنما يعذبه ، ثم قال :

— يا لك من رجل خطير !

— انا رجل مسكين .

— أبعده في المساكين من يحوز سلاحاً كسلاحك الذي هزي بالنبايت ؟

لا يبكي ميت على فقد بصره . هذا الرجل هو الساحر حقاً لا هو .

وجعل الناظر يتلذذ بياسه ملياً ثم قال :

— انضم أحد خصمي الى مطارديك ، وكان متأخراً عنهم فلم يصبه سلاحك ، ثم تبعك وحده في هدوء فلم يشعر بمطاردته الخفية ، ثم عرفك عند الدراسة فلم يهاجمك خوفاً على نفسه من مفاجأتك ، وسارع إلي فأخبرني .

فقال عرفة بلا وعي :
— الا يمكن ان يخبر أحداً غيرك ؟
فقال مبتسماً :

— انه خادم أمين .
ثم بنبرة ذات معنى :
— الآن حدثني عن سلاحك .

أخذت الغيوم تتكشف لناظريه . الرجل يطمع قيا هو أثنى من حياته ! لكن يأسه كان محبطاً . وأين المفر ؟ قال بصوت منخفض :
— هو أبسط مما يتصور الناس !
فقت نظرتة وتجههم وجهه وقال :

— في وسعي ان افتش بيتك الآن لكنني اتحاشى لفت الانظار اليك ،
ألا تفهم ؟
وسكت ملياً ثم أردف :

— لن تهلك ما دمت تطيعني !
كان يتكلم ونذر الوعيد تتطاير من عينيه ، فقال عرفة وقد طفت باليأس روحه :
— ستجدني رهن مشيتك .

— بدأت تفهم يا ساحر حارتنا ، لو كان مقصدي قتلك ، لكنت الساعة في بطون الكلاب .

ثم تنحنح وواصل حديثه قائلاً :
— دعنا من الجبلأوي وسعد الله وحدثني عن سلاحك ، ما هو ؟
فقال بدهاء :

- زجاجة سحرية !
- فحلجته بنظرة ارتياب وقال :
- أفصح !
- فقال وهو يسترد شيئاً من الطمأنينة لأول مرة :
- لغة السحر لا يتكلمها الا اهلها .
- ألا تفصح حتى ولو وعدتك بالسلامة ؟
- فضحك باطنه ولكنه قال بمجدّ ظاهر :
- ما قلت الا الحق .
- فنظر الرجل الى الأرض قليلاً ثم رفع رأسه متسائلاً :
- الديك منها الكثير ؟
- ليس لديّ منها شيء الساعة !
- فعض الناظر على اسنانه هائفاً :
- يا ابن الأفاعي !
- فقال عرفة ببساطة :
- فتش بيتي لترى صدقي بعينك .
- أأستطيع ان تصنع مثلها ؟
- فقال بثقة :
- بكل تأكيد .
- فشبك ذراعيه على صدره من شدة الانفعال ، وقال :
- أريد منها الكثير .
- فقال عرفة :
- سيكون لك منها ما تشاء .
- وتبادلا نظرة تفاهم لأول مرة ، واذا بعرفة يقول بجرأة :
- سيدي يريد الاستغناء عن الفتوات الملاحين .
- فومضت بعيني الرجل نظرة غريبة وسأله :
- صارحني بما دفعك الى اقتحام البيت الكبير ؟

- فقال عرفة ببساطة :
- لا شيء الا حب الاستطلاع ، وقد ساءني مقتل الخادم الأمين عن غير قصد مني .
- فحدجته بنظرة ارتباب وقال :
- تسببت في موت الرجل الكبير !
- فقال عرفة بحزن :
- شدة ما ينقطع قلبي حزناً لذلك .
- فهز الناظر منكبيه قائلاً :
- ليتنا نحيا مثله !
- يا لك من منافق ائيم ! لا شيء يهيك الا الوقف ! وقال :
- أمد الله في عمرك .
- فعاد يسأله بارتباب :
- ألم تذهب الاجرياً وراء الاستطلاع ؟
- بلى .
- ولماذا قتلت سعد الله ؟
- فقال بصراحة :
- لأنني مثلك أود القضاء على جميع الفتوات .
- فابتسم الرجل وقال :
- أنهم شرّ مستحكم !
- لكنك في الحق نبغضهم لما يأخذون من أموال الوقف ، لا لشرهم .
- بالحق نطقت يا سيدي .
- فقال باغراء :
- ستري فوق ما كنت تحلم .
- فقال عرفة بمكر :
- ولا غاية لي الا ذلك .
- فقال الناظر بارتباح :

— لا تهرق نفسك بالعمل نظير الملائم ، تفرغ لسحرك في حمايتي ،
وسيكون لك كل ما تشتهي نفسك !

١٠٦

جلس ثلاثتهم على الكنيسة ، عرفة يقصّ ما حدث له وعواطف
وحش يتابعانه بانتباه وانفعال وفزع ، حتى ختم عرفة حديثه المثير بقوله :
— لا اختيار لنا ، ان جنازة سعد الله لم تخرج بعد ، فاما القبول
واما الابداء .

فقالت عواطف :

— واما الهرب .

— لا مهرب من عيونه التي تحيط بنا .

— لن نكون في كنفه آمنين .

تجاهل قولها كما يريد أن يتجاهل أفكاره وتحول الى حش قائلاً :
— ما لك لا تتكلم ؟

فقال حش بجدّ وحزن :

— عدنا الى هذه الحارة يوم عدنا بأمال بسيطة محدودة ، أنت وحدك
المسئول عن التغير الذي وقع بعد ذلك ، عن تعلقنا بالأمال الكبيرة ،
وكنت أعارض طموحك بادية الأمر ، ولكني عاونتك دون تردد ، وأخذت
أفتنع بأرائك رويداً رويداً ، حتى لم يعد لي من أمل الا أمل حارتنا
في الخلاص والكمال ، واليوم تفاجئنا بخطة جديدة سنصبح بها آلة رهيبة
لاستدلال حارتنا ، آلة لا يمكن أن تقاوم ولا أن تبعد وان جاز أن
يقاوم فتوة او يقتل .

وقالت عواطف :

— ولا أمان لنا بعد ذلك ، فقد ينال منك ما يريد ثم يتمخلص منك
خيلة كما يدبر الآن للفتوات .

كان مقتنعاً في أعماقه بما يقولان ولا يكف عن التفكير فيه ، لكنه
قال وكأنما يحاور نفسه :

— سأجعله دائماً في حاجة الى سحري !

فقالت عواطف :

— ستكون على خير الأحوال فتوته الجديد .

فقال حنش مؤيداً :

— نعم ، فتوة سلاحه زجاجة بدلاً من النبوت ، واذكر مشاعره
نحو الفتوات لتعرف ما ستكون عليه نحك .

واحتد عرفة غضباً فقال :

— ما شاء الله ، كأني الطامع وانما الزاهدان ! انما انا الايمان الذي
أصبحنا به تؤمنان ، وما سهرت الليالي في الحجرة الخلفية وما عرضت
نفسى للموت مرتين الا لخبر حارتنا ، فاذا كنتما ترفضان ما فرض علينا
دون اختيار فأشيرا علي بما يجب فعله .

ونظر اليهما بتحدٍ غاضب فلم ينس منها أحد . وكان الألم يعتصره
والدنيا تبدو كابوساً خانقاً لعينيه . ودهمه شعور غريب بأن ما يعاينه ما
هو الا انتقام لتهجمه القاسي على جده ، فازداد ألماً وحزناً . وهمست
عواطف بتوسل يائس :

— الهرب !

فتساءل بحدة وحقق :

— وكيف الهرب ؟ !

— لا أدري ! لكنه لن يكون أصعب عليك من التسلل الى بيت
الجبلاوي !

فنفخ يائساً وقال بهدوء كالرثاء :

— الناظر الآن بانتظارنا ، عيونه حولنا ، كيف ندبر الهرب ؟

وكان صمت ، يا له من صمت ، كصمت القبر الذي يضم الجبلاوي .
فقال بتشفٍ :

- لا أريد ان انحمل الهزيمة وحدي .

فتأوه حنش قائلاً كالمعتذر :

- لا خيار لنا .

ثم بحرقة :

- قد يلد المستقبل فرصة للنجاة .

فقال عرفة بلبث شارد :

- من يدري !

ومضى الى الحجرة الخلفية وحنش في اثره . وأخذنا يعيثان بعض القوارير بقطع من الزجاج والرمل وغيرها . واذا به يقول :

- ينبغي ان نتفق على رموز للدلالة على خطوات أعمالنا السحرية :

وان نسجل صورها في كراسة أمينة سرية حتى لا يتعرض جهدنا للضياع او يكون موتي نذير النهاية لهذه التجارب . ومن ناحية أخرى أرجو

ان يكون لديك الاستعداد لتعلم السحر، فما ندري شيئاً عما يجتبه القدر لنا !

وواصل عملهم بهمة عالية . وحانت من عرفة التفاتة الى صاحبه

فراه متجهماً فلم يخف عليه سره ، لكنه قال مداراة للموقف الغريب :

- ستقضي هذه القوارير على الفتوات !

فقال حنش فيما يشبه الحمس :

- لا لحسابنا ولا لحساب حارثنا .

فقال دون ان تكف يداه عن العمل :

- ماذا علمتكم رباب الشاعر ؟ وجد في الماضي رجال أمثال جبل

ورفاة وقاسم ، فماذا يمنع ان يجيء أمثالهم في المستقبل ؟

فقال حنش متنهداً :

- كدت أحسبك في بعض الأوقات أحدهم .

فضحك عرفة ضحكة جافة مقتضبة وتساءل :

- وهل عدلت بك عن ذلك هزيمتي ؟

فلم يجب ، فعاد الآخر يقول :

- لن أكون مثلهم في ناحية واحدة على الأقل ، وهي أنهم كانوا ذوي اتباع من أولاد حارتنا ، اما انا فلا يفهمني أحد .
ثم وهو يضحك :

- كان في وسع قاسم ان يكتسب تابعاً قوياً بكلمة حلوة ، اما انا فتلزمي أعوام وأعوام حتى أستطيع ان أدرب رجلاً على عملي وأجعل منه تابعاً .

وفرغ من تعبته زجاجة فأحكم سداتها وعرضها أمام ضوء المصباح في إعجاب ، ثم قال :

- هي اليوم ترعب الافئدة وتدمي الوجوه بالجراح ، وغداً قد تقتل قتيلاً ، قلت لك إنه ليس للسحر من نهاية !

١٠٧

من فتوة حارتنا ؟ مضى الناس يتساءلون عنه منذ رقد سعد الله في قبره . وأخذ كل فريق يزكي رجله . قال جيل قالوا إن يوسف أقوى فتوات الحارة وأوثقهم نسباً بالجبلاوي . وقال آل رفاعة لأنهم حي أنبل من عرفته الحارة في تاريخها ، الرجل الذي دفنه الجبلاوي في بيته ويديه . وقال آل قاسم أنهم هم الذين لم يستغلوا النصر لصالح حياتهم ولكن لصالح الجميع فكانت الحارة على عهد رجلهم وحدة لا تتجزأ يسودها العدل والأخوة . وكالعادة بدأت الخلافات همساً في الغرز ، ثم تطايرت في الجو فثار الغبار وتحفزت النفوس لشر المهالك . ولم يعد فتوة يسير بمفرده ، وإذا سهر في قهوة او غرزة أحاط به الاتباع مدحجعين بالنبايت . وراح كل شاعر يدعو بالرباب الى فتوة حيه . وتجهش أصحاب الدكاكين والباعة وكلدن التشاؤم وجوههم . وتناسى الناس موت الجبلاوي ومقتل سعد الله بما ركبهم من هم وتوجس للخوف ، وسبق لأم نبوية بياعة النابت ان تقول بأعلى صوت :

— قطعت العيشة وبانحنت من كان الموت نصيبه .

وذاث مساء ترامى صوت من فوق سطح بحى جبل وهو يصيح :
— يا أولاد حارتنا ، اسمعوا واجعلوا العقل حكماً بيننا وبينكم ، حي
جبل اقدم أحياء الحارة ، وجبل أول رجالها الكرام ، فلا مذلة لأحد
إذا ارتضيتم يوسف فتوة لحارتكم .

فتعالت أصوات الاستهزاء من حيتي رفاة وقاسم ، مصحوبة بقذائف السب
واللعن ، وما لبث ان تجمع الصغار امام الربوع وراحوا ينشدون :

يا يوسف يا وش القملة من قللك تعمل دي العملة
واشتدت القلوب غلظة وسواداً . ولم يؤجل وقوع الكارثة الا ان
التناحر كان يقوم بين ثلاث قوى متضادة معاً ، وانه كان لا بد
من ان يتحد حيان او ان ينسحب من التنافس حي مختاراً . ووقعت
احداث بعيداً عن الحارة ذاتها . فقد التقى بائعان في بيت القاضي ،
احدهما من جبل والاخر من قاسم ، فاشتبكوا في معركة حامية فقد فيها
القاسمي اسنانه والجيلي عينا . وفي حمام السلطان نشبت معركة اخرى بين
نسوة من جبل ورفاعة وقاسم وهن عرايا في المغطس فانفرست الاطافر
في الحدود والأسنان في السواعد والبطون والأيدي في الضفائر ، وتنتطابرت
الاكواز وأحجار الحلك والياف التدليك وقطع الصابون ، وانجملت المعركة
عن اغماء امرأتين واجهاض ثالثة وبض أجساد لا حصر لها بالدم .
وعند ظهيرة اليوم نفسه ، عقب عودة المتعاركات تباعاً الى الحارة ،
استؤنفت المعركة من جديد من فوق الاسطح ، واستعمل فيها الطوب
والسباب الفاحش ، وسرعان ما امتلأت سماء الحارة بالقذائف وارتفع
صراخها الى السحاب . واذا برسول من قبل الناظر يتسلل خفية الى
يوسف فتوة جبيل ويدعوه الى مقابلة الناظر . وحرص الفتوة على ان
يقابل الناظر دون ان يدري به أحد . واستقبله الناظر بلطف وطلب اليه
ان يعمل على هدنة الخواطر في حيتّه وبخاصة ان ذلك الحى هو التالي

موقعه لبيت الناظر . وعندما صافحه مودعاً قال له إنه يتمنى ان يستقبله في المرة الآتية وهو فتوة الحارة كلها ! وخرج الرجل من بيت الناظر ثملاً بتأييده الصريح له ، وآمن بأن الفتوة باتت في متناول يديه . وما لبث ان ألزم حيته بالنظام . وتهامس الناس في حيه بما يدخره الغد لهم من سيادة وجاه . وتسربت من حيهم الأنباء الى بقية الحارة فهاجت الخواطر . ولم تمض أيام بعد ذلك حتى تقابل عجاج والسنطوري سرّاً فاتفقا فيما بينهما على القضاء على يوسف من ناحية ، ثم على الاقتراع على الفتوة بعد النصر من ناحية أخرى . وعند فجر اليوم التالي تجمع الرجال من آل قاسم ورفاعة فهاجموا حي جبيل ، فدارت معركة شديدة ، لكن يوسف وكثرة من اتباعه قتلوا وهرب الباقيون ، وأذعن آل جبيل للقوة يائسين . وحدد العصر لاجراء القرعة المتفق عليها . وعند المساء مرع القاسمية والرفاعية رجالاً ونساء الى رأس الحارة امام البيت الكبير ، وامتدت جموعهم جنوباً حتى بيت الناظر وشمالاً حتى بيت الفتوة الذي سيصبح ملكاً للفائز بالقرعة . وجاء السنطوري وعصابته كما جاء عجاج وعصابته فتبادلوا تحيات السلام والتعاهد . وتعانق عجاج والسنطوري امام الجميع ، وقال عجاج بصوت سمعه جميع المتطلعين :

— انا وانت أخوان ، وسنبقى أخوين في جميع الأحوال .

فقال السنطوري بحماس :

— على الدوام يا سيد الجدعان !

وقف الحيّان متقابلين ، يفصل بينهما فراغ أمام مدخل البيت الكبير . وجاء رجلان — أحدهما من قاسم والآخر من رفاعية — بمقطف مليء بالقراطيس فوضعهما وسط الفراغ ثم تقهقر كل الى قومه . وأعلن على الجميع ان القادوم هو رمز عجاج وان الساطور هو رمز السنطوري ، وانه وضعت نماذج مصغرة منها في القراطيس مناصفة . وجيء بغلام ليأخذ — وهو معصوب العينين — من المقطف قرطاساً . مدّ الغلام يده في

صمت متوتر ثم استردها بقرطاس . فتحه وهو ما يزال معصوب العينين
وتناول ما فيه ورفع به يده فتهف القاسمية :
- الساطور .. الساطور .

مد السنطوري الى عجاج يده فتناولها الآخر وشد عليها باسماء . وتعالى
هتاف حار :
- يعيش السنطوري فتوة حارتنا .

ومن صفوف الرفاعية تقدم رجل الى السنطوري مفتوح الذراعين ، ففتح
له السنطوري ذراعيه ليعانقه ، لكن الآخر طعنه بسكين في قلبه بمنتهى القوة
والسرعة . سقط السنطوري على وجهه قتيلاً . سيطر الذهول لحظة ثم
انفجر الصياح والوعيد والغضب . وتلاقى الحيان في معركة دامية قاسية . لكن
لم يكن يوجد في القاسمية من يستطيع الوقوف امام عجاج ، فسرعان ما
نفذت الى قلوبهم الهزيمة ، وسقط من سقط ، وجرى من جرى ، ولم
يحيى المساء حتى كانت الفتوة قد تقرر لعجاج . وبينما ضج حي قاسم
بالعويل ، انطلقت الزغاريد من حي رفاعة ، وراحوا يرقصون في الطريق
حول فتوتهم - فتوة الحارة - عجاج . وإذا بصوت يرتفع فوق
الزغاريد صائحاً :

- هس ، اسمعوا ! اسمعوا يا غم !
تطلعوا في عجب الى مصدر الصوت فرأوا يونس بواب الناظر يسير
بين يدي الناظر نفسه الذي جعل يتقدم في هالة من خدمه . مضى عجاج
نحو موكب الناظر وهو يقول :
- محسوبك عجاج فتوة الحارة وخادمكم !
حدجسه الناظر بنظرة ازدراء وقال في الصمت الرهيب الذي غشي
الحارة جميعاً :

- يا عجاج ، لا أريد في الحارة فتوة ولا فتونة !
ذهل رجال رفاعة ، وماتت على شفاههم بسمات الظفر والطرب ،
وتساءل عجاج في دهشة :

— ماذا يقصد حضرة الناظر ؟ !

فقال الناظر بقوة ووضوح :

— لا نريد فتونة ولا فتوة ، دعوا الحارة تعيش في أمان .

فهتف عجاج ساخراً :

— أمان ! ؟

فسدد الناظر نحوه نظرة قاسية لكن الآخر تساءل في تحدّ :

— ومنذا يحميك أنت ؟ !

وإذا بالقوارير تنهال من ايدي الخدم على عجاج وأعوانه ، ودوي الانفجارات يزلزل الجدران ، وشظايا الزجاج والرمسال تصيب الوجوه والاطراف وتفجر الدماء . وانقض الفزع على النفوس كما تنقض الحداى على الفراخ ، فطاشت العقول وسابت المفاصل . وسقط عجاج وأعوانه فأجهز الخدم عليهم . وتعالى الصوات في حي رفاة ، وزغاريد الشمانة في جبل وقاسم . وتوسط يونس الحارة داعياً الجميع الى الانصات حتى ساد الصمت ، ثم صاح قائلاً :

— يا أولاد حارتنا ، جاءكم السعد والأمان بفضل حضرة الناظر أطال الله بقاءه ، فلا فتوة يذلكم او يغتال أموالكم بعد اليوم .
وارتفعت اصوات الهتاء الى السماء .

١٠٨

انتقل عرفة وأسرته بليل من بدروم حي الرفاعية الى بيت الفتوة على عمين البيت الكبير . بذلك أمر الناظر وليس لأمره ردّ . وجدوا أنفسهم في مأوى كالحلم . وراحوا يطوفون بالحديقة الغناء والمنظرة الأنيقة ، والسلامك ، والبهو ، الى غرف النوم والجلوس والسفرة في الدور الثاني والسطح وما يزدحم بمجدرانه وأركانها من بيوت الدجاج وبلاليص الارانب وأعشاش الحمام . ارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة وتنفسوا هواء نقياً ،

- ونشموا روائح ركية . وراح عرفة يقول .
- صورة صغرى من البيت الكبير ولكن بلا أسرار ؟
- فتساءل حنش :
- وسحرك ؟ ألا يعد من الأسرار .
- ولاح الذهول في عيني عواطف وهي تقول :
- لا يحلم أحد بشيء كهذا .
- وتغير الثلاثة منظرًا ولونًا ورائحة . ولكن لم يكده يستقر بهم المقام حتى جاءهم جمع من الرجال ومن النساء ، قال أولهم إنه البواب وثانيهم الطائي وثالثهم البستاني ورابعهم مربى الطيور والأخريات للدار ، فعجب عرفة لهم وسألهم :
- من أذن لكم بالمجيء ؟
- فقال البواب انابة عنهم :
- حضرة الناظر .
- وسرعان ما دعي عرفة الى مقابلة الناظر فذهب من فوره . ولما جلسا جنباً الى جنب فوق الايوان بالبهو قال قدرى :
- سنتقابل كثيراً يا عرفة فلا يزعجك استدعائي لك .
- الحق قد أقلقة المكان والمجلس والرجل لكنه قال ببشاشة :
- سيدي الخير والبركة !
- سحرك أصل الخير كله ، ترى هل أعجبتك الدار ؟
- فقال عرفة في حياء :
- هي فوق الأحلام ، وبخاصة أحلام قوم فقراء مثلنا ، واليوم جاءنا الخدم اشكالاً واللوانا !
- فتفرس الناظر في وجهه وهو يقول :
- هم من رجالي أرسلتهم اليك ليعخدموك وليحموك !
- بحسبوني !
- فقال قدرى وهو يضحك :

— نعم ، ألا تعلم ان الحارة لا حديث لها إلا انتقالك الى بيت الفتوة ؟
ويقولون فيما بينهم / هو هو صاحب القوارير السحرية ، وأهل الفتوات
موتورون كما تعلم ، والآخرون يموتون خسداً ، لذلك كله فأنت في
خطر محيط ، ونصيحتي اليك ألا تأمن أحداً او تسير بمفردك او تبعد
عن دارك !

تجههم وجهه . ما هو الا سجين يحيط به الغضب والمقت . واستدرك
قدري قائلاً :

— لكن لا تخف فان رجالي حولك ، واستمتع بالحياة ما شئت في
بيتك وفي بيتي ، ماذا تخسر وراء ذلك الا الخلاء والحرائب ؟ ولا تنس
ان اهل حارتنا يقولون ان سعد الله قتل بالسلاح الذي قتل به عجاج ،
وان الوسيلة التي تسلل منها القاتل الى بيت سعد الله هي نفس الوسيلة
التي تسلل منها الى البيت الكبير من قبل ، فقاتل عجاج وسعد الله
والجبلابي شخص واحد هو عرفة الساحر .

فهتف عرفة متشنجاً :

— هذه لعنة مطلقة على ربي .

فقال الناظر في هدوء :

— لا تخف ما دمت في كنفني ومن حولك خدمني .

أها اللئيم الذي أوقعني في سجنه ، ما أردت السحر الا للقضاء عليك
لا لخدمتك ، واليوم يمقتني من أحبهم وأود خلاصهم ولعلي أقتل بيد
أحدهم . وقال برجاء :

— وزع أنصبة الفتوات على الناس يرضوا عنك وعنا !

فضحك قدري هازئاً ثم تساءل :

— ولم اذن كان القضاء على الفتوات ؟

وأردف وهو يتفحصه بقسوة :

— انك تتلمس سبيلاً الى رضاهم ! دعك من هذا ، وتعود مثلي

على مقت الآخرين لك ، ولا تنس ان ملاذك الحق هو رضاي عنك .

فقال في قنوط :

— كنت وما زلت في خدمتك !

ورفع الناظر رأسه نحو السقف كأنما يتسلى بتأمل زخارفه ، ثم اعاد رأسه اليه قائلاً :

— أرجو الا يلهيك متاع الحياة الجديدة عن سحرك !

فهز رأسه بالإيجاب فقال الرجل :

— وأن تكثر ما استطعت من القوارير السحرية !

فقال عرفة بحذر :

— لست بحاجة الى اكثر مما لدينا منها .

فدارى الآخر حنقه بابتسامة وقال :

— اليس من الحكمة ان ندخل منها عدداً موفوراً ؟

لم يجب . ودهمه بأس . وتساءل هل جاء دوره هكذا سريعاً ؟
وسأله بغتة :

— سيدي الناظر ، اذا كان مقامي يضايك فاسمح لي بالذهاب الى
غير عودة .

فتظاهر الرجل بالانزعاج وتساءل :

— ماذا قلت يا رجل ؟

فقال وهو يواجهه بنظره صريحة :

— أنا أعلم أن حياتي رهن بحاجتك اليّ .

فضحك الرجل ضحكة لا مرح فيها ثم قال :

— لا تظنني أستهين بذكائك ، وأعترف لك بسلامة تفكيرك ، لكن
كيف توهمت ان حاجتي اليك تقف عند القوارير ؟ أليس في وسع
سحرك ان يصنع أعاجيب أخرى ؟

لكن عرفة واصل حديثه الأول قائلاً بجفاء :

— رجالك هم الذين اذاعوا سر ما قدمت لك من خدمات ، لست

أشك في ذلك ، لكن يجب ان تذكر كذلك ان حياتك في حاجة الى ...
قطب الناظر متوعداً لكن عرفة قال دون تردد :

— أنت اليوم لا فتوات لك ، ولا قوة عندك الا بالقوارير ، وما
لديك منها لا يغني عنك شيئاً ، فاذا مت أنا اليوم تبعتني غداً او بعد غد .
مال الناظر عليه كالوحش فجأة فطوق عنقه بيديه وشد عليه حتى
ارتعد جسمه . لكنه سرعان ما خفف من قبضتيه ، ثم سحبها ، ثم
ابتسم ابتسامة مقبلة وقال :

— أنظر ما كانت ستدفعني اليه سلاطة لسانك ! بينما لا توجد لدينا
دواعٍ للخصومة ، وفي وسعنا ان نستمتع بالنصر وبالحياة في سلام .
تنفس عرفة بعمق ليسترد روحه المذعورة على حين واصل الآخر
حديثه قائلاً :

— لا تخف على حياتك مني ، فسأحرص عليها حرصي على الحياة
نفسها ، تمتع بالدنيا ولا تنس سحرك الذي يجب ان نجني أزاهر ثماره ،
واعلم بأن من يغدر منا بصاحبه فقد غدر بنفسه !

تجههم وجها عواطف وحنش وهو يعيد على مسمعيها ذلك الحديث
في البيت الجديد . وبدأ أن ثلاثتهم تعوزهم الطمأنينة الحقة في ظل
حياتهم الجديدة . لكنهم تناسوا أسباب قلقهم عند العشاء حول مائدة
حفلة بما لذ وطاب من طعام شهي ونبيل معتق . ولأول مرة ارتفع
صوت عرفة وهو يضحك واهتز جذع حنش وهو يقهقه . ومضيا في
حياتهما كما شاءت الظروف . كانا يعملان معاً في حجرة وراء البهو
أعداهما للسحر . ودأب عرفة على تسجيل الرموز التي اصطالحا عليها في
كراسة لم يعلم بها سواهما احد . ومرة قال له حنش في اثناء العمل :

— يا لنا من سجناء !

فقال له محذراً :

— أخفض من صوتك فان للشيطان آذاناً

مد حنش بصره نحو الباب في حقد ثم عاد يقول فيما يشبه الممس :
- أليس من الممكن ان تصنع سلاحاً جديداً نقضي به عليه من
حيث لا يدري ؟
فقال عرفة بامتعاض :

- لن يتاح لنا ان نجربه سرّاً بين هؤلاء الخدم ، فهو لن يخفي عليه
شيء من أمورنا ، وإذا قضينا عليه قضى علينا الموتورون من أهمل
حارتنا قبل ان تدافع عن أنفسنا حياتهم !
- لماذا تعمل إذن بهذا الجلد كله ؟
فتنهّد قائلاً :

- لأنه ليس لي الا ان أعمل .

وكان يذهب عند الأصيل الى بيت الناظر فيجالسه ويشاربه ، ثم
يعود ليلاً الى داره فيجد حنش قد هبأ له الحديقة او الشريبة غرزة
صغيرة فيحششان معاً . ولم يكن معدوداً في الحشاشين من قبل ، ولكن
التيار جرفه . وطارده الملل . وحتي عواطف ، أخذت تتلقن تلك الأشياء .
كان عليهم ان ينسوا الملل والخوف واليأس واحساساً مخزناً بالذنب ،
كما كان عليهم ان ينسوا آمال الماضي العريضة . ورغم ذلك فقد كان
للرجلين عمل . اما عواطف فما كان لها من عمل . كانت تأكل حتى تتخم ،
وتنسام حتى تمل الرقاد ، وتقضي الساعات الطويلة في الحديقة مستمتعة
بشئ ألوان جمالها . وذكرت انها باتت تنعم بالحياة التي تحسّر عليها أدهم .
ما أثقلها من حياة . وكيف تعد مطلباً تذهب النفس حسرات عليه !
لعلها كانت تكون كذلك لو لم تكن سجناء ولم يكن ما يحيط بها عداوة
وبغضاء . لكنها ستلبث سجناء مطوقاً بالكراهية ، ولا مهرب منه الا
حول المجرمة ! ومرة تأخر عرفة في بيت الناظر فخطر لها ان تنتظره
في الحديقة . وتقدمت قافلة الليل وراء حادي القمر وهي جالسة تصغي
الى انعام الغصون ونقيق الضفادع . وانتهت الى صوت الباب وهو يفتح

فاستعدت للقاء القادم ، غير ان حفيف ثوب قادماً من ناحية البدروم
لفت سمعها ، ثم رأت من موقفها شبح خادمة على ضوء القمر مضت
نحو الباب دون ان تدري بها . وتقدم عرفة كالترنح فانتحت الخادمة
ناحية الجدار الممتد من السلامك فلحق بها ، ثم رأتهما يلتحان وقد
اخفاهما ظل الجدار من ضوء القمر ..

١٠٩

انفجرت عواطف كما ينبغي لامرأة من حارة الجبلأوي . انفضت على
الكائن المتلاحم كاللبوة فهوت بقبضتها على رأس عرفة فراجع ذاهلاً
مترنحاً حتى اختل توازنه فوق ، ثم أنشبت أظافرها في عنق الخادمة
وانهالت على رأسها نطحاً حتى مزق صراخها سكون الليل . وقام عرفة
من سقطته لكنه لم يجرؤ على الدنو من المعركة . وجاء حنش مهرولاً
وفي اعقابه عدد من الخدم ، فلما عرف الموقف على حقيقته صرف
الخدم ، وخاص بين المرأتين بكياسة ولباقة حتى استطاع ان يعود
بعواطف الى البيت وهي تقذف بسيل من السباب والشتائم واللعنات .
ومضى عرفة مترنحاً الى المشربية المطلة على الخلاء وارتمى على شلثة
وحيداً في الفرزة ، ثم مد ساقيه وأسند رأسه الى جدار وهو في شبه
غيبوبة . ولحق به حنش بعد فترة قصيرة فاتخذ مجلسه امامه حول المجمرة
صامتاً ، ورمقه بنظرة سريعة ثم عاد ينظر الا الأرض حتى قطع
الصمت قائلاً :

— كان لا بد للفضيحة ان تقع .

فرفع اليه عينين خجلتين وقال ممعناً في الهرب :

— أشعل النار !

ولبثا في المشربية حتى قبيل الصباح . وذهبت الخادمة فحلت محلها
أخرى . وبدأ لعواطف أن ذلك الجو المحيط بها يغري بزلة بعد

أتري . وأخذت تقول كل حركة تصدر عن زوجها تأويلاً سيئاً
يتناسب مع ارتيابها حتى انقلبت الحياة جحيماً . وفقدت الغراء الوحيد
الذي كانت تتمسك به في سجنها المليء بالمخاوف . فلا البيت بيتها ولا
الزوج زوجها . سجن بالنهار وماخور بالليل . وأين عرفة الذي أحبته؟
عرفة الذي تحدى بالزواج منها السنطوري ، والذي عرض نفسه للهلاك
مرات في سبيل الحارة حتى ظننته رجلاً من رجال الرباب ، ما هو اليوم إلا
وغد مثل قدري ومثلما كان سعد الله . والحياة الى جانبه عذاب مشعل
وخوف مؤرق . وعاد عرفة ليلة من بيت الناظر فلم يجد لعواطف أثرأ.
وشهد البواب بأنه رآها تغادر البيت أول الليل ثم لم تعد . ونساء عرفة
ورائحة الخمر تتطاير مع أنفاسه :

— أين ذهبت يا ترى ؟

فقال حنش باشفاق :

— ان تكن في الحارة فهي عند جارنها القديمة أم زنفل بائعة المفتقة.

فقال عرفة غاضباً :

— المرأة لا تؤخذ باللين ، هذه حكمة أهل حارتنا ، فلأهملها حتى

تعود بنفسها ذليلة !

لكنها لم ترجع ، وانقضت عشرة أيام ، فقرر عرفة ان يذهب ليلاً
الى أم زنفل متوخياً الا يشعر بذهابه أحد . وفي الميعاد المضروب تسلل
من البيت متبوعاً بحنش . وما كادا يقطعان خطوات حتى سمعا اقداماً
تبعهما فالتفتا وراءهما فرأيا خادمين من خدم البيت ، فقال عرفة لهما :
— إرجعا الى البيت .

فأجابه أحدهما :

— نحن نخرسك بأمر حضرة الناظر .

تميز غيظاً لكنه لم يعقب . وساروا نحو ربع قديم في حي قاسم ،
وصعدوا الى طابقه الاخير حيث توجد حجرة أم زنفل . طرق عرفة

الباب مرات حتى فتح عن عواطف نفسها بوجهه يعلوه النعاس .
تبينت وجهه على ضوء مصباح صغير بيدها قطبت متراجعة ، فتبعها راداً
وراءه الباب . واستيقظت أم زنفل في ركن الحجرة وراحت تنظر بذهول
نحو القادم . اما عواطف فقالت بحدة :

— ماذا جاء بك ؟ ماذا تريد ؟ لارجع الى بيتك المبارك عليك .
وهمست أم زنفل بانزعاج وهي تحقق في وجهه :
— عرفة الساحر !

وقال عرفة لزوجته دون ان يلقي بالاً الى المرأة المتزعجة :
— اعقلي وتعالى معي .
فقالت بالحدة نفسها :

— لن أعود الى سجنك ، ولن أفرط في راحة البال التي أجدها في
هذه الحجرة .

— لكحك زوجتي .

فارتفع صوتها وهي تقول :

— زوجاتك هناك بالخير والبركة !

وقالت أم زنفل في نبرة احتجاج :

— اتركها لنومها وعود في الصباح .

فرماها بنظرة قاسية دون ان يوجه لها كلمة واحسدة ثم نظر الى
زوجته قائلاً :

— كل رجل وله زلة !

فهتفت :

— أنت نفسك زلة ولا كل الزلات .

فال نحوها قليلاً وقال محركاً الحان الرقة في أوتار صوته :

— عواطف . أنا لا يمكن أن استغني عنك .

— لكني أنا استغنيت !

فتساءل بامتناع :

— ببيعيني لغلطة أفلت وأنا سكران ؟

فهتفت بتشنج :

— لا تعتذر بالسكر ، حياتك كلها أخطاء ، وستحتاج الى عشرات

الأعداء لتبررها ، ولن أجنبي من ورائها إلا المتاعب والعذاب .

— هي على أي حال أفضل من الحياة في هذه الحجرة !

فابتسمت ابتسامة مريرة ساخرة وتساءلت :

— من يدري ؟ خبرني كيف تركك السجانون لتجيء إلي ؟

— عواطف !

فقلت باصرار :

— لن أعود الى بيت لا عمل لي فيه الا التناوب ومعاشرة عشيقات

زوجي الساحر العظيم .

وعبثاً حاول ان يثنىها عن اصرارها . قابلت لينه بالعناد ، وغضبه

بالغضب ، وسبه بالسب ، فارتد عنها يائساً ، ثم غادر المكان متبوعاً

بصاحبه والخدامين . وسأله حنش :

— ماذا أنت فاعل ؟

فقال بامتناع وفتور :

— ما نفعله كل يوم .

وسأله قدرتي الناظر :

— هل من جديد عن زوجك ؟

فأجاب وهو يتخذ مجلسه الى جانبه :

— عنيدة كالبلغل ربنا يحفظ مقامك !

فقال الناظر باستهانة :

— لا تشعل بالك بامرأة عندك خبر منها !

وجعل يتفحص عرفة باهتمام ، ثم سأله :

— هل تعرف امرأتك شيئاً من اسرار عمك ؟
فبادره عرفة بنظرة مريبة ثم قال :
— السحر لا يعرفه الا ساحر !
— أخشى أن...
— لا تخش شيئاً لا ظل له من الوجود .
وامتد الصمت ثواني فعاد يقول في جزع :
— لن تمتد لها يد بسوء وأنا على قيد الحياة !
فكظم الناظر غيظه ، وابتسم ، وأشار الى الكأسين المترعتين داعياً
وهو يقول :
— من قال إن بدأ ستمتد إليها بسوء ؟

١١٠

ولما توثقت الألفة بين قدرتي وعرفة ، جعل يدعوه الى سهراته الخاصة
التي تبدأ عادة عند منتصف الليل . شهد عرفة سهرة عجيبة في البهو
الكبير ، حفلت بكل ما لذ وطاب من مأكّل ومشرب ، ورقصت فيها
نساء جميلات وهن عرايا حتى كاد عرفة يجنّ من الشراب والمنظر .
في تلك السهرة رأى عرفة الناظر يعربد بلا حدود ، مثل وحش مجنون .
ودعاه الى سهرة في الحديقة ، في خميلة يحرق بها مجرى ماء مضاء الوجه
بنور القمر . وكان بين أيديهما فاكهة ونبيد ، وأمامهما مليحتان احدهما
لخدمة المجرمة والأخرى لخدمة الجوزة . وهب نسيم الليل يحمل عرف
الازهار ونغم عود واصوات تغني :

يا عود قرنفل في الجنينة مننع
يعجب الجدعان الحشاشة المجدع
كانت ليلة بدرية يلوح قرها مكتملاً اذا مال غصن التوت الريسان
مع النسيم ، أو يبدو أعيناً من الضياء خلل شبكة من الأغصان والأوراق

إذا رجع الغصن الى مستقره . وسرت من يد المليحة والجزوة نشوة الى
رأس عرفة فدار مع الأفلاك ، وقال :

— رحم الله أدهم .

فقال الناظر باسمًا :

— ورحم الله إدريس ، ماذا ذكرتك به ؟

— مجلسنا هذا !

— كان أدهم يحب الأحلام ، ولا يعرف منها الا ما أدخله الجبلأوي
في رأسه .

ثم وهو يضحك :

— الجبلأوي الذي أرحته أنت من عذاب الكبر !

انقبض قلب عرفة وانطفأت نشوته فغمغم محزونًا :

— لم أقتل في حياتي الا فتوة مجرمًا .

— وخادم الجبلأوي ؟

— على رغي قتلته .

فقال قدري هازئًا :

— أنت جبان يا عرفة .

فهرب الى القمر ينظر اليه خلل الغصون تاركًا الغرزة لانغام العود ،
ثم جعل يسترق النظر الى يد المليحة وهي ترص الحجر . واذا بالناظر
يهتف به :

— أين انت يا ابن المذهول !

فالتفت نحوه باسمًا وهو يسأل :

— أتسهر وحدك يا حضرة الناظر ؟

— لا أحد هنا يليق بمساهرني .

— وحتى انا لا سمير لي إلا حنن !

فقال قدري بامتهانة :

- عند درجة من السطول لا يهلك ان تكون وحدك .
 تردد عرفة قليلاً ثم تسأل :
 - ألسنا في سجن يا حضرة الناظر ؟
 فقال الآخر بحدة :
 - ماذا تريد ما دمنا مطوقين بأناس يمتقوننا !
 وذكر كلمات عواطف وكيف فضلت مسكن أم زنفل على بيته ،
 فقال متنهداً :
 - يا لها من لعنة ..
 - احذر ان تفسد علينا صفونا .
 فتناول الجوزة وهو يقول :
 - لتصف الحياة الى الأبد .
 فضحك قدرى قائلاً :
 - الى الأبد ؟ حسينا ان نضمن نفحة من نفحات الشباب مدى
 عمرنا بفضل سحرك !
 فلأ صدره من غير الحديقة المتطيب بنداوة الليل العميق ثم قال :
 - من حسن الحظ ان عرفة لا يخلو من فوائد !
 ترك الناظر الجوزة ليد المليحة وهو يزفر دخاناً كثيفاً بدا مفضضاً
 في ضوء القمر ثم قال بحسرة :
 - لم يدركنا الهرم ؟ ألد الطعام نأكله وأبهج الشراب نشربه وأطيب
 العيش نهنا به لكن المشيب يزحف في اوانه لا يرده شيء كأنه الشمس
 او القمر .
 - لكن اقراص عرفة تحيل برودة الشيخوخة حرارة !
 - ثمة شيء تقف أمامه عاجزاً !
 - ما هو يا سيدي ؟
 بدا الناظر حزيناً في ضوء القمر ، وتسأل :

- ما ابغض الأشياء الى قلبك ؟
لعله السجن الذي وضع فيه ، لعلها الكراهية المحدقة به ، لعله
الهدف الذي تنكب عنه . لكنه قال :
- ضياع الشباب !
- كلا ، لا خوف عليك من ذلك .
- كيف وزوجي غاضبة ؟
- سيجدن دائماً سبباً او آخر للغضب .
واشته هبوب النسيم مرة فارتفع حفيف الفصون وتوهجت الحمرات
في المعجرة . وتساءل قلدي :
- لماذا نموت يا عرقة ؟
فرمقه بكآبة ولم ينس فأردف الآخر :
- حتى الجبلاوي مات .
كان ابرة انغرزت في قلبه ، لكنه قال :
- كلنا أموات وأبناء أموات .
فقال في ضجر :
- لست في حاجة الى تذكيري بما قلت .
- ليطل عمرك يا سيدي .
- طال او قصر فالنهاية هي تلك الحفرة التي تعشقها الديدان .
فقال عرقة برقة :
- لا تدع الأفكار تكدر صنوك .
- انها لا تفارقي ، الموت .. الموت .. دائماً الموت ، يجيء في أية
لحظة ، ولأنفه الأسباب ، أو بلا سبب على الاطلاق ، أين الجبلاوي ؟
أين الذين تنغني بأعمالهم الرباب ؟ هذا قضاء ما كان ينبغي ان يكون .
رلحظه عرقة فرأى وجهه شاحباً وعينيه تنطقان بالفرع ، فبدا التناقض
صارخاً بين حاله وبين مجلسه ، فداخله قلق وقال برقة :

- المهم ان تكون الحياة كما ينبغي .
فلوَح بيده غاضباً وقال بحدة نعت الصفو نعيّاً :
- الحياة كما ينبغي وأحسن ، لا ينقصها شيء ، حتى الشباب تعيده
الأفراص ، ولكن ما جدوى ذلك كله والموت يتبعنا كالظل ؟ كيف
انساه وهو يذكرني بنفسه كل ساعة ؟
- سر لعذابه ، لكنه سرعان ما سخر من مشاعره ، وتابع يد الحسنة
بشوق وحنان ، وتساءل في سره منداً بضمن لي أن أرى القمر ليسلة
أخرى ، ثم قال :
- لعلنا في حاجة الى مزيد من الشراب !
— سنفيق في الصباح .
- وجد نحوه ازدرأ . وظن ان ثمة فرصة متاحة فأراد ان يحطفها فقال :
- لولا حسد المحرومين من حولنا لتغير مذاق الحياة في افواهنا !
فضحك الناظر ضحكة ساخرة وقال :
- قول بالعجائز أجدر ! هبنا استطعنا ان نرفع حياة أهل حارتنا
الى مستوى حياتنا فهل يقطع الموت عن اضطهادنا ؟
- فهز عرفة رأسه في تسليم حتى خفت حدة الرجل ثم قال :
- الموت يكثر حيث يكثر الفقر والتعاسة وسوء الحال .
— وحيث لا يوجد منها شيء يا أحمق .
- فقال وهو ييهم :
- نعم ، لأنه مُعد مثل بعض الامراض !
فضحك الناظر قائلاً :
- هذا أغرب رأي تدافع به عن عجزك .
فقال متشجعاً بضحكة :
- نحن لا ندرى عنه شيئاً فلعله أن يكون كذلك ، واذا حسنت
احوال الناس قل شره ، فازدادت الحياة قيمة وشعر كل سعيد بضرورة

- مكافحته حرصاً على الحياة السعيدة المتاحة .
- ولن يجدي ذلك قتيلًا .
- بل سيجمع الناس السحرة ليتوفروا لمقاومة الموت ، بل سيعمل بالسحر كل قادر ، هنالك يهدد الموتُ الموت .
- وندت عن الناظر ضحكة عالية ، ثم أغمض عينيهِ مستسلمًا للحلم . وتناول عرفة الجوزة وشدّ نفسها طويلاً حتى اشتعل الحجر . وعاد العود بعد انقطاع يترنم وغنى الصوت الحنون « طول يا ليل ، فقال قدري :
- أنت حشاش يا عرفة لا ساحر .
- فقال عرفة ببساطة :
- بذلك نقتل الموت .
- لم لا تعمل انت وحدك ؟
- اني اعمل كل يوم ولكن ما اعجزني وحدي أمامه .
- واستمع الناظر الى الغناء ملياً دون حماس ثم سأله :
- آه لو تنجح يا عرفة ! اي شيء تفعله لو نجحت ؟ !
- فقال وكأنما أفلت منه القول :
- أردت الى الحياة الجبلاوي .
- فلوى الرجل شفتيه بفتور وقال :
- هذا شأن يعينك بصفتك قاتله !
- فقطب عرفة متألاً وغمغم بصوت غير مسموع :
- آه لو تنجح يا عرفة !

١١١

وعند الفجر غادر عرفة بيت الناظر . كان من السّطل في عالم مسحور غائم المسموعات والمراثيات ولا تكاد تحمله قدماه . مضى ناحية بيته في

حارة غارقة في النوم مفروشة الأديم بضوء القمر . وعند منتصف المسافة بين بيت الناظر وبيته - امام باب البيت الكبير - اعترضه شبح لم يدر من أين أتى ، وقال له فيما يشبه الهمس :

- صباح الخير يا معلم عرفة !

دهمه خوف لعله من المفاجأة انبهت ، لكنّ تابعيه انقضا على الشبح وأمسكا به ، وتفرس فيه فوضح لعينيه رغم ذهولها انه شبح امرأة سوداء مرتدية جلباباً أسود يلفها من العنق حتى القدمين . أمر خادميه ان يتركها فتركها ثم سألها :

- مالك يا وليّة ؟

فقالت بصوت اكّد انها سوداء :

- أريد ان احادثك على انفراد .

- له ؟

- مكروية تشكو اليك كربها !

فقال بضجر وهو يهم بالذهاب :

- الله يحن عليك .

فقالت بضراعة نافذة :

- وحياة جدك الغالي ألا ما سمحت لي .

فحدجها بنظرة غاضبة لكنه لم يحول عن وجهها عينيه ! تساءل أين ومتى رأى ذلك الوجه ! وإذا بقلبه يخفق خفقة أطارات السطل من رأسه . هذا الوجه الذي رآه على عتبة حجرة الجبلاوي وهو مختف وراء المقعد في الليلة المشنومة ! وهذه هي خادمة الجبلاوي التي كانت تشاركه حجرته ! وركبه خوف تخالخت له مفاصله فحملق في وجهها فرعاً . وسأله أحد الخادمين :

- نظردها ؟

فخاطبها قائلاً :

- اذهبا الى باب البيت وانتظرا .
- انتظر حتى ذهبا ، فخلا لها المكان أمام البيت الكبير ، وراح بتفريس في وجهها الأسود الناحل وجبينها الضيق العالي وذقنها المدبب والتجاعيد المحدقة بفيها وجبينها . وقال يطمئن نفسه لأنها من المؤكد لم تره تلك الليلة ، ولكن أين كانت منذ وفاة الجبلاوي وماذا جاء بها ؟ وسألها :
- نعم يا ستي ؟
- فقالته بهدوء :
- لا شكوى لي ، وإنما أردت ان أخلو اليك لأنفذ وصية ا
- أية وصية ؟
- قال رأسها نحوه قليلاً وهي تقول :
- كنت خادمة الجبلاوي وقد مات بين يدي ا
- أنت ا
- نعم أنا فصدقني .
- ولم يكن في حاجة الى دليل فسألها بصوت مضطرب :
- كيف مات جدنا ؟
- فقالته المرأة بنبرة حزينة :
- اشتد به التأثر عقب اكتشاف جثة خادمة ، وبغثة احتضر فسارعت اليه لأسند ظهره المختلج ا ذلك الجبار الذي دان له الخلاء ا
- زفر عرفة بصوت حار كدر سكون الليل ، وانخفض رأسه في حزن كأنما يداريه عن ضوء القمر ، وإذا بالمرأة ترجع الى حديثها الأول قائلة :
- جئتك تنفيذاً لوصيته .
- فرفع رأسه اليها مرتعشاً ، متسائلاً :
- ماذا عندك ؟ تكلمي .
- فقالته بصوت هادىء كنور القمر :

- قال لي قبل صعود السر الالهي « اذهبي الى عرفة الساحر وأبلغيه عني
ان جدّه مات وهو راض عنه » .
- فانقض عرفة كالملدوغ وهتف بها :
- يا دجالة ! ماذا تمكرين ؟ !
- سيدي ، حفظتك العناية .
- خبريني اي لعبة تلعبين ؟
- فقلت ببراءة :
- لا شيء غير ما قلت والله شيهدي .
- فسألها بارتياح :
- ماذا تعرفين عن القاتل ؟
- .. لا أدري شيئاً يا سيدي ، منذ وفاة سيدي وأنا طريحة الفراش ،
وأول ما فعلت بعد شفائي ان قصدتك .
- ماذا قال لك ؟
- اذهبي الى عرفة الساحر وأبلغيه عني ان جدّه مات وهو راض عنه .
- فقال عرفة بتحدّ :
- كاذبة ! انت تعرفين يا ماكرة انني .. (ثم مغيراً نبرته)
كيف عرفت بمكاني !
- سألت عنك أول ما جئت فقالوا لي إنك عند الناظر فلبثت انتظر ..
- ألم يقولوا لك إنني قاتل الجبلاوي !
- فقلت بارتياح :
- ما قتل الجبلاوي أحد ! وما كان في وسع أحد ان يقتله .
- بل قتله الذي قتل خادمه .
- فهتفت بغضب :
- كذب وافتراء ، لقد مات الرجل بين يدي .
- وجد عرفة رغبة في البكاء لكنه لم يسفح دمعة واحدة ، ورنّا الى المراق.

بطرف منكسر فقالت ببساطة :

— افوتك بعافية .

فسألها بصوت غليظ متحشرج كأنه صوت ضميره المعذب :

— اتقسمين على انك صادقة فيما قلت ؟

فقالت بوضوح :

— أقسم بزبي وهو شهيد .

ومضت واللوان الفجر تخضب الأفق فأتبعها ناظره حتى اختفت ثم ذهب . وفي حجرة نومه سقط مغشياً عليه . وأفاق بعد دقائق فوجد نفسه متعباً لحدة الموت فنام ، لكن نومه لم يستمر أكثر من ساعتين ثم ايقظه القلق الباطني . ونادى حنش فجاءه الرجل ، فقص عليه قصة المرأة والآخر يحملق في وجهه كالمتزعج ، فلما فرغ من قصته ضحك حنش قائلاً :

— هنيئاً لك سطل الأمس .

فغضب عرفة وهتف به :

لم يكن ما رأيت سطلاً ، ولكن حقيقة لا شك فيها .

فقال حنش برجاء :

— نعم ، أنت في حاجة الى نوم عميق .

— ألا تصدقني ؟

— كلا طبعاً ، وإذا نمت كما أود واستيقظت بعد حين فلن تعود

الى هذه القصة .

— ولم لا تصدقني ؟

فضحك قائلاً :

— كنتُ في النافذة وأنت تغادر بيت الناظر فرأيتك وأنت تقطع

عرض الحارة نحو بيتك ، وقفت قليلاً أمام باب البيت الكبير ثم واصلت

السبر يتبعك خادماك !

- فوثب عرفة واقفاً وهو يقول بظفر
 - إليّ بالخدامين .
 فأشار حنش إليه محذراً ثم قال :
 - كلا ، وإلا شكنا في عقلك .
 فقال باصرار :
 - ساستشهد بهما على مسمع منك .
 فقال حنش متوسلاً :
 - لم يبق لنا إلا شيء من الكرامة حيال الخدم فلا تبدده .
 فلاح في عيني عرفة نظرة جنونية ، وراح يقول ذاهلاً :
 - لست مجنوناً ، وليس هو بالسطل ! مات الجبلأوي وهو غني راض .
 فقال حنش بعطف :
 - فليكن ولكن لا تدع أحداً من الخدم .
 - إذا وقعت كارثة فستقع أول ما تقع فوق رأسك .
 فقال بحلم :
 - لا سمح الله ، فلندع المرأة لتحدثنا بنفسها ، أين ذهبت ؟
 فقطب متذكراً ، ثم قال باشفاق :
 - نشيت أن أسألها عن مسكنها !
 - لو كان حقيقة ما رأيت لما تركتها تذهب !
 فهتف عرفة باصرار :
 - كان حقيقة ، لست مجنوناً ، وقد مات الجبلأوي وهو غني راض .
 فقال حنش بعطف :
 - لا تجهد نفسك فأنت في حاجة إلى الراحة .
 واقترب منه فربت رأسه ، وبحنوتٍ دفعه نحو الفراش ، وما زال به
 حتى أرقده . أغمض الرجل عينيه أعياء ، وما لبث أن نام نوماً عميقاً .

قال عرفة بهدوء وتصميم :

- قررت أن أهرب .

فدهش حنش دهشة فوق ما يطيق حتى توقفت يداه عن العمل . ونظر بحذر فيما حوله ، ورغم ان حجرة العمل كانت مغلقة الا انه بدا خائفاً . ولم يكثر عرفة لدهشته ، ولم تكف يداه عن العمل ، وراح يقول :

- هذا السجن لم يعد يمدني الا بافكار الموت ، وكأن الطرب والشراب والراقصات ليست إلا الحسان الموت ، وكأنني أشم رائحة القبور في أصص الأزهار .

فقال حنش بقلق :

- لكن الموت نفسه ينتظرنا في الحارة .

- سنهرب بعيداً عن الحارة .

ثم وهو ينظر في عيني حنش :

- وسنعود يوماً لنتنصر .

- اذا استطعنا الهرب !

- اطمأن لنا الأوغاد فلن يعجزنا الهرب .

وواصل العمل ملياً في صمت ، ثم تساءل عرفة :

- أليس هذا ما كنت تود ؟ !

فتبسم حنش في حياء :

- كدت أنسى .. ولكن خبرني ما الذي دعاك اليوم الى هذا القرار ؟

- ابتسم عرفة وهو يقول :

- ان جدي أعلن رضاه عني رغم اقتحامي بيته وقتلي خادمه .

فعاودت الدهشة وجه حنش وهو يتساءل :

— أنغامر بحياتك لحلم رأيت في السّطل ؟
— سمه بما تشاء ، لكنني واثق من انه مات وهو عني راض ، لم
يغضبه الاقتحام ولا القتل ، لكن لو اطلع على حيائي الراحة لما وسعته
الدنيا غضباً .

ثم بصوت خافت :

— لذلك نبهني بلطف الى سابق رضاه !
فقال حنش وهو يهز رأسه عجباً :
— لم يكن من عادتك ان تتحدث عن جدنا باحترام .
— كان ذلك في الزمان الأول وأنا كثير الارتياب ، اما وقد مات
فحقّ للبيت الاحترام .
— الله يرحمه .

— وهيهات ان انسى انني المتسبب في موته ، لذلك فعلي ان أعيده
الى الحياة اذا استطعت ، وان تيسر لي النجاح فلن نعرف الموت .
فرمقه حنش بأسى وقال :

— لم يسهلك السحر حتى اليوم الا باقراص منشطة وقارورة مهلكة !
— نحن نعرف من ابن يبدأ السحر لكن لا نستطيع ان نتخيّل ابن
ينتهي .

وأجال بصره في الحجرة قائلاً :

— سننلف كل شيء الا الكراسي يا حنش ، فهي كنز للاسرار ،
وسأجعلها فوق صدري ، ولن نجد الهرب عسيراً كما تتوهم .

ومضى عرفة كهاده مساء الى بيت الناظر . وقبيل الفجر عاد الى
بيته . وجد حنش مستيقظاً في انتظاره فلبثا في حجرة النوم ساعة حتى
يطمئنا الى نوم الخدم . وتسلا معاً الى السلامك في خفة وحذر . وكان
شخير الخادم النائم في شرفة السلامك يتصاعد في انتظام ، فهبطا السلم ،
وانجها نحو الباب . ومال حنش الى فراش البواب فرفع بيساه هراوة

وهوى بها عليه لكنها أصابت جسماً قطنياً فارغاً وأحدثت صوتاً مزعجاً في سكون الليل . ثبت لها ان البواب ليس في فراشه . وخافا ان يكون الصوت قد ايقظ أحداً فلبثا وراء الباب بقلب خافق . ورفع عرفة المزلاج وفتح الباب على مهل ثم خرج وحشش في اثره . وردا الباب وسارا لصق الجدران نحو ربيع أم زنفل ينحرقان ظلمة صامته . واعترضهما في منتصف الحارة كلب رابض فوقف مستطلعاً ، وجرى نحوهما متشبهاً ، وتبعهما خطوات ثم توقف وهو يتشاءب . ولما بلغا مدخل الربيع قال عرفة همساً :

— ستنظرنني هنا ، وإذا رابك شيء فصفري لي واهرب الى سوق المقطم .
دخل عرفة الربيع فاجتاز الدهليز الى السلم ورقى فيه حتى غرفة أم زنفل ، ونقر على الباب حتى سمع صوت زوجته وهي تسأل عن الطارق فقال بسرعة وحرارة :

— أنا عرفة ، افتحي يا عواطف .
فتحت الباب فطالعه وجهها الشاحب من أثر النوم على ضوء مصباح صغير بيدها . قال مباشرة :

— أتبعيني ، سنهرب معاً .
وقفت تنظر اليه في ذهول على حين ظهرت وراء كتفها أم زنفل ، فقال :

— سنهرب من الحارة ، سنعود كما كنا ، اسرعي .
ترددت قليلاً ، ثم قالت بنبرة لم تخل من غيظ :

— ما الذي ذكرتك بي ؟
فقال بلهفة ولهجة :

— دعي الملام لحينه فللدقيقة الآن ثمنها .
واذا بصغير حنش ينطلق وضجة ترامي فهتف في فزع :

— الكلاب ! ضاعت الفرصة يا عواطف .

وثب الى رأس السلم فرأى في فناء الربع أضواء وأشباحاً فارتدّ يائساً ،
وقالت عواطف :

— أدخل .

فقال أم زنقل بخشونة دفاعاً عن نفسها .

— لا تدخل .

وما قائدة الدخول ؟ وأشار الى نافذة صغيرة بدهليز المسكن وسأل

زوجته بسرعة :

— علام تطل ؟

— المنور .

فامتخرج الكراسة من فوق صدره واندفع نحو النافذة منحيماً عن
سبيله أم زنقل ، ثم رمى بها . وغادر المسكن مسرعاً فأغلق الباب
وراءه . وصعد درجات السلم القليلة المؤدية الى السطح ونبأ . أطل من
فوق السور على الحارة فرآها تعج بالاشباح والمشاعل . وكرامت الى
أذنيه ضجة الصاعدين اليه . وجرى الى السور الملاصق للربع المجاور من
ناحية الجمالية فرأى اشباحاً تسبقه اليه وراء حامل مشعل . ارتد الى السور
الآخر الملاصق لأحد ربوع الرفاعية فرأى من خلال باب سطحه انوار
مشاعل قادمة ! وتملكه يأس خائق . ونخيل اليه انه سمع صراخ أم
زنقل . ترى هل اقتحموا مسكنها ؟ هل قبضوا على عواطف ؟ وإذا
بصوت عند باب السطح يصيح به :

— سلم نفسك يا عرفة !

وقف مستهلاً دون ان ينبس بكلمة . لم يتقدم منه أحد لكن

الصوت قال :

— إذا رميت بزجاجة انهالت عليك الزجاجات !

فقال :

— لا شيء معي .

انقضوا عليه فطرقوه . ورأى بينهم يوثقن بواب الناظر الذي أقرب
منه وصاح به :
- يا مجرم .. يالئيم .. يا كافرأ بالنعمة .
وفي الحارة رأى رجلين يسوقان أمامها عواطف فقال بتوسل حار :
- دعوها فلا شأن لها بي .
لكن لظمة الموت هوت على صدغه فأسكتته .

١١٣

أمام الناظر الغاضب وقف عرفة وعواطف مقيدي اليدين الى ظهرهما
انهال الناظر لطمأ على وجه عرفة حتى كلفت يدها وصاح به :
- كنت تناديني وأنت مبيت الغدر يا ابن الزانية !
فقال عواطف بأعين دامعة :
- ما جاءني الا ليصالحني !
فبصق الناظر على وجهها وصاح :
- اخبرني يا مجرمة .
فقال عرفة :
- انها بريئة ولا ضلع لها في شيء .
- بل شريكك في قتل الجلاوي وسائر جرائمك .
ثم وهو يهز :
- أردت الهرب وسأهربك من الدنيا كلها .
ونادى رجاله فجاءوا بجوالين . دفعوا عواطف فسقطت على وجهها
فسرعان ما قيدوا قدميها وأدخلوها في الجوال وهي تصرخ ثم ربطوا
قرونها ربطاً محكمأ . وصاح عرفة بانفعال جنوني :

— اقتلنا كما تشاء ، سيقنتك الحاقدون غداً .

فضحك الناظر ضحكة باردة وقال :

— عندي من القوارير ما يحميننا الى الأبد .

فصاح عرفة :

— خنث هرب ، بكل الأسرار هرب ، وسوف يعود يوماً بقوة

لا تقاوم فيخلص الحارة من شرك .

فركله في بطنه فسقط يتلوى . وانقض عليه الرجال ففعلوا به ما

فعلوه بزوجه ثم حملوا الجوالين خارجاً ، ومضوا بهما نحو الخلاء . وما

لبث عواطف ان اغمي عليها ولكن بقي هو يعاني العذاب . الى اين

يسرون بهما وماذا اعدوا لهما من الوان الموت ؟ ايقتلونهم ضرباً بالنابيت ؟

بالأحجار ؟ بالنار ؟ أم رمياً من فوق الجبل ؟ يا لهذه الدقائق الأخيرة

من الحياة المشحونة بأفزع الآلام ! حتى السحر لا يستطيع ان يجد لهذا

المأزق الخائني مخرجاً . ان رأسه المتورم من لطات الناظر يرقد اسفل

الجوال فيكاد ان يخنق . ولم يعد له من أمل في الراحة الا بالموت .

سيموت وتموت الآمال وربما عاش طويلاً ذو القهقهة الباردة . وسيشمت

به الذين ودّ لهم الخلاص . ولن يدري احد ماذا سيفعل حنش ..

والرجال الذين يحملونه الى الموت صامتون ، لا تند عن أحدهم كلمة ،

فليس ثمة الا الظلام ، وليس وراء الظلام الا الموت وخوفاً من هذا

الموت انطوى تحت جناح الناظر فخسر كل شيء وجاء الموت . الموت

الذي يقتل الحياة بالخوف حتى قبل أن يجيء . لو رد الى الحياة لصاح

بكل رجل .. لا تخف .. الخوف لا يمنع من الموت ولكنه يمنع من

الحياة . ولستم يا اهل حارتنا احياء ولن نتاج لكم الحياة ما دمتم

تخافون الموت .

وقال رجل من القتلة :

— هنا ..

فقال آخر من القنلة معترضاً :

— هناك الأرض طرية .

ارتعد قلبه رغم انه لم يفهم للكلام معنى ، لكنها كانت لغة الموت على أي حال . واشتد به عذاب المتوقع حتى أوْشك ان يصبح بهم ان يقتلوني ولكنه لم يفعل . وفجأة هوى الجوال الى الأرض فشقق وارتطم رأسه بالأرض فهصر الألم عنقه وعموده الفقري . وانتظر بعد لحظة وأخرى انقضااض النبائيت او ما هو أقطع . ولعن الحياة كلها من أجل الشر حليف الموت . وسمع يونس وهو يقول :

— أحفروا بسرعة حتى نعود قبل الصبح .

لم يحفرون القبر قبل القتل ؟ وخيل اليه انه يحمل المقطم فوق صدره . وسمع أنيناً ما لبث ان ميز فيه نبرة عواطف فندت عن جسده المقيّد حركة عنيفة . ثم ملأت دقائق الحفر أذنيه ! فعجب من غلظة اكباد الرجال . واذا بيونس يقول :

— سيلقي بكما الى قعر الحفرة ثم يهال عليكما التراب دون ان يمسكما لإنسان بسوء !

فصرخت عواطف رغم اعيائها ، وهتفت اعماقه بلغة لم يدرها أحد . ورفعتها أيد شديدة ، ثم رمت بهما الى قعر الحفرة ، فانهاال التراب ، وارتفع الغبار في الغسق .

١١٤

انتشر خبر عرفة في الحارة . لم يعرف أحد أسباب مصرعه الحقيقية ، ولكن بالتخمين عرفوا انه أغضب سيده فدفعه هذا الى مصيره المحتوم . وذاع حيناً ما ان عرفة قتل بنفس السلاح السحري الذي قتل به

سعد الله والجبلاوي . وفرح الجميع لقتله رغم مقتهم للناظر، وكثر الشامتون من أهل الفتوات وانصارهم ، فرحوا لمقتل الرجل الذي قتل جدهم المبارك وأعطى ناظرهم الظالم سلاحاً رهيباً يستدلهم به الى الأبد ! وبدا المستقبل قاتماً او اشد قتامة مما كان بعد ان تركزت السلطة في يد واحدة قاسية ، واختفى الأمل في ان ينشب بين الرجلين نزاع فيفضي الى اضعافها معاً ولجوء أحدهما الى أهل الحارة . وبدا انه لم يبق لهم الا الخضوع ، وأن يعتبروا الوقف وشروطه وكلمات جبل ورفاعة وقاسم أحلاماً ضائعة قد تصلح الحاناً للرباب لا للمعاملة في هذه الحياة .

ويوماً اعترض رجل أم زنفل وهي ذاهبة الى الدراسة فحيّاها قائلاً :
— مساء الخير يا أم زنفل .

فرمقته بنظرة لما عتمت أن قالت بدهشة :

— حنش !

فاقترب منها باسمًا ثم سأها :

— ألم يترك المرحوم شيئاً في مسكنك ليلة القبض عليه ؟

فقالت بلهجة من يقصد دفع الشبهة عن نفسه :

— لم يترك شيئاً ! رأيته يرمي بأوراق الى المنور ، فنسلت اليه في نهار اليوم التالي فعثرت بين القاذورات على كراسة لا فائدة منها ولا عابدة فتركتها ورجعت .

التمعت عينا حنش بنور عجيب وقال برجاء :

— مدّي لي يدك حتى أعثر على الكراسة :

فأجفلت العجوز وهي تهتف :

— ابعدوا عني ، لولا رحمة ربنا لهلك في المرة الماضية .

فأودع يدها قطعة من النقود حتى سكن فرعها ، وواعدھا آخر الليل حين تنام العيون . وفي الموعد المضروب تسلل بارشادها الى أسفل المنور . وأشعل شمعة ، وجلس القرفصاء بين اكوام الزبالاة وراح يفتش

على كراسه عرفة . فرز الاكوام ورقة ورقة وخرقة خرقه : وتخللت
اصابعه الرماد والتراب وبقايا المعسل وفتات الأطعمة المنتنة ، لكنه لم
يعثر على ضالته . وصعد الى أم زنفل فقال لها بيأس غاضب :
- لم أجد شيئاً .

فهتفت المرأة ساخطة :

- لا شأن لي بكم ! انكم تجيئون ثم تتبعكم المصائب !

- حلمك يا أمي !

- لم تترك لنا الأيام حلماً ولا عقلاً ، نجبرني ماذا يهلك في تلك

الكراسة ؟

فتردد حنش قليلاً ثم قال :

- انها كراسه عرفة .

- عرفة ! الله يسامحه . قتل الجبلوي ، ثم أعطى الناظر سحره

وذهب .

فقال حنش يحزن :

- كان من أولاد حارتنا الطيبين لكن الحظ خاناه ، كان يريد لكم

ما اراد جبل وعرفة وقاسم ، بل وأحسن مما أرادوا .

فحدجته المرأة بنظرة ارتياب ، ثم قالت بغية التخلّص منه :

- لعل الزبال اخذ الزباله التي تركت الكراسه فيها ففتش عنها

في مستوقد الصالحية .

وذهب حنش الى مستوقد الصالحية وسأل عن زبال حارة الجبلوي ،

ثم سأله عن زباله الحارة ، فسأله الرجل :

- تبحث عن شيء ضائع ! ما هو ؟

- كراسه ..

فلاحت في عين الزبال نظرة مريبة لكنه قال وهو يشير الى ركز

في الحجرة الملاحقة للحمام :

— أنت وحظك ، فاما نجدها عندك واما تكون في النار .
ومضى حنش يفش في الزبالة بصبر وأمل . لم يبق له من أمل في
الحياة الا تلك الكراسية . هي أمله وأمل الحارة . قتل عرفة السيء الحظ
مغلوباً على أمره ، لم يترك وراءه الا الشر وسوء السمعة ، فهذه الكراسية
جديرة باصلاح اخطائه والقضاء على اعدائه وبعث الآمال في الحارة
المتجهمه . واذا بالزبال يسأله :

— ألم تعثر على مطلوبك ؟

— أمهلني ربنا يكرمك .

فهرش الرجل أبطيه متسائلاً :

— ما أهمية الكراسية ؟

فقال حنش دفعاً للقلق الذي انتابه :

— فيها حسابات المحل وستراها بنفسك !

وواصل بحثه رغم تزايد مخاوفه ، حتى سمع صوتاً غير غريب
عنه يقول :

— أين قدرة الفول يا متولي ؟

ارتعدت فرائضه لدى سماع صوت عم شنكل بياع الفول بالحارة
لم يلتفت نحوه ولكنه تساءل في جزع : ترى هل لمحّه الرجل ؟ وهل
يحسن به ان يهرب ؟ وزادت سرعة يديه في التفتيش حتى بدا كالأرنب
الذي يحفر مأوى له .

وعاد عم شنكل الى الحارة ليقول لكل من يصادفه إنه رأى حنش
رفيق عرفة في مستودع الصالحية مكباً على التفتيش في الزبالة عن كراسية
كما اخبره الزبال . وما ان بلغ الخبر بيت الناظر حتى ذهبته قوة من
الخدم الى المستودع ولكنها لم تجد لحنش أثراً . ولما سئل الزبال قال :
إنه ذهب لبعض شأنه ، ولما عاد كان حنش قد ذهب ، ولم يدرك ان كان
عثر على ضالته أم لا . ولا يدري أحد كيف أخذ الناس يتهامون فيما

بينهم بأن الكراسة التي أخذها حنش ما هي إلا كراسة السحر التي أودعها عرفة أسرار فنونه وأسلحته ، وأنها ضاعت أثناء محاولته الحرب فحملت في الزبالة الى مستودع الصالحية حيث عثر عليها حنش . وانتشرت الاخبار من غرزة الى غرزة بأن حنش سيتم ما بدأه عرفة ثم يعود الى الحارة لينتمم من الناظر شر انتقام . وأكد الأقوال والظنون ان الناظر وعد من يجيء بحنش حياً أو ميتاً بمكافأة كبيرة كما أعلن ذلك رجاله في المقاهي والغرز . فلم يعد أحد يشك في الدور المنتظر ان يلعبه حنش في حياته . وارتفعت في الأنفس موجة استبشار وتفاؤل قذفت بعيداً بزبد القنوط والخنوع . وامتألت القلوب عطفاً على حنش في مهجره المجهول ، بل امتد العطف الى ذكرى عرفة نفسه . وتمنى الناس لو يتعاونون مع حنش في موقفه من الناظر لعلهم يحرزون بانتصاره عليه نصراً لهم ولحارثهم ، وضماناً لحياة خير وعدالة وسلام . وصمموا على التعاون ما وجدوا اليه سبيلاً باعتباره السبيل الوحيد الى الخلاص ، اذا كان من المسلم به انه لا يمكن التغلب على القوة السحرية التي يحوزها الناظر الا بقوة مثلها مما قد يعدها حنش . ونما الى علم الناظر ما الناس يتهامسون به فأوحى الى شعراء المقاهي ان يتغنوا بقصة الجيسلاوي ، وبخاصة مقتله بيد عرفة ، وكيف ان الناظر اضطر الى مهادنته ومصادفتها خوفاً من سحره حتى تمكن منه فقتله انتقاماً للجد الكبير .

ومن عجب ان تلقى الناس أكاذيب الرباب بفتور وسخرية ، وبلغ بهم العناد ان قالوا : « لا شأن لنا بالماضي ، ولا أمل لنا إلا في سحر عرفة ، ولو خيرنا بين الجبلاوي والسحر لاخترنا السحر » ؟

ويوماً بعد يوم مضت حقيقة عرفة تتكشف للناس . لعلها تسربت من ربع أم زنفل التي علمت بالكثير عنه من عواطف على عهد اقامتها عندها . ولعلها جاءت عن طريق حنش نفسه فيما كان يعرض للبعض عن مقابلته في الاماكن النائية . المهم ان الناس عرفوا الرجل ، وما

كان ينشده من وراء سحره للحارة من حياة عجيبة كالأحلام الساحرة، ووقعت الحقيقة من انفسهم موقع العجب فأكبروا ذكره ورفعوا اسمه حتى فوق اسماء جبل ورفاعة وقاسم . وقال أناس إنه لا يمكن ان يكون قاتل الجبلابي كما ظنوا ، وقال آخرون إنه رجل الحارة الأول والأخير ولو كان قاتل الجبلابي . وتنافسوا فيه حتى ادعاه كل حي لنفسه .

وحدث ان اخذ بعض الشبان من حارتنا يختمون تباعاً ، وقيل في تفسير اختفائهم إنهم اهتموا الى مكان حنش فانضموا اليه ، وانه يعلمهم السحر استعداداً ليوم الخلاص الموعود . واستحوذ الخوف على الناظر ورجاله ، فبثوا العيون في الأركان ، وفتشوا المساكن والدكاكين ، وفرضوا أقسى العقوبات على أتفه الهفوات ، وانهالوا بالعصي للنظرة أو النكتة أو الضحكة ، حتى باتت الحارة في جو قاتم من الخوف والحقد والارهاب لكن الناس تحمّلوا البغي في جلد ، ولاذوا بالصبر . واستمسكوا بالأمل ، وكانوا كلما أضرب بهم العسف قالوا : لا بد للظلم من آخر ، ولليل من نهار ، ولترين في حارتنا مصرع الطغيان ومشرق النور والعجائب .

روايات من
منشورات دار الآداب

* * *

- | | |
|--------------------|------------------------------|
| سهيل ادريس | - الحى اللاتيني |
| » | - الخندق الغميق |
| » | اصابعنا التي تحترق |
| حنا مينه | - بقايا صور |
| » | - الثلج يأتي من النافذة |
| » | - الربيع والخريف |
| جبرا ابراهيم جبرا | - البحث عن وليد مسعود |
| » | - السفينة |
| عبد الرحمن منيف | - النهايات |
| عبد الكريم غلاب | - صباح ويضحف الليل |
| نوال السعداوي | - امرأتان في امرأة |
| » | - موت الرجل الوحيد على الارض |
| » | - امرأة عند نقطة الصفر |
| حميدة ننع | - الوطن في العينين |
| غائب طعمة فرمان | - ظلال على النافذة |
| يحيى يخلف | - نجران تحت الصفر |
| عبد الرحمن الربيعي | - الافواه |
| شريف حتانه | - قصة حب عصرية |
| سحر خليفة | - مذكرات امرأة غير واقعية |